



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُورِيقِ الْقِزْبَاوِيِّ

المجلد الواحد والستون



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م



دار الشَّامِيتِ

للطباعة والنشر والتوزيع



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقِزْصِيَّائِيِّ



الْجُورُ السَّادِسُ

السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ وَعُلُومُهَا

١٠٩ في رحاب السنة
شرح أحاديث نبوية

١١٠ قطوف دانية
من الكتاب والسنة

١١١ نحو موسوعة للحديث الصحيح
مشروع منهج مقترح



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ

المحور السادس

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ وَعِلْمُهَا

١٠٩

فِي رَحَابِ السُّنَّةِ
شرح أحاديث نبوية

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾
[النجم: ١ - ٥].

﴿وَمَا ءَانِسُكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: كنتُ أكتب كلَّ شيءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أكتب كلَّ شيءٍ تسمعه؟ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فأوماً بإصبعه إلى فيه، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلَّا حقٌّ». رواه أحمد.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربنا ويرضى، وأزكى الصلوات والتسليمات على نبيِّ الرحمة، وهادي الأمة، ومأحي الظلمة: سيِّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبیبنا ومعلمنا: محمَّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه الغرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

(أمّا بعد)

فهذه نخبة من الأحاديث النبويّة الشريفة، ممّا ألقیته في مسجد الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني في الدوحة، في شهر رمضان، أوائل ما قدمت إلى قطر، سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، في دروس العصر.

وقد شرحت فيها جملة من الأحاديث تدور حول فضائل رمضان والصيام، وزكاة الفطر، وليلة القدر، كما تدور حول مجموعة من المعاني التربويّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة.

توخّيت في هذا الشرح أن يخاطب العقل والقلب، وأن يفهم العامة، ويُقنع الخاصة، وأن يربط الناس بالواقع الذي يمارسونه، وبالعصر الذي يعيشونه.

وكان من حسن حظي، ومن فضل الله عليّ: أنّ الإخوة الفنيّين في قسم الوسائل التعليمية في وزارة المعارف (التربية بعد) في قطر، قد حرصوا على أن يسجّلوا هذه الأحاديث، عسى أن ينتفع بها بعد ذلك من يريد.

وكنت أحسب أنّ هذه التسجيلات قد استُهلكت، ولم يبق منها شيء، ثمّ شاء الله أن أكتشف أنّ بعضها ما زال سليماً، ويمكن الانتفاع به.

وقد وجدت هذه المجموعة مكتوبة بخط تلميذي النجيب، وأخي الحبيب، الشاعر الأديب الأستاذ: محمّد حوטר^(١)، الذي كان يسجّل خطبي قديماً في المحلة الكبرى بمديرية الغربية بمصر، فلمّا جاء قطر مدرّساً للغة العربيّة، وذاع صيته في تدريس العربيّة، أبى إلّا أن يُبيّض لي كلّ ما يجده من أوراق، وكان منها هذه الأحاديث، ولا أدري من الذي أفرغها أولاً من التسجيل على الورق، أسأل الله أن يرحمه برحمته الواسعة، وأن يجزيه عني خيراً.

وبهذه المناسبة، أذكر إخوة كراماً، وزملاء أعزة، عاونوني في تبييض ما كنتُ أكتبه قبل عصر الكمبيوتر، ولا أزال أرى آثارهم عندي، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً، فادعوا الله بالمغفرة والرحمة للموتى، وادعوا بالصحة والسعادة والتوفيق للأحياء.

من هؤلاء: الابن النجيب والأخ الحبيب الشاعر الأديب: أحمد محمّد الصّدّيق^(٢)، شاعر فلسطين، والقضايا الإسلاميّة، والذي كان

(١) قد ترجمت لأخي محمد حوטר ترجمة وافية في كتابي: في وداع الأعلام ص ٨١١ - ٨١٤، نشر الدار الشامية، تركيا.

(٢) وافته المنية رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ الأحد ثامن عشر شعبان ١٤٣٨هـ - الموافق ١٤ مايو ٢٠١٧م.

يساعدني كثيرًا في تبيض ما أكتبه بخطِّي، الَّذي قلَّ من يحسن أن يقرأه، ولا سيَّما إذا كنت أكتب بسرعة وهو الغالب.

ومن هؤلاء: الأخ الشيخ محمَّد علي الموفي، مدرِّس اللغة العربيَّة المتمكن في المعهد الديني الَّذي كنت مديرًا له، وصاحب الخطِّ الأنيق، والَّذي عُيِّنَ مفتِّشًا للُّغة العربيَّة، ثمَّ أصابه حادث سيَّارة في قطر، عولج منها عدَّة أشهر، ثمَّ وافاه الأجل، رحمه الله رحمة واسعة.

ومنهم: الأخ الأستاذ رشدي عبد الغني المصري، مدرِّس اللغة العربيَّة المتميِّز بالمعهد أيضًا، والَّذي رُقِّيَ بعد ذلك مفتِّشًا، ولا يزال عندي كثير من آثاره حفظه الله.

ومنهم الأخ الداعية الأستاذ علي جمَّاز^(١)، مدرِّس العلوم الشرعيَّة بالمعهد، والَّذي تولَّى إدارة المعهد بعدي، وحصل على الدكتوراه، وعمل معي في كُليَّة الشريعة بجامعة قطر، وتُوفِّي في قطر، ودفن بها، رحمه الله وتقبَّله في الصالحين.

ومنهم الأخ الداعية الشيخ مصباح محمَّد عبده^(٢) صديق العمر، مدرِّس العلوم الشرعيَّة بالمعهد، والَّذي أدركه أجله في قطر، تغمَّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

أحبت أن أذكر هؤلاء تنويهاً بما قدَّموه لي من عون، فلا يشكر الله من لا يشكر النَّاس، وأدعو الله لهم أن يكرمهم أحياء، ويرحمهم أمواتاً ويرحمنا معهم. آمين.

(١) توفي رَحِمَهُ اللهُ عام ١٩٩٣م، وقد ترجمته في كتابي: في وداع الأعلام ص ٣٢٦ - ٣٢٩.

(٢) توفي رَحِمَهُ اللهُ عام ١٣٩٦هـ - الموافق ١٩٧٦م، وقد ترجمته في كتابي: في وداع الأعلام ص ١٧١ - ١٧٤.

المهمُّ أنني حين انتقلت إلى منزلي الجديد في «وادي السيل» بالدوحة، وقد أصبح لي مساعدون بعد أن ظللتُ معظم عمري أعمل وحدي، اكتشف الإخوة في «سكرتاريتي العلميّة» هذه الأحاديث في ملفها المظمور، وقالوا: لماذا تُطمر هذه ولا تنشر؟ إنَّها يمكن أن تفيد الشباب من الوُعَاظ والخطباء، والمدرّسين في دروسهم، وتمدُّهم بزايدٍ هم في حاجةٍ إليه. ووافقتُ على أن تُعدَّ للنشر بعد أن تخرَّج أحاديثها، وترقم آياتها، ويعلق عليها بما يقتضيه الحال، وأن يكتب لها مقدّمة مناسبة.

ولا غرو أن يلحظ القارئ لشروح هذه الأحاديث شيئاً من حماس الشباب واندفاعه، فقد كنتُ في ذلك الوقت عند بداية إلقائها لم أتجاوز الخامسة والثلاثين من عمري.

كما أنه سيجد بعض الأحاديث الضعيفة التي لا أرضى عنها الآن؛ لأنني حين ذاك لم أكن ملكتُ الخبرة الحديثية الكافية لمعرفة الصحيح من الضعيف، وكان يغلب عليّ أحياناً أسلوب الواعظ المؤثر أكثر من أسلوب العالم المحقّق.

وإن كنت بعد ذلك ناقشت هذه القاعدة، كما في مقدمتي لكتابي: «المنتقى من الترغيب والترهيب»، وكذلك في كتابي: «كيف نتعامل مع السُّنَّة»، وقد وضع أئمّتنا من قبل - ممّن رأى رواية الضعيف في الرقائق - شروطاً لروايتها وأضفت إليها ما يكملها.

ووجود هذه الأحاديث الضعيفة جعلني أتوقّف في نشر هذه المجموعة؛ لأنّها لا تتفق مع منهجي اليوم، ولكن الشباب الذين يعملون معي كلهم عارضوني، وقالوا: إنّ فيها معاني جيدة، وأفكاراً راشدة،

وتوجيهات نافعة، لا يجوز أن يُحرّم النَّاس منها، على أنّها تمثّل رؤيتك ومنهجك في وقت مبكر من حياتك، وهي تعطي أمثالنا أملاً في أنّ المرء يمكن أن يتطوّر ويتحسن. إلى آخر ما قالوا حتّى أقنعوني ونزلت على رأيهم، والخير فيما اختاره الله. وأرجو من الإخوة القراء أن يسيروا على منهجي الجديد في اعتماد الأحاديث الصحيحة.

وقد أبقيت هذه الأحاديث على الصورة الأولى التي شرحتها، وعلى الترتيب الذي ألقيت فيه هذه الدروس في رمضان، لتكون عوناً للخطباء والمدرّسين في شهر رمضان، حيث يقبل النَّاس على سماع الدروس، وحضور مجالس العلم بعد صلاة العصر، أو بعد صلاة التراويح.

ولهذا تجد أوّل الدروس في شرح أحاديث تتّصل بفضل الصيام وشهر رمضان، وتجد بعد ذلك شرح حديث النّيّة، مع أنّ الأصل أن يكون في أوّل الكتاب، ولكن أخّرتُه لمراعاة الموضوعات وتسلسلها الزمني، كما أنّي تكلمت عن ليلة القدر وفضائلها في الدرس العشرين للتذكير بفضلها والاستعداد لها في أوائل ليالي العشر الأخير من رمضان، كما أعدت التذكير بفضلها والاختلاف في تعيينها في الدرس السادس والعشرين الذي يوافق ليلة السابع والعشرين. وأرجو أن تكون هذه الدروس الرمضانيّة التي شرحت فيها هذه الباقية من الأحاديث النبويّة زاداً نافعاً للدعاة، وذخراً لي يوم المعاد، وأن ينفع بها كما نفع بخطبي وسائر كتبي.

وأنا منذ قدمت إلى قطر في سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م أداوم على هذه الدروس الرمضانيّة، كانت أولاً بعد العصر في مسجد الشيخ خليفة، وفي أثناء صلاة التراويح في مساجد شتّى، ثمّ انقطعت منذ بضع عشرة سنة

عن درس العصر، وبقي درس التراويح في التفسير، ولعلَّ بعض الإخوة يوفِّقه الله لجمع ما بقي أو ما سجل من هذه الدروس، فهي أكثر من ألف درس. ولا تخلو إن شاء الله من فائدة.

وأنوّه هنا بما قام به مكتبي بالدوحة، الَّذي يعمل فيه عدد من الإخوة، منهم: الأخ الشيخ أكرم كساب، والشيخ وليد أبو النجا، والأخ الشيخ أحمد المحمدي، الَّذي يعمل إمامًا وخطيبًا في مساجد قطر، وَالَّذي قام بطباعة هذا الملف، وتخريج أحاديثه، وإعداده للنشر، وراجع معي أكثره، جزاه الله وإخوانه خيرًا.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الدروس كلَّ مَنْ قرأها، أو أرشد إلى قراءتها، وأن يأجر كلَّ مَنْ ساهم في نشرها، وتعميم النفع بها. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

الدوحة في: جمادى الأولى ١٤٣١هـ

أبريل ٢٠١٠م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الدروس الرمضانية

أحمد الله إليكم الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة، سيّدنا محمد، صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله على آله وأصحابه، الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتّبعوا النور الذي نزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضوان الله على من دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾

[آل عمران: ٨].

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، سبحانه لا علم لنا إلا ما علّمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

(أمّا بعد)

فأحييكم أيّها الإخوة بتحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام. فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأهنتكم بهذا الشهر المبارك ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ
الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].
وأسأل الله تعالى أن يجعل حظنا من هذا الشهر، الرحمة، والمغفرة،
والعتق من النار.

ونعيش معاً أيُّها الإخوة، في هذا الشهر، في رحاب سُنَّة
رسول الله ﷺ، في رحاب السُّنَّة المحمَّديَّة، السُّنَّة التي أوتي صاحبها
جوامع الكلم، وجواهر الحِكم، واختصر له الكلام اختصاراً، وأدبه ربه
فأحسن تأديبه.

نعيش معاً في ظلال أحاديث النبي ﷺ، نقتبس منها الهدى، ونأخذ
منها النور الذي يضيء طريقنا إلى الله، ويأخذ بأيدينا إلى ساحة الرضوان.
والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *



الدرس الأول

إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة

روى الشيخان: البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رمضان، فُتِّحت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب النار، وصُفِّدت الشياطين»^(١).

وفي رواية للإمام مسلم: «فُتِّحت أبواب الرحمة، وغُلِّقت أبواب جهنم، وسُلسلت الشياطين»^(٢).

وفي رواية للترمذي وغيره: «إذا كان أوَّل ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين، ومردة الجنِّ، وغُلِّقت أبواب النار، فلم يُفْتَح منها باب، وفُتِّحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشرِّ أقصر. والله عتقاء من النار، وذلك كلَّ ليلة»^(٣).

رمضان متَجَرُّ أهل الإيمان:

هذا هو شهر رمضان، شهر تكثر فيه أسباب الخير، وتقلُّ فيه أسباب الشر، تفتح أبواب الرحمة، وأبواب الجنة، أي: تكثر الدواعي إلى الخيرات، وإلى الطاعات، وتقل الدواعي إلى الشر،

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩)، كلاهما في الصيام.

(٢) رواه مسلم في الصيام (١٠٧٩) (٢).

(٣) رواه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣)، ثلاثهم في الصيام.

وهو ما كُنِيَ عنه بتضييق أبواب النَّار، وتقييد الشياطين، وتصفيدها بالسلاسل والأغلال.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يتيح لعباده بين حين وآخر فرصًا كثيرة، يتقربون فيها إليه، ويقتربون فيها من ساحته، إِنَّهُ تَعَالَى يناديهم من بعيد، ويتلقاهم من قريب، إذا اقتربوا منه شبرًا، اقترب منهم ذراعًا، وإذا اقتربوا إليه ذراعًا، اقترب إليهم باعًا، وإذا أتوه يمشون أتاهم هرولة.

إِنَّهُ تَعَالَى يناديهم في كلِّ حين أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أن يقفوا على بابه، وأن يتمسَّحوا بأعتابه، وأن يقرعوا باب التوبة، مستغفرين قائلين ما قال أبوهم آدم وأُمُّهم حواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

تنوع الطاعات وتعدد الفرص:

في كلِّ يوم فرص للُقُرب من الله تَعَالَى، كما في الصلوات الخمس، التي هي معراج المؤمن، معراج يوميٍّ إلى الله تَعَالَى، حيث يقف المسلم بين يدي ربه في اليوم مرات خمسًا، يقف بين يدي الله يناجيه، فيناجي قريبًا غير بعيد، ويسأله، فيسأل كريمًا غير بخيل، ويستعين به، فيستعين بقويٍّ غير ضعيف، وعزيز غير ذليل، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فرص يومية للتعقُّب والتطهُّر.

وفرص أسبوعية تتمثل في يوم الجمعة وصلاة الجمعة.

الفرصة السنوية في مدرسة رمضان:

ثم فرصة سنوية تتمثل في هذا الشهر الكريم، في هذه المدرسة التي يفتحها الإسلام كلَّ سنة للمسلم، يتعلَّم فيها ويتدرَّب، ويتربَّى على حُسن

العبودية لله، على القيام بذكر الله تعالى وشكره، وحُسن عبادته، يتعلَّم فيها الصبر، ويتعلَّم فيها قوَّة الإرادة، يتعلَّم فيها كيف يعامل ربه، وكيف يثقف نفسه، وكيف يستعلي على تراب الأرض، حينما يتطلع إلى روحانية السماء.

إنَّ رمضان تُفتح فيه أبواب الجنَّة، وأبواب الخير، وتُغلق فيه أبواب جهنَّم، وأبواب الشرِّ، وتُصفَّد الشياطين، وينادي المنادي كلَّ يوم: يا باغي الخير أقبلْ وأبشِرْ، يا طالبَ الخير، أمامك الفرص متاحة، وأمامك الأبواب مُفتَّحة، أمامك الشهر من تقَرَّب فيه بنافلة كان كمن أدَّى فريضة في غيره، ومن تقَرَّب فيه بفريضة كان كمن أدَّى سبعين فريضة فيما سواه.

شهر تزداد فيه الحسنات، وتضاعف فيه أجور الطاعات، شهر من استطاع فيه أن يكسب فليكسب، ومن استطاع فيه أن يربح فليربح، والربح هنا ليس درهماً ولا ديناراً، إنَّه مغفرة وجنَّة، مغفرة من الله للذنوب، وتكفير للخطايا، «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»^(١)، «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»^(٢).

معنى «إيماناً واحتساباً»:

ومعنى الإيمان والاحتساب: أنَّه لا يصوم لمجرّد اتِّباع العادة، أو لمجرّد الخجل من النَّاس، ولا يقوم لمجرّد أنَّه يفعل كما يفعل غيره،

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

وإنَّما صيامه وقيامه إيمان وتصديق بوعد الله، وطلب للمثوبة والأجر من الله وحده، هذا معنى الإيمان والاحتساب... من صام إيمانًا واحتسابًا خرج بمغفرة لذنوبه، خرج من هذا الشهر كيوم ولدته أمه، وُلد ميلادًا جديدًا، متطهرًا متحررًا من الآثام والخطايا.

يا باغي الخير أقبل:

فرصة يُتيحها الإسلام للمسلم كلَّ عام في هذا الشهر الكريم، يناديه المنادي من قِبَل السماء: يا باغي الخير، يا طالب الخير، أقبل وأبشر، ويا طالب الشرِّ أَقْصِرْ، كفى ما فات.. كفاك أحدَ عشرَ شهرًا غفلة عن الله، كفاك غرقًا في لُجَّة الحياة.. انتشل نفسك من هُوَّة الحياة الدُّنيا، وارتفع إلى الحياة العليا، ضع يدك في يد الله. اعقد بينك وبين الله صلحًا. أكثر من الذكر والشكر والتسبيح والتهليل والتكبير.

يوصي النبي ﷺ أمته في هذا الشهر فيقول فيما يُروى عنه: «استكثروا فيه من أربع خصالٍ: خَصَلْتان تُرْضُون بهما رَبَّكُم، وَخَصَلْتان لا غناء بكم عنهما، أَمَّا الْخَصَلْتان اللَّتان تُرْضُون بهما رَبَّكُم: فَشَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ (التهليل والاستغفار)، وَأَمَّا الْخَصَلْتان اللَّتان لا غنى بكم عنهما: فَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَتَعَوَّذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ»^(١).

هذه هي الفرص التي يُتيحها الإسلام للمسلم في شهر رمضان، يستكثر من الذِّكْر والشُّكْر وحُسْن العبادَةِ، بحيث يزيد من رصيده عند ربِّه، ويُعوِّض ما فاتَه من غَفَلات العام، غَفَلات أحد عشر شهرًا، في شهر يضاعف الله فيه المثوبة، ويضاعف فيه الأجر.

(١) سيأتي تخريجه وشرحه في الدرس الثالث.



متجر أهل الإيمان:

ولهذا كان السلف يُسمُّون هذا الشهر: «متجر أهل الإيمان»، موسم المتقين، موسم يترقبونه كما يترقب تجار الدنيا مواسم الربح، ومواسم العمل، ليزيدوا فيها النشاط، ويضاعفوا فيها الجهد، عسى أن يكسبوا بعض الدراهم أو الدنانير أو الريالات أو الدولارات أو الجنيهات... بعض ما يتطلع إليه الناس ويسيل إليه لعابهم في هذه الحياة، وهو ربح - مهما ظنَّ الناس به - لا يبقى، سيزول عن قريب، وإن بقي أعوامًا، فإنَّ الإنسان لا يبقى له، الإنسان نفسه فانٍ وذاهب، وكلُّ ما في هذه الحياة فانٍ وذاهب: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

هذه هي فرصتكم أيُّها المسلمون، فيا بُغاة الخير، يا طلاب الثواب، يا عشاق الجنة، يا مَنْ يريدون سلعة الله الغالية... ها هي السُّوق قد فُتِحَتْ، ها هي الفرصة قد أُتِيحت، ها هي الأبواب قد فُتحت أمامكم فلجُّوها وادخلوها، واعملوا مع الله، ولن يترككم أعمالكم.

نسأل الله عَجَلًا أن يفتح قلوبنا لطاعته، وأن يُقوِّي عزائمنا على عمل الخير وخير العمل، وأن يجعل حظنا من هذا الشهر الكريم القبول والمغفرة والرحمة والعتق من النَّار، إنَّه سميعٌ قريب.



الدرس الثاني

كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصَّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزُفْتُ، وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ ^(١) أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرَحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرَحَ بِصَوْمِهِ» ^(٢).

إِضَافَةُ الصَّوْمِ إِلَى اللَّهِ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ:

في هذا الحديث القدسي يروي لنا النبي ﷺ، عن ربه ﻋَﻠَﻴْكَ، أَنَّهُ سَبِّحَانَهُ يَقُولُ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ».

إِضَافَةُ الصَّوْمِ إِلَى ذَاتِهِ تَقَدَّسَ وَتَعَالَى إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ. كَمَا يُقَالُ: بَيْتُ اللَّهِ، لِلْمَسْجِدِ أَوْ الْكَعْبَةِ، وَكُلُّ الْأَرْضِ لِلَّهِ ﻋَﻠَﻴْكَ. وَكَمَا يُقَالُ عَنْ نَاقَةِ صَالِحٍ: نَاقَةُ اللَّهِ، وَكُلُّ النُّوقِ وَكُلُّ الْأَشْيَاءِ إِنَّهَا هِيَ مَلِكُ اللَّهِ ﻋَﻠَﻴْكَ.

(١) الْخُلُوفُ بِالضَّمِّ (ضَمُّ الْخَاءِ) بِمَعْنَى تَغْيِيرِ الْفَمِّ، هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي صَرَّحَ بِهِ أَثَمَةُ اللَّعْطَةِ، وَحَكَى

بَعْضُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ فَتَحَهَا، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ الدَّمِيرِيُّ فِي شَرْحِ الْمَنْهَاجِ، وَأُظْهِرَ غَلْطًا، كَمَا صَرَّحَ بِهِ جَمَاعَةٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْفَتْحُ لُغَةٌ رَدِيئَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. تَاجُ الْعُرُوسِ مَادَّةُ خَلْفٍ.

(٢) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٠٤)، وَمُسْلِمٌ (١١٥١)، كِلَاهُمَا فِي الصَّيَامِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

عبادة لم يُعبد بها غير الله:

فالإضافة للتشريف والتكريم، وإنَّما كَرَّمَ الله الصوم، فنسبه إلى نفسه، دون العبادات كلها، لما لهذه الفريضة من خاصَّة لا توجد في غيرها.

هذه العبادة لم يُعبد بها غير الله سبحانه، كل العبادات قد عبت بها الآلهة المزيَّفة، والأصنام التي عبدها المشركون على مرِّ العصور.

الصلاة، كم جعلت لغير الله، فركع وسُجد لغير الله!

الدعاء، كم دُعي لغير الله!

القرابين والصدقات، كم قُدِّمت ونُذِرت لغير الله تعالى؟!

ولكنَّه لم يُعرف في تاريخ البشرية أنَّه قد صيم لغير الله تعالى.

هكذا قال العلماء.

وقالوا أيضًا: إنَّ في الصوم خصيصة لا توجد في غيره، وهو أنَّه لا رياء فيه، أي أنَّ فعل الصوم لا رياء فيه، حيث إنَّه مُجرَّد إمساكٍ وكفٍّ وامتناع.

والإمساك والامتناع لا يُرى، فهو شيء سلبي، لا يراه النَّاس، ولهذا لا تدخل المראה في الصوم، إلَّا إذا أخبر الإنسان عن نفسه أنَّه صائم.

أمَّا عمل الصوم نفسه، فليس ممَّا يُرى ولا ممَّا يُحسُّ.

أجر الصائم:

فالصوم عبادة خالصة لله ﷻ، فاستحقَّ أن ينسب إليه سبحانه إلى نفسه، ثمَّ هناك أمر آخر، وهو: ما في هذه العبادة من مشقَّة، حيث يُجيع الإنسان بطنه، ويظمئ نفسه، ويدع شهوته لله سبحانه.

وهذا ما جاء في الحديث الذي رواه ابن خزيمة في «صحيحه» وغيره: «كُلُّ عمل ابن آدم له، الحسنَةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله: إِلَّا الصيام فهو لي، وأنا أجزي به. يدعُ الطعام من أجلي، ويدعُ الشراب من أجلي، ويدعُ لذته من أجلي، ويدعُ زوجته من أجلي»^(١).

ومعنى هذا أَنَّ الله ﷻ، هو الَّذي يتولَّى جزاء الصائمين بنفسه، هو الَّذي يعطيهم بيده، والكريم إذا أخذ على نفسه أَنَّهُ هو الَّذي يعطي، ولا يدع ذلك لوكلائه ولا لخزَّانه، فَإِنَّهُ يُجزل، وعطاء الله لا حدَّ له، فهو أكرم الأكرمين، والغنيُّ الَّذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما.

تفاوت جزاء الأعمال:

الأعمال تتفاوت في جزائها، هناك عمل بعشرة أمثاله، وهناك عمل بسبعمائة ضعف، وهناك عمل بمثله، وهناك عمل لا يعلم جزاءه إِلَّا الله^(٢) إِنَّ الله قال في الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فثواب الصبر ليس له حساب يُعلم من كثرته، «والصوم نصف الصبر»^(٣). ومن هنا كان جزاء الصائمين لا حدَّ له^(٤).

(١) رواه ابن خزيمة في الصيام (١٨٩٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٧٨)، عن أبي هريرة.

(٢) فالمراد بقوله: «وأنا أجزي به»: أَنِّي أنفرد بعلم ثوابه وتضعيف حسناته.

(٣) رواه أحمد (٢٣٠٧٣)، وقال مخرَّجوه: صحيح لغيره. والترمذي في الدعوات (٣٥١٩)، وقال: حديث حسن.

(٤) ولا بدَّ من التنبيه إلى أَنَّ الصوم الذي هذا فضله وجزاؤه عند رب العالمين وهذا مقام صاحبه، إِنَّمَا هو الصوم الخالص لله ﷻ، السالم من شائبة المعاصي القولية والفعلية.



الصوم جُنة:

ثمَّ يقول النبي ﷺ في تتمة هذا الحديث مبينًا نوع الصيام الذي يستحقُّ أن يُنسب إلى الله، وأن يكون جزاؤه غير محدود عند الله سبحانه: «الصيام جُنة».

والجُنة: هي الدرع والثُّرس الذي يستتر به الإنسان في الحروب، حتَّى لا تتناوشه السهام والنبال، فهو يقي صدره، ويحفظ نفسه بهذه الجُنة. كذلك الصيام، كما جاء في الحديث: «الصيام جُنة أحكم من النَّار كجُنة أحكم من القتال»^(١)، وفي حديث آخر: «الصيام جُنة وحِصْنُ حَصِينٍ مِنَ النَّارِ»^(٢).

فهو درع يقي صاحبه من الإثم والمعاصي في الدُّنيا، ويقيه من النَّار في الآخرة، وهذا ما لم يخرق هذه الجُنة... كما جاء في الحديث: «وَالصَّوْمُ جُنة ما لم يخرقها»^(٣). وفي رواية: «الصيام جُنة لأحدكم، ما لم يخرقها». قالوا: وبم يخرقها يا رسول الله؟ قال: «بكذبٍ أو غيبة»^(٤).

(١) رواه أحمد (١٦٢٧٨)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن صحابه لم يخرج له سوى مسلم. والنسائي (٢٢٣٠)، وابن ماجه (١٦٣٩)، وابن خزيمة (١٨٩١)، ثلاثتهم في الصيام، عن عثمان بن أبي العاص.

(٢) رواه أحمد (٩٢٢٥)، وقال مخرّجوه: صحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠٧٦): هو في الصحيح خلا قوله: «وحصن حصين من النار» وإسناده حسن. عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٦٩٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٢٢٣٣)، وابن خزيمة (١٨٩٢)، كلاهما في الصيام، عن أبي عبيدة بن الجراح.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٤٥٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠١٢): رواه الطبراني في الأوسط وفيه الربيع بن بدر وهو ضعيف. عن أبي هريرة.

يخرق هذه الدرع بالغيبة، بالكذب، بالمعاصي التي تخذش الصيام، وتجرحه وتزيل آثاره.

فلا يؤدِّي إلى التَّقوى، التي هي ثمرة الصيام، وربَّها الله عليه في كتابه حيث يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

تأثير المعاصي على الصيام:

ومن هنا ذهبت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى أن من كذب أو اغتاب في صيامه، فقد أفطر، وعليه أن يعيد يوماً بدل هذا اليوم. وأخذ بهذا الإمامان: الأوزاعي والثوري (الأول إمام الشام، والآخر إمام العراق)، عملاً بما جاء في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(١). أي لا قيمة لصومه عند الله وعجل.

هذا هو قول هؤلاء الأئمة: عائشة وهذين الإمامين^(٢).

وقال جمهور الفقهاء: إنَّه ليس عليه أن يُعيد يوماً مكان هذا اليوم، ولكنه حُرِّم المثوبة والأجر... حُرِّم أجر الصيام، وما أخيب هذا الإنسان وما أضيعه، يظل طول اليوم جوعان ظمآن، ثم يأتي في النهاية ولا أجر له، ولا ثواب له^(٣)!

وهذا هو الخائب المحروم حقاً.

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: فيض القدير للمناوي (٢٥٠/٤)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ.

(٣) للمزيد راجع ما ذكرناه في كتابينا: فقه الصيام ص ١٠١ وما بعدها، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، وفتاوى معاصرة (٣٠٩/١، ٣١٠)، تحت عنوان: تأثير المعاصي على الصيام، نشر دار القلم، الكويت، ط ٩، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.



حفظ الصيام من الرفث والصخب:

ثم يقول النبي ﷺ: «فإذا كان يومُ صوم أحدكم، فلا يرفث، ولا يَصْخَبُ».

أي: عليه أن يحفظ صيامه من الرفث، وهو الكلام في الأمور الجنسية، وكلُّ كلام قبيح.

«ولا يصخب»: أي لا يصيح، ولا يرفع صوته على الناس! عليه أن يضبط أعصابه، ويملك نفسه، ولا يجعل صومه شجارًا ويومه قتالًا. لا، فإنما جعل الصوم لتربية الإرادة وتهذيب الأنفس.

ادفعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ:

«فإن سابه أحدٌ أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم»: أي لا ينبغي أن يقابل السيئة بالسيئة، وإنما عليه أن يقابل السيئة بالحسنة، ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤، ٣٥].

وإذا كان هذا في شأن الناس جميعًا، فهو في شأن الصائم أجدر وأولى.

من هنا علّمنا النبي ﷺ إذا دافعنا إنسان، أو شاتمنا ونحن صائمون؛ ألا نرد عليه الشتيمة بمثله، وأن نقول هذا القول: «اللهم إني صائم». وليكررها مرّتين إن شاء.

هل يقولها بلسانه أم يقولها بقلبه؟ أم يقولها بلسانه وقلبه معًا؟

الأولى أن يقولها بقلبه ولسانه، يقول ذلك لنفسه، يخاطبها به، ويخاطب صاحبه أيضاً، فيكف بذلك خصمه، ويكف بذلك نفسه عن الاستجابة لداعي الغضب، ولغريزة المقاتلة، التي تجعل من الإنسان سبعاً ووحشاً مفترساً.

ولا يليق بالصائم أن يتشاجر، وأن يتقاتل مع الآخرين، وأن يستجيب للغضب والشهوة. فهذا هو الصيام المقبول، وليس الذي يسب فيه الصائم الناس ويشاتمهم بدعوى أنه صائم، كأنما شرع الصيام ليُفسد الأخلاق!

خُلُوف فَمِ الصَّائِمِ:

هذا هو الصائم الذي يقبله الله، والذي حلف النبي ﷺ أنَّ خُلُوفَهُ أَطِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ.

وخُلُوفُهُ هِيَ رَائِحَةُ فَمِهِ الْمَتَغَيِّرَةِ مِنْ تَرْكِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ طَوْلَ النَّهَارِ، هَذِهِ الرَّائِحَةُ الَّتِي قَدْ يَنْفِرُ مِنْهَا بَعْضُ النَّاسِ، هِيَ أَطِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ^(١).

(١) قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجزيه الله في الآخرة، حتى تكون نكهته أطيب من ريح المسك. وقيل: بل ينال صاحبها من الثواب ما هو أفضل من ريح المسك عندنا». انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (١١٢/٤)، تحقيق د. يحيى إسماعيل، نشر دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. وهذه الأُطْيَبَةُ لريح خُلُوفِ الصَّائِمِ حاصلة في الدنيا وفي الآخرة، جمعاً بين أدلة الإمام العز بن عبد السلام، الذي رجَّح أنَّها في الآخرة، وأدلة الإمام الصلاح الذي رجَّح أنَّها في الدنيا، وإن كان قوله: «... عند الله يوم القيامة». يؤيد قول ابن عبد السلام.

وأجاب العلامة الفقيه ابن حجر الهيتمي عن سبب هذه الرائحة الطيبة: إنَّ لكون الصيام سرّاً بينه وبين ربّه في الدنيا، فأحب أن يظهره بإظهار أثره في الآخرة علانية للخلق، ليشتهر بفضل الصَّوْمِ، وتمتاز مراتبهم، جزاءً لإخفائهم صيامهم في الدنيا... وقيل: إنَّه إشارة إلى من عبَدَ الله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل، ينشأ من عمله آثار مكروهة للمتقي في الدنيا، =



للصائم فرحتان:

ثم ختم النبي ﷺ الحديث، بهذه البشارة للصائم بالفرحتين اللتين جعلهما الله للصائم يفرحهما: فرحة في الدُّنيا، وفرحة في الآخرة. فأما فرحة الدُّنيا فهي: «إذا أفطر فرح بفطره»: أي فرح بأنّه عادت إليه الحرّية في الأكل والشرب والتمتّع بطيّبات الحياة الدُّنيا، فيزول جوعه وعطشه، ويفرح أيضًا بأنّ الله وفّقه لإتمام صوم يوم من الفريضة المفروضة عليه، فهو فرح طبيعي، وهو فرح ديني أيضًا.

ثم تبقى الفرحة الكبرى يوم القيامة، حيث يفرح إذا لقي ربّه بصومه، إذا جازه الله، الذي يقول: «الصوم لي وأنا أجزي به». إذا نادته الملائكة فيمن تنادي: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. إذا فُتح له باب الرِّيان، الذي لا يدخل الجنّة منه إلّا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق، ولم يدخل منه أحد بعدهم^(١).

= وهي محبوبة لله وطيبة عنده، فأخبره بذلك للعالمين في الدنيا فيه تطيب لقلوبهم لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا. انظر: إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام لابن حجر الهيتمي ص ٦٦، ٦٧، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(١) إشارة إلى الحديث: «إنّ في الجنّة بابًا يقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد». متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢)، كلاهما في الصوم، عن سهل بن سعد.

الدرس الثالث

الأعمال بالنيَّات^(١)

روى الإمام البخاري عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢).

النية أساس العمل:

بهذا الحديث الشريف، بدأ البخاري جامعہ الصحيح، وبدأ به النووي كتابه المعروف بالأربعين النووية، وبدأ به كثير من أصحاب الحديث مصنفاتهم، دلالة على أنَّ معيار القبول للأعمال عند الله تعالى إِنَّمَا هو صلاح النية وصدق القصد: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»^(٣).

(١) راجع كتابنا: النية والإخلاص. وهو ضمن سلسلة: في الطريق إلى الله. وقد تحدثت فيه بالتفصيل عن النية وأهميتها، وعلاقتها بمقاصد الشريعة وأثرها في المباحات والعادات.. إلى غيرها من التفاصيل المهمة. نشر مكتبة وهبة، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٢) رواه الجماعة: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، عن عمر.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨٢٧)، عن أبي هريرة.

النِّيَّة هي الأساس، هي ميزان القبول عند ربّنا، فإنَّ الله لا يقبل من العمل إلَّا ما خلصت فيه النِّيَّة، وأريد به وجهه الكريم.

تفاوت إرادات النَّاس واختلاف بواعثهم:

إنَّ الأعمال تختلف قيمتها وموازينها ودرجاتها حسب النِّيَّة التي دفعت إليها وبعثت عليها، نِيَّة صالحة، أو نِيَّة فاسدة، هل تقصد وجه الله، أم تقصد مراعاة النَّاس! هل تقصد الدُّنيا، أم تقصد الآخرة! فإنَّ إرادات النَّاس تتفاوت، وإن بواعث النَّاس تختلف. كما قال الله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وعلى حَسَب الإرادة والقصد يكون الجزاء، ويكون الثواب، أو يكون الحرمان، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

هل يقصد الإنسان بعمله وجه الله، أم يقصد السمعة، ويقصد الثناء عند الناس؟! هذا أمر دقيق يجب على المسلم أن يحاسب نفسه عليه قبل كلِّ عمل.

منزلة الحديث:

من هنا جعل علماء الإسلام هذا الحديث: «إنَّما الأعمال بالنيَّات»، ربع الدين، أو ثلث الدين. وقال الإمام الشافعي: يدخل هذا الحديث في سبعين بابًا من الفقه^(١).

قال الإمام أحمد: أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث^(٢):

(١) انظر: مقدمة المجموع للنووي (١٦/١)، نشر دار الفكر.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣١٧/٢٥)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، الَّذِي رَوَاهُ عُمَرُ، وَحَدِيثُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: «الْحَلَالُ بَيْنٌ وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ»^(١)، وَالحديث الثالث الَّذِي رَوَتْهُ عَائِشَةُ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». أَيِ مُرَدُّودٍ عَلَيْهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ كَأَنَّهُ أَخَذَ هَذَا مِمَّا يُرَوَّى عَنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ: أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثٌ: أَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ، وَالْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، وَصَدَقَ النِّيَّةُ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ^(٣).

إِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ هُوَ: فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ، وَالِانْتِهَاءُ عَنِ الْمَحْظُورَاتِ، وَالْوَرَعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ. وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِلسُّنَّةِ أَوَّلًا، يُوَافِقُ ظَاهِرَ السُّنَّةِ، ثُمَّ أَنْ يَكُونَ بَاطِنُهُ مُقْصِدًا بِهِ وَجْهَ اللَّهِ. لَا قِيَمَةَ لِلْعَمَلِ، إِذَا قَصِدَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ.

إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ فَإِنَّ الْعَمَلَ الْمُبَاحَ يَصْبِحُ عِبَادَةً:

لِلنِّيَّةِ أَثَرُهَا فِي تَحْوِيلِ الْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمُبَاحَةِ إِلَى طَاعَةِ وَعِبَادَةِ. أَيِ: يَصْبِحُ أَكْلُكَ عِبَادَةً، وَشُرْبُكَ عِبَادَةً، وَسَعْيُكَ عَلَى الْمَعَاشِ عِبَادَةً، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا فِي الْحَيَاةِ عِبَادَةً، إِذَا صَدَقَ اتِّجَاهُكَ إِلَى اللَّهِ وَجَّكَ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا وَتَعَفُّفًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ، وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَوَجْهَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَمَنْ طَلَبَ

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْإِيمَانِ (٥٢)، وَمُسْلِمٌ فِي الْمَسَاقَاةِ (١٥٩٩).

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّلَاحِ (٢٦٩٧)، وَمُسْلِمٌ فِي الْأَقْضِيَةِ (١٧١٨).

(٣) جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحَكَمِ فِي شَرْحِ خَمْسِينَ حَدِيثًا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ لِابْنِ رَجَبٍ (٣٣٦/٢)، تَحْقِيقُ شُعَيْبِ الْأَرْنَؤُوطِ وَإِبْرَاهِيمَ بَاجِسَ، نَشْرُ مَوْسُئَةِ الرِّسَالَةِ، بَيْرُوتَ، ط ٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

الدُّنْيَا حَلَالًا مَفَاخِرًا مَكَائِرًا - أي لِكَثَرِ النَّاسِ وَيَفَاخِرُهُمْ وَيَسْتَكْبِرُ عَلَيْهِمْ - لَقِيَ اللَّهُ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»^(١).

وقد قال رسولُ الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «يا سعدُ، إِنَّكَ مَا تُنْفِقُ مِنْ نَفَقَةٍ تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ، إِلَّا كَانَ لَكَ بِهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَرْفَعُهَا إِلَى فَمِ امْرَأَتِكَ»^(٢).

الرجل يمازح امرأته، فيرفع إلى فمها اللقمة، إذا قصد بذلك وجه الله، أي قصد بذلك أن يطيب نفسها، ويعاشرها بالمعروف، كما جاء عن رسول الله ﷺ، وكما أمر به الدين، إذا قصد ذلك، كان له صدقة.

بل إِنَّكَ إِذَا اسْتَقَامَ اتِّجَاهُكَ، وَجَعَلْتَ حَيَاتَكَ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، يكون كل ما تفعله قربة لك عند الله، وصدقة تحسب في رصيدك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قالوا: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون فيها أجر؟ قال: «أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر؟ كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر»^(٣).

تستطيع أن تجعل حياتك كلها عبادة، وأن تكون الدنيا كلها محرراً كبيراً للمسلم، وميداناً مقدساً، فيكون كلُّ عملك جهاداً، وكلُّ عملك طاعةً وقربةً لله، إذا صحَّت النية.

(١) رواه ابن أبي شيبة في البيوع والأقضية (٢٢٦٢٥)، وأبو نعيم في الحلية (١١٠/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٨٩٠)، وضعف إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ٥٠٣، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الفرائض (٦٧٣٣)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

من آثار النِّيَّة الصالحة:

أولاً: النِّيَّة تجعل المباحات والعادات عبادات وقربات إلى الله.
ثانياً: النِّيَّة تصحح العمل الناقص، فإذا عملت عملاً، ولم تُتِمَّهُ، فإنَّ الله وَجَّلَ يَتِمُّهُ لك عنده، ويكتبه لك عنده، فقد قال الله وَجَّلَ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِجْدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

إذا خرج مهاجرًا وأدركه الموت، وقع أجره على الله، وثبت ثوابه عند الله، وإن لم يكمل الهجرة.

ثالثاً: بل إنَّ الإنسان ليكتب له العمل ولم يشرع فيه قط، ما دام قد ثبتت نيَّته عليه، فمن تعوَّد أن يقوم الليل ولكنه نام ليلة، فغلبته عيناه عن ورده، ولم يقم لصلاته، فإنَّ صلاته تكتب له، وتسجَّل له عند الله قائماً، كقيامه كل ليلة تماماً.

رابعاً: بل إنَّ الإنسان ليخطئ في العمل فتأتي النِّيَّة فتُصحِّحه له، فتكتبه له عند الله صحيحاً صواباً، كما روى البخاري عن النبي ﷺ: أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ قَبْلَنَا رَجُلٌ قَالَ: لَأَتُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ. فصادفه رجلٌ ظَنَّهُ فَقِيرًا، فَأَعْطَاهُ الصَّدَقَةَ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ! فخرج الليلة الثانية، وقال: لَأَتُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ. فصادفته امرأةٌ ظَنَّتْهَا مُحْتَاجَةً فَأَعْطَاهَا الصَّدَقَةَ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ! وعلى زانية! لَأَتُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ. فصادفه رجلٌ فأعطاه الصَّدَقَةَ، فكان هذا الرجل غنياً، فأصبح النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ. فقال الرجل ما قاله في كلِّ مرة: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ! وعلى زانية!



وعلى غنيٍّ! وكأنما أصابه همٌّ أن صدقته لم توضع في موضعها، ولم تُصادف من هو أهلٌ لها، فأتى في المنام، ف قيل له: «أما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة، وأما صدقتك على غنيٍّ فلعله يعتبر، فينفق ممّا آتاه الله»^(١).

ليعلم ذلك الغنيُّ أن في الناس من يتصدقون سرًّا، ويبدلون أموالهم في الليل والنهار، سرًّا وعلانية، كما قال تعالى في وصف المؤمنين^(٢)، فلعله يعتبر فينفق ممّا آتاه الله.

أي إن بركة النية الحسنة أدركت هذا العمل، ووجهته وجهة خيرة، حسب نية الرجل.

خامسًا: النية الصالحة تعظم العمل الصغير، ورضي الله عن ابن المبارك الذي قال: رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعظمه النية، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تُصغره النية^(٣).

النية الصالحة تُعظم العمل الصغير، وتُصحح العمل الخاطئ، وتكتب للإنسان العمل الذي لم يعمل، أو عمل بعضه ولم يكمله. وكذلك النية السيئة؛ فهي قد تكتب على الإنسان أعمالاً لم يعملها، فقد جاء في الحديث: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِخْلَافِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٧١/١).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١) ومسلم في الفتن وأشرار الساعة (٢٨٨٨)، عن أبي بكرة.

إنَّما الدُّنيا لأربعة نفر:

وقال النبي ﷺ: «إنَّما الدُّنيا لأربعة نفر: رجل آتاه الله مالًا وعلماً، فهو ينفق ماله في الخير آناء الليل وأطراف النَّهار، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فقال: لو أنَّ الله آتاني مثلما آتى فلاناً لفعلتُ وفعلتُ». أي مثلما يفعل من الخير، وعلمَ الله صدق نيَّته. قال النبي ﷺ: «فهما في الأجر سواء».

الرجل المنفق ماله حيث يحبُّ الله، والرجل الذي لا يملك درهماً، ويتمنَّى من كلِّ قلبه ومن أعماق نفسه صادقاً أن يفعل مثلما يفعل أخوه لو أوتي مثله، هذان صنفان.

وصنف ثالث: «آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً»، لم يؤته الحكمة، لينفق هذا المال كما يحبُّ الله ويرضى، فهو ينفقه في الشرِّ ويبخل به عن الخير، هذا الصنف الثالث.

الصنف الرابع: «رجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً، فقال: لو أنَّي أوتيتُ مثل فلان»، الَّذي ينفق ماله على اللهو الحرام والمتع الرخيصة والشهوات الدُّنيا، وملاذ الحياة المحرَّمة، لو أنَّي أوتيت مثله لتمتَّعت كما تمتع، وعلم الله منه أنه يقول ذلك من أعماق نفسه، يقول النبي ﷺ: «فهما في الوزر سواء»^(١).

الرياء يحبط الأعمال الكبيرة عند الله:

إنَّ للنيَّة عند الله قدرًا عظيمًا، أن يعمل الإنسان عملاً يريد به وجه الله، أو يريد به وجه النَّاس، الفیصل هنا هو النيَّة.

(١) رواه أحمد (١٨٠٢٤)، وقال مخرَّجوه: حديث حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨)، عن أبي كبشة الأنماري.

إِنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يخبرنا عن أوَّل ثلاثة تُسَعَّر بهم النَّار يوم القيامة، فإذا هم: رجل قرأ القرآن، وتعلَّم علم الدين، ليقول النَّاس عنه: إِنَّه قارئ أو عالم.

وآخر أنفق ماله وتصدَّق، ليقول النَّاس عنه: إِنَّه سَخِيٌّ كريم.

ورجل قاتل الكفار وقُتِل في المعركة، ليقول النَّاس عنه: إِنَّه شجاع.

فيقول الله للعالم: إِنَّمَا فعلتَ ليقول النَّاس: عالم. وقد قالوا. ويقول للمتصدَّق: إِنَّمَا تصدَّقتَ ليقولوا: جواد كريم. وقد قالوا. ويقول للمقاتل: إِنَّمَا قاتلتَ ليقال: شجاع. وقد قالوا. أخذت أجرك من النَّاس فلا أجر لك عندي^(١).

وليته حَبِطَ أجره فحسب، بل حَبِطَ أجره، وذهب ثوابه، ثمَّ تُسَعَّر به النَّار، والعياذ بالله.

إِنَّه زوَّر عمله على الله، فأراد الدُّنيا بعمل الآخرة، فأتلف نفسه، وضَيَّع أجره، واستحقَّ عقوبة التزوير والكذب على الله تعالى. الرياء يحبط الأعمال؛ لأنَّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصًا لوجهه.

الرياء من صفات المنافقين:

الرياء من صفات المنافقين، الَّذِينَ قال الله في شأنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، ومن صفات من يكذب بالدين ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، وأحمد (٨٢٧٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٢)، عن أبي هريرة.

ولا ينبغي للمؤمن أبدًا أن يتصف بصفات المنافقين والكافرين.

رأى سيّدنا عمر رضي الله عنه معاذ بن جبل يبكي على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحبُّ الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن حضروا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كلِّ غبراء مُظلمة»^(١).

الجنود المجهولون:

إنَّهم الأتقياء الأخفياء، الجنود المجهولون، الذين يعملون في السرِّ، لا يحبُّون أن يراهم النَّاس، ولا أن يطلع عليهم النَّاس، ولا أن يمدحهم النَّاس، هؤلاء هم أسس الحياة الصالحة.

خَفِيَ الْأَسَاسُ عَنِ الْعُيُونِ تَوَاضَعًا مِنْ بَعْدِ مَا رَفَعَ الْبِنَاءَ مَشِيدًا^(٢)
الأتقياء الأخفياء المخلصون، هم الذين يريدون الإسلام، هؤلاء هم الرجال الذين عليهم تقوم النهضات، وتقوم المجتمعات الصالحة، وتقوم الحياة الفاضلة، لا أولئك الذين لا يعملون عملاً، ولا يقدمون بذلاً، إلَّا إذا كان النَّاس سيرونه ويشهرونه، وسينقلونه في كل مكان، لا يا مسلمون.

إِنَّ النِّيَّةَ هِيَ مِيزَانُ الْقَبُولِ عِنْدَ اللَّهِ.

(١) سيأتي تخريجه ص ٣٩.

(٢) البيت لأحمد شوقي، كما في أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١١١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

سبب ورود الحديث:

روى ابن مسعود أنه كان فيهم رجل خطب امرأة يقال لها: أمّ قيس. فقالت له: لا أتزوّجك حتّى تهاجر مع المهاجرين من المسلمين. فاضطر الرجل أن يهاجر من أجل المرأة، فسمّاه الصحابة: مهاجر أمّ قيس^(١).

ولقد قال بعض المؤلفين: إنّ هذه الحادثة هي سبب ورود هذا الحديث^(٢)، ولهذا جاء فيه: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

كلُّ إنسانٍ ونبيّته:

«وإنّما لكلّ امرئ ما نوى». تريد النَّاس، خذ أجرك من النَّاس. تريد الله، انتظر الثواب من الله في الآخرة، وقد يُثيبك الله في الدُّنيا، وقد لا تريد أن يُطَّلَعَ على عملك، ولكنَّ الله بفضل منه يملأ الآفاق بذكرك، ويملأ الدُّنيا بالحديث عنك، حيث لا تقصد ذلك، ولا ينال ذلك من أجرك شيئاً.

(١) رواه الطبراني (١٠٣/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨٠): رجاله رجال الصحيح.

وقال ابن حجر في فتح الباري (١٠/١): إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن ابن مسعود.

(٢) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعينى (١٠٨/٢٤)، نشر دار إحياء التراث العربى،

بيروت. وتحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفوري (٢٣٤/٥)، نشر دار الكتب

العلمية، بيروت. وقال الحافظ ابن حجر: على رواية سعيد بن منصور لحديث مهاجر أم

قيس بقوله: وهذا إسناده صحيح على شرط الشيخين، لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سيق

بسبب ذلك، ولم أر في شيء من الطرق ما يقتضى التصريح بذلك. انظر: فتح الباري شرح

صحيح البخاري لابن حجر (١٠/١)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

النية أيها المسلمون:

بالنية تصلح الأعمال، وتكبر الأعمال الصغيرة وتعظمها، حتَّى إنَّ بعض النَّاس يوم القيامة يجد في صحيفته أعمالاً لم يكن فعلها؛ حجًّا، ولم يكن حجًّا. صدقة، ولم يكن تصدَّق. أعمالاً طيبة ما فعلها. فيقول: يا ربُّ، من أين هذه الأعمال؟ فيقول له: لقد عشتَ تقول: لو أنَّ لي مالاً لتصدَّقت به، لبنيتُ به مسجداً، لصنعتُ به شيئاً للأرامل والمساكين، لو أنَّ عندي مالاً لحججتُ بيت الله، لو أنَّي عندي علماً لنفعتُ به النَّاس، وفعلت كذا، وفعلت كذا. وعلم الله صدق ذلك منك، فكتبه لك في صحيفتك.

لم يفعل شيئاً، إلَّا النية.

نسأل الله ﷻ أن يجعل قلوبنا وأعمالنا خالصة له، وأن يُعيننا على شهوات أنفسنا، وأن يعيذنا من شرك السرائر، الشرك الخفي، الذي هو أخفى من ديب النمل، كما وصفه النبي ﷺ^(١).

* * *

(١) خطب أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل. فقام إليه عبد الله بن حزن، وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن ممّا قلت، أو لنأتين عمر، مأذون لنا أو غير مأذون. قال: بل أخرج ممّا قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم». رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني في الأوسط (٣٤٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٦٩): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان.

الدرس الرابع

اليسير من الرياء شرك

روى ابن ماجه والحاكم في «صحيحه»، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج يوماً، فوجد معاذ بن جبل يبكي عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: ما يبكيك؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اليسير من الرياء شرك، وإن من عادي أولياء الله فقد بارز الله بالمُحاربة، وإن الله يحبُّ الاتقياء الأخفاء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفتقدوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كلِّ غبراء مظلمة»^(١). صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التحذير من الرياء والتنويه بالمخلصين:

هذا الحديث - أيها الإخوة - يُحذّر من الرياء، ويحثُّ على الإخلاص، ويُنوّه بالمخلصين الذين لا يُريدون الدُّنيا، ولا يرجون ما عند النَّاس، وإنَّما يُوجِّهون همَّهم إلى ما عند الله عزَّ وجلَّ.

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩)، والحاكم في الإيمان (٤/١) وقال: صحيح لا علة له. وفي الرقاق (٣٢٨/٤) وصحَّحه، وأمَّا في زوائد ابن ماجه (١٤١٠)، فضعفه بابن لهيعة، مع أن الراوي عنه هو عبد الله بن وهب. والتحقيق: أنه إذا روى عنه أحد العبادلة - ومنهم ابن وهب - فحديثه مقبول، ويصححه كثير من المحققين. وكان الأولى أن يضعف في سند ابن ماجه بعيسى بن عبد الرحمن فهو متروك. وسند الحاكم في الموضع الأول ليس فيه ابن لهيعة ولا عيسى، فهو العمدة.

معنى الإخلاص:

والإخلاص هو إرادة وجه الله تعالى بالعمل، وتصفيته من كل شوب دنيوي، فلا يُلَازِم عمله ما يشوبه من الرغبات العاجلة للنفس، من إرادة مغنم، أو منصب، أو مال، أو منزلة، أو شهرة في قلوب الخلق، أو طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو اتباع هوى خفي، أو غير ذلك من العِلل والشوائب، الَّتِي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتِها هو إرادة ما سوى الله بالعمل كائنًا ما كان.

الإخلاص ثمرة التوحيد:

والإخلاص بهذا المعنى ثمرة من ثمار التوحيد الكامل، الَّذِي هو إفراد الله تعالى بالعبادة، لهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن هنا عدَّ النبي ﷺ الرياء - وهو ضدُّ الإخلاص - من الشرك، فقال في هذا الحديث: «اليسيرُ من الرياء شرك». وقال في غيره: «الرياء الشركُ الأصغر»^(١). وفي رواية «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»^(٢).

النيَّاتُ أَشَدُّ عَلَى الْعَامِلِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ:

وتصفية العمل من الشوائب والرغبات الدنيوية، ليس بالأمر الهين، كما يظن بعض النَّاسِ، فَإِنَّهُ انتِصَارٌ عَلَى الْأَنَانِيَةِ وَحُبِّ الذَّاتِ، وَفَنَاءٌ عَنِ

(١) رواه البزار (٣٤٨١)، والطبراني (٢٨٩/٧)، والحاكم في الرقاق (٣٢٩/٤)، وصَحَّحَ إِسْنَادَهُ، وَوَأَفَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

(٢) رواه أحمد (٢٣٦٣٠)، وقال مَخْرُجُوه: حديث حسن. والطبراني (٢٥٣/٤)، وَجَوَّدَ إِسْنَادَ أَحْمَدَ الْمَنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ (٥٠)، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (٣٧٥): رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرَجَّاهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (٩٥١)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ.

حظوظ النفس وأغراضها العاجلة، وهذا يحتاج إلى مجاهدة طويلة للنفس، ومراقبة دائمة لمداخل الشيطان إليها، وتنقية لها من عوامل الدَّغَل، وحب الجاه والظهور، وهي عوامل غَلَّابة، ذات سلطة وتأثير على النفس البشريَّة.

ولهذا سُئل بعض الصالحين: أيُّ شيء أشدُّ على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنَّه ليس له فيها نصيب. وقال غيره^(١): تخليص النِّيَّات أشدُّ على العاملين من جميع الأعمال.

بل بالغ بعضهم فقال: طُوبى لِمَن صَحَّتْ له خطوة واحدة لا يريد بها إلَّا الله تعالى^(٢). ومن النَّاس مَنْ تراه فتظُّنه يعمل للدين بحرارة وصدق، وأنَّه يعبد الله بإخلاص، بل ربَّما ظنَّ نفسه هو كذلك، فإذا فَتَّشْتَ في قلبه وسبرت حقيقة نواياه، وجدته طالب دنيا في ثوب صاحب دين، وقد لا يكون له مطمع من وراء هذا العمل الآن، ولكنَّه يأمل في الغد، ويأمل أن تستدير له الرياح.

إنَّ الله لا يقبل القلب المدخول، ولا يقبل العمل المدخول، كما قال ابن عطاء: إنَّ الله لا يحبُّ العمل المشترك، ولا القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبل عليه^(٣).

إنَّه يريد القلب الخالص والعمل الخالص: ﴿قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

(١) أيوب السخيتاني.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣٧٨/٤)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٣) الحكمة (٢٠٣) من الحكم العطائية. انظر: الحكم وشرحها لابن عباد ص ٢٩٤، تحقيق محمد عبد المقصود هيكمل، نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

من دلائل الإخلاص:

إن للإخلاص دلائل وعلامات كثيرة، تظهر في حياة المُخلص وسلوكه ونظرته إلى نفسه وإلى الناس.

إنَّ من دلائل الإخلاص:

مخافة الشهرة:

١ - أن يخاف الشهرة على نفسه ودينه، وخصوصًا إذا كان من أصحاب المواهب، وأن يُوقن بأن القبول عند الله بالسرائر لا بالمظاهر، وبالقلوب لا بالصُّور، وإنَّ إنسانًا لو طبقت شهرته الآفاق وهو مدخول النية، لم يُغْنِ عنه النَّاس من الله شيئًا، وهذا ما جعل كثيرًا من علماء السلف وصالحيه، يخافون على قلوبهم من فتنة الشهرة، وسحر الجاه والصيت، ويحذرون من ذلك تلاميذهم، فقد روى الإمام الغزالي من ذلك أشياء كثيرة.

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: ما صدق الله من أحب الشهرة. وعن خالد بن معدان أنَّه كان إذا كثرت حلقاته قام مخافة الشهرة^(١). ورأى طلحة قومًا يمشون معه نحوًا من عشرة: فقال: ذباب طمع، وفَرَّاش نار^(٢). وكان أبيُّ بن كعب يمشي مرة، وخلفه جماعة من النَّاس، ورآه عمر، فعلاه بالدَّرة. فقال أبيُّ: انظر يا أمير المؤمنين ماذا تصنع؟ فقال عمر: إن هذه ذلَّة للتابع، وفتنة للمتبوع^(٣). وهي لفظة عُمرية نفيسة، لما قد تحدثه

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٤٦)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٢٧٦/٣).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٥١).

هذه المظاهر البسيطة في بدايتها من عواقب وآثار بعيدة الغور في نفسيّة الجماهير التابعة والقادة المتبوعين.

هكذا ينبغي للمؤمن أن يحرص وأن يخاف على نفسه من هذا كله، والله تعالى لا يقبل النَّاس بشهرتهم ولا بجاههم، ف«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١)، «إِنَّ اللَّهَ يَحُبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا»^(٢).

اتِّهَامُ النَّفْسِ:

٢ - أَنَّ الْمُخْلَصَ يَتَّهَمُ نَفْسَهُ دَائِمًا بِالتَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَالتَّقْصِيرِ فِي آدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، وَلَا يُسَيِّطِرُ عَلَى قَلْبِهِ الْغُرُورُ بِالْعَمَلِ وَالْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ، بَلْ هُوَ دَائِمًا يَخْشَى مِنْ سَيِّئَاتِهِ بَأَلًا تُغْفَرُ، وَيَخَافُ عَلَى حَسَنَاتِهِ أَلَّا تُقْبَلَ، وَقَدْ بَكَى بَعْضُ الصَّالِحِينَ فِي مَرَضِهِ بَكَاءً شَدِيدًا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ عُرَّادِهِ: كَيْفَ تَبْكِي؟ وَأَنْتِ الَّتِي صُمْتَ وَقُمْتَ، وَجَاهَدْتَ وَتَصَدَّقْتَ، وَحَجَجْتَ وَاعْتَمَرْتَ، وَبَلَغْتَ وَذَكَّرْتَ؟ فَقَالَ: وَمَا يَدْرِينِي أَنْ شَيْئًا مِنْ هَذَا فِي مِيزَانِي، مَا يَدْرِينِي أَنْ هَذَا مَقْبُولٌ عِنْدَ رَبِّي، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وَالتَّقْوَى فِي الْقُلُوبِ، مَا يَدْرِينِي أَنَّنِي مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى تُتَقَبَلَ مِنِّي هَذِهِ الْأَعْمَالُ.

وقد سألت السيِّدة عائشةُ رسولَ الله ﷺ، عَمَّنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: أَهْمُ الَّذِينَ يَسْرِقُونَ وَيَزْنُونَ وَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهُمْ يَخَافُونَ اللَّهَ وَجَلَّ؟ فَقَالَ:

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) وقال: حسن. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٨)، عن أنس بن مالك.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٩.

«لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصَّدِّيق، ولكنَّه الَّذي يُصلي ويصوم ويتصدَّق ويخاف الله وَجَلَّ، ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]»^(١).

ومن صفات المُخلص أن يكون العمل الصامت أحبَّ إليه من العمل الَّذي يحفُّه ضجيج الإعلام وطينين الشهرة، إنَّه يؤثر أن يكون من الجماعة كالجذر من الشجرة، الجذر قوامها وحياتها، ولكنَّه مستور في باطن الأرض لا تراه العيون، أو يكون كالأساس من البناء.

خفي الأساس عن العيون تواضعًا من بعد ما رَفَعَ البناء مَشِيدًا^(٢)

العمل بعيدًا عن الأضواء:

٣ - ومن صفات المُخلص لله: أن يستوي عنده العمل قائداً والعمل جندياً، ما دام في كلا الأمرين خدمة دينه، وإرضاء ربه، فلا يستولي على قلبه حب الظهور، وتصدُّر الصفوف، والرغبة في الزعامة، واعتلاء المراكز القيادية، بل ربَّما أثر الجندية، خشية التفريط في واجبات القيادة، وتبعات التصدُّر، وعلى كل حال لا يحرص على شيء، ولا يطلب الزعامة لنفسه، ولكن إذا حُمِّلها حملها، واستعان الله على القيام بحقها، وقد وصف النبي ﷺ هذا الصنف من النَّاس فقال: «طوبى لعبد آخذ بعِنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مُغَبَّرَةٌ قدماه، إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة»^(٣). أي حيث وُضع عمل.

(١) رواه أحمد (٢٥٢٦٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في التفسير (٣١٧٥) وسكت عنه. وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣٧)، عن عائشة.

(٢) سبق عزوه ص ٣٦.

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

ألا يطلب المدح من الغير ولا يغتر به:

٤ - ومن صفات المُخلص بعد ذلك ألا يبالي برضا النَّاس، إذا كان من وراء رضاهم سخط الله **وَعَلَّك**، فإنَّ النَّاس يختلفون أشد الاختلاف في أمزجتهم وتفكيرهم وميولهم وأهدافهم، ولهذا يقول الشاعر^(١):

وَأَيُّ النَّاسِ يُرْضِي كُلَّ نَفْسٍ؟ وَبَيْنَ هَوَى النَّفُوسِ مَدَى بَعِيدٍ
وقال آخر^(٢):

إِذَا رَضِيتُ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِئَامُهَا
تُرْضِي زَيْدًا فَتُغْضِبُ عَمْرًا، وتحاول أن تكسب هذا إلى جانبك، فيبعد ذاك عنك، إذن فاعملْ على إرضاء الله، ولا تبالِ بالنَّاس، ما دام الله معك، ورضي الله عَمَّن تمثّل بقول الشاعر أبي فراسِ الحَمْدَانِي يمدح الأمير سَيْف الدولة^(٣):

وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابٌ
فجاء الصالحون فخاطبوا به الله تعالى، وهو أحقُّ من يخاطب بهذا الشعر:
فَلَيْتَكَ تَخْلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غِضَابٌ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابٌ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ^(٤)

(١) هو الشاعر والأديب اللبناني ناصيف اليازجي.

(٢) من شعر أبي العيْناء محمد بن القاسم، قاله للمتوكل العباسي، كما في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (١٧٧/١)، نشر دار الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.

(٣) في بائيته الشهيرة التي مطلعها: أَمَا لجميل عندك ثواب؟! انظر: ديوانه ص ٤٨، شرح د. خليل الدويهي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

(٤) انظر: ديوان أبي فراس الحمداني ص ٤٨.

هؤلاء الجنود المجهولون، الأتقياء الأخفياء، هم الذين تقوم بهم الدعوات، وتنتصر بهم الرسالات، وتنهض بهم الأمم. هم الذين لا يسعون من أجل ذواتهم أو من أجل أنفسهم، وإنما يعملون لله، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

كن كصاحب النقب:

انظروا إلى هذا النموذج الحيّ، يروي الأصمعي أنه حينما حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً، فندب الناس إلى نَقَبٍ نَقَبَ فيه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش غير معروف ولا مشهور، فدخل هذا النقب مع ما يتعرّض له من الهلاك والموت، دخله وهجم على الكفار، وفاجأهم وفتح الباب للمسلمين، ففتحه الله عليهم. فنادى مسلمة أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد. فنادى: إنني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمتُ عليه (يعني أقسمت عليه) إلا جاء. فجاء رجل، فقال للحاجب: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، وأدلكم عليه.

فأتى مسلمة وأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يفرض عليكم ثلاثة شروط: أولها: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة. والثاني: ألا تأمروا له بشيء، لا جائزة ولا مكافأة. والشرط الثالث: ألا تسألوه من هو.

قال مسلمة القائد: فذلك له. قال الرجل: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلّي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب^(١).

(١) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٦/٥٨)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.



هذا هو الجندي المُخلص، هؤلاء هم المخلصون، هؤلاء هم الأتقياء
الأخفياء، الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، قُلُوبُهُمْ
مَصَابِيحُ الْهَدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غِبْرَاءٍ مَظْلَمَةٍ.

هَمُّ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، وَيَرْضَى عَنْهُمْ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَنَا حَظًّا مِنَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ، إِنَّهُ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

* * *



الدرس الخامس

إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُلُ كُلُّهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ. وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ^(١).

معنى الطَّيِّب:

الطَّيِّب هنا بمعنى: الطاهر النظيف، والله تعالى طاهر مُنَزَّه مقدَّس، إِنَّهُ تَعَالَى مُتَّصِفٌ بِكُلِّ كَمَالٍ، مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ.

«اللَّهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»، فهو لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَقْوَالِ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَقَائِدِ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا مَا كَانَ طَيِّبًا.

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩).

الكلمة الخبيثة لا تقبل عند الله، والعمل الخبيث لا يقبل عند الله، والإنسان الخبيث لا يقبل عند الله، وكل هذه الأشياء تنقسم إلى طيب وخبيث: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

الكلمة الطيبة هي التي تقبل عند الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

الإنسان الطيب والإنسان الخبيث:

والإنسان الطيب مقبول عند الله، والإنسان الخبيث مرفوض مكروه من الله، لا يدخل الجنة إلا طيب، ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، هنالك يدخل عليهم خزنة الجنة محييين مكرمين قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. أما ذو القلب الخبيث، والعمل الخبيث، والاعتقاد الخبيث؛ فهيها هيهات أن يرد ماء الجنة، أو يأكل من ثمارها، لا بد أن يُطَيَّب قلبه ويَطَهَّره، إمَّا بماء الدموع والتوبة في الدنيا، وإمَّا بنار الآخرة.

لا يقبل الله ما لا خبيثًا:

والله لا يقبل من العمل إلا ما كان طيبًا، وخاصّة الصدقة، فإن الله لا يقبل إلا الطيب من الصدقات، فإذا اكتسب الإنسان ماله من سُحت،

من خبث، من حرام، فإنَّ الله سبحانه لا يقبل منه صدقة يتصدقها، وكيف يقبل صدقة من مالٍ خبيث؟! إنَّ الإسلام لا يقول لمن كسب المال من السُّحت والحرام: تصدَّق به، وأنفقه في سبيل الله. بل يقول له: طهِّر مالك أولاً... رده على أصحابه، رده إلى مَنْ ظلمتهم وأخذت منهم هذا المال بغير حق. ولهذا روى الإمام مسلم، عن النبي ﷺ قوله: «لا تُقبل صلاةٌ بغير طهور، ولا صدقةٌ من غُلُول»^(١). والغُلُول: هي الخيانة، والأخذ من المال العام بغير حق، كمال الغنائم، ومال الدولة، وغير ذلك.

إنَّ الإسلام لا يقول لمن اكتسب مالاً من حرام: طهِّره بإخراج زكاته، ربع عشره أو نحو ذلك. ولكن يقول: أخرج به كله عن ملكك، وأعدّه إلى أهله، إلى أصحابه؛ فهم أحق به، ولا تجب الزكاة عليك فيه؛ لأنَّه ليس ملكك ولا مالك، والزكاة إنَّما هي فرع الملك: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

الصدقة بالخبيث جزاؤها النار:

فَمَنْ أَخَذَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَنْفِقَهُ فِي الْخَيْرِ، مِثْلَ أَنْ يَبْنِيَ بِهِ مَسْجِداً أَوْ يَعْمَلَ بِهِ مَشْرُوعاً خَيْرِيًّا، أَوْ يَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى يَتِيمٍ أَوْ مُسْكِينٍ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ أَبَداً. وَقَدْ قِيلَ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: مِثْلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَمَنْ أَخَذَ مَالَ يَتِيمٍ وَكَسَا بِهِ أَرْمَلَةً^(٢). أَي: إِنَّ مَالَ الْيَتِيمِ مَنْ أَكَلَهُ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا، وَسَيَصِلُ سَعِيرًا، فَكَيْفَ يَأْخُذُ الْمَالَ بِغَيْرِ حَقٍّ، لِيَكْسُو بِهِ أَرْمَلَةً!؟

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٤)، وأحمد (٤٧٠٠)، عن ابن عمر.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢٦٤/١).

لِيُطْبَ مطعمه أولاً، وليبحث عن كسبه أولاً، وهذا الكسب يجب أن يكون حلالاً.

ولهذا جاء في الحديث الشريف: «مَنْ كَسَبَ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ، وَكَانَ إِضْرُهُ عَلَيْهِ»^(١).

الوزر والعقاب عليه، وليس له أجر ولا ثواب في هذه الصدقة، ولا في ذلك الإنفاق؛ لأنَّه في الحقيقة يتصدق بغير ماله، وبغير ما يملك، لأنَّ الحرام لا يُملك.

الحرام لا يُملك:

مهما ظلَّ الحرام في حوزة مَنْ وضع يده عليه بغير حق، ولو امتدَّ ذلك السنين الطوال، فَإِنَّ مُضَيَّ الزَّمَنِ فِي الْإِسْلَامِ لَا يُجِلُّ الْحَرَامَ، وَلَا يَبِيحُ الْمُحْظُورَ، وَلَا يَسْلُبُ السَّرْقَةَ صِفَتَهَا الْأُولَى.

بعض القوانين الوضعية تنصُّ على أَنَّهُ إِذَا مَرَّ عَلَى الْمَلِكِ غَيْرُ الشَّرْعِيِّ مَدَّةً تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ وَهُوَ فِي يَدِ صَاحِبِهِ، يَصْبَحُ مِلْكًا لَهُ، وَيُتَغَاذَى عَنْ أَصْلِ هَذَا الْمَالِ!!

ولكن الإسلام لا يعتبر ذلك أبداً، ولا يعتبر مالاً أصله حرام، ولا يعتدُّ به مهما طال الزمن.

الصدقة لا تطهر المال الحرام:

المال الحرام مهما تصدَّقَ بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْ أَنْفَقَ، أَوْ أَسَّسَ بِهِ مَشْرُوعَاتٍ لِلْبِرِّ وَالْخَيْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُهَا.

(١) رواه ابن خزيمة (٢٤٧١)، وابن حبان (٣٢١٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والحاكم (٣٩٠/١)، وصحَّح إسناده، ثلاثتهم في الزكاة، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧١٩)، عن أبي هريرة.

روى الإمام أحمد، عن ابن مسعود، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يَعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يَحِبُّ وَمَنْ لَا يَحِبُّ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلَمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ - وفي رواية: لَا يُسْلَمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ (بفتح الياء) - وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بِوَأَثْقَهُ». قالوا: وما بَوَائِقُهُ؟ قال: «غَشُّهُ وَظُلْمُهُ». ثمَّ قال: «وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيَتَصَدَّقَ بِهِ فَيَقْبَلَ مِنْهُ، أَوْ يَنْفَقَهُ فَيَبَارِكَ لَهُ فِيهِ، أَوْ يَتْرَكَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَإِنَّمَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ»^(١).

فإذا كسب الإنسان ماله من حرام، ثمَّ أراد أن يطهِّره بالصدقة، فهذا كمن يغسل القاذورات بالبول، لا يمكن أن يطهَّر القذر بهذا النجس.

إِنَّ الصَّدَقَةَ تَنْفَعُ إِذَا كَانَتْ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ - بِمِثْلِ أَوْ بِقِيَمَةِ تَمْرَةٍ - مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا طَيِّبًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيْهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلُوَّهُ - أَيِ الْمُهْرِ الصَّغِيرِ - حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ جَبَلٍ أُحُدٍ»^(٢).

(١) رواه أحمد (٣٦٧٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وضعَّف شاکر إسناده في تعليقه على المسند، لضعف الصباح، الذي اتهم برفع الموقوفات. وابن أبي شيبة في مسنده (٣٤٤)، والبخاري (٢٠٢٦)، قال الذهبي في الميزان (٣٠٦/٢): رفع حديثين هما من قول عبد الله، أي ابن مسعود، أحدهما هذا الحديث. وقال الهيثمي في المجمع (١٧٦٩٧): رواه أحمد، ورجاله وثقوا، وفي بعضهم خلاف. وقال في موضع آخر (١٨١٠٤): رواه البخاري، وفيه من لم أعرفهم. ولذا أقول: الأولى اعتبار الحديث موقوفًا، وإن كان له حكم الرفع.

(٢) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.



أَمَّا الكسب الحرام، فإنه لا يزوج عند الله، ولا يقبل عند الله.

أن يكسب الإنسان ماله من سُحت، من غصب، من سرقة، من رشوة - وإن أخذ بصورة العمولة أو الهدية - أن يكسب أمواله من تلك الوجوه الخبيثة والموارد المنتنة، ثم يحاول أن يضحك على الله، فيأتي لينفق ويتصدق، فإن الله لا يضحك عليه، ولا يزوج عنده الزيف، وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

رُوي في الحديث: «إذا خرج الرجل حاجًا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز، فنادى: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. ناداه مناد من السماء: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، زَادُكَ حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور. وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى: لَبَّيْكَ. ناداه مناد من السماء: لا لَبَّيْكَ ولا سَعْدَيْكَ، زَادُكَ حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور»^(١).

إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، فَطَيَّبُوا مَطَاعِمَكُمْ وَمَكَاسِبَكُمْ أَوَّلًا.

المرسلون والمؤمنون في طلب الحلال سواء:

ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]».

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٨)، وضعف إسناده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٦١/١). وقال الهيثمي في المجمع (١٨١٠٣): فيه سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف. عن أبي هريرة.

لقد أمر الله الفريقين أن يأكلوا من الطيبات، فإنَّ الخبيث مهما حلا في الفم، واستساغه الذوق، ومهما طيبه الطُّهارة، فإنَّه خبيث عند الله، وعاقبته في النَّار، وصاحبه إنَّما يأكل في بطنه نارًا. والعياذ بالله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي اشكروه على نعمه، وعلى طيباته، وعلى أن وفقكم إلى أكل الحلال، كما قال تعالى لأهل سبأ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

من شروط إجابة الدعاء أكل الحلال:

لا يريد الله من النَّاس إذا أكلوا طيبات الحياة، وتمتّعوا بزيينة الله التي أخرج لعباده والطيبات والمستلذات من الرزق، إلَّا أن يشكروا له هذه النعمة.

فإذا أكل النَّاس طيبًا وشكروا لله وعملوا صالحًا، ثمَّ دعوا الله، فإنَّ الله تعالى أهل للإجابة، وقد قال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فمن شروط إجابة الدعاء أن تكون وقافًا عند حدود الله، تفعل ما أمر الله به، وتجتنب ما نهى الله ﷻ عنه، أن تكون بحيث لا يفتقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك. وأهمُّ ما يتجلَّى فيه ذلك: أن يطيب مطعمك، فلا تأكل إلَّا ما يحلُّ لك. أمَّا أن تنغمس في المحرَّمات، وأن تتورَّط في المعاصي، وأن تكون حياتك كلها حرامًا في حرام، ثمَّ تدعو؛ فإنَّ الله لا يقبل مثل هذا الدعاء.

أكل الحرام يمنع إجابة الدعاء:

ولهذا ذكر النبي ﷺ لنا نوعاً من النَّاسِ، «يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يقول: يا ربِّ، يا ربِّ». ولكنَّ الله لا يستجيب له. مع أنَّ هناك دواعي لإجابة الدعاء، فإنَّ السفر وغربة الإنسان عن وطنه، وغيبته عن أهله، مدعاةٌ لإجابة الدعاء، ومظنة لصعود الدعاء واستجابته. دعوة الغائب الغريب المسافر من الدعوات القريبة الاستجابة من الله، فما بالك إذا أطال السفر، وحاله هذه الحال المذكورة في الحديث (أشعث أغبر)؟! أي: تبدلت حاله، وتبدلت هيئته، وضاع الرونق والجمال.

مثل هذا يكون قريباً من الله، كما في الحديث: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١). وفي رواية: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ اللَّهُ لِأَبْرَهُ»^(٢). فإنَّ الله لا يعامل النَّاسَ بالمظاهر، ولا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى السرائر والقلوب. فهذا الموصوف في الحديث بأنَّه يطيلُ السفر أشعث أغبر، أدعى إلى أن يُستجاب له. وبخاصَّة أنَّ هذا السفر كما يبدو منه سفر طاعة، كسفر الحجِّ أو العمرة، أو على الأقل سفر لأمر مشروع، ككسب العيش.

ثم من دواعي إجابة الدعاء أن يمدَّ الإنسان يديه، ورفع اليدين مبسوطتين دليل المسكنة، ودليل الحاجة إلى الله، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبَتَيْنِ»^(٣).

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٣.

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (١٤٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٦) وقال: حسن غريب، ورواه =

ثم من دواعي الإجابة أن يقول: يا ربّ، يا ربّ!

بهذا الاسم الحبيب إلى الرحمن، أي إنه هو الربّ، المالك، الرازق، المُنعم، المُربّي، ويكرّر هذا ويلجّ على الله.

ولهذا كان الصالحون والأنبياء والمؤمنون يبدؤون دعاءهم بهذا: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ١٠]، ﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].. وهكذا... بهذا اللفظ، لفظ الربوبية.

فمع هذه الدواعي كلها: إطالة السفر، والشُّعث والغبرة، ورفع اليدين إلى السماء، ومع الإلحاح، وتكرار: يا رب، مع هذا كله لا يستجاب دعاء ذلك الرجل، لماذا؟! لأنه - مع تلك الأسباب - جاء بموانع أخرى، تحول دون الإجابة.

لا بدّ من أجل حصول الشيء أن تنهياً أسبابه، وتزول موانعه، وهنا مانع منع الإجابة، وهذا المانع أنه يعيش من الحرام، وحياته مملوءة بالحرام، متوسّع في الحرام، أكلاً وشرّباً ولُبساً وتغذيةً، كله حرام في حرام. ولهذا قال النبي ﷺ: «مأكُلُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرامٌ، وغُذِّي بالحرام». فكيف يستجيب الله له؟

= بعضهم ولم يرفعه. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٥)، وابن حبان في الرقائق (٨٧٦)، وقال الأرناؤوط: حديث قوي. والحاكم في الدعاء (٤٩٧/١) وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. عن سلمان الفارسي.

إنَّنا إذا عرفنا ذلك - أيُّها المسلمون - عرفنا لماذا ندعو فلا يستجاب لنا^(١)؟

لأنَّ حالنا أصبح كالحال الذي ذكره النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «يأتي على النَّاس زمانٌ لا يُبالي المرءُ ما أخذ، أَمِنَ الحلال أم من الحرام؟»^(٢).

وكثيرًا ما نسمع أناسًا يقولون في هذه الأيام: «حرام أكلناه، حلال أكلناه». بغير اكتراث ولا مبالاة.

وقد كان السلف يدقُّقون: من أين هذه اللقمة؟ ومن أين هذا الدرهم؟ ومن أين هذا الدينار؟! فلا يقبل لنفسه إلا ما كان حلالًا زلالًا.

أمَّا نحن فنأخذ من كلِّ ما هبَّ ودبَّ، ولا نبالي أكان هذا من الحلال أم كان من الحرام؟

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع إجابة الدعاء:

والله تعالى لا يقبل من عبادٍ ارتكبوا الحرام، وانتهكوا الحرمات، واقترفوا الموبقات، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال النبي ﷺ: «والَّذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عذابًا منه، ثمَّ تدعون فلا يستجاب لكم»^(٣). وفي رواية: «والَّذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف،

(١) وقد خطبت في ذلك خطبة بعنوان: «لماذا لا يستجيب الله دعاءنا؟»، انظر كتابنا: خطب الشيخ القرضاوي (٢٧٤/٣ - ٢٨٤)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٣٣٠١)، وقال مخرَّجه: حسن لغيره. والترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وقال: حديث حسن غريب. عن حذيفة.

وَلْتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شَرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ
فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١).

حتى الخيرون رُفِضَتْ دَعَوَاتُهُمْ؛ لِأَنَّ الْفُسَادَ قَدْ عَمَّ، وَالْخَبْثَ قَدْ طَمَّ،
وَالشَّرُّ قَدْ انْتَشَرَ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾
[الأنفال: ٢٥].

فَلَا بَدَّ أَنْ نَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ نُطَهِّرَ الْقُلُوبَ، وَأَنْ نُطَهِّرَ الْمَكَاسِبَ،
وَأَنْ نَعِيشَ بِالْحَلَالِ، وَنَقْنَعَ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْحَلَالِ، فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ مِنَ
الْحَرَامِ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَكَانَ أَصْلُهُ مِنَ الْحَرَامِ.

إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَهْلٌ أَنْ يَجِيبَ دَعَوَاتِنَا، وَإِلَّا فَهِيَ هِيَ هِيَ أَنْ
يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَنَا دَعَاءً، مَهْمَا أَلَمَّتْ بِنَا الْمُلَمَّاتُ، وَأَحَاطَتْ بِنَا الْمُدْلَهَمَّاتُ.

نَحْنُ نَدْعُو إِلَهَ فِي كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ نَنْسَاهُ عِنْدَ كَشْفِ الْكُرُوبِ
كَيْفَ نَرْجُو إِجَابَةً لِدَعَاءٍ قَدْ سَدَدْنَا طَرِيقَهَا بِالذُّنُوبِ^(٢)؟

* * *

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٣٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٣٤): رواه الطبراني
في الأوسط والبخاري وفيه حبان بن علي وهو متروك، وقد وثقه ابن معين في رواية وضعفه
في غيرها. عن أبي هريرة.

(٢) من شعر أبي غانم القصري، كما في الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض (١٠٥/١)، تحقيق
ماهر زهير جرار، نشر دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الدرس السادس

ذمُّ الغضب

روى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سأله رجل فقال: يا رسول الله، أوصني. فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب»^(١).
«لا تغضب»^(١).

وسأل ابن عمرو رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ماذا يباعدني من غضب الله؟ فقال: «لا تغضب»^(٢).

وعن أبي الدرداء، أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: دُلّني على عملٍ يُدخلني الجنة. فقال: «لا تغضب»^(٣).

وصية متكررة:

هذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعددٍ من أصحابه، أوصاهم ألا يغضبوا، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه دائماً بحُسن الخلق، الذي هو أثقل شيءٍ في الميزان يوم القيامة، وها هنا يدلُّهم على بابٍ عظيمٍ من مكارم الأخلاق، وهو: ترك الغضب، وكفُّ النَّفس عند الغضب.

- (١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦)، عن أبي هريرة.
- (٢) رواه أحمد (٦٦٣٥)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩٨٥): رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث، وبقيّة رجاله ثقات.
- (٣) رواه الطبراني في الأوسط (٢٣٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩٩٠): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأحد إسنادي الكبير رجاله ثقات.

عدم الغضب هو حسن الخلق:

روى محمد بن نصر المروزي، أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، من قبل وجهه، فقال: أي العمل أفضل؟ فقال: «حُسن الخُلُق». ثمَّ أتاه عن يمينه فقال: أي العمل أفضل؟ قال: «حُسن الخُلُق». ثمَّ أتاه عن شماله فقال: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «حُسن الخُلُق». ثمَّ أتاه من بَعْدِهِ - يعني من خلفه - فقال: أيُّ العمل أفضل؟ فقال النبي ﷺ: «ما لك لا تفقه؟ حُسن الخُلُق، هو ألا تغضب ما استطعت»^(١).

فهذا هو أفضل العمل، وهذا هو حُسن الخلق: «ألا تغضب ما استطعت».

حكمة الله سبحانه في خَلْق غريزة الغضب والشهوة في الإنسان:

إنَّ الله قد رَكَّب في الإنسان غريزة الغضب، كما رَكَّب فيه غريزة الشهوة، لحكمة يعلمها الله، فبالشهوة إلى الطعام يضرب في الأرض، ويسعى ويطلب الرزق، ويعمر هذه الأرض.. وتستمر الحياة.

وكذلك الشهوة الجنسيَّة، هذه الغريزة تدفع الإنسان إلى أن يُشبعها بالزواج، فيأتي النسل، ويستمرَّ هذا العمران، وتتحقَّق إرادة الله في بقاء هذا النوع الإنساني، إلى ما شاء الله.

ورَكَّب الله في الإنسان الغضب، غريزة بها يُدافع عن نفسه، ويدفع عن حرَماته، ولكن كل شيء إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى ضده، فإذا استسلم الإنسان للشهوة، أو استسلم للغضب، خرج عن طور الرُّشد الإنساني، وأصبح حين يستسلم لشهوته كالبهيمة، وحينما يستسلم لغضبه كالسَّبُع، كالوحش المفترس.

(١) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٧٨)، عن أبي العلاء بن الشخير. مرسلاً.



ضبط الإرادة:

لهذا أوصى الدين الإنسان أن يكون ضابطاً لزاماً نفسه، قادراً على شهوته، وعلى غضبه، مُتحكماً في هواه.

الراشد من الناس هو الذي يضبط إرادته، بحيث يسيطر على الغرائز ويستعلي عليها، ويحكمها وفقاً لأوامر الله وإرشاده.

الشديد من يملك نفسه عند الغضب:

هذا هو المؤمن، وهذا هو المُتَّقِي، وهذا هو الإنسان القويُّ الشديد بحق، فقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «ما تعدُّون الصُّرعة فيكم؟». قالوا: الذي لا يصصره الرجال (أي هو الرجل القوي الشديد الذي لا يُغلب). فقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

القدرة على ضبط النفس، والتحكم في زمامها، هذه والله هي القوة، وهذه وايم الله هي الشدة.

لَيْسَ الشُّجَاعُ الَّذِي يَحْمِي مَظِيَّتَهُ يَوْمَ النَّزَالِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَشْتَعِلُ
لَكِنْ فَتَى غَضٍّ طَرْفًا أَوْ ثَنَى قَدَمًا عَنِ الْحَرَامِ، فَذَاكَ الْفَارِسُ الْبَاطِلُ^(٢)

ملك اللسان واليد عند الغضب:

من هنا أوصى النبي ﷺ بكفِّ النفس وكبح جماحها عند الغضب، وليس معنى هذا أن الإنسان ليس له أن يغضب أو ينفعل، فهذا لا يملكه الإنسان، إنما يملك الإنسان ألا يستسلم لغضبه، ولا يسترسل مع

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩)، عن أبي هريرة.

(٢) ذكرهما ابن الجوزي غير منسوبين في ذم الهوى ص ١٤٣، تحقيق مصطفى عبد الواحد.

غريزته، ولا يطلق لها العنان، فيترك لسانه عند الغضب يسبُّ ويشتم، ويترك يده تبطش وتؤذي، ويسلُّ سيفه ويشهر سلاحه. لا، وإنما يُؤمر المؤمن إذا غضب أن يكفَّ نفسه، وأن يملك لسانه، وأن يكفَّ يده عن البطش والإيذاء.

وقد سأل رجلُ سَلْمَانَ الفارسي فقال: إني لا أملك نفسي إذا غضبت. فقال له: فاملكُ لسانك ويدك^(١). أي إذا كنت لا تسيطر على نفسك، لا تستطيع أن تكبح هياج غضبك وانفعالاتك، فإنك تملك لسانك وتملك يدك، فلا ينطق لسانك بسوء، ولا تمتد يدك بشرٍّ أو بسوءٍ أو بإيذاء.

كظم الغيظ من صفات المتقين:

هذا هو الذي يُؤمر به المؤمن، أن يكظم غيظه، وقد وصف الله المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

يقول الرسول ﷺ: «ما تجرَّع عبد جرعة أفضل عند الله ﷻ من جرعة غَيْظٍ يَكْظُمُهَا ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٢)، جرعة مُرَّة لا يستسيغها الإنسان، كالعلقم، ولكن أجرها عظيم عند الله، يقول ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِنْفَازِهِ مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ رِضًا»، وفي رواية: «أَمْنًا وَإِيمَانًا»^(٣).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦١٠)، تحقيق أبو إسحاق الحويني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.

(٢) رواه أحمد (٦١١٤)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٨٩)، عن ابن عمر.

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٥٨)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

إنسان قادر على الانتقام، ولكنه مع هذا تجرّع هذه الجرعة المرة، جرعة الغيظ، وكظم غيظه، وحبس نفسه، وكفّ لسانه ويده، إنسان كهذا يملأ الله قلبه أماناً وإيماناً يوم القيامة.

إذا تذكرت غضبك على النَّاس، فتذكر غضب الله عليك، تذكر غضب الله وَجَلَّ، يوم يقوم النَّاس لرب العالمين، وتذكر قدرة الله عليك، إذا كنت قادراً على مَنْ دونك، واكظم غيظ نفسك، كما كان الصالحون يفعلون، يكظمون غيظهم، ويعفون عمن أساء إليهم.

كان السلف يُشتم أحدهم، فيقال له: يا أحمق، يا فاسق، يا كذا. فبماذا يردون؟ يقول أحدهم لمن شتم وسب: يا هذا إن كنت صادقاً بأنّي فاسق أو ظالم أو مرأءٍ كما تقول، فأرجو من الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فأرجو من الله أن يغفر لك^(١).

ادفع بالتي هي أحسن:

وبهذا، فكأنما تُلقِي ذَنْباً من ماء على نار الغضب فتطفئها، فإذا هو لا يحير جواباً، ولا يجد قولاً يلفظه، بل يبرد ويسكن، ويعتريه الصمت والخجل بهذا الحلم، وبهذا العفو، وبهذه النفس المطمئنة، تنقلب عداوة النَّاس إليك محبةً لك، ونفورهم منك ألفةً ومودةً لك: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس (٤٩)، عن أنس، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر

دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

علاج الغضب:

إنَّ الغضب نزغة من الشيطان، ونخسة منه، يُثير الإنسان بها ويستفزُّه، فإذا هو يصبح كالوحش، بعد أن كان إنساناً هادئاً؛ فالغضب من الشيطان، فإذا نزغ الشيطان في نفسك ونخسك، فلا تستسلم له، واستعد بالله منه.

استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، وكان أحدهما يسبُّ وهو مُغضب قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي لأعرفُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم»^(١).

أثر الاستعاذة عند ثورة الغضب والشهوة:

إنَّ مجرد هذه الكلمة تُذهب الشيطان الذي ينفخ في النفس، ويتحكم بالإنسان عند الغضب وعند الشهوة، فقد رُوِيَ أَنَّ إبليس يقول: ابن آدم، إِنَّكَ مهما أعجزتني فلن تعجزني في حالين: عند شهوتك وعند غضبك، إذا انتهيت سرُّ حتى أكون في قلبك، وإذا غضبت سرُّ حتى أكون في رأسك.

فالشيطان يتحكم في الإنسان عند الشهوة وعند الغضب، وتستطيع أن تقهر الشيطان وأن تذله، وأن تُضعف كيده، إذا قلت هذه الكلمة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

إنَّ الشيطان بمثابة كلبٍ هائج، ولن يدفع الكلب عنك، إلا إذا لجأت إلى صاحبه، فهو القادر على أن يبعده عنك ويخلصك منه.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٢) ومسلم في البر والصلوة (٢٦١٠)، عن سليمان بن صُرد.



الرجوء إلى الوضوء:

وكذلك ممّا يُذهب كيد الشيطان ومكره ونزغه ونخسه، أن يلجأ الإنسان إلى الوضوء، فقد قال ﷺ، فيما رواه عروة بن محمّد السَّعدي، وقد أغضبه رجل وسبّه فقام، ودخل البيت، ثمّ توضّأ وعاد، وقال: حدثني أبي، عن جدي عطية، أنّ النبي ﷺ قال: «الغضبُ من الشيطان، والشيطانُ خُلِقَ من نارٍ، وإنّما تُطفأُ النَّارُ بالماءِ، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ»^(١).

وهذه عمليّة نفسيّة، وهي من أحدث ما وصل إليها التربويون في علاج هذه الغريزة الضارية، أن يُغيّر الإنسان من وضعه الَّذي هو عليه عند الغضب، فلو ذهب ليتوضّأ، ويصب الماء على جسده، أطفأ نار الغضب المشتعلة في داخله، ويعود بنفسٍ غير النفس، وبحالةٍ غير الحالة الأولى.

عن أبي مسلم الخولاني، عن معاوية بن أبي سفيان، أنّه خطب النَّاس وقد حبس العطاء شهرين أو ثلاثة، فقال له أبو مسلم: يا معاوية، إنّ هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك ولا مال أمك. فأشار معاوية إلى النَّاس أن امكثوا، ونزل فاغتسل ثمّ رجع، فقال: أيُّها النَّاس، إنّ أبا مسلم ذكر أنّ المال ليس بمالي ولا مال أبي ولا مال أمي، وصدق أبو مسلم، إنّني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضبُ من الشيطان، والشيطان من النَّار، والماءُ يُطفئ النَّار، فإذا غضب أحدكم فليغتسل». اغدّوا على أعطيّاتكم على بركة الله^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧٩٨٥)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٧٨٤)، عن عطية السعدي.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٣٠/٢)، نشر مكتبة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، وقال العراقي في تخريج الإحياء ص ٨٢٢: فيه من لا أعرفه.

تغيير الإنسان من وضعه عند الغضب:

وكذلك يقول النبي ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع»^(١).

فعلى الإنسان أن يُغيّر من وضعه حين الغضب، على وفق ما أمر الرسول ﷺ، وذلك جدير بأن يذهب الغضب ويُطفئ جمرته، فإن الإنسان إذا استسلم للغضب حقيق بأن يوقعه في الأفعال المحرمة والأقوال المحظورة، فيوقعه في السب والشتم والفحش والبذيء من القول، وسيوقعه في الضرب والإيذاء والبطش، بل قد يجرّ إلى القتل، كل هذا من جرّاء الغضب.

فالإنسان عليه أن يعالج هذه الغريزة العاتية بمثل ما أوصت به الأحاديث: بالجلوس، بالاضطجاع، بالاغتسال، بالوضوء، بأن يُغيّر وضعه، وأقل ما يفعله أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأدنى من ذلك كله ما أوصى به النبي ﷺ: «إذا غضب أحدكم فليُسكّت»^(٢).

إمساك اللسان عند الغضب:

وعلى الإنسان ساعة غضبه أن يمسك لسانه، أي عليه أن يضبط لسانه؛ لأنّ اللسان هو الذي يجلب المصائب، فإنّ كلامه يجرّ شيئاً وراء شيء، وتشتعل النار وتكون الخصومات، ويكون الحقد، ويكون الحسد،

(١) رواه أحمد (٢١٣٤٨)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات رجال الصحيح. وأبو داود في الأدب (٤٧٨٢)، عن أبي ذر.

(٢) رواه أحمد (٢١٣٦)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٥)، والطبراني (٣٣/١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩٩٣): رجال أحمد ثقات؛ لأنّ ليثاً صرح بالسماع من طاوس. وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٣٧٥)، عن ابن عباس.

وأصل ذلك كله شُعلة الغضب، هذه الفورة الأولى تُسبب نزاعًا، تهاجرًا، تقاطعًا بين الأخ وأخيه، بين الصديق والصديق، بين القريب وقريبه، بين الأسرة والأسرة، بين القرية والقرية، وأصل ذلك ثورة الغضب، أو نخسة الشيطان، ﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة:

كان رسول الله ﷺ، المثل الخُلقي للمسلمين في حُسن الخلق، وكان لا يغضب إلا لله، وإذا غضب كف نفسه.

خدمه أنس بن مالك الأنصاري عشر سنين، والخادم هو الذي يتعرّض لغضب سيده، فهو عشرة الليل والنهار، فالمُصابحة والمُخالطة جديرة بأن يكون فيها ما يُغضب، وبأن يكون فيها ما يستفز النفس، ولكن يقول أنس: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، في السفر والحضر، ما قال لي شيء صنعتُه لم صنعت هذا هكذا؟ ولا شيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا؟^(١).

وهكذا وصفه أصحابه أنه: لم يكن يغضب إلا لله، فإذا انتهكت حرّات الله، لم يَقُمْ لغضبه شيء^(٢)، وما ضرب بيده خادمًا ولا امرأة، ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩).

(٢) رواه الترمذي في الشمائل (٢١٥)، نشر دار إحياء التراث، بيروت. من حديث هند بن أبي هالة في وصف النبي ﷺ، وفيه: ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، وأحمد (٢٤٩٨٥)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٤)، عن عائشة.

أغضبته جارية يوماً، فقال لها مهدداً وقد أبطأت عليه في أمرٍ يحتاجه: «والله لولا القصاصُ يومَ القيامةِ، لأوجعتُكِ بهذا السَّوَاكِ»^(١). بالسَّوَاكِ لا بالسوط والعصا، ومع ذلك لم يفعل خشية القصاص يوم القيامة حين يُقتَصُّ للشاة الجماء من الشاة القرناء^(٢)، وحيث يُنصَفُ كلُّ مظلوم. لولا القصاص في ذلك اليوم لأوجعها بالسَّوَاكِ رسولُ الله ﷺ، فيا للخلق الرفيع! ويا للنبل والسُّمو العجيب!

وجاءه رجل وهو يقسم الغنائم يوماً، وكان أعرابياً لم يهذبهُ الإسلام، فقال: يا محمد، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. فتغيَّر وجه النبي ﷺ، ثم قال: «رحم الله أخي موسى، لقد أُوذي أكثر من هذا فصبر»^(٣).

وفي الصحابة والتابعين قدوة:

فهذا هو رسول الله ﷺ. وأصحابه من بعده كانوا يتأسَّون به، فإذا غضب أحدهم حلم، وإذا أسيء إليه عفا، وكذلك كان التابعون لهم بإحسان.

حدَّثوا أنَّ جارية لعلِّي بن الحُسَيْن تَسْكُب عليه الماء، فتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجَّه، فرفع عليُّ بن الحُسَيْن رأسه إليها، فقالت الجارية: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٨٤)، وأبو يعلى (٦٩٤٤)، والطبراني (٣٧٦/٢٣)، وجوَّد إسناده الهيثمي في المجمع (١٨٤١١)، وضعَّفه الألباني في الصحيحة (٤٣٦٣)، عن أم سلمة. ولكن القود (يوم القيامة) ثابت بأحاديث أخرى صحاح.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٢)، وأحمد (٧٢٠٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٦٣٣٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢)، عن ابن مسعود.

فقال لها: قد كظمتُ غيظي. قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. فقال لها: قد عفا الله عنك. قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال: اذهبي فأنت حرة^(١).

وكان الأحنف بن قيسٍ مَمَّنْ يُضْرَبُ به المثل في الحلم، وقيل له: مَمَّنْ تعلمتَ الحلم؟ فقال: تعلَّمْتُهُ من قيس بن عاصم، كانت جارية له تحمل سُقُودًا من حديد، فوقع منها على ولده الصغير، فعقره، فمات، فدهشت الجارية واضطربت. فقال الرجل: لا يُسَكَّنْ رَوْعُهَا إِلَّا العتق. فقال لها: اذهبي فأنت حرة لا بأس عليك^(٢).

هؤلاء هم الحكماء، الذين كادوا من حلمهم أن يكونوا أنبياء.

إنَّ الله وصف المتقين بكظم الغيظ، ووصفهم بالمغفرة عند الغضب، فقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كِبْرَ الْأَيْثِمِ وَالْفَوْحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

تلك هي أخلاق الإسلام، أيها المسلمون.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٦٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٧/٣).

الدرس السابع

كن في الدنيا كأنك غريب

روى البخاري في «صحيحه»، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، أنه قال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وكان ابن عمر يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخُذْ مِنْ صَحْتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ^(١).

أهمية تذكّر الآخرة:

إِنَّ مَشْكَالَةَ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَحْيَوْنَ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ خَالِدُونَ، يَظُنُّونَ أَنَّ الْحَيَاةَ لَهُمْ دَائِمَةٌ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَائِمَةً، فَهَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ الْمَوْتَ عَنْهُمْ بَعِيدٌ، وَدَوَاءَ هَذَا كُلُّهُ أَنْ يُقَصِّرَ النَّاسُ مِنْ آمَالِهِمْ، وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا الْآخِرَةَ، وَيَجْعَلُوهَا نُصَبَ أَعْيُنِهِمْ. وَمَنْ أَجَلَ هَذَا يُوَصِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَ عَمْرٍ بِقَوْلِهِ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

فإن من الخطر أن يتخذ الإنسان الدنيا دار إقامة، أن يتخذها وطنًا دائمًا، ويحسب أن لا رحيل له عنها، هكذا يُفَكِّرُ، وهكذا يظن في نفسه، وهكذا يُعامل الناس.

إِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، لَا دَارُ مَقَرٍّ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، عن ابن عمر.

المؤمن الصالح مؤمن آل فرعون وهو يدعو قومه إلى الله: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

الحياة الدُّنيا متاع، بل متاعٌ قليل، بل متاع الغرور. والآخرة هي دار القرار، دار الإقامة، دار الخلود.

فليكن الإنسان في الدُّنيا على إحدى هاتين الحالين: حال الغريب، أو حال عابر سبيل.

حال الغريب:

حال الغريب الذي يُقيم في أرض وهو يعلم أنَّها ليست أرضه، ويُقيم في بلد وهو يعلم أنَّه ليس وطنه، فهو دائم الحنين إلى وطنه، دائم الحنين إلى أرضه، إلى مسقط رأسه، ومهد طفولته، ومهوى فؤاده، حيث يجتمع شمله بأحبائه وأصحابه، فهذا هو شأن المؤمن مع الدُّنيا، يوقن أنَّ وطنه ليس هو الدُّنيا، إنَّما هو الجنَّة.

فإنَّ الله حينما خلق آدم، أسكنه وزوجته الجنَّة، ثمَّ أهبطه منها، ووعد ذريته من الصالحين بالرجوع إلى المسكن الأول؛ إلى الجنَّة. ولهذا فإنَّ المؤمن يحنُّ إلى الوطن الأول:

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ^(١)

يحنُّ إلى الجنَّة، التي كان فيها أبوه، ورضي الله عن ابن القيم إذ يقول في ميميته:

(١) البيت لأبي تمام، انظر: البيان والتبيين للجاحظ (٢٠٧/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ. وشرح ديوان أبي تمام للتبريزي (٢٩٠/٢)، تقديم وفهرسة راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

فحيَّ على جناتٍ عدنٍ فإنَّها منازلُ الأولى وفيها المخيمُ
ولكنَّا سبَّيُ العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونُسَلِّمُ^(١)؟

نحن قد سبانا الشيطان، وأصبحنا أسرى له، فهل ترى نُفكُّ من
إساره؟ وهل ترى نخرج من داره؟ وهل ترى نعود إلى دارنا ووطننا
الأول؛ الجنَّة؟

حال عابر السبيل:

والحال الثانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن حال عابر السبيل؛
أن تعتبر نفسك غير مُقيم قط، وإنَّما أنت عابر سبيل، أنت مسافر أبداً،
تقطع مرحلة وراء مرحلة، ومنزلة عقب منزلة، حتَّى تذهب إلى مقصدك
وإلى مأواك، وإلى دار مقامتك.

نحن - أيُّها المسلمون - مسافرون، وراحلتنا التي نركبها في سفرنا
هي الليل والنهار، اللذان يُبليان كل جديد، ويُقرِّبان كل بعيد، وطالما
أهلكا القرون من قبلنا: قوم نوح وعاد وثمرود والذين من بعدهم،
لا يعلمهم إلاَّ الله، ومع أنَّ الليل والنهار يعملان في هدم الحياة، ونقص
الأعمار، وتقريب الآجال، لم يزالا جديدين.

الليل يُسلمنا إلى النهار، والنهار يُسلمنا إلى الليل، ونحن بينهما على
سفر، وكلاهما يُفضي بنا إلى الآخرة.

ومن كان الليل والنهار مطيَّته، فهو يُسار به وإن لم يسر، وهو سائر
إلى الموت لا محالة.

(١) البيتان لابن القيم من قصيدته الميمية، انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ١١، نشر
مطبعة المدني، القاهرة.

سأل الفضيل بن عياض رجلاً: كم عُمرُك؟ قال: سِتُّون سنة. قال: فأنت منذ سِتِّين سنة تسير إلى ربِّك توشك أن تبلغ. فقال الرجل: يا أبا عليٍّ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. قال له الفضيل: تعلم ما تقول؟! قال الرجل: قلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. قال الفضيل: تعلم ما تفسيره؟ قال الرجل: فسره لنا يا أبا عليٍّ. قال: قولك إنَّا لله، تقول: أنا لله عبد، وأنا إلى الله راجع، فمن علم أنه عبد الله وأنه إليه راجع، فليعلم بأنه موقوف، ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليعدَّ للسؤال جواباً. فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة. قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وما بقي، فإنَّك إن أسأت فيما بقي، أخذت بما مضى وما بقي^(١).

مركب الموت:

كلنا مسافرون، ننتظر قطار الموت، ننتظر هذا المركب، ليوصلنا إلى الله، إن اليوم أو غداً أو بعد غد.

كل يوم ينقضي من حياتنا، إنَّما هو جزء من عمرنا، يذهب وينطوي.
 إِنَّا لَنَفْرُحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْزِنِي مِنَ الْأَجَلِ
 فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا فَإِنَّمَا الرَّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ^(٢)

كل يوم يمضي إنَّما هو انسلاخ جزء من عمر الإنسان، ورحم الله الحسن البصري الذي يقول: يا ابن آدم، إنَّما أنت أيام مجموعة، كلَّما ذهب يومٌ ذهب بعضُك، حتَّى إذا انتهت أيامُك انتهت كُلُّك^(٣)!

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١١٣/٨).

(٢) كان يزيد الرقاشي يتمثل به، كما روى ابن أبي الدنيا في كلام الليالي والأيام (٣٧).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٨/٢).

وهكذا تمضي الأيام والليالي، ونحن مسافرون إلى الله، وما هذه الأيام إلا مراحل على الطريق.

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَاكِلُ يَحْتَ بِهَا دَاعٍ إِلَى الْمَوْتِ قَاصِدٌ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا لَوْ تَأَمَّلْتَ أَنَّهَا مَنَازِلُ تُطَوَّى وَالْمُسَافِرُ قَاعِدٌ^(١)

من حكم المسيح ﷺ:

ولقد قال المسيح ﷺ لتلاميذه: الدُّنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها^(٢).

هل يبني أحد على القنطرة؟ لا، إنه مكان عبور، وليس مكان بناء وإقامة وعمران.

وكان المسيح ﷺ، يقول: مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا، تَلِكُمُ الدُّنْيَا، فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا، لَا تَتَّخِذُوا الدُّنْيَا لَكُمْ رَبًّا، فَتَتَّخِذَكُمْ لَهَا عِبِيدًا^(٣).

زاد الراكب:

هكذا أوصى الأنبياء، وهكذا أوصى رسول الله ﷺ، أوصى غير واحد من أصحابه: أَنْ يَكُونَ بَلَاغُهُ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّكَّابِ^(٤). ولما دخل عليه

(١) ذكره من غير نسبة: ابن القيم في مدارج السالكين (١٩٠/٣)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٥/٨). عن وهيب المكي قال: بلغني أن عيسى ﷺ...

(٣) رواه أحمد في الزهد (٣٢٥)، عن مكحول، قال: (قال عيسى: ...) فذكره. نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٤) لما احتضر سلمان بكى وقال: إن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهدًا فتركنا ما عهد إلينا أن يكون بُلَغُهُ أَحَدُنَا مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّكَّابِ. رواه أحمد (٢٣٧١١)، وقال مخزجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٤)، وابن حبان في الرقائق (٧٠٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧١٦)، عن سلمان الفارسي.

عمر، ووجد الحصار قد أثر في جنبه، وصعب عليه ذلك، وعظم في نظره وعلى نفسه: أن يؤثر الحصار من خشونته، في جنب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كسرى وقيصر ينامان على الديباج والإستبرق، وأنت تنام على الحصار حتى يؤثر في جنبك؟ فقال: «ما لي وللدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا، كمثل راكب قال - من القيلولة - في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»^(١).

فهذه الدار دار مَقل، وليست دار إقامة، ولكن الناس عن ذلك غافلون.

الفرح بفضل الله لا بالدُّنيا:

إنَّ هذه الحياة ليست حياة خلود أبدًا، لا تستحق أن يفرح الإنسان بها، إلا بما أوتي من فضل الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

كيف يفرح بالدُّنيا مَنْ تهدم ساعاته فيها يومه، وأيامه تهدم شهره، وشهوره تهدم عامه، وأعوامه تهدم عمره؟ وهكذا حتى تنتهي هذه الحياة، التي عليها يتكالب الناس ويتنافسون!

عُدَّ نَفْسُكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ:

وفي رواية أن النبي ﷺ يقول لابن عمر: «وَعُدَّ نَفْسُكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ»^(٢). أي اجعل نفسك كأنك واحد من أهل القبور، فتوشك أن تكون واحدًا منهم.

(١) رواه أحمد (٤٢٠٨)، وقال مخرّجوه: صحيح. والترمذي (٢٣٧٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٠٩)، كلاهما في الزهد، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٥٠٠٢)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره دون قوله: «وعد نفسك من أهل القبور»، فحسن لغيره. والترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤)، كلاهما في الزهد، عن ابن عمر.

مَنْ يدري أَنَّكَ غَدًا أو بعد غدٍ أو اليوم ستكون من أهل القبور؟
ولهذا كان ابن عمر يقول آخذًا من توجيه النبي ﷺ: إذا أصبحت
فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

لا يدري أحد ماذا بقي من عمره، وإلى أي سن سوف يعيش؟!
لا يدري ابن العشرين إذا كان يعيش إلى الخامسة والعشرين أو
الثلاثين؟ حتّى يؤجل توبته وإنابته إلى السبعين.

ما يدري أحد متى يموت:

ذهب أحد السلف يطرق باب أخ له من الصالحين، فقال أهل البيت:
لقد خرج في حاجة له. قال: ومتى يرجع؟ فردّت عليه جارية صغيرة من
أهل البيت، تقول له: يا هذا، مَنْ كانت نفسه بيد غيره، فمَنْ ذا الذي يعلم
متى يرجع؟!

كان بعض السلف إذا نام يقول لأهله: أستودعكم الله، فلعلها النومة
التي لا قيام لي منها. يقول ذلك كلّما أراد أن ينام.
وكان يجعل الواحد منهم وصيته وعهده مكتوبًا تحت وسادته، فلعله
لا يدركه الصباح!

بالأمس كان لنا زميل معلّم، هذا الزميل صام أمس مع الصائمين،
وأفطر وقت الغروب مع المفطرين، وصلى المغرب كسائر المسلمين،
وتوضأ وانتظر أن يصلي العشاء والتراويح مع المصلين، وما جاء العشاء
إلا وقد جاءه أجله وتوقف القلب^(١).

(١) وما أصدق قول القائل:

كم كُنْتُ تعرف ممّن صام في سلف من بين أهل وإخوانٍ وجيرانٍ
أفناهم الموت واستبقاك بعدهم حيّا فما أقرب القاصي من الداني!

قد يُخطط الإنسان لما يصنعه في غده ويرتب الأمر ترتيباً دقيقاً، ويضع فيه كل شيء موضعه المناسب له، وربّما كتب ذلك وكلف به من يُنفّذه، ولكن الموت يأتي فجأة، دون استئذان أو إنذار أو إعلام، بحادث مفاجئ، أو بسكته قلبيّة، أو ذبحة صدريّة، أو غير ذلك ممّا هو معروف غير منكور لدى الناس.

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ^(١)

بعد أن كان يخبر عن حال غيره، يصبح هو خبراً من الأخبار، مات فلان! هذه الكلمة تنتظر كلاً ممّا أن تقال فيه، يوماً ما قريباً أو بعيداً.

الدُّنْيَا دار أكدار وأحزان:

هذا شأن الدُّنْيَا، فإنّها دار ممر إلى دار المقر، ومن طبيعتها أنّها دار أكدار وأحزان.

جُبِلْتُ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْأَلَامِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ^(٢)

وكم من حوادث تفجع النَّاسُ، وكم من أخبار يسمعها النَّاسُ عن الموت السريع والموت المفاجئ، ولكن النَّاسُ - للأسف - يعيشون في الدُّنْيَا وكأنه ليس بعد الحياة موت، وكأنه ليس بعد الموت بعث، وكأنه ليس بعد البعث حساب، وكأنه ليس بعد الحساب جنّة أو نار.

(١) من شعر أبي الحسن التهامي في رثائه لابنه، كما في دمية القصر لأبي الحسن البخارزي (١٤٠/١)، نشر دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.

(٢) من شعر أبي الحسن التهامي المتقدّم. انظر: المصدر السابق.

الناس يعيشون في الدُّنيا كأنهم خالدون، فعلیها یحرصون، وعلى متاعها یتهافتون، وعلى زخارفها یتقاتلون، یریدون أن یأكلوها بالباطل الیوم، لتأكلهم النار بالحق غداً.

الموت قریب:

یا معشر المسلمین، الموت أقرب من ذلك.

كُلُّ امْرِئٍ مُّصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ^(١)
فلینتظرُ كلُّ منّا الموت، ولیقصرُ من أمله، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴿[المنافقون: ١٠، ١١].

بدل أن نقول ذلك ساعة الموت، فلنعمل الآن.

يقول ﷺ: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(٢).

(١) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩)، عن عائشة موقوفاً على أبي بكر، كان يرده لما أصابته الحمى في المدينة.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في المواعظ (١١٨٣٢)، والحاكم في الرقاق (٣٠٦/٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧)، عن ابن عباس.

الدرس الثامن

حرمة الدماء

روى البخاري ومسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ دُمُّ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١).

حرمة الدماء والأموال والأعراض:

حَرَّمَ اللهُ سبحانه الدماء والأموال والأعراض، وأكَّد رسول الله ﷺ حرمة هذه الثلاثة في حَجَّةِ الوداع، على ملأ من المسلمين، حيث يسمعه عشرات الألوف، في هذا البلد الحرام، وفي اليوم الحرام، قال لهم: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(٢). وقال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعَرِضُهُ، وَمَالُهُ»^(٣).

بل رُوي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَافَ بِالْكَعْبَةِ، وَقَالَ لَهَا: «مَا أَطْيَبُ وَأَطْيَبَ رِيحِكَ! وَمَا أَعْظَمُكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِحُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةُ مِنْكَ»^(٤).

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦).

(٢) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، عن أبي بكر.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) وأحمد (٧٧١٣)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٣٢)، وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٥٢) مرفوعاً. =

وقال عليه السلام في حديث آخر: «لو أنَّ أهلَ السماواتِ وأهلَ الأرضِ اشتركوا في دمِ مؤمنٍ لأكبَّهم اللهُ في النَّارِ»^(١).

ذلك أنَّ هذا الإنسان بُنيان الله تعالى، ولا يحقُّ لأحدٍ أن يهدم هذا البناء، إلَّا صاحبه وبانيه، وهو الله وَعَلَّيْ.

بل ليس للإنسان نفسه حق في أن يهدم هذا البناء، وأن يقتل نفسه، ومَن فعل فقد قال الله تعالى في شأنه في الحديث القدسي: «بَدَرَنِي عَبدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٢).

لقد حَرَّمَ اللهُ هذه الدماء، وجعل لها هذه المنزلة، وحرَّمها في سائر شرائعها، وفي كافة رسالاته ودياناته: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

لا يجوز أن تُقْتَلَ نَفْسٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، أي نفس معصومة، صغيرة كانت أو كبيرة، نفس غني أو نفس فقير، نفس أمير أو نفس خفير. حَرَّمَ اللهُ كل نفس ما دامت غير معتدية، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

متى يُهدر دم المعصوم؟

وقد جاء في الحديث الذي نحن بصدده بيان متى يُباح قتل النفس، وتُهدر عصمتها، وذلك في إحدى ثلاث خصال:

= ورواه موقوفًا الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢) وحسنه، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٦٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي. عن ابن عمر.

(١) رواه الترمذي في الديات (١٣٩٨) وقال: حديث غريب. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٤٢): صحيح لغيره. عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجناز (١٣٦٤)، ومسلم في الإيمان (١١٣)، عن جندب.

١ - الشَّيب الزَّاني:

أي الزاني المُحصَن المُتزوِّج، فمن زنى وهو مُتزوِّج بعد أن عَرَف الطريق إلى الحلال الطيب، وعَرَف نعمة الله عليه بالزوجيَّة، ونعمة الله عليه بظلِّ الأسرة يظللُّه، بعد أن عَرَف ذلك، ثمَّ خان زوجته، أو عَرَفَت المرأة ذلك، ثمَّ خانت زوجها، مَنْ فعل ذلك فقد استحقَّ الموت.

استحقَّ الموت رجماً، هكذا قضى رسول الله ﷺ، فيمن زنى وهو مُحصَن، أو زنت وهي مُحصنة.

وقد رجم رسولُ الله ﷺ رجلاً اسمه ماعز، ورجم امرأةً من غامد تعرف بالغامديَّة^(١)، ورجم يهوديَّين^(٢)، وأمر أحد صحابته - واسمه أنيس - أن يرجم امرأةً زنت وهي متزوِّجة إذا اعترفت بذلك، فاعترفت فرجمها^(٣).

متى تنزل العقوبة بالزاني المُحصَن؟

ولكنَّ الإسلام لا يجعل هذه العقوبة إلَّا لِمَنْ يُعالن بها، ويفجُر بها جهرةً وعلانيةً أمام النَّاس، بحيث يراه أربعة من الشهود، وهو يرتكب الفاحشة رأي العين، علانيةً بلا استخفاء ولا استحياء، أو يقرَّ هو على نفسه في مجلس الحكم والقضاء أربع مرات بأنَّه زنى.

فَمَنْ اعترف وأقرَّ على نفسه، وكَرَّر الإقرار والاعتراف، أو رآه أربعة من الشهود العدول المؤمنين المستقيمين، الَّذِينَ لا جرح فيهم، ولا عيب في سلوكهم، وهو مُحصَن، فقد استحقَّ الموت رجماً.

(١) قصة ماعز والغامدية رواها مسلم في الحدود (١٦٩٥)، عن بريدة بن الحصيب.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩)، كلاهما في الحدود، عن ابن عمر.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٦٨٢٧)، ومسلم (١٦٩٨)، كلاهما في الحدود، عن أبي هريرة

وزيد بن خالد.

لماذا الشدة في عقوبة الزنى بعد الإحصان؟

هذا الخائن الذي كفر نعمة الله عليه بالزوجية، يستحق أن يُرجم، ويباح دمه، حتى لا تنتشر الفاحشة، ولا يستشري الفساد، ولا يشيع التحلل في المجتمع.

وكذلك المرأة التي لطخت فراش الزوجية، وربما أدخلت في نسب زوجها من ليس من أبنائه تستحق هذه العقوبة.

حد الزاني غير المحصن:

والإسلام، لم يَسوّ بين عقوبة المحصن وعقوبة غير المحصن، بل يُعاقب على الزنى، حسب نوعية هذه الفاحشة، وحسب ظروفها. فمن كان عزباً، لم يعرف الزواج بعد، فعقوبته أن يُجلد مائة جلدة، كما جاء في القرآن: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. وكما قلنا خصّصت السُّنة هذه الآية وبيّنت أن المقصود بها من لم يكن مُحصّناً.

لماذا لم يذكر القرآن عقوبة الزاني المحصن؟

وكأن القرآن الكريم يُشير إلى أن المسلم المُحصّن المُتزوِّج ليس من شأنه أن يزني، فلم ينزل في شأنه قرآن، بل ترك القرآن ذلك، ليُعَلِّم الناس وليدلّ الناس بالإشارة والإيماء على أن هذا أمر لا ينبغي أن يقع فيه المسلم المُحصّن.

ولكن السُّنة فسّرت وبيّنت ووضّحت وفصّلت بالقول وبالعمل: أن مَنْ زنى وهو مُحصّن فجزاؤه الرجم نكالاً من الله، والله عزيز حكيم.



الإسلام يحارب الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، لا تتركب فيه مثل هذه الموبقات، وإن ارتكبت، ارتكبت على استحياء واستخفاء، بحيث لا يرى أحد ولا يسمع.

فالمعصية إذا استترت لا تضر، أمّا إذا استعلت - كما نرى في بعض البلاد حيث يُرخّص للزنى علانية، وللبلغاء جهاراً، يُغرى بها بالطرق المختلفة والأساليب المتنوعة - فهذا ما يُحاربه الإسلام ويمنعه.

الإسلام يسدّ كلّ الطرق التي تؤدي إلى الزنى:

لا تظنّوا أنّ الإسلام منع الزنى وحاربه بعقوبة الرجم أو الجلد فقط، ولكن هذه هي الوسيلة الأخيرة التي ليس بعدها شيء.

أمّا قبل ذلك فقد حارب الإسلام الزنى والفاحشة، ومنع السبيل إليها، ووجّهه إلى تيسير سُبُل الزواج، وإلى كل ما فيه تربية للمسلم على العفة والإحسان ومراقبة الله وَعَلَّك، وحث المسلم خاصة الشاب على أن يقوّي إرادته، ويكبح جماح شهوته، إمّا بالصوم، أو بالزواج لمن استطاع الباءة، وهي القدرة على تكاليفه.

كما حارب الإسلام الفواحش وطهر المجتمع من أسبابها ودواعيها، التي تدعو إليها، وتغري الناس بها، وتجريهم على ارتكاب الحرام؛ فهو يحرم تبرج النساء، ويحرم الخلوة بالأجنبية، ويأمر الجنسين بغض البصر، ويحرم كل المغريات بالفاحشة.

فالكلمة الخليعة، أو الصورة العارية، أو شبه العارية، أو الأغنية المثيرة، أو كل ما نرى ونسمع في هذا العصر من أساليب الإغراء، والدعوة إلى الفجور، يُحرّمه الإسلام.

ثم في آخر ذلك إذا وقع الزنى، عاقب عليه الإسلام بالجلد أو بالرجم.

٢ - قتل النفس التي حرم الله:

ثُمَّ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ الجريمة الثانية الَّتِي إِنْ فَعَلَهَا الْمُسْلِمُ أَهْدَرَ الْإِسْلَامَ دَمَهُ، فَقَالَ: «وَالنَّفْسَ بِالنَّفْسِ».

أَيَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يُقْتَلُ، فَإِنَّ نَفْسَهُ لَيْسَتْ أَفْضَلُ وَلَا أَعْظَمُ مِنْ نَفْسٍ غَيْرِهِ، فَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا فَقَدْ أَهْدَرَ عَصْمَةَ نَفْسِهِ، وَأَهْدَرَ حُرْمَةَ دَمِهِ، وَيَجِبُ أَنْ يُقْتَصَّ مِنْهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ وَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

لماذا القصاص؟

إِنَّ الْأَمْرَ إِذَا تُرِكَ دُونَ قِصَاصٍ كَانَتِ النَتِيجَةُ أَنْ يَتَجَرَّأَ الْمُعْتَدُونَ، وَأَنْ يَثَارَ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ بِأَكْثَرِ مِمَّا اعْتَدَى عَلَيْهِمْ، وَبِذَلِكَ يَنْتَشِرُ الْعَدَوَانُ، وَيَتَّسَعُ الْخَرْقُ، وَتَزْدَادُ النَّارُ اشْتِعَالًا، وَلَا يَجِدُونَ لَهَا مَا يَطْفِئُهَا.

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ قَرَّرَ إِعْدَامَ الْقَاتِلِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالْقَوْدِ أَوْ الْقِصَاصِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

إلغاء عقوبة الإعدام مرفوض:

وَلِهَذَا فَإِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى إِلْغَاءِ عَقُوبَةِ الْإِعْدَامِ لِلْقَاتِلِ: هُمْ قَوْمٌ يَخَالِفُونَ دِينَ اللَّهِ، وَيَعْطِلُونَ حُدُودَ اللَّهِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْقِصَاصَ مَفْرُوضٌ فِي الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، كَمَا أَنَّ الصَّوْمَ مَفْرُوضٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فَالْفَرِيضَةُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ سَوَاءٌ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى إِلْغَاءِ عَقُوبَةِ الْإِعْدَامِ خُرُوجٌ عَنِ دِينِ اللَّهِ، وَتَعْطِيلٌ لِحُكْمِ مَفْرُوضٍ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَمُحَادَّةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ جَهَارًا عَلَانِيَةً، فَوَا عَجَبًا لِهَؤُلَاءِ النَّاسِ!

لماذا يَرَأْفُونَ بالقاتل المجرم، ولا يَرَأْفُونَ بالمقتول وأهله؟ إِنَّ الَّذِي يَسْتَأْصِل شَأْفَةَ الجريمة ويقضي عليها: أَنْ يُعَاقِبَ فاعلها، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدِهِ، وَيُرَدَّع أَنْ يَرْتَكِبَ مِثْلَهَا، وَيُرَدَّعَ غَيْرُهُ أَيْضًا أَنْ يَقْتَرِفُوا مِثْلًا اقْتَرَفَ.

وهذا هو الإسلام: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والثأر مرفوض:

وإذا كان بعض النَّاسِ يدعون إلى إلغاء عقوبة القصاص والإعدام، فهناك آخرون يبالغون في القصاص، ويبالغون في القتل انتقامًا وثأرًا لقتيلهم.

وقد كان العرب في الجاهليَّة، إذا قُتِلَ واحد من قبيلة، قَتَلَت قبيلته في المقابل من استطاعت من قبيلة القاتل، ولا يكتفون بالتمثلة في القصاص، كما قال الْمُهْلَهْلُ بْنُ رَبِيعَةَ لَمَّا قَتَلَ جَسَّاسُ بْنُ مُرَّةٍ - من بني بكر - أَخَاهُ كُلَيْبًا:

وَلَسْتُ بِخَالِعٍ دِرْعِي وَسَيْفِي إِلَى أَنْ يَخْلَعَ اللَّيْلُ النَّهَارُ
وإِلَّا أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرِ فَلَا يَبْقَى لَهَا أَبَدًا أَثَارُ^(١)

وتجدر الإشارة هنا إلى أَنَّ الْقِصَاصَ معناه المساواة، أي النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَلَكِنَّهُمْ كانوا يغالون.

(١) ديوان المهلهل بن ربيعة ص ٣٤، شرح وتقديم طلال حرب، نشر الدار العالمية.

وسطية الإسلام في عقوبة القصاص:

وكان الرومان قبل الإسلام لا يساؤون بين الدماء، فإذا قتل الشريف رجلاً من غير الأشراف والنبلاء، فإنه لا يستحقُّ القتل، ولكن إذا قتل رجل من طبقتهم، فإنه يستحقُّ القتل.

وهكذا قسموا الناس طبقات، ولكل طبقة معيار خاص، أمّا الإسلام فقد قال نبيّه ﷺ: «المسلمون متكافؤ دماءهم»^(١).

وقالوا: إنّ المسيحية جاءت تقول: إنه لا داعي لمقابلة القتل بالقتل، ودعت إلى العفو: «مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْيَمَنِ، فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْاَيْسَرَ»^(٢).

ولكن الإسلام جاء بالأمر الوسط، فليس هناك عفو مفروض واجب، وليس هناك قصاص بأكثر من المثل، وبأكثر من المساواة.

جاءت الشريعة تُبيح القصاص، وتحثُّ على العفو: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاؤُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

حينما طعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في رمضان في سنة أربعين هجرية، وكان الذي قتله غدرًا أو غيلة عبد الرحمن بن ملجم، وقد أمسك المسلمون به، فقال علي رضي الله عنه: إن عشت فأنا مالك أمر نفسي، أقتض أو أعفو، فإن مت فضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى^(٣). هذا هو كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال مخرّجوه صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في

المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) إنجيل متى الفقرات (٣٨ - ٤٣)، وإنجيل لوقا (٦: ٢٩، ٣٠).

(٣) رواه البيهقي في الكبرى في النفقات (٥٦/٨)، وفي معرفة السنن والآثار (١٦٥٠٤)، بالفاظ قريبة منه.



التمثيل في القصاص حرام:

فحينما يقال: «القصاص»، لا يراد منه التمثيل.

ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ»^(١).

فالمرء الذي يُقتل قِصاصًا ينبغي أن يكون قتله بغير مثله ولا تعذيب، ولا يُقتل إلا إذا قتل.

لا يعاقب بالقتل إلا من باشر القتل بنفسه:

فلا يُقتل إنسان لثُمة أنه كان يفكر في القتل، أو أنه أعدَّ مؤامرة ليقتل، أو دبَّر أمر القتل، أو أحضر السلاح ليقتل.

كل هذا لا يُبيح قتل امرئ مسلم أبدًا، إنما الذي يُبيح القتل أن تُرتكب عملية القتل بالفعل.

فأمَّا إذا لم يُقتل بالفعل، فلا يجوز قط أن يُعاقب بالقتل، وإنما يجوز أن يُعاقب بشيء آخر: كغرامة مالية، أو بتعزير، أو بحبس.. أو ما إلى ذلك.

حتى إنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه حينما قاتل البُغاة الذين خرجوا عليه وهو أمير المؤمنين، قال لأنصاره وقد وضع البُغاة السلاح: دعوهم لا يُتبع مُدبر، ولا يُقتل أسير، ولا يُجْهَز على جريح^(٢).

فهؤلاء البُغاة الذين قاتلوه بالفعل، أمر بالألا يُقتل منهم من وضع

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه عبد الرزاق في العقول (١٨٥٩٠)، وابن أبي شيبة في الجمل (٣٨٩٧١).

سلاحه وأدبر، أو وقع في القبضة أسيرًا، أو سقط جريحًا في المعركة؛ وذلك لأنَّهم مسلمون، والقصد من قتالهم كفُّ شرِّهم وكسر شوكتهم؛ لأنَّهم خرجوا على الإمام الشرعي.

القتل دفاعًا عن النفس والعرض:

إنَّ الإسلام يحترم دماء النَّاس، ويحترم أرواحهم، ولا يُجيز أبدًا قتل امرئٍ لأنَّه قال كلمة، أو شتم إنسانًا، أو ضربه، ولكنَّه يجيز للمسلم أن يقاتل دفاعًا عن نفسه، مثل قتال «الصَّائل»، الَّذي يدخل على الإنسان داره، ويصول عليه، أي يهجم ويثب، فيدفعه صاحب البيت بأخفِّ الوسائل، ما أمكنه، فإن لم يرتدع إلَّا بالقتل قتله دفاعًا عن نفسه وبيته وأهله، وفي الحديث أن أحدهم سأل رسول الله ﷺ: «أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تُعطه مَالَك». قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله». قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيدٌ». قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»^(١).

هذا هو القتل دفاعًا عن النفس، وهناك القتل دفاعًا عن العرض.

هَبْ أَنْ رجلاً دخل فوجد رجلاً مع امرأته في حالة تلبُّس بجريمة وقتله، فهل يقتصُّ منه؟ لا؛ لأنَّه قَتَلَ دفاعًا عن عرضه، فلا يجوز أن يُقتل في هذه الحالة.

بين القانون والشرعية الإسلامية:

وهذا ممَّا يخالف فيه القانونُ الشرعية الإسلامية.

فالشرعية الإسلامية لا تعتبر مثل هذا الإنسان مُرتكبًا لجريمة قتل، وقد جاء رجل إلى عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، ومعه سيف يقطُر دمًا، وخلفه

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٠)، وأحمد (٨٢٩٩)، عن أبي هريرة.

رجال يقبضون عليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا الرجل قتل ابننا. فقال له عمر: أحق ما يقولون؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنما ضربت بسيفي فخذني امرأتي، فإن كان بينهما رجل فقد قتلته. فقال لهم عمر: أكذلك؟ قالوا: نعم. فأعطاه عمر السيف، وقال له: خذ، فإن عادوا فعد^(١).

إنَّ هذه الحالة التي يضطرُّ معها الإنسان أن يدفع عن نفسه أو عرضه أو ماله، إذا قتل المُعتدي، فلا قصاص، والإسلام يُجيز في مثل هذه الحالة أن يقتصر لنفسه، وفيما عدا ذلك لا يجوز للناس أن يقتصوا بأنفسهم، فإنَّ الذي من حقه أن يقيم العقوبة الشرعيَّة، ليسوا هم الأفراد، وإنما هو ولي الأمر المسلم.

مَنْ الَّذِي يَقْتَصُّ مِنَ الْقَاتِلِ:

إنَّ وليَّ الأمر هو الَّذي عليه أن يقتصر، وأن يستوفي العقوبة في الإسلام، يُمكن ولي المقتول من أن يعاقب القاتل بيده، ولا يجوز لوليِّ المقتول أن يقتصر بغير حكم القاضي أو الإمام، لا يجعل من نفسه قاضيًا ومُنفِّذًا، بل لا بدَّ من إذن الحاكم أي القاضي، وذلك لأنَّه لو ترك الأمر للأفراد أن يقتصوا لأنفسهم لأصبح الشرع ألعوبة، ودبت الفوضى، واقتصر كل ولي مقتول لقتيله بالشُّبهة أو بالظُّنة، أو بالتُّهمة، أو بمجرد غضب قديم، أو بشواهد غير كافية في الغالب.

إنَّ الإسلام لكي يحفظ دماء المسلمين، جعل أمر القصاص من حقِّ ولي الأمر، أي الإمام، ومن يقوم مقامه، فهو يتولَّى التحقيق في الأمر، فإذا ثبتت التُّهمة على إنسان أنه قتل عمدًا، يُنفَّذ به القصاص ويقتل.

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣٦٢/٥) وما بعده، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ -

هل للقاتل توبة؟

إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَقْتُلَ مُسْلِمًا إِلَّا خَطَأً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢]، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

حتى قال ابن عباس وبعض الصحابة: إِنَّ الْقَاتِلَ لَا تَقْبَلُ لَهُ تَوْبَةٌ^(١). وقال غيرهم من العلماء: إِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مُذْنِبٍ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى الْكَفْرَ وَالشِّرْكَ، فَمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَكَذَلِكَ التَّوْبَةُ تَمْسَحُ مَا قَبْلَهَا، وَلَكِنَّ الْقَاتِلَ إِذَا تَابَ فَعَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أُمُور:

- ١ - عليه أَنْ يُسْقِطَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّدَمِ وَالِاسْتِغْفَارِ.
- ٢ - وعليه أَنْ يُسْقِطَ حَقَّ الْأَوْلِيَاءِ، بِأَنْ يَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَيْهِمْ، لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ، فَإِمَّا قَتَلُوهُ، وَإِمَّا أَخَذُوا مِنْهُ عَوْضًا، وَإِمَّا عَفَوْا عَنْهُ.
- ٣ - وعليه بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمَقْتُولِ، عَسَى أَنْ يَرْضَى عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ تُرْجَى تَوْبَتُهُ.

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * [الفرقان: ٦٧ - ٧٠].

(١) انظر: البيان والتحصيل لأبي الوليد ابن رشد (١٩٣/١٨)، تحقيق محمد حجي وآخرين، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.



٣ - التارك لدينه:

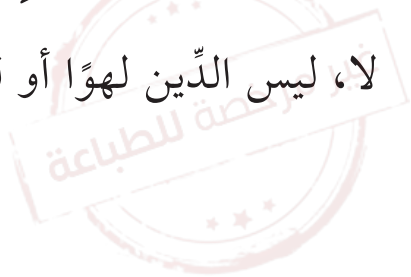
والصنف الثالث من النَّاس، الَّذِي نَصَّ الحديث على أَنَّهُ يحلُّ دمه، هو: «التارك لدينه المفارق للجماعة».

فالذي ترك الإسلام، ومَرَقَ من دين الله وَجَّكَ، وفارق جماعة المسلمين، يجب أن يُقتل؛ إِنَّهُ مرتد. والمرتد عن الإسلام حكمه القتل. جاء في الحديث الصحيح: «من بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

إِنَّ الإسلام لا يُكره أحدًا على أن يدخل فيه، ولكن مَنْ دخل في هذا الدين، والتزم بأحكامه وشرائعه، فليس له أن يجعل الدين لعبة، يدخل فيه اليوم، ويخرج منه غدًا، كما قالت اليهود من قبل: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

لا، ليس الدِّينُ لهوًا أو لعبًا، فَمَنْ فعل ذلك فقد استحقَّ أن يُقتل^(٢).

* * *



(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧)، عن ابن عباس.

(٢) راجع كتابنا: قضية التكفير بين الغلو والضوابط الشرعية.

الدرس التاسع

البدعة

روى الشيخان، عن الصَّديقة بنت الصِّديق أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها،
أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».
وفي رواية للإمام مسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(١).
أي مردود على صاحبه غير مقبول.

منزلة الحديث^(٢):

هذا الحديث القصير بألفاظه القليلة المَوْجِزة، أحد الأحاديث الجامعة
التي يدور عليها شرع الإسلام، ولهذا عدَّه الإمام أحمد - كما ذكرنا من
قبل - أحد الأحاديث الثلاثة التي يدور عليها الإسلام، وهي: «إِنَّمَا
الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وحديث: «الْحَلَالُ بَيْنٌ وَالْحَرَامُ بَيْنٌ»، وهذا الحديث.
وهذا الحديث مُتَمِّمٌ لحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، ولهذا قال
علمائنا: إِنَّ حَدِيثَ عُمَرَ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، ميزان للأعمال في باطنها،
وحديث عائشة هذا: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، ميزان
للأعمال في ظاهرها.

(١) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٧١٨).

(٢) راجع ما ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم (١٧٥/١) وما بعدها.

شرطا قبول العمل:

لا بدّ أن يتوفّر للعمل الصالح المقبول، صلاحه في الظاهر والباطن معاً: لا بدّ أن تتحقّق النّيّة الحسنة، وهي صلاحه في الباطن، والصورة المشروعة، وهي صلاحه في الظاهر. فإذا توفّر حُسن النّيّة، وكانت صورة العمل غير مشروعة، فإنّ الله يرفض هذه النّيّة، ولا يقبلها، ولا تشفع أبداً لصاحبها.

مَنْ أَكَلَ الرِّبَا، ثُمَّ بَنَى مِنْ هَذَا الرِّبَا مَسْجِداً، لِيُصَلِّيَ فِيهِ النَّاسُ، وَيَقِيمُوا شَعَائِرَ اللَّهِ، فَهَلْ تَنْفَعُهُ هَذِهِ النِّيَّةُ؟ لَا؛ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، إِنَّ عَمَلَهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الرِّبَا عَمَلٌ لَيْسَ عَلَى أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ أَحْدَثْتَ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللَّهُ، وَأَحْدَثْتَ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ، فَعَمَلُكَ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ.

لا بدّ لقبول العمل، من أن يكون في صورة يشرعها الدين ويرضاها، كما يجب أن تكون وراءه نيّة خالصة. ولهذا قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه، في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: أحسن العمل أخلصه وأصوبه، ولا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً صواباً، فما كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يقبل، وما كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وخلوص العمل: أن يكون لله، وصواب العمل: أن يكون على السُّنة^(١). أي على هُدي رسول الله ﷺ وشرعه.

ومن هنا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا ينفع قولٌ إلا بعمل، ولا ينفع قولٌ ولا عملٌ إلا بنيّة، ولا ينفع قول ولا عمل ولا نيّة إلا بموافقة السُّنة^(٢).

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥/٨).

(٢) رواه الآجري في الشريعة (٢٥٧)، تحقيق د. عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، نشر دار =

التشريع من خصائص الربوبية:

لا بدّ أن يوافق الإنسان شرع الله، وسُنَّة رسول الله ﷺ، ليس النَّاس أحرارًا في أن يشرعوا ما يُريدون، وأن يلتزموا ما يُريدون، فإنَّهم مقيدون بحدود الله، وبشرع الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

الأصل أن يتقيّد الإنسان في شرائعه كلّها بما حدّد الله ورسوله، ومن زاد على ذلك أو نقص تبعًا لهواه، أو وفقًا لمزاجه، أو تحسينًا للظن بعقله هو، أو بعقل زيد وعمرو من البشر، فإنّ عمله هذا كلّه مردود عليه.

إنّ النبي ﷺ وضع لنا بهذا الحديث الجامع من جوامع الكلم، هذا الميزان: ألا نقبل عملاً إلّا إذا كان على شرع الله.

ليس للنَّاس أن يبتدعوا وأن يُحدِّثوا في دين الله ما لم يُرِدْهُ الله ولم يأمر به، «فإنّ كلّ مُحدِّثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار»^(١).

أثر الابتداع في الأديان السابقة:

لقد فسدت الأديان السابقة قبل الإسلام بهذه المُحدِّثات، وبهذه المُبتدعات، حيث أحلُّوا ما حرّم الله، وحرّموا ما أحلّ الله، وزادوا عما شرع الله، ونقصوا ممّا فرض الله، فأصبحت عباداتهم وفرائضهم وشرائعهم شيئًا آخر، مغاير لحقيقة التكليف أو الدين الذي أمر الله به.

= الوطن، السعودية، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، وضعف إسناده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٧٠/١).

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد (١٤٣٣٤)، بدون ذكر «وكل ضلالة في النار»، ورواه النسائي في صلاة العيدين (١٥٧٨)، وابن خزيمة في الجمعة (١٧٨٥) وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٣٥٣)، عن جابر بن عبد الله.

صنع النصارى ذلك في عباداتهم، فغيَّروا في الصلاة، وغيَّروا في الصيام، نقلوا الصيام من أيام إلى أيام، حتَّى لا تكون في أيام الحرِّ، فنقلوها إلى أيام أخرى، وزادوا في عدد الأيام حتَّى صار صومًا غير الصوم الأول، وهكذا في الأطعمة، بعد أن كان لحم الخنزير مُحَرَّمًا عليهم، كما في التوراة، أحلَّ لهم بولس مُعظم الأطعمة، بل كل الأطعمة، ويروون عن المسيح أنَّه قال لهم: ما حللتُم في الأرض فهو محلول في السماء، وما عقدتم في الأرض فهو معقود في السماء^(١).

الدين كَمُل وليس لأحد أن يزيد فيه:

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فلم يُبَحِّح لعلماء أُمَّتِهِ أَنْ يَحُلُّوا ويربطوا، ويحرِّموا ويُبيحوا، ويشرعوا ويمنعوا، ويزيدوا وينقصوا. فليس لعلماء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، ولو اجتمعوا على صعيد واحد، في شكل مؤتمر أو مَجْمَع، أو أي شيء من هذا: أن يزيدوا في دين الله، أو ينقصوا منه أبدًا.

لا يمكن لأحدٍ أبدًا أن يزيد في هذا الإسلام أو ينقص منه، بعد أن أتمَّ الله نعمته بإكمالِه، وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال ﷺ: «تركَّضتم على المَحَجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها إلَّا هالك»^(٢).

الهالك هو مَنْ زاغ عن هذه المَحَجَّة البيضاء، الَّتِي صَوَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ، بأنَّها: «ليلها كنهارها»، أي أنَّها مُشرقة مُنيرة مُستبينة واضحة دائمًا أبدًا.

(١) إنجيل متى الإصحاح الثامن عشر.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرَّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، والحاكم في العلم (٩٦/١)، عن العرياض بن سارية.

ليس لأحد في الإسلام أن يزيد أو ينقص من شرائعه وفرائضه وعباداته، كما فعل النصارى في دينهم، فشَوَّهوه، وأصبحت العقيدة نفسها تُتصوَّر تبعًا لتصور المجامع التي تُعقد، والمجالس التي تُدعى، فيُدعى مجمع ليجتمع، ويُقرَّر أنَّ المسيح إله، وآخر يُقرَّر أن نصفه إله ونصفه إنسان، وأنه ناسوت دخل اللاهوت، ولاهوت امتزج بالناسوت، إلى آخره^(١).

ليس في الإسلام شيء من ذلك، ولا يملك أحد أن يفعل هذا أبدًا، ولو أنَّ بعض المسلمين ابتدعوا في الدين، فإنَّ الراسخين في العلم يقفون لهم بالمرصاد، ويردُّون عليهم بدعهم وضلالاتهم، ويعلنون في صراحة أنَّها في النَّار وبئس القرار، كما أخبر حديث رسول الله ﷺ: «وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النَّار»^(٢).

وحديث: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»^(٣). يدلُّ المسلمين على أن يقفوا عند حدود دينهم، وعند حدود شرائعهم، فليس من حقِّهم التشريع، وليس من حقِّهم أن يبتكروا في دين الله، إنَّ التشريع المطلق من حقِّ الله ﷻ، وهذا من تمام الوحدانية.

من شرَّع فقد تألَّه:

التشريع المطلق من حق الخالق الرازق المُنعم المالك للأمر، المُدبِّر للأمر كله.

(١) دعي مجمع نيقيَّة عام ٣٢٥م، للاجتماع لإيجاد حل إكليركي (كنسي) لمسألة ألوهية المسيح، فقد كان بعض القساوسة منهم آريوس ومن تبعه يرى أنَّ المسيح ليس إلهًا ولا ابن إله، وبعد ثلاثة شهور من البحث أكد المجمع ألوهية المسيح وتكفير آريوس ومن تبعه، وطرده وحرَّق الكتب التي لا تقول بالألوهية المسيح.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٤.

(٣) سبق تخريجه ص ٩٢.

أَمَّا أَنْ يَدَّعِي النَّاسُ أَنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فِي أَنْ يَشْرَعُوا مَا شَاءَ لَهُمُ الْهَوَىٰ وَمَا شَاءَ لَهُمُ عَقْلُهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ بِذَلِكَ أَبَدًا.

دخل عدي بن حاتم - وكان نصرانيًا قد أسلم - على النبي ﷺ، وهو يقرأ سورة التوبة، حتَّى وصل إلى قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. فقال: يا رسول الله، ما اتخذناهم أربابًا، وما كُنَّا نعبدهم. فقال النبي ﷺ: «أَمَّا إِنْهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»^(١).

عبادتهم لهم: أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ حَقَّ التَّشْرِيعِ، وَحَقَّ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، فَأَطَاعُوهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا يَفْعَلُونَ، وَإِنْ حَرَّمُوا الْحَلَالَ، وَأَحْلَوْا الْحَرَامَ!

وهذه عبادة لهم من دون الله، وهذا شرك، وتحوُّل من عبادة الله وحده إلى عبادة غير الله، ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

الغلُو في الدين مفسدة له:

إنَّ التَّدْيِينَ الْحَقَّ هُوَ أَنْ يَقِفَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ حُدُودِ رَبِّهِ، لَا يُشَدِّدُ، وَلَا يُغَالِي، وَلَا يُسْرِفُ، فَقَدْ ضَاعَ الدِّينُ بَيْنَ الْغَالِينَ الْمُسْرِفِينَ وَبَيْنَ الْمُقْصِرِينَ الْمُفَرِّطِينَ.

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٥)، وقال: هذا حديث غريب. وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

إِنَّ بعض النَّاس يغلو في دينهم، كما غلا أهل الكتاب في دينهم، فيشددون على أنفسهم وعلى غيرهم، ويتنطعون، ويزيدون في الفرائض، ويزيدون في العبادات، ما لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أمر به الله ﷻ، فهذا العمل مردود عليهم، وقد نهى النبي ﷺ، عن الغلو فقال: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»^(١). وقال: «هلك المُتَنَطِّعون - أي المتزيدون - هلك المُتَنَطِّعون، هلك المُتَنَطِّعون»^(٢). كررها ﷺ لأهميتها وعظم خطرها.

التنطع والغلو والتزيد في دين الله يفسد الدين على الناس^(٣)، ولهذا حينما رأى النبي ﷺ نزعة من بعض أصحابه إلى الغلو وإلى التنطع قاومها بكل شدة، رأى أفكاراً نصرانية تنبت في البيئة الإسلامية، فطاردها وحاربها.

جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي ﷺ يسألونهن عن عبادة النبي ﷺ، فأخبروا بها، فكأنهم تقلوها، وقال بعضهم لبعض: ما لنا ولرسول الله ﷺ؟! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أمّا أنا فأقوم الليل ولا أنام. وقال الثاني: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فبلغ النبي ﷺ مقالتهم فجمعهم

(١) رواه أحمد (٣٢٤٨)، وقال مخرّجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي في الحج (٣٠٥٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٢٩)، والحاكم في الصوم (٤٦٦/١)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحّحه النووي في المجموع (١٧١/٨)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٢٨٣)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، وأحمد (٣٦٥٥)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٨)، عن ابن مسعود.

(٣) انظر ما ذكرناه في كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٢٧ - ٣٠، تحت عنوان: العيوب والآفات الملازمة للغلو في الدين، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ٢٠١٢م.

وقام خطيباً فيهم، وقال: «أيُّها النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

الحنيفيَّة السَّمْحَة:

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّامِحَةِ، بِالْدِّينِ الَّذِي خُتِمَ بِهِ الْأَدْيَانُ، بِالرَّسَالَةِ الَّتِي كَمَلَتْ الرِّسَالَاتِ، الرِّسَالَةَ الْعَامَّةَ الْخَالِدَةَ، الرِّسَالَةَ الَّتِي تَبْقَى إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، فَهِيَ رِسَالَةٌ لِكُلِّ الْأَعْصَارِ، وَلِكُلِّ الْأَمْصَارِ، وَلِكُلِّ الْأَجْيَالِ، وَلِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، لِلْحَضَرِيِّ وَالْبَدَوِيِّ، لِلنَّاسِ كَافَّةً.

مثل هذه الرسالة لا بدَّ أن يكون فيها من الفُسْحَةِ والسَّعَةِ ما يجعل النَّاسَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُومُوا بِأَعْمَالِ دُنْيَاهُمْ بِجَوَارِ أَعْمَالِ دِينِهِمْ، فَيَعْمَلُ الْإِنْسَانُ لِدُنْيَاهُ كَأَنَّهُ يَعْشَى أَبَدًا، وَيَعْمَلُ لِآخِرَتِهِ كَأَنَّهُ يَمُوتُ غَدًا، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

والميزة الكبرى في رسالة النبي ﷺ أَنَّهَا تُعَلِّمُ النَّاسَ التَّوَسُّطَ وَالْإِعْتِدَالَ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ، حَتَّى لَا يَغْلُوا وَلَا يَقْصُرُوا، فَإِنَّ الْغُلُوَّ وَالْتَقْصِيرَ مَفْسَدَانِ لِلدِّينِ، مَفْسَدَانِ لِلْحَيَاةِ، مَفْسَدَانِ لِكُلِّ أَمْرٍ. فَلَا بَدَّ أَنْ يَقِفَ النَّاسُ عِنْدَ الْمَنْهَجِ الْوَسْطِيِّ، عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ، أَنْ يَلْتَزِمُوا مَا شَرَعَ اللَّهُ، وَلَا يَزِيدُوا وَلَا يَنْقُصُوا.

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٦٣)، وَمُسْلِمٌ (١٤٠١)، كِلَاهُمَا فِي النِّكَاحِ، عَنْ أَنَسٍ.



ابتداع في الدين وجمود في الدنيا!

أمّا أن يتزَيّد النَّاس في الدين، وأن ينقصوا منه، فمعنى هذا أن يضع الدين بين النَّاس، ولا يبقى منه شيء. لقد أباح الله للنَّاس أن يبتدعوا ويبتكروا ويخترعوا في شؤون الدُّنيا لا في شؤون الدِّين، في شؤون الدِّين وقوفٌ والتزام، وفي شؤون الدُّنيا ابتداع واختراع. ولكن للأسف، ما حدث للمسلمين أنَّهم جمدوا في شؤون الدُّنيا، ووقفوا كالثور في الرحى، يدور ويدور، والمكان الذي انتهى إليه هو المكان الذي ابتدأ منه، وأصبحوا عالّة على غيرهم في العلم والصناعة والتقدم، هكذا جمدوا وتخلّفوا ووقفوا في شؤون الدُّنيا، بينما - للأسف - ابتدعوا في شؤون الدين، ابتدعوا بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان، شرعوا لأنفسهم عبادات وأذكّاراً وأوراداً وصلواتٍ وصيغاً ما شرعها الله ولا رسوله، وزادوا أشياء لم يشرعها الله ورسوله، وجاؤوا في شؤون الأولياء بتقديس وتعظيم وتبجيل لم يشرعه الله ورسوله، وصنعوا بالقبور أشياء لم يشرعها الله ورسوله، ولم يقفوا في هذه الأمور عند ما أمر الله به ورسوله. بل ابتدعوا أموراً كثيرة في شرع الله ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها برهان.

أصبحنا الآن نرى في دنيا المسلمين بدعاً ومحدثات تريد أن تزحف على هذا الدين، فتقلعه من أصله، وتهدمه من أساسه، فلا يبقى لنا شرع، لا في شؤوننا الشخصية، ولا في شؤوننا الاجتماعية، ولا في شؤوننا الاقتصادية، ولا في شؤوننا السياسية، كل هذا تزحف عليه بدع، أفكار ونظم وتشريعات مبتدعة مستوردة، من هنا وهناك، من الشرق والغرب، لتُبعد شرع الله عن أن يحكم المسلمين، وأن يحكم به المسلمون، ولا يمكن أن يداوي داء

المسلمين، ويعالج مشكلاتهم، ويحل عقد حياتهم؛ إلا أن يقفوا عند حدود شرع الله، وأن يرجعوا إلى أمر الله، وأن يرفضوا كل شيء يأتيهم من هنا وهناك، ما دام مغايرًا لشرعهم، مضافًا لتعاليم دينهم، عليهم أن يقولوا لمن يعمل على خلاف دينه وشريعته وعقيدته الإسلامية: إنَّ عملك هذا مردودٌ عليك، هذا الذي تستورده عمل ليس عليه عمل رسول الله ﷺ، فهو مردودٌ عليك!

الوقوف عند شرع الله منجاة:

إنَّ الذي يُنجي المسلمين من بلاء الدُّنيا وعذاب الآخرة، هو هذا، أن يقفوا عند شرع الله، ولا يتعدّوا حدوده، وأن يعضُّوا على هذا بالنواجذ، ولا يفرطوا فيه قيدَ شبر، أو قيدَ أنملة، كما في حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظةً وَّجِلَّتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسولَ الله، كأنَّها موعظة مودِّع، فأوصنا. فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنَّه من يعش منكم بعدي يرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثة بدعة، وإنَّ كلَّ بدعة ضلالة»^(١).

إنَّ بعض الصحابة قد رأى بعض الاختلاف فأنكره، وقال لمُحدثيه: إنَّكم لتعملون أعمالًا هي في أعينكم أدقُّ من الشعر، كُنَّا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات^(٢). ذلك أنَّهم في عهد الرسول ﷺ كانوا ينظرون إلى الأشياء بمنظار مُعظَّم، فيرون الشيء الصغير في حقِّ الله

(١) سبق تخريجه ص ٩٥.

(٢) رواه البخاري في الرقائق (٦٤٩٢)، عن أنس.

كبيراً، لفرط حساسيتهم الروحية، ولسُمُوهم بأنفسهم، وتحليقهم في أفق عالٍ، فلمَّا رأوا بعض الهَنَات بعد رسول الله ﷺ قالوا: كُنَّا نَعُدُّ هذا من الموبقات على عهد النبي ﷺ.

وكانت عائشة أُمُّ المؤمنين رضي الله عنها تتمثل بيت لبید بن ربيعة:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وتقول: رحم الله لبیداً، كيف لو عاش إلى زمننا هذا؟ ولمَّا عاش بعدها بسنين ابن أختها عُرْوَة بن الزبير كان ينشد هذا البيت ويقول: يرحم الله لبیداً، ويرحم عائشة، كيف لو عاشا إلى زماننا هذا^(١)؟

فما بالكم بنا نحن؟! إننا نقول: يرحم الله لبیداً، ويرحم الله عائشة، ويرحم الله عُرْوَة، ويرحم الله ثلاثة عشر قرناً من المسلمين مضوا، كيف لو عاشوا إلى زماننا هذا؟! كان أقل ما يقولون أن ينشدوا قول القائل:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَازِرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ تَحْدُثْ لَهُ غَيْرٌ لَمْ يُبِكَ مَيِّتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودٍ^(٢)

إنه - يا أيُّها المسلمون - لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولُّها، ولم يصلح أولُّها إلا بهذا الإسلام العظيم، بالوقوف عند كتاب الله، وعند هدي رسول الله، وبمطاردة كل بدعة وافدة، وكل ضلالة مستوردة، وكل دخیل على عقيدة هذه الأمة ودينها، يُفسد عليها عقائدها،

(١) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٤٤٨)، وانظر: ديوان لبید بن ربيعة ص ٢٦، اعتنى به

حمدو طمّاس، نشر دار المعرفة، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) من شعر أبي سهل سعيد بن عبد الله الشكلي، ينظر: اللطائف والظرائف للشعالبي ص ١٧٦،

نشر دار المناهل، بيروت.



ويُفسد عليها شرعها، ويفسد عليها حياتها، ويُبدّل أمنها خوفاً، ووحدها
فُرقةً، وطمأنينتها قلقاً واضطراباً.

لا ينجي هذه الأمة من بلاء الدُّنيا ومن عذاب الله في الآخرة، إلا أن
تقف عند حدود الله، وأن تردّ كل مستحدث، وكل بدعة، وكل ضلالة.
والله المستعان، وهو ولي التوفيق.

* * *



الدرس العاشر

الدِّينُ النَّصِيحَةُ

روى مسلم في صحيحه، عن تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قال تَمِيمٌ: قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(١).

أهمية هذا الحديث:

هذا الحديث الوجيز البليغ أحد الأحاديث التي يدور عليها الإسلام. قال محمد بن أسلم الطوسي: إنه أحد أرباع الدين^(٢).

معنى الدين النصيحة:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»: أي الركن الأعظم في الدين هو النصيحة، كما يقال: «الحجُّ عرفة»^(٣)، و«النَّدَمُ توبة»^(٤)، أي الركن الأعظم في الحج هو

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤).

(٢) جامع العلوم لابن رجب (٢١٦/١).

(٣) رواه أحمد (١٨٧٧٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، أربعتهم في الحج، عن عبد الرحمن بن يعمر.

(٤) رواه أحمد (٤٠١٢)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢)، وابن حبان في الرقائق (٦١٤)، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٣/٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.

الوقوف بعرفة، والركن الأعظم في التوبة هو الندم، فكذلك الركن الأعظم في الدين هو النصيحة.

ما معنى النصيحة؟

النصيحة والنصح كلمة تقارب معنى الإخلاص، يقال: نصح الذهب: إذا خلص من الزيف. ونصحت التوبة: إذا خلصت من شوائب التردد في الرجوع إلى المعصية. ولهذا تفسر بمقابلها وتفهم على هذا النحو، فيقابل النصيحة والنصح: الغش؛ فالإنسان إما ناصح وإما غاشٌّ، والمسلمون قوم نَصَحَهُ بعضهم لبعض، والمنافقون قوم غَشَّشَهُ بعضهم لبعض.

وبطريقة أوضح نقول: النصيحة كلمة جامعة يراد بها إرادة الخير للمنصوح له، قولاً وعملاً، والقيام بوجوه الخير له إرادةً وفعلًا.

لمن تكون النصيحة:

والنبي ﷺ، يريد أن تكون العلائق قائمة على النصح والإخلاص والصفاء، لا على الغش، ولا على الخداع، ولا على الزور.

ولهذا سأل الصحابة حينما سمعوا هذه الكلمة: «الدين النصيحة»، أحبُّوا أن يعرفوا مَنْ الَّذِينَ تكون لهم النصيحة؟ ولمَنْ يكون النصِّح؟ فأخبر النبي ﷺ: أَنَّ النصيحة لكل مَنْ بينه وبين الإنسان علاقة ماديّة أو معنويّة.

كيف تكون النصيحة لله؟

فأول ما تكون النصيحة لله تعالى: أن يكون ما بين الإنسان وبين الله عامراً بالإخلاص، لا بالغش ولا بالرياء، أن تنصح لربك وتخلص له،

فتأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، وتقف عند حدّه، وتحبُّ فيه وتبغض فيه، وتسالم له وتحارب له، فأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله^(١)، وفي الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(٢).

وأولئك الذين يراؤون النَّاس في أعمالهم، ولا يقومون بالعمل إلَّا إذا كان النَّاس يرونهم أو يسمعون بهم، فإذا خَلَوْا إلى أنفسهم ارتكبوا الموبقات المهلكة، واقترفوا الآثام المُرديّة، أولئك هم المنافقون: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

النصيحة للرسول ﷺ :

ثم يلي المبدأ الأول، وهو «النصيحة لله» - مبدأ ثانٍ، وهو «النصيحة لرسوله».

فإنَّ رسول الله هو مُمثِّل الإرادة الإلهية، ومبعوث العناية الربانية، إنَّه حين يأمر وينهى لا يُمثِّل نفسه، وإنَّما يُمثِّل مَنْ أرسله، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤].

فلا عجب أن تكون طاعة هذا الرسول طاعة لله، واتباعه محبة لله، وبيعته مبايعة لله.

(١) كما في الحديث: «إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله». رواه أحمد

(١٨٥٢٤)، وقال مخرّجوه: حسن بشواهده. وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٧٩)، وقال الألباني

في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣٠): حسن بمجموع طرقه. عن البراء بن عازب.

(٢) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨١)، والطبراني (١٣٤/٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب

والترهيب (٣٠٢٩): حسن صحيح. عن أبي أمامة.

اسمعوا قول الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩، والنور: ٥٤، ومحمد: ٣٣]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُم مِّنْهُ فَاتَّبِعُوا﴾ [الحشر: ٧].

قدر الرسول الكريم ﷺ :

إنَّ الله قرن محبة رسوله بمحبته، وطاعة رسوله بطاعته، وبيعة رسوله ببيعته، هذا ليعلمنا قدر هذا الرسول الكريم ﷺ، وأنَّ مَنْ أَحَبَّ رسول الله فقد أَحَبَّ الله.

وقد جاء في حديث أنس الذي رواه البخاري: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يَحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

كيف تكون النصيحة للرسول ﷺ ؟

النصيحة لرسول الله، تكون باتِّباع سنته، وإحيائها، ونشرها في النَّاسِ، وخاصَّةً ما مات من السنن، فمن أحيَا سنة ميتة فله الجنة، وفي الحديث: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء». قيل: وَمَنْ الْغُرَبَاءُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الَّذِينَ يَصْلَحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي، وَيُحْيُونَ مَا أَمَاتَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان.

(٢) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٣٠)، وقال: حديث حسن. والطبراني (١٦/١٧)، عن عمرو بن عوف المزني.

النصيحة لكتاب الله:

والمبدأ الثالث في النصيحة: هو «النصيحة لكتاب الله وَحَدِّثْ»، أي الإخلاص لهذا القرآن العظيم، الذي أنزله الله شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين، والذي أنزله الله ليُصَحِّح ما اعوجَّج من الحياة، ويصلح به ما فسد، وينور به ما أظلم، ويهدي به للتي هي أقوم، فهو قانون السماء لهداية الأرض، ودستور الخالق لإصلاح الخلق، لا يضلُّ مَنْ اهتدى به، ولا يعوجُّ فيقوم، مَنْ علم علمه سبق، وَمَنْ قال به صدق، وَمَنْ حكم به عدل، وَمَنْ عمل به أُجِر، وَمَنْ دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

القرآن كتاب الله، وحبله المتين، ممدود بينكم وبين ربكم، فَمَنْ أمسك بهذا الحبل القوي، وتعلَّق بهذه العروة الوثقى، لا انفصام لها، فَإِنَّهُ واصل بهذا الحبل إلى الجنة؛ لأنَّ انتهاء الجنة.

كيف تكون النصيحة لكتاب الله؟

النصيحة لكتاب الله أن نعمل به، وأن نتبع هدايه، وأن نقبَس من سنّاه، وأن نُصدِّق شرائعه، وأن نتأدَّب بآدابه، ونتخلَّق بأخلاقه، كما كان رسول الله ﷺ، فقد سئلت السيدة عائشة عن خُلُقِه، فقالت: كان خلقه القرآن^(١). وفي رواية عن أبي الدرداء، عن عائشة قالت: كان خلقه القرآن: يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه^(٢).

كان ﷺ مفسِّراً لهذا القرآن بقوله وعمله.

كان مُصحِّفاً حيّاً يمشي على الأرض، وقرآناً يراه النَّاسُ بأعينهم

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

(٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٠٢).

أعمالاً، وواقعاً معاشاً في حياة الناس، لا مجرد ألفاظ تُتلى، ولا أقوال يلوکها اللسان.

تدبر كتاب الله وفهمه:

ومن معاني النصيحة لكتاب الله، أن نتدبره، ونتفهم ما أنزل الله فيه من معانٍ وأسرار تُصلح الحياة، وتُصلح الأفراد والمجتمعات، إنَّ الله تعالى عاب على قوم أغلقوا قلوبهم عن نور هذا القرآن، فلم يتدبروه، فقال ﷺ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

هذا الكتاب هو نور الحياة، للناس جميعاً، في كل عصر وفي كل مصر، ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

النصيحة لأئمة المسلمين:

ثم النصيحة بعد ذلك لأئمة المسلمين؛ لرؤسائهم وحكامهم وولاة أمرهم، تنصح لهم، تبغي لهم الخير، تُرشدهم إلى الهدى، تدلهم على الحق، لا تخشى في الله لومة لائم.

فمن فعل ذلك فقد قام بحق النصيحة.

يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وَلاَهِ اللَّهِ أُمُورَكُمْ»^(١).

(١) رواه مسلم في الأفضية (١٧١٥)، ولم يذكر: «وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وَلاَهِ اللَّهِ أُمُورَكُمْ». وأحمد (٨٧١٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان في الزكاة (٣٣٨٨).

الفرق بين النصيحة والفضيحة:

وليس معنى النصيحة هي الفضيحة، فقد قال السلف: إِنَّ النصيحة بينك وبين أخيك في السر نصيحة، أمَّا التشهير على ملأ النَّاس فهي فضيحة^(١).

فالنصح أن تدلَّ الشخص على الخير، وأن ترشده إلى الحق، كما كان عمر بن الخطَّاب يطلب إلى النَّاس أن ينصحوه ويقول: مرحبًا بالناصح أبد الدهر، مرحبًا بالناصح غدوًا وعشيًا^(٢).

ابن الخطَّاب نموذج في قبول النصيحة:

وكان عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: رحم الله مَنْ أهدى إليَّ عيوبي^(٣). وكان يقول لحذيفة بن اليمان الخبير بالمنافقين، والذي اختص بسرِّ المنافقين، وعرفه الرسول ﷺ بهم، كان عمر يقول له: يا حذيفة، بالله عليك، أتجدني منهم؟ فيقول له حذيفة: لا يا عمر، ولا أُرْكَي أحدًا بعدك^(٤). أي لا يريد أن يفتح هذا الباب حتَّى لا يكشف الأسرار.

عمر بن الخطَّاب يريد أن يطمئنَّ على نفسه، أهو من المنافقين أم من غير المنافقين؟! غير المنافقين!

وقال له رجل مرة: اتَّقِ الله يا ابن الخطَّاب. فضاق بعض الحاضرين بهذا، فقال عمر: دعوه، والله لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها^(٥).

(١) قال الشافعي: مَنْ وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وخانه. رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٠/٩).

(٢) رواه الطبري في التاريخ (٢٢٥/٤)، نشر دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٦٤/٣).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الفتن (٣٨٥٤٥).

(٥) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٧٧٣/٢).

النصيحة لعامة المسلمين:

ثم النصح لعامة المسلمين بعد ذلك كله، أي لجماهير المسلمين، عليك أن تنصح لكل مسلم، ولا تغشه، في أي علاقة بينك وبينه، معنوية كانت أو مادية.

كن ناصحاً لأخيك المسلم، واتبع خلق أنبياء الله الذين كانوا لقومهم ناصحين، كما قال نوح لقومه: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وكذلك قال هود لعاده: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكذلك قال صالح لثمود: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وما أكثر الذين لا يحبُّون الناصحين!

إنَّ على المسلم أن ينصح لأخيه المسلم، ولا يغشه في أمر من الأمور، ولو كان في ذلك خسارة للناصح في دنياه، وضرر له شخصي، عليه أن ينصح له، فعلى التاجر أن يفرح لما فرح به المسلمون، يفرح برُخص الأسعار، وإن كان في ذلك بعض الضرر بتجارته^(١).

على المسلم أن ينصح في معاملته ولا يغش، فإنَّ النبي ﷺ، مرَّ على صُبْرَةِ طعام؛ فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟». قال: أصابته السماء. فقال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟! من غشَّ فليس مِنِّي»^(٢).

(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا: دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص ٢٥٩ - ٣١٤، فصل: القيم والأخلاق في مجال التداول، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٠٢)، وأحمد (٧٢٩٢)، عن أبي هريرة.

وأوجب ﷺ على كل بائع أن يُبين ما في سلعته من عيب، ولا يكتُمها ولا يغش المسلمين، كما في حديث واثلة بن الأسقع: «لا يحلُّ لأحدٍ بيع شيئاً إلاَّ بين ما فيه، ولا يحلُّ لمن علم ذلك إلاَّ بينه»^(١).

وهكذا كان السلف:

باع ابن سيرين شاةً له فقال للمشتري: اسمع يا فلان! إنني أبرأ إليك من عيب فيها، إنَّها تقلب العلف برجلها^(٢).

وباع الحسن بن صالح جاريةً له: فقال للمشتري: أذكر لك شيئاً، إنَّ هذه الجارية تنخمت مرّةً عندنا دمًا^(٣).

مرّةً واحدة طوال إقامتها عنده تنخمت دمًا، ومع هذا أبى ضميره المؤمن وقلبه المسلم، إلاَّ أن يذكر ذلك ويبيّنه، ليبرأ من العُهدَة، ويكون ناصحًا للمسلمين.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم، وَمَنْ لم يصبح ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»^(٤)، أي ليس على طريقتهم، وليس على ملَّتهم، ولا يستحقُّ أن يكون من جُملة المسلمين.

(١) رواه أحمد (١٦٠١٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والحاكم في البيوع (٩/٢ - ١٠) وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٧٤): حسن لغيره.

(٢) إحياء علوم الدين (٧٧/٢).

(٣) المصدر السابق (٧٧/٢).

(٤) رواه الطبراني في الصغير (٩٠٧)، والأوسط (٧٤٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٤): فيه عبد الله بن أبي جعفر الرازي، ضعّفه محمد بن حميد، ووثّقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان، عن حذيفة بن اليمان. ويشهد له حديث تميم الداري (الدين النصيحة) وهو عند مسلم (٥٥).

ومما يُذكر هنا أن يونس بن عُبيد، وكان تاجرًا قد ترك ابن أخيه في الدكان وذهب إلى الصلاة، ثم عاد فوجد رجلاً قد اشترى ثوبًا من دكانه، فسأله يونس: بكم اشتريتها؟ قال: اشتريتها بأربعمائة. فقال له: لا، هذا من ذوات المائتين، ارجع معي. قال: يا هذا، إنها عندنا تساوي خمسمائة. فقال: لا، ولكننا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، هذه نبيعها بمائتين، عُدْ معي إلى الدكان. فقال: أنا راضٍ. قال: وإن كنت راضيًا. ثم عادا إلى الدكان، وذهب يونس إلى ابن أخيه وظل يُؤبّخه ويُعنفه ويقول له: أما اتقيت الله؟ أما استحييت من الله؟ تربح نصف الثمن وتترك النصح للمسلمين؟ والله للنصح لمسلم خير من الدنيا وما فيها. ثم أعطى الرجل المائتين فرق ما بين الثمنين، ورضيت نفسه^(١).

وكان بعض السلف واسمه حسان بن أبي سنان، من الورعين، وكانت له تجارة، فأرسل إليه غلامه من الأهواز يقول له: إنَّ قصب السكر أصابته آفة، فاشتر ما استطعت من السكر. فاشترى سكرًا من أحد منتجيه، فلم يأت عليه إلا قليل، فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفًا، فأتى صاحب السكر فقال: يا هذا، إنَّ غلامي كان كتب إليّ ولم أعلمك، فأقلني فيما اشتريت منك. فقال الآخر: فقد أعلمتني الآن وطيبته لك. قال: فرجع فلم يحتمل قلبه. قال: فأتاه. فقال: يا هذا، إنني لم آت هذا الأمر من قبل وجهه (يعني لم آت على الوجه الذي ينبغي بأن أخبرك بأن السعر سيغلو)، فأحب أن يُسترد هذا البيع. قال: فما زال به حتى رد عليه^(٢).

هكذا كان السلف ينصح بعضهم لبعض.

(١) إحياء علوم الدين (٧٩/٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١١٨/٣).

فالنصيحة هي الدين.

وخصوصًا إذا استشارك مسلم، يقول النبي ﷺ في حقوق المسلم على المسلم: «وإذا استنصحك فانصَحْ له»^(١). قل له الحق، وأرشده إلى ما ترى أنه خير، ولا تخشَ لومة لائم.

خفِ الله فيه، ولا تخفه ولا غيره في الله.

من أنصح النَّاسَ لك؟

يقول السلف: أنصحُ النَّاسَ لك مَنْ خشي الله فيك^(٢).

ليس الناصح لك هو الَّذي يُدَلِّك ويمدُّ لك في الحبل، ويُطْمَعُك في كل شيء، ويحاول أن يتملِّقك، ويسترضيك، فليس هذا هو الناصح، بل الناصح لك حقًا هو الَّذي يدُلُّك على الله، ويرشدك إلى طريق الآخرة، ويأخذ بيدك إلى الصراط المستقيم، ويحذرك من طريق الشر، ومن معصية الله، ولو كان في ذلك ضيق لك، أو سخط لك في بعض الأحوال.

أنصح النَّاسَ لك مَنْ خشي الله فيك.

دخل بعض العلماء على بعض الأمراء فنصح له، فشدد عليه. فقال له بعض جلسائه: شددت على الأمير. فقال: لأن أنصحه حتَّى أبكيه اليوم ويضحك عند الله غدًا، خير من أن يضحك اليوم ويبكي عند الله غدًا.

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٦٢)، وأحمد (٨٨٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢٢٥/١).

الدرس الحادي عشر

الاستقامة

روى مسلم في صحيحه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي، أنه سأل رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. فقال: «قل آمنت بالله، ثم استقم»^(١).

وفي رواية للترمذي: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمرٍ أعصم به. فقال: «قل: ربّي الله، ثم استقم». قال: فما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأشار إلى لسانه وقال: «هذا»^(٢).

وصيّة شاملة:

سأل هذا الصحابيُّ رسولَ الله ﷺ عن أمرٍ جامع، أن يقول له قولاً مُغنياً، ويوصيه وصيّة شاملة، يتخذها دستوراً لحياته، ويلتزمها منهاجاً للعلاقة بينه وبين ربه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين الناس.

وكان ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، يجمع في الكلمة القليلة الموجزة

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٦). وهو من أحاديث الأربعين النووية.
(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٦٩٨)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح. وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٠٨).

المعاني الكثيرة الجمّة، فقال له هذه الكلمة، وأوصاه بهذه الوصيّة: «قل: آمنت بالله. ثمّ استقم». أو «قل: ربي الله. ثمّ استقم».

اقتباس من القرآن:

وهذا الجواب المحمّدي إنّما اقتبسه من القرآن الكريم، من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

البراءة من الأرباب الزائفة:

الأمر الأوّل في هذه الوصيّة: أن يعلن بأنّ ربّه هو الله، ويبرأ من كلّ الأرباب، الأرباب الزائفة، التي اصطنعها النّاس في حياتهم، صنعها الوهم والخرافة، أو صنعها الهوى والشهوة، أو صنعها الكذب والتضليل، كلّ الأرباب، من البشر، أو من الحجر، أو من الكواكب، أو من أيّ شيء في العالم العلوي والسفلي، على المؤمن أن يبرأ من هذه الأرباب، ولا يتخذ غير الله ربّاً، ولا يتخذ غير الله وليّاً، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لقد بُعث رسول الله ﷺ، والناس في هذه الدُّنيا يتخذون أرباباً كثيرة، هذا يتخذ له ربّاً من الحلوى أو من العجوة، فإذا جاع أكله، وذاك يتخذ ربه كاهناً من الكُهان، وآخر يتخذ ربه صنماً من الأصنام، أو وثناً من الأوثان، وهكذا. اتخذ النّاس أرباباً شتى، ولهذا كانت رسالة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء والأباطرة من الأكاسرة والقيصرة، كان يختمها بهذه

الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]. مثل أولئك الذين ﴿اتَّخَذُوا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۚ إِلَٰهًا إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

التوحيد رسالة كل الأنبياء:

ليعلن الإنسان أول ما يعلن أن الله ربّه، وأن الله معبوده، وأن وجهته إلى الله، وأنه لا يتخذ وليًا من دون الله.

بهذا بُعثت الأنبياء، وبهذا نزلت الكتب، وبهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا قامت سوق الجنة والنار.

على هذه الحقيقة قاتل الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين.

موقف موسى من فرعون:

وقف موسى عليه السلام يقول لفرعون: إنك لست الرب الأعلى كما تزعم للناس، حيث قال للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فقال: إن الله وحده هو ربُّ النَّاسِ، ملك النَّاسِ، إله النَّاسِ.

ولهذا أراد فرعون أن يقتل موسى، قال: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّي ٱخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وشاء الله أن يدافع عن موسى رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتُم إيمانه، يصرخ في وجوه هؤلاء: ﴿أَنقُتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

أمن أجل هذه الكلمة «ربي الله»، وهي الحقيقة الناصعة التي ليس هناك حقيقة أنصع ولا أثبت ولا أخلد منها؟! أمن أجل هذه الحقيقة يراد بموسى أن يُقتل وتزهق روحه؟!

موقف إبراهيم من النمرود^(١):

ولقد أريد من أجل هذه الكلمة لسيدنا إبراهيم أن يُلقى في النار، ويحرق تحريقاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي إنَّ هذا «النمرود» يزعم أنَّ في يده الأمر والنهي، يأمر بقتل مَنْ يشاء فيميته، ويأمر بالعفو عمن شاء فيحييه... وهناك يقول له إبراهيم: ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

موقف المشركين من محمد ﷺ وأصحابه:

ولقد أريد لمحمد ﷺ، ولأصحابه أن يُقتلوا، وأن يعذبوا، وأن يُنفوا، وأن يُخرجوا من ديارهم بغير حق؛ إلا أن يقولوا ربنا الله.

لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم وأوذوا في أنفسهم وأهليهم... بغير ذنب جَنَوْهُ ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

لهذا كان على المسلم أن يقول: «ربي الله»، مهما أُوذي في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو منصبه، أو جاهه، أو كل أعراض الحياة، مستمسكاً بهذه العروة الوثقى لا انفصام لها.

(١) هو بالبدال والذال، قال الزبيدي: (نمرود، بالضم) وإهمال الدال وإعجامها، وفي المزهر بالوجهين. التاج مادة (نمرد).

«قل: ربي الله. ثم استقم». أي: قل هذا، اعتقده في نفسك، وأعلنه على الناس، ولكن لا بدّ من الاستقامة على مقتضى هذا القول.

ما المقصود بالاستقامة:

والاستقامة تعني أمرين:

الثبات على التوحيد:

الأمر الأول: الثبات على هذا القول، وعلى التوحيد لله، وعلى إخلاص القلب لله، بحيث يسير الإنسان في هذا الطريق، طريق التوحيد السَّويَّة، لا عِوَج فيها ولا أَمْت، ولا ارتداد ولا انحراف. ولهذا قرأ سيّدنا أبو بكر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، فقال: لم يشركوا به شيئاً. وذلك معنى الاستقامة. وقرأها عمر على المنبر فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، أي: لم يروغوا روغان الثعالب^(١).

استقاموا على أمر الله، وعلى دين الله، وعلى توحيد الله، استقامة المؤمن الصريح، الثبات على التوحيد إلى النهاية، إلى الموت، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

التزام حدود الله وتنفيذ أوامره:

والأمر الثاني من معنى الاستقامة: أنّه يلتزم حدود الله، وينفذ أوامره، ويقيم حدوده، وينتهي عن محارمه، فيسلك الطريق المستقيم. والصراط الَّذي هو كحد السيف، لا ينحرف عنه يَمَنَةً ولا يَسْرَةً، لا يميل مع اليمينيين، ولا ينحرف مع اليساريين.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٦/٧)، تحقيق سامي محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

الهداية إلى الصراط المستقيم:

إنَّه الصراط المستقيم الَّذِي ندعو الله ونسأله الهداية إليه كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرّة، لو اقتصر الإنسان على أداء الفرائض.. ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

سلوك الطريق المستقيم الواضح دون ميل أو انحراف عنه:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين، لا سبيل المنحرفين المغضوب عليهم كاليهود، والضالّين كالنصارى. فقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اليهود مغضوب عليهم، وَإِنَّ النصارى ضلّال»^(١).

فالطريق الَّذِي يجب أن يسلكه الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، والحكومة المسلمة، هو: الطريق الإسلامي الواضح، الَّذِي لا يميل إلى هنا، ولا إلى هناك، ولا إلى هنالك.

التحذير من التقليد الأعمى:

فقد حذّر النبي ﷺ هذه الأمة من أن تفقد شخصيتها، وتفقد ذاتيتها، وتسير وراء الآخرين مُقلّدة التقليد الأعمى، قال: «لَتَبْعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشْبَرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». جحر الضب على ما فيه من الضيق والقذارة والنتانة وسوء الرائحة، لو دخلوا مثل هذا الجحر، لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(٢).

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٣) وقال: حسن غريب. وصحّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٥٣)، عن عدي بن حاتم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري.

هم هؤلاء المقصودون، تتبعونهم وتقلّدونهم وتتركون طريقكم المستقيم، وتسировون في طريقهم الأعوج؛ إذا أطالوا أظافرهم كأظافر الكلاب والقطط أطلتم أظافرهم، إذا سارت نساؤهم عاريات أو شبه عاريات؛ فعلت نساؤكم مثلهنّ، إذا أكلوا الربا أكلتموه، وإذا أباحوا الخمر أبحتموها، إذا ارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كانت فواحشهم شيئاً جميلاً يقتدى به!

وهكذا انحرف الناس عن الطريق المستقيم، عن الاستقامة التي أمر الله بها رسوله وأمر بها المؤمنين.

أوامر الله لنبيه وللمؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

روى القشيري أنّ عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، روي عنك أنك قلت: شَيِّئَنِي هود^(١). قال: «نعم». فقلت: ما الذي شَيَّبَكَ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ * وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾» [هود: ١١٢، ١١٣]^(٢).

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٩٧) وقال: حسن غريب. والحاكم في التفسير (٣٤٣/٢)

وصحّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

(٢) الرسالة القشيرية للقشيري (٣٥٧/٢)، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف،

نشر دار المعارف، القاهرة.

وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، رَتَّب الأمر بالاستقامة على توحيد الله تعالى.

مقتضى توحيد الله والاعتراف بألوهيته ووحدانيته والاعتراف بربوبيته، ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، ذلك يقتضي الاستقامة إليه، الاستقامة على طريقه، استقامة اللسان على الصدق، واستقامة القلب على التوحيد، واستقامة الجوارح على الطاعة، واستقامة العمل على السُّنَّة، على هدي محمد ﷺ.

الاستقامة الكاملة غير ممكنة:

وما أجمل هذه الكلمة: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾! كأنها إشارة إلى أن الإنسان لا يمكن أن يستقيم حق الاستقامة، لا بد أن يفرط الإنسان في جنب الله، وأن يبدو منه تقصير في حق الله؛ فالإنسان إنسان، مهما حاول ومهما جاهد، ولكن لم يطلب منه إلا التصميم والعزم، وحسن الاتجاه إلى الله وإلى طريق الله، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

فإذا فرط منه في الطريق شيء، فإن الله أهل التقوى وأهل المغفرة، قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(١)، أي لن تستطيعوا أن تدققوا في كل شيء، وتؤدُّوا كل عمل كما هو مطلوب منكم، فسددوا وأبشروا^(٢)، وسددوا وقاربوا^(٣)، كما قال النبي ﷺ.

(١) رواه أحمد (٢٢٣٧٨)، وقال مخرَّجوه: صحيح. وابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (٦٨١)، كلاهما في الطهارة، عن ثوبان.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٧)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٨)، عن عائشة.

الفرق بين التسديد والمقاربة:

التسديد معناه: الإصابة في الأقوال والأعمال، والمقاصد كلها أن يصيب الإنسان الهدف ولا يخطئه.

والمقاربة أن تبلغ قريباً من هدفك ومن غرضك.

فيقول عليه السلام: «سددوا»، أي حاولوا إصابة ما تريدون، و«قاربوا»، إن لم تستطيعوا التسديد، فقاربوا، أي كونوا قريبين من الإصابة، ولكن بشرط أن تكون مُصمِّماً على بلوغه، وأن تكون وجهتك إليه، فلا تكون مُشْرِقاً وهدفك مُغْرَب، بل ينبغي أن تكون سليم الاتجاه، صحيح الوجهة أولاً، وإن فرط منك شيء من الخطأ ومن الزلل، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتَّى تطلع الشمس من مغربها^(١).

دور اللسان في الاستقامة:

يقول عليه السلام: «لا يستقيم إيمان عبدٍ حتَّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه، حتَّى يستقيم لسانه»^(٢).

ذلك أنَّ اللسان ترجمان القلب، والمُعَبَّر عنه، والمرآة لما يحتويه باطن الإنسان، ولهذا ورد أنَّ الأعضاء إذا أصبحت للسان: «اتق الله فينا، فإذا استقمت استقمنا، وإذا اعوججت اعوججنا»^(٣).

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩)، وأحمد (١٩٥٢٩)، عن أبي موسى.

(٢) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والقضاعي في مسند الشهاب (٨٨٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥): رواه أحمد وفيه علي بن مسعدة، وثقه يحيى بن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره. وحسنه الألباني في الترغيب والترهيب (٢٥٥٤)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه أحمد (١١٩٠٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٤٠٧) وقال: هذا =

فإذا رأينا إنساناً مُعوجَّ اللسان مُنحرف القول، فهذا دليل على عِوَج في قلبه، وعلى انحراف في قصده.

الاستقامة سبيل النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة:

إِنَّا وَاللَّهِ إِذَا اسْتَقَمْنَا أَفْلَحْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الاستقامة هي سبيل النجاح، وسبيل الفلاح. في الحياة الأولى، وفي الحياة الباقية.

يقول الله تعالى في شأن هذه الحياة: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]. أي وسَّعنا عليهم أرزاقهم، وأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، كما قال الله وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيرزقه مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الاستقامة على أمر الله، وشكر نعمته، سبيل إلى حفظها، وإلى الاستزادة منها، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

إِنَّ اللَّهَ حِينَما أَهْبَطَ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى الْأَرْضِ عَلَّمَهُمَا هَذَا الْمَبْدَأَ، وَوَضَعَ نُصْبَ أَعْيُنِهِمَا هَذَا الْقَانُونَ قَالَ: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

= حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعه وهذا أصح. عن أبي سعيد الخدري.

الاستقامة سبيل السعادة، وسبيل الفلاح للفرد وللأسرة وللمجتمع كله. إذا قال الفرد: «ربي الله»، ثم استقام على هذا، وثبت عليه، فهو سعيد وإن شقي الناس، مُفلح وإن خاب الناس، مطمئن وإن اضطرب الناس، آمن وإن خاف الناس، ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

لقد غضب زوج من زوجته فقال لها مرّة: لأشقيّنك. فقالت له الزوجة العاقلة: لا تستطيع أن تُشقينني؛ لأنّ سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحدٍ عليه غير ربي. هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة، فجنة عرضها السماوات والأرض، وملائكة تنزل ببشارة الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

الإنسان في هذه الحالة قادم على دار غير الدار، وعلى حياة غير الحياة، والغريب يستوحش، ولكن الملائكة تؤنس وحشتهم، فتقول لهم حين تتوفاهم طيبين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، أي لا تخافوا ممّا أنتم قادمون عليه، ولا تحزنوا لما خلفتم وراءكم من مال وأهل وولد، فإنّ الله وليكم في هذا كله، ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا * كُنَّا نَعْلَمُكُمْ وَنُؤَيِّدُكُمْ وَنُسَدِّدُكُمْ، وننصركم على أعدائكم، ونحفظكم بأمر الله، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، نؤنسكم عند الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، وعند البعث والنشور،

وعند المرور على الصراط، ونهديكم إلى الجنة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ^ط
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ [يونس: ٩]، وندخل عليكم
مُحَيِّينَ مُسْلِمِينَ: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ [الرعد: ٢٤].

﴿ نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣١، ٣٢]^(١).



(١) انظر: خطب الشيخ القرضاوي، خطبة بعنوان «الاستقامة وأثرها في حياة المسلم»
(٦٩/٦ - ٨١)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

الدرس الثاني عشر

التوبة

روى مسلم في صحيحه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

وجوب التوبة:

التوبة واجبة على كلِّ إنسان، كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وذلك أَنَّ إنساناً ما لا يزعم لنفسه أَنَّهُ مطهَّر من كلِّ ذنب، ومن كلِّ خطيئة، لقد جاء في الحديث: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ»^(٢). ولكن لا يضرُّ الإنسان أن يُخطئ، وإنَّما يضرُّه أن يتمادى في الخطأ والخطيئة، أن يستمرَّ في الغفلة عن الله والإعراض عنه.

إِنَّ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ أَخْطَأَ وَنَسِيَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ اللَّهُ عِزْماً، وَلَكِنَّهُ سَرَعَ أَنْ يَرْجِعَ نَفْسَهُ، وَعَادَ يَقْرَعُ بَابَ رَبِّهِ، وَيَقُولُ مَعَ زَوْجِهِ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَلَقَّيْنَا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٧٨٤٧)، عن الأغر الجهني.

(٢) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (٢٣٤١)، عن أنس.

إِنَّ الْإِنْسَانَ يُخْطِئُ وَتَزُلُّ قَدَمُهُ فِيهِوِي إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُرْقِعَ مَا فَتَقَهُ بِالتَّوْبَةِ.

التوبة هي الممحاة التي منحها الله للإنسان، ليستطيع أن يغسل بها ذنوبه، وأن يتطهر بها من ماضيه، وأن يتحرر من آثاره، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، و«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

حقيقة التوبة ومعناها:

ولكن ما التوبة؟ ما معناها؟

إِنَّ التَّوْبَةَ لَيْسَتْ كَلَامًا يَقَالُ بِاللِّسَانِ، كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ، حِينَ يَقُولُ: تَبْتُ إِلَى اللَّهِ، وَرَجَعْتُ إِلَى اللَّهِ، وَنَدِمْتُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَعَزِمْتُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

لا، ليست التوبة كلامًا.

التوبة مزيج مُرَكَّب من أشياء:

التوبة المطلوبة والمعقولة إنما هي مزيج مُرَكَّب من عدة عناصر:

أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ: أَنْ يَغْمُرَ الْقَلْبَ شُعُورٌ بِالْأَسَى وَالْحَسْرَةِ عَلَى مَا فَرَّطَ فِي جُنْبِ اللَّهِ، شُعُورٌ يَشْبَهُ ذَلِكَ الشُّعُورَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَنِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا، حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠)، والطبراني (١٥٠/١٠)، والبيهقي في الشهادات (١٥٤/١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٨)، عن ابن مسعود.

قال ذو النون المصري: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتّى لا يكون لك قرار، ثمّ تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]^(١).

فلا بدّ في التوبة من الندم والأسى والحزن والحسرة على ما فرّط العبد في جنب الله.

ثم هناك شيء آخر - وهو العنصر الثاني في هذا المزيج - يولّد شعور الندم هذا، وهو العزم الصادق على إصلاح الأمر، وتدارك ما فات، والعزم على الطاعة، وعلى ترك المعصية، فلا يعود إليها كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

لا بدّ من هذه العزيمة الأكيدة الوثيقة.

وثالثها: أن يعمل صالحاً بالفعل، ويبدّل بالسيّئات حسنات وصالحات، يُغيّر ما كان عليه من المعصية، فبدل قول الزور يتكلّم الحق، وبدل عمل السوء يعمل صالحاً، وبدل بيئة السوء يُغيّرها إلى بيئة حسنة، بيئة صالحة، تُساعده على فعل الخير.

ومن هنا كان القرآن يقرن التوبة بالإيمان والعمل الصالح: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم: ٦٠].

قرن التوبة بالإيمان؛ لأنّ المعاصي - وخاصّة الكبائر - تخدش الإيمان وتجرحه، فـ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»^(٢).

(١) الرسالة القشيرية (٢١٣/١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، عن أبي هريرة.

فلا بدّ أن يُجدّد إيمانه بالتوبة، ولا بدّ لهذا الإيمان المجدّد أن يثمر عملاً صالحاً.

هذا هو المزيج الذي لا بدّ منه في التوبة.

تاب عليهم ليتوبوا:

ثم إذا تاب العبد فإنَّ الله ﷻ يقبل منه، سنة من سنن الله تعالى في خلقه.

قيل لرابعة العدوية: إذا تبتُ تاب الله عليّ؟ قالت: يا هذا، بل إذا تاب الله عليك تبت. ثم قالت له: أمّا سمعت قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

تعني: وفقهم للتوبة ليتوبوا، فتوبتهم ثمرة لتوبته عليهم.

موانع التوبة:

ولكن: ما الذي يؤخر الناس عن التوبة؟ هذه مسألة لا بدّ أن نعرفها. إنَّ الذي يؤخر الناس عن التوبة عدة أمور:

أولها: التسويف:

التسويف، طول الأمل، اعتقاد الإنسان أنّه لا يزال له في العمر مُتسع، وفي الحياة مدى بعيد.

إنَّ ابن العشرين يظنُّ أنَّ أمامه مُتسع، وابن الثلاثين يقول نفس القول، وابن الأربعين، وابن الخمسين، وابن الستين.

كل إنسان عنده طول الأمل، وهذا للأسف يُضيع على الناس فرص التوبة، فمن الذي يدري أيعيش اليوم أم لا يعيش؟

مَنْ الَّذِي يَدْرِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ أَيْعُودُ إِلَيْهِ حَيًّا أَمْ يَعُودُ إِلَيْهِ مَيِّتًا؟
 أَيْعُودُ إِلَيْهِ حَامِلًا أَمْ يَعُودُ مَحْمُولًا؟
 تَزَوَّدَ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الْفَجْرِ؟
 فَكَمْ مِنْ سَلِيمٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
 وَكَمْ مِنْ فَتًى يُمَسِّي وَيُصْبِحُ آمِنًا وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي^(١)
 التسويف.. هذه واحدة.

المانع الثاني: هو الاستهانة بالمعصية:

الاستهانة بالمعصية والاستخفاف بها، واستصغارها، يظنُّ أنَّ ما فعله شيء قليل، وهذا ليس من شأن المؤمن، فقد جاء في حديث ابن مسعود عند البخاري: «المؤمنُ يرى ذنبه كالجبل، يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ وقع على أنفه فقال به هكذا وهكذا»^(٢). أطاره من على أنفه.

مرض بعض الصالحين، فدخل عليه مَنْ يعوده، فوجده يبكي بكاءً حارًّا، فقيل له: يا أبا فلان، ما لك تبكي؟ وأنت الذي فعلت وفعلت، ما رأينا عليك حُرمة انتهكتها، ولا فريضة تركتها. فقال: والله ما أبكي على ذلك، ولكن أبكي لأنِّي أخاف أن أكون قد أتيت ذنبًا أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم^(٣).

(١) ذكره الفاكهاني ولم ينسبه في رياض الأفهام (١٧٠/٣)، تحقيق نور الدين طالب، نشر دار النوادر، سوريا، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨)، وأحمد (٣٦٢٧)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦٥)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

وقد قال بعض السلف: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر مَنْ عصيت^(١).

فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بالمعصية، فقد قيل: الذنب الذي لا يُغفر، هو الذي يقول فيه صاحبه: ليت كل ذنب فعلته مثل هذا. استصغاراً له، واستهانةً بشأنه.

المانع الثالث: الاتكال على عفو الله:

ثم هناك مانع آخر، وهو الاتكال على عفو الله، وهذه أمنية يبذرُها الشيطان في قلب بعض الناس: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، هكذا كان يفعل اليهود، يأخذون متاع الحياة الدنيا ويقولون: سيغفر لنا. ينظرون إلى جانب العفو والمغفرة، ولا ينظرون إلى جانب البطش والعقاب، والله تعالى يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

صحيحٌ أن رحمته وسعت كل شيء، ولكن لمن كتب هذه الرحمة؟ إنه يقول: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويقول: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فإذا نظر الإنسان إلى قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فليُكمل الآية ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: ٣].

(١) القائل بلال بن سعد كما في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤/٤٥٢)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

المؤمن بين الرجاء والخوف:

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن بين الرجاء والخوف، ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، كالذين حَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وكان بعض الصالحين يقول:

ما بال قلبك تَرْضَى أن تُدْنِسَهُ وثوبك الدهر مغسولٌ من الدُّنْسِ؟
ترجو النجاة ولم تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السفينة لا تجري على اليبس^(١)

المسارعة إلى التوبة:

أيها الإخوة: ينبغي أن نُسارع بالتوبة، ينبغي أن نُبادر فنراجع حسابنا مع الله وَجَلَّ، ونصحح أخطاءنا، ونقف على باب ربنا مُسْتَغْفِرِينَ تَائِبِينَ، نقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، خير ما نخرج به من رمضان توبة صادقة نصوح، نكفر بها سيئاتنا، ونغسل بها أوزارنا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨].

أَسْأَلُ اللهَ وَجَلَّ، أن يتوب علينا، وأن يوفقنا إلى التوبة الصادقة النصوح.. إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ^(٢).

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: زهر الآداب وثمر الألباب (٨٧١/٣)، نشر دار الجيل، بيروت.

وهما في ديوانه ص ٢٣٠ - دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م - في قصيدة واحدة غير متتاليتين.

(٢) راجع ما ذكرناه في كتبنا: التوبة إلى الله، من سلسلة في الطريق إلى الله، وخطب الشيخ

القرضاوي (٣٢/١ - ٦١)، خطب: التوبة، وأركان التوبة النصوح وشروطها، نشر مكتبة وهبة،

القاهرة، ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٢٣٧/٧ - ٢٥٣)، ومن ثمرات رمضان: التوبة، وبواعث

التوبة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

الدرس الثالث عشر

الحلال والحرام

روى الشيخان عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْحَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يَوْشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

منزلة الحديث:

هذا الحديث الشريف، أصل من الأصول التي يدور عليها شرع الإسلام، من الأئمة من جعله رُبع الإسلام، ومنهم من جعله ثلث الإسلام.

الشرع والفتنة بين الحلال والحرام:

وقد بيّن فيه رسول الله ﷺ : أَنَّ الْحَالَ بَيِّنٌ وَأَنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، بَيِّنٌ بِالْشَّرْعِ، وَبَيِّنٌ بِالْفِطْرَةِ.

أَمَّا الشَّرْعُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدْعِ النَّاسَ فِي غُمَّةٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ ما يُبين للناس ما يحلُّ لهم وما يحرم عليهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال ﷺ: «قد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١).

وحينما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى واختاره الله لجواره، شكَّ بعض الناس في موته، فقال عمُّه العباس رضي الله عنه: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَا مَاتَ حَتَّى تَرَ لَنَا السَّبِيلَ نَهْجًا وَاضِحًا، فَأَحَلَّ الْحَلَالَ وَحَرَّمَ الْحَرَامَ^(٢).
فالحلال بين والحرام بين.

بين بالوحي، وبين بالفطرة.

فالناس يعرفون الحلال من الحرام بفطرتهم.

قُلْ فِي النَّاسِ مَن يَجْهَلُ: أَنَّ الْقَتْلَ حَرَامٌ، وَأَنَّ السَّرْقَةَ حَرَامٌ، وَأَنَّ الْخَمْرَ حَرَامٌ، وَأَنَّ الزَّانِيَ حَرَامٌ، وَأَنَّ الرِّبَا حَرَامٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتُ حَرَامٌ، مَن فِي النَّاسِ يَجْهَلُ ذَلِكَ؟!

مَن فِي النَّاسِ يَجْهَلُ أَنَّ أَخْذَ الْمَالِ قَهْرًا وَغَصْبًا حَرَامٌ؟ أَوْ سَرْقَتَهُ خَفِيَّةٌ حَرَامٌ؟!

مَن فِي النَّاسِ يَجْهَلُ أَنَّ ارْتِكَابَ الْمَظَالِمِ وَالْإِعْتِدَاءَ عَلَى الضَّعَفَاءِ حَرَامٌ؟!

(١) سبق تخريجه ص ٩٥.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة (٨٤)، عن عكرمة.

هذا أمر بيّن بالفطرة، كما هو بيّن بالشرع، ولعلّ ممّا يُبيّن أنّ هذا واضح بالفطرة، ما ذكره أحد العلماء: أنّك تعطي الهرة قطعة من اللحم، فتأكلها وهي مطمئنة أمامك وبجوارك، فإذا خطفت هي منك قطعة من اللحم أخذتها وهرولت وعدت عدوًا سريعًا، كأنّ هذه القطعة تعرف بالفطرة وبالطبيعة أنّ ما أُعطي لها فهو مباح لها وحلال، وأنّ ما اختطفته خطفًا حرام تعاقب عليه، فهي تسعى وتعدو حتّى لا يلحقها عقاب.

فالحلال بيّن والحرام بيّن.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ؟

وإذا كان الحلال بيّنًا، فلا حرج في فعله، ولا حياء فيه، ولا مؤاخذه عليه، أحله الله، فهو حلال إلى يوم القيامة. لا يبالى الإنسان بالناس، ولا يتزمت ويشتدّد على نفسه فيحرّم الحلال، كما فعل كثير من أهل الملل ومن أصحاب الديانات، الذين شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ولقد استنكر القرآن أن يُحرّم الناس ما أحلّ الله، فقال ﷻ: ﴿يَبْنَىءْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿[الأعراف: ٣١، ٣٢].

الحلال لا حرج في فعله، ولا ينبغي للإنسان أن يغلو ويتشدّد فيحرّمه على نفسه، فإنّ هذا من فعل الشيطان، وتحريم الحلال قرين الشرك.

متى يحلّ الحرام؟

والحرام لا رخصة في إتيانه، إلّا للضرورة، التي لولاها لهلك الإنسان هلاكًا، وهذه الضرورة تُقدّر بقدرها، أخذًا من قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

غير باغ: أي غير مُتَلَذِّذ ولا طالب لهذا الحرام، أو غير باغ على حق غيره، ولا عاد: أي مُتَعَدِّ مُتَجَاوِز قدر الضرورة.

مَنْ اضطر وفعل هذا الحرام، لهذه الضرورة، بهذا القدر، فلا إثم عليه، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وبدون هذه الضرورة فعلى المؤمن أن يرفض الحرام، فَإِنَّ وِرَاءَهُ عَذَابُ اللَّهِ، ووراءه النَّارُ، ووراءه غضب الجبار.

إِثَارَ مَحَنَةِ الدُّنْيَا عَلَى مَحَنَةِ الدِّينِ:

على المؤمن أن يرفض الحرام رفضاً، كما فعل سيّدنا يوسف عليه السلام، حيث عرضت عليه امرأة ذات منصب وجمال نفسها، وراودته عن نفسه وهو في بيتها، وهو خادمها وهي سيّدته، وهي امرأة العزيز، ﴿وَرَاودَتْهُ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فماذا فعل هذا الشاب؟! وهو في ريعان شبابه؟! وفي نضرة فتوته؟! ماذا فعل؟! ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رِجْءٌ أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ﴿إِنَّهُ رِجْءٌ﴾ أي: هذا الرجل الذي أكرمني وآواني سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، مَنْ ارتكب الحرام، وهتك العرض، وخان الأمانة، فلن يُفْلِحَ أبداً، لا في أخراه، ولا في دنياه ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وعاودت المرأة الكثرة، أمام نسوة في المدينة، وهددته قائلة: ﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وكان يوسف بين محنتين: إمّا أن يُمتحن في دينه، فيرتكب الفاحشة، ويكون من الفاسقين. وإمّا أن يُمتحن في دنياه، فيدخل السجن، ويكون من الصاغرين، على زعمها، فأثر المحنة في الدنيا على

محنة الدين، وقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٥]، ورفض يوسف الحرام.

وقد حدث مثل هذا لعبد الله بن عبد المطلب في الجاهلية، حيث راودته امرأة عن نفسه، فقال لها ما روته كتب السير والأدب:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ وَالْحَلُّ لَا حُلَّ فَاُسْتَبِينَهُ
يَحْمِي الْكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيهِهُ؟^(١)

منطقة الشبهات:

الحرام الذي لا رخصة في فعله، والحلال البين لا حرج في فعله، ولكن هناك بين الحلال البين والحرام البين منطقة هي منطقة الشبهات، التي تلبس على كثير من الناس. الأمور التي تشبه على الإنسان، إمّا لأنه يجهل حكمها، أو لاختلاف الدليل فيها، لا يعرف أي الدليلين أقوى. أو اختلف العلماء: هذا يُحَلَّلُ وهذا يُحَرِّم. ولم يستطع أن يطمئن قلبه إلى أحدهما.

أو لأنّ الأمر اختلط عليه، هذا مال لا يدري أصله، أهو حلال أم حرام؟ مثل هذه الأمور، ماذا يصنع فيها المسلم؟!

موقف المسلم من الشبهات:

إنّ الورع، يتورّع عن هذه الشبهات، ويدعها لله، حتّى لا يجترأ عليها، فيجترأ على الحرام.

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣٥٠)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

ولهذا قال السلف: اجعل بينك وبين الحرام حاجرًا من الحلال. وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»^(١). هذا ورع المتقين، وأدنى من ذلك أن يدع الشبهات التي فيها بعض البأس، خشية أن يقع في الحرام الذي فيه البأس كل البأس.

فالشبهات ما اشتبه على الإنسان، ينبغي على المؤمن أن يتركها، وقد روى الحسن بن علي رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، أي دع ما تشك فيه إلى ما لا تشك فيه، «فإن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة»^(٢). فكل ما يريبك، أي يجعل نفسك في قلق، وقلبك في اضطراب، فاتركه، «استفت قلبك»^(٣)، فإذا لم يطمئن قلبك إلى هذا فدعه. ولهذا كان بعض السلف يقول: ضع يدك على صدرك، فإذا وجدته مطمئنًا فأقبل، وإن وجدت فيه قلقًا واضطرابًا فدعه. وهذا بالنسبة لقلب المسلم، الذي لا يزال فيه النور، ولا يزال فيه شعاع الهداية، وما زال قلبه كالإبرة الممغنطة، تحدّد الاتجاه، فيعرف اتجاهه، أمّا القلب الذي رانت

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣١٩/٤) وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

(٢) رواه أحمد (١٧٢٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٨) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في الأشربة (٥٧١١)، وابن حبان في الرقائق (٤٩٨/٢)، والحاكم في البيوع (١٥/٢) وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن الحسن بن علي.

(٣) رواه أحمد (١٨٠٠٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والدارمي في البيوع (٢٥٣٣)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨٣)، وحسنه النووي في الأربعين، الحديث السابع والعشرون، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤): حسن لغيره. عن وابصة بن معبد.

عليه الشهوات، وتراكت عليه ظلمات المعاصي، فهيئات أن يُستفتى! فإنه لا يُفتي إلا بالشر، ولا يُفتي إلا باتباع الهوى.

حال الرسول ﷺ والصحابة عند الشبهات:

المسلم يدع الشبهات، خشية أن يقع في الحرام، وهكذا كان رسول الله ﷺ، كان يجد التمرة في بيته، فيريد أن يأكلها وهو جائع، فيخشي أن تكون قد سقطت من تمر الصدقة، ولا حق له فيه، فإن هذا مال عام، وقد حُرِّمَت عليه الصدقة، فيتركها، وقد أرق رسول الله ﷺ ليلة فبحث عنه إحدى نسائه، فوجدته قائماً، فقالت له: يا رسول الله، أرقّت الليلة! فقال: «إني كنت قد وجدتُ ثمرةً تحت جنبي، فأكلتها، ثم خشيتُ أن تكون من تمر الصدقة، فهذا الذي أرقني»^(١). ثمرة خشية أن تكون من تمر الصدقة، الذي يجمع في بيته، فأرقّت عليه ليله، وأطارت النوم من أجفانه، ونغصت عليه حياته، ثمرة واحدة خشية أن تكون ممّا لا يحلُّ له، اشتبه مجرد اشتباه.

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أكل قطعاً من العنب، جاء به خادم له، ثم لما أكل بعض الحَبَّات قال له: من أين جئت بهذا؟ فقال: إني مررتُ على قوم، فرقيت لهم في الجاهليّة، ولم أكن أحسن الرُّقى، فأعطوني شيئاً، فاشتبه سيدنا أبو بكر في هذا الأمر، فأدخل أصبعه فيه، وظلَّ يحاول القيء، حتّى يُخرج هذا، وهو يحاول ويتعمّد، حتّى شقَّ عليه ذلك، فقليل له: يا خليفة رسول الله، ما لك تفعل هذا؟ فقال: والله لو لم تخرج إلا مع

(١) رواه أحمد (٦٧٢٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٤٨٢):

رواه أحمد ورجاله موثقون. عن عبد الله بن عمرو.

رُوحِي لِأَخْرَجْتُهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُخْتٍ، النَّارُ أُولَى بِهِ»^(١).

حال السلف عند الشبهات:

وهكذا كان سلفنا رضوان الله عليهم يخافون الشبهات.

محمد بن المُنْكَدَر كان له غلام يبيع في الدَّكَانِ مناديل، فباع منديلاً ثمنه خمسة، باعه لرجل بعشرة، فلمَّا رجع وجده قد باع هذا للأعرابي، فقال له: كيف تبيع ما ثمنه خمسة بعشرة؟ فقال: إِنَّ الرجل قد ارتضى ذلك؟ قال: ولكن كيف ترضى له ما لا ترضاه لنفسك؟ ثُمَّ ظَلَّ يَبْحَثُ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ نَهَارًا كَامِلًا حَتَّى عَثَرَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الَّذِي اشْتَرَيْتَهُ بِخَمْسَةِ. قَالَ: وَلَكِنَّهُ يَسَاوِي عَشْرَةَ وَقَدْ رَضِيتُ بِهِ. قَالَ: وَلَكِنَّا لَا نَرْضَى لَكَ إِلَّا مَا نَرْضَاهُ لَأَنْفُسِنَا، إِمَّا أَنْ تَأْخُذَ وَاحِدًا آخَرَ، وَإِمَّا أَنْ نَعْطِيكَ خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ. فَقَالَ: أَعْطِنِي خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ. وَأَعْطَاهُ خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ. هَكَذَا كَانُوا يُشَدِّدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ^(٢).

ويزيد بن زُرَيْع خَلَفَ لَهُ أَبُوهُ مِيرَاثًا يُقَدَّرُ بِخَمْسِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَكِنْ يَزِيدُ تَرَكَهُ، لِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَعْمَلُ لِبَعْضِ السُّلَاطِينِ الظُّلْمَةَ، فَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا الْمَالِ حَرَامٌ، أَوْ ظُلْمٌ، أَوْ غَضَبٌ أَوْ نَهْبٌ، أَوْ رَشْوَةٌ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَتَرَكَهُ. وَظَلَّ هَذَا الرَّجُلُ يَعْمَلُ فِي صِنْعَةِ الْخُوصِ - سَعْفِ النَّخْلِ - وَظَلَّ يَتَقَوَّى مِنْهَا إِلَى أَنْ مَاتَ^(٣). وَهُوَ يَتْرَكُ رَاضِيًا مُخْتَارًا «نِصْفَ مِليونِ دِرْهَمٍ»، تَسَاوَى فِي زَمَنِنَا مِائَاتِ الْمِلايين!

(١) رواه أحمد (١٥٢٨٤)، وقال مخرّجه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في السفر

(٦١٤)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) إحياء علوم الدين (٨٠/٢).

(٣) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٢١٦/٢)، تحقيق أحمد علي، نشر دار الحديث، القاهرة،

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

من حام حول الحمى وقع فيه:

هكذا كان سلفنا، ما اشتبه عليهم تركوه، فإنَّ الشُّبهة إذا تجرَّأ الإنسان عليها تُوشك أن تُوقعه في الحرام، كما قال ﷺ في بعض الروايات: «مَنْ اجترأ على ما يشكُّ فيه من الإثم أوشك أن يُواقع ما استبان»^(١). ولهذا قال في هذا الحديث: «وَمَنْ وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»^(٢).

حمى الله محارمه:

الحمى، ما كان يحميه الملوك والسلاطين لِإِبلهم وأنعامهم ترعى فيه، ولا يقربه أحد، فمن اقترب منه استحقَّ العقوبة. فيُشبه النبي ﷺ حدود الله بالحمى، الذي لا يجوز الاقتراب منه، ولا يجوز تعديّه، وقد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، ما حدّه الله في كتابه، فبيّن فيه الحلال من الحرام، لا يجوز للإنسان فيه أن يتعدّى الحلال، ولا أن يقترب من الحرام، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

«ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله في أرضه محارمه».

محارم الله هي الحمى الذي منع الله النَّاس أن يقتربوا منه، ولهذا كان أسلوب الإسلام في المنع من الحرام هو سدُّ الذريعة إليه، فيقول في النهي عن الزنى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، أي اجعل بينك وبين الزنى مسافة، فلهذا حرّم الخلوة بالأجنبية، وحرّم التبرُّج، وحرّم كل ما يؤدي إلى هذه الفاحشة الكبيرة.

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥١)، عن الثُّعْمَان بن بشير.

(٢) سبق تخريجه ص ١٣٤.

فإذا كان النَّاس يهابون الملوك والرؤساء ويتعدون عن حماهم خشية غضبهم وعقوبتهم، فإنَّ حمى الله هو: المحارم، فعلى المسلم أن يبتعد عنها، ولا يقترب منها، وأن يدقق في أمر الحلال والحرام، فإنَّ الأمر أمر جنَّة أو نار، أمر ثواب أو عقاب.

ورع الإمام أحمد بن حنبل:

وكان أحمد بن حنبل رحمته الله لا يستمدُّ من مَحَابِر النَّاس، وإنما يُخرج معه محبرةً يستمدُّ منها، حتَّى لا يحتاج إلى أن يملأ قلمه من محبرة غيره.

وجاء مرَّة بسمنٍ ملفوف في ورقة، فقال: ردُّوا هذه الورقة على البائع فليست من حقِّنا^(١).

وهذا طبعي في إنسان يدقُّ في أمر الورع، ويُبَالِغ في الاحتياط.

ورعُ مُستنكر:

أَمَّا مَنْ كان يتقحَّم في المحرِّمات، ويقع في الكبائر، ويتورَّط في الفواحش، ثمَّ يأتي في الأمور الصغيرة فيدَّعي الورع، فهذا لا يقبل منه. ولهذا أنكر السلف على مَنْ يفعل ذلك، وقد جاء قوم من الكوفة يسألون ابن عمر عن دم البعوض، فقال: قاتلهم الله، يسألونني عن دم البعوض وقد سفكوا دم الحسين رحمته الله، وسمعت النبي صلَّى الله عليه وآله يقول: «هما ريحانتي من الدُّنيا»، وهما الحسن والحسين رحمتهما الله^(٢).

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (١٥٧/٢)، نشر عالم الكتب.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٧٥٣)، عن ابن عمر.

فَمَنْ كَانَ هَكَذَا لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَدَّعِيَ الْوَرَعَ فِي الْأُمُورِ الْمُشْتَبِهَاتِ، وَهُوَ يَرْتَكِبُ الْمُحَرَّمَاتِ، عَلَيْهِ أَوْلَا أَنْ يَجْتَنِبَ الْحَرَامَ الْمُحْضَ، ثُمَّ يَبْحَثَ عَمَّا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ.

المسلم الحق هو الَّذِي يَدَّعُ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ، وَيَتْرَكُهُ لِلَّهِ وَرَجُلٌ، حَتَّى لَا يَجْزِيَهُ ذَلِكَ إِلَى الْحَرَامِ، فَإِنَّ قَلْبَ الْإِنْسَانِ إِذَا أَنْسَ الشَّبَهَاتِ، وَقَعَ فِي الْمَكْرُوهَاتِ، وَإِذَا وَقَعَ فِي الْمَكْرُوهَاتِ هَانَ عَلَيْهِ الْحَرَامُ، وَإِذَا هَانَ عَلَيْهِ الصَّغِيرَةُ هَانَ عَلَيْهِ الْكَبِيرَةُ، وَإِذَا وَقَعَ فِي كَبِيرَةٍ، فَرَّطَ فِي كِبَائِرٍ وَكِبَائِرٍ، حَتَّى يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ ظُلَامًا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - كَمَا قَالَ اللَّهُ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

القلب ملك الجسد:

وَالْأَمْرُ كُلُّهُ مَرْجِعُهُ إِلَى الْقَلْبِ، الْقَلْبُ إِذَا امْتَلَأَ إِيمَانًا وَخَشْيَةً لِلَّهِ فَهُوَ الَّذِي يَقِفُ بِالْمُسْلِمِ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ، وَيُجَنِّبُهُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيُحَذِّرُهُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا خَتَمَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَدِيثَ بِقَوْلِهِ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

مَرْجِعُ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَى الْقَلْبِ، وَ«لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ»^(١).

فَالْقَلْبُ فِي الْأَعْضَاءِ بِمَنْزِلَةِ الْمَلِكِ مِنَ الرِّعِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ صَالِحًا صَلَحَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتْ جُنُودُهُ وَأَتْبَاعُهُ. كَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا كَانَ سَلِيمًا مِنَ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ وَحُبِّ الدُّنْيَا، وَكَانَ مُمْتَلَأًا بِخَشْيَةِ

(١) سبق تخريجه ص ١٢٣.



الله وَحَبْلُ ومحبته، فَإِنَّ الجوارح كلّها ستنقاد له، وستُطيع أمره، وستسير على نهجه.

أَمَّا إِذَا فسد القلب، فتهيأت أن تصلح الجوارح، في أمور الحلال والحرام، وفي سائر الأمور. لهذا جعل الله مناط النجاة في الآخرة (القلب السليم)، ومناط دخول الجنّة (القلب المنيب)، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وقال في أهل الجنّة: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

نسأل الله أن يُصلح قلوبنا، وأن يُطهّر سرائرنا، وأن يقفنا عند حدوده.



الدرس الرابع عشر

ذكرى غزوة بدر

يوم الفرقان:

نعيش اليوم في رحاب سيرة رسول الله ﷺ، وسيرته جزء من سُنَّته، في يوم السابع عشر من رمضان، في السُّنَّة الثانية من الهجرة، انتصر فيها المسلمون وهم قلة في العدد، وقلة في العدد، على أعدائهم الذين جاؤوا بقضهم وقضيضهم من مكة.

خرجوا منها بطراً ورثاء النَّاس ويصدُّون عن سبيل الله.

نعيش اليوم في رحاب ذكرى عاطرة، ذكرى غزوة بدر الكبرى، تلك الغزوة التي احتفل بها الله، واحتفل بها رسوله، واحتفل بها المسلمون.. احتفل الله بها فسَمَّى يومها: يوم الفرقان، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْصِيلِ إِنَّ الْجَمْعَانَ وَاللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

إنَّه يوم فرَّق الله فيه بين الحقِّ والباطل، وبين الإسلام والجاهليَّة، وبين التوحيد والشرك، وقد أنزل في شأن غزوة بدر سورة الأنفال.

مكانة البدرين:

واحتفل بها رسول الله ﷺ، فقال في رجل من أهل بدر - هو حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه -: «ما يدريكم، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فإنني قد غفرت لكم».

وكان حاطب أراد أن يطلع قريشاً على عزم النبي ﷺ على فتح مكة، وكتب لهم كتاباً بذلك، فأخبر الله رسوله ﷺ، فاستأذن عمر رسول الله أن يضرب عنقه، قال: دعني أضرب عنقه، فإنه قد نافق. فقال له رسول الله ﷺ ما قال^(١).

واحتفل المسلمون بأصحاب بدر، فكان الرجل الذي شهد هذه المعركة له مكانة في أنفسهم، يسمونه بدرياً، ويحتفون به ويعظمونه، بل كانوا يعظمون ذريته فيقولون: كان أبوه بدرياً، وكان جدّه بدرياً.

أي إنّ بركة هذه الغزوة، ظلّت في ذريته من بعده، مفخرة يفخر بها، تلك هي الغزوة، التي أعزّ الله فيها الإسلام، ونصر الحق.

انتصار المسلمين:

كان المسلمون قد خرجوا للقاء عيرٍ لقريش (قافلة تجارية) عائدة من الشام، يقودها أبو سفيان، وفيها سلع وأشياء قيمتها نحو خمسين ألف دينار، وهي مؤلفة من حوالي ألف بعير، كانت تحمل تجارةً لقريش.

قريش التي استضعفت المسلمين بمكة، وصادرت ما للمسلمين من أموال فيها، استولت عليها ظلماً وعدواناً، ومنعت كثيراً منهم أن يهاجروا ويلحقوا بإخوانهم في المدينة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، عن علي.

تأديب قريش:

أراد النبي ﷺ أن يؤدّب قريشاً في غيرها وفي تجارتها، وأن يضربها ضربةً اقتصاديةً مفاجئة، عسى أن يفيقوا من سكرتهم، وعسى أن يكون في ذلك بعض التعويض لما أصاب المسلمين من خسائر.

هكذا أراد النبي ﷺ، وأراد أصحابه معه، وخرجوا للقاء العير، وكان الرجال الذين يحرسون العير ويصحبونها أربعين رجلاً، فهو لقاء سهل لئن لا شوكة فيه، ولن يكون فيه حرب تُذكر، ولكن الله ﷻ كان هو الذي يُدبّر هذه المعركة.

يد الله تدبّر المعركة:

كان الله هو الذي دبّر هذه المعركة، هو الذي هيأَ زمانها، وهيأَ مكانها، هناك في بدر، حيث المسلمون بالعدوة الدنيا، والمشركون بالعدوة القصوى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

الله الذي هيأَ هذه المعركة، وهيأَ مكانها وزمانها، وهو الذي قادها، فكانت يده سبحانه، هي التي تُدير رحاها، وإلا ما كان هذا العدد القليل، الذي جاء على غير استعداد، وعلى غير أهبة، ليستطيع أن يقف أمام جيش جرار، خرج من مكة للحرب، خرج مُستعداً مهياًً بأسلحته وعتاده.

بين جيش المشركين وجيش المسلمين:

خرجت قريش بطراً ورناء الناس، كان معهم مائة فارس، والمسلمون ليس معهم إلا فارسان (الزبير والمقداد)، وكان الفرس في ذلك الحين بمنزلة المصفحة أو الدبابة في عصرنا.

وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان المشركون حوالي الألف.

كانت ركائب المسلمين قليلة، فكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيراً واحداً، كل واحد يركبه مرحلة، وكان زاد المسلمين قليلاً، كانوا يأكلون التمر، والمشركون يذبحون كل يوم عشرة نياق أو تسعة، ولذلك كان من دعاء الرسول لأصحابه: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم، عالة فأغنهم، حفاة فاحملهم»^(١).

المطر من جند الله ﷻ في هذه المعركة:

إنَّ الله هو الذي كان يقود المعركة، ويهيئ أسباب النصر للمسلمين، فكان الموقع الذي للمسلمين رملياً يثور منه الغبار، وكان المسلمون عطاشاً، وأصاب بعضهم جنابة، ووسوس إليهم الشيطان.

لكنَّ الله حلَّ هذه المُشكلات كلها بمطر أنزله، لبَد الأرض الرملية من تحت أرجلهم، وشرب منهم وارتوى من كان عطشاً، وسقى دابته من أراد، وحمل في قربته من كان معه قربة.

وهكذا يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

الملائكة جند السماء:

كان المطر من جند الله ﷻ في المعركة، وأنزل الله جنداً آخرين لنصر المسلمين، أمدَّ المسلمين بهم، وهم الملائكة، أنزلهم الله تعالى بعد أن

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٤٧)، والحاكم في قسم الفيء (١٣٣/٣)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٨٦)، عن عبد الله بن عمرو.

استغاث الرسول وأصحابه، بالله، بربهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

طلب النصر من الله ﷻ:

كان النبي ﷺ، يستغيث بربه ويدعوه، ويلج عليه، حتى سقط الرداء عن منكبه، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن أعبد في الأرض بعد اليوم، اللهم نصرك الذي وعدت»^(١)، إن تهلك هذه العصابة فلن أعبد في الأرض بعد اليوم؛ لأنه لا دين بعد الإسلام، ولا رسول بعد محمد، ولا كتاب بعد القرآن.

لا بدّ - إذن - من طلب النصر، فمصير الأديان، ومصير عبادة الله وتوحيده يتقرّر في هذه المعركة.

استغاث رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، فنزل النصر وأمدّهم بجندٍ من عنده: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. ووجه الله هذا المدد بنصر المسلمين وقاتل المشركين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

رمي المشركين بحفنة من تراب:

وخرج النبي ﷺ يحمّس أصحابه، ويشدّ أزرهم، ويستحثّ همهم، ويقول في شأن المشركين: «سيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»^(٢). ثم يرمي في

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، عن عمر.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٥)، عن ابن عباس.

وجوه المشركين بحفنة من تراب في يده، فلم يبق مُشرك إلا ملاً التراب عينيه وأنفه وفمه، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

ترى... هل كانت هذه رمية بشر أم رمية من ورائها قوّة القضاء والقدر؟

إنّها رمية من ورائها يد الله وَعَلَّكَ، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

إنّ الله سُبْحَانَهُ كان يُدبّر هذه المعركة ويديرها ويقودها، هو الذي أنزل المطر، هو الذي أنزل الملائكة، هو الذي هيأ للمسلمين كلّ هذه الأسباب.

انتصار القلّة المؤمنة:

وانتصر المسلمون على المشركين رغم قلة عدد المسلمين، ولكن هذه القلّة كانت قلة مؤمنة، لم تُبالِ بشيء في سبيل الله، قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»^(١)، فسمع ذلك رجل من الأنصار اسمه عُمير بن الحُمام، فقال: يا رسول الله، ما بيني وبين الجنة؟ قال: «أن تتقدّم فتقاتل فيقتلك هؤلاء». وكان في يده تمرات يلوكها، فرماها من يده، وقال: أأعيش حتّى آكل هذه التمرات، إنّها لحياة طويلة. ورمها وظل يقاتل ويقول:

رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلَ الْمَعَادِ
وَالصَّبْرَ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ^(٢)

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٩٠١)، وأحمد (١٢٣٩٨)، عن أنس.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٤٤٧/٢، ٤٤٨).

سأل النبي ﷺ ذات مرّة أصحابه: «أتدرون ما الَّذي يُضحك الربّ من عبده؟ أن يلقى العدوَّ حاسراً، لا درع عليه، ولا مِجَنٍّ»^(١).

هنالك خلع بعض الصحابة درعه ومِجَنَّه وخاض المعركة حاسراً، ليُري هؤلاء الكفرة أنّ المسلم لا يُبالي بالموت في سبيل، حتّى قال أحد المشركين في وصف المسلمين: إنّها البلايا، تحمل المنايا^(٢).

هكذا كان المسلمون، ولا عجب أن انتصروا على عدوهم رغم الظواهر الماديّة التي ربّما تُوحى لبعض النّاس، أنّ النصر مع الكثرة المُستعدّة المُتحمّسة، التي خرجت تملأ رؤوسها العصبية للأصنام، والانتصار للعرير والقافلة والتجارة.

ولكن رأينا رسول الله ﷺ، ورأينا المسلمين معه، رأيناهم أحقّ بالنصر؛ لأنّهم نصروا الله، ومن نصر الله كان جديراً بأن ينصره الله، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

لقد نصروا الله وحده، ما نصروا أحداً.

حُبُّ الله في قلوب أهل بدر:

كان أحدهم يُقاتل أباه، حتّى قتل أبو عُبَيْدَة أباه^(٣)، وأراد أبو بكر أن يقاتل ابنه، وكان الرجل من المسلمين يقاتل أخاه، مثل: مصعب بن عُمَيْر

(١) رواه البيهقي في السير (٩٩/٩)، عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥/٢ - ١٦)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨ م.

(٣) جعل أبو أبي عبيدة يتصدى لابنه أبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله ﷻ فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المجادلة: ٢٢] إلى آخر الآية. رواه الطبراني (١٥٤/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩٠٩): إسناده منقطع ورجاله ثقات.

في صفوف المسلمين، وأخوه أبو عزيز في صفوف المشركين، وحينما أسره أحد الأنصار قال له مصعب: اشدّد يدك به، فإنّ له أمّا بمكّة كثيرة المال. فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بي، يا أخي؟ فقال له: إنّهُ اليوم أخي دونك^(١).

إنّها أخوة الإيمان، إنّها العقيدة، إنّهُ التجرّد لله، فلا عجب أن ينتصر هؤلاء.

فيا أيّها الذين آمنوا، خذوا العبرة من بدر، خذوا العبرة من هذه الغزوة، وانصروا الله ينصركم الله، ويثبّت أقدامكم، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/٦٤٦)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

الدرس الخامس عشر

الاعتصام بسُنَّة النبي والراشدين

روى أبو داود والترمذي، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت لها الأعين، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع، فأوصنا. فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يَعْش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»^(١).

موعظة بليغة:

يُحدِّثنا العرباض بن سارية أحد الصحابة رضوان الله عليهم، أنَّ رسولَ الله ﷺ، وعظهم يومًا موعظة بليغة، وكان يتخولهم بالموعظة مخافة السَّامة عليهم، لقد وجلت القلوب من تلك الموعظة المؤثرة، وذرفت العيون. وكان رسول الله ﷺ كما روى عنه جابر بن عبد الله، إذا خطب فذكر الساعة اشتدَّ غضبه، وعلا صوته، واحمرت عيناه، كأنه مُنذر جيش يقول: «صَبِّحْكُمْ وَمَسَّكُمْ»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مخرَّجوه: صحيح. وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٠٧)، والترمذي في

العلم (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم في العلم (١٧٤/١) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد (١٤٩٨٤)، وابن ماجه في المقدمة (٤٥)، عن جابر بن عبد الله.

لذا وجلت قلوب الصحابة من تلك الموعظة المؤثرة، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢]، ووصف القرآن الكريم فقال: ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

موعظة مودّع:

سمع الصحابة ما وعظهم الرسول به، فعرفوا من ثنايا كلامه ﷺ، أنه يودّعهم، وكأنّ الرسول قد أحسّ بدنو أجله، فأبلغ في الموعظة، والمودّع يستقصي في قوله وفي وصيته وفي عمله ما لا يستقصي غيره، ولهذا كان يوصي ﷺ أصحابه فيقول: «صلّ صلاة مودّع»^(١).

أي اعتبر هذه الصلاة آخر صلاة في عمرك، تودّع بها الدنيا، ولو عرّف الإنسان أنّ الصلاة التي يؤدّيها هي آخر صلاة له، وختام عبادته في الأرض، لأتقنها وجودها وأقامها واجتهد فيها.

وذلك حين أبلغ الرسول ﷺ، في تلك الموعظة واستقصى فيها، قالوا: يا رسول كأنّها موعظة مودّع، فأوصنا.

أي: اذكر لنا وصيّة جامعة شافية كافية، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد».

(١) رواه أحمد (٢٣٤٩٨)، وقال مخرّجه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في الزهد (٤١٧١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٢٧/٤): إسناده ضعيف وعثمان بن جبير قال الذهبي في الطبقات: مجهول، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال البخاري وأبو حاتم: روى عن أبيه عن جده عن أبي أيوب. قال السندي في حاشيته على ابن ماجه (٥٤٣/٢): لكن كون الحديث من أوجز الكلمات وأجمعها للحكمة يدل على قربته إلى الثبوت فليتأمل. وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٦٣)، عن أبي أيوب الأنصاري.

التقوى أمُّ الوصايا:

أوصاهم أولاً بالتقوى، وهي أمُّ الوصايا، وهذه هي الوصية الجامعة المانعة، وصية الله للأولين والآخرين، قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

جاء رجل يسأل أحد العلماء ويقول له: أوصني وأوجز. فقال: عليك بآخر آية من سورة النحل، وتلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقد أشار النبي ﷺ، يوماً إلى صدره وقال: «التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره ثلاثاً^(١)، أي ليست التقوى ضورة تخذع، ولا ثوباً يرفع، ولا مسبحة تعلق، ولا لحية تُطال، ولا عمامة تكوّر، ولا أي شيء من ذلك، ما لم يكن لهذا كله أصل في أعماق القلب.

خشية الله ﷻ هي سرُّ التقوى وأساسها ولبابها؛ أن يستشعر الإنسان أن الله معه حيثما كان، في سرّه ونجواه، في مصبحه وممسه، في مراحه ومغده، في خلوته وجلوته، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

السمع والطاعة للقيادة المؤمنة:

ثم قال ﷺ: «وعليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد».

أوصاهم لدينهم ودنياهم بالتقوى، ثم أوصاهم لجماعتهم ووحدتهم بالسمع والطاعة، بأن يتعلموا النظام، ويتعلموا الطاعة للقيادة، فقد كان

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٨٧٢٢)، عن أبي هريرة.

العرب قبل الإسلام قبائل شتّى، ووجهات متعددة، كل قبيلة بمثابة دولة بنفسها، وحكومة مُستقلة عن سواها، لا تجمعهم رابطة، ولا يُؤلّف بينهم نظام، ولا يقودهم إمام.

فلَمَّا جاء الإسلام أراد أن يفهمهم معنى الجماعة، معنى الدولة، معنى الحكومة والأمة، وأن يُعلّمهم النظام، ويُعلّمهم الطاعة. ومن هنا تكرّرت الأحاديث النبوية تُوصي بالسمع والطاعة، فإنّه لا يُمكن أن تنجح أمة ذات رسالة في الأرض، مهمّتها أن تُخرج النّاس من الظلمات إلى النّور، وأن تُؤدّب الجابرة، وأن تُعلّم الأكاسرة والقيصرة، وأن تقود النّاس إلى عبادة الله، فلا يتخذ النّاس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

لا تنجح أمة هذا شأنها حتّى تكون لها قيادة، وحتى يُعرف لهذه القيادة حقّها، وحتى تُطاع هذه القيادة بالمعروف، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ضوابط الطاعة:

جاء في الصحيحين: «إنّما الطاعة في المعروف»^(١).

وقال معاذ بن جبل: يا رسول الله، أرايت إن كان علينا أمراء لا يستنّون بسُنّتكَ، ولا يأخذون بأمرِكَ، فما تأمرنا في أمرِكَ؟ فأجاب النبي ﷺ بجواب جامعٍ وقال: «لا طاعة لمن لم يُطع الله ورسوله»^(٢).

(١) متّفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠)، عن علي.
(٢) رواه أحمد (١٣٢٢٥)، وقال مخرّجوه: إسناده محتمل للتحسين. وأبو يعلى (٤٠٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩١٤١): رواه أحمد وأبو يعلى وفيه عمرو بن زينب ولم أعرفه وبقيّة رجاله رجال الصحيح. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢١)، عن أنس بن مالك.

فالنبي ﷺ، يأمر بالطاعة، أي في غير المعصية، كما جاء في الحديث الصحيح: «حق على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١).

ومعنى هذا أنه يجب على الفرد المسلم: أن يطيع قيادته فيما أحب وفيما كره، وإن كان ذلك ضدَّ رغبته، وضدَّ مصلحته الشخصية، ما دام ذلك أمرًا بالمعروف.

مثال ذلك: أن يُطالب بالزكاة، أو بحقَّ بعد الزكاة، أو حتَّى إذا طُوب بما فيه إزهاق روحه، كأن يجنَّد، أو يُطلب منه التقدُّم إلى ساحة القتال للدفاع عن دينه وعن أرضه الإسلامية، فلا بدَّ أن يطيع، أحبَّ ذلك أو كره، ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

هكذا يُعلِّم الرسول ﷺ الأُمَّة أن تُطيع في المعروف، وإن تأمَّر عليها عبد.

جاء في صحيح البخاري قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيَّةً»^(٢).

وفي صحيح مسلم: «وإن تأمَّر عليكم عَبْدٌ يَقودُكُمْ بكتابِ اللهِ»^(٣)، فالشرط للقائد أن يقود بكتاب الله، لا عبرة بلونه، أسود أو أبيض أو أصفر. ولا عبرة بجنسه، عربيًّا كان أو عجميًّا أو زنجيًّا، أو غير ذلك.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٢)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه مسلم (١٨٣٨)، وأحمد (١٦٦٤٦)، عن أم الحصين.

ولا عبرة بطبقته، من أي الطبقات كان، من الأغنياء أم من الفقراء، من النبلاء أم من العامة، وإنَّما العبرة بمنهجه وبسلوكه.

فإذا كان يقودكم بكتاب الله فلا بدَّ أن يُطاع، وإن كان عبدًا حبشيًّا.

اختلاف الأُمَّة اختلافًا كثيرًا:

ثم قال عليه السلام، بما أتاه الله من علم النبوة: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فسيرى اختلافًا كثيرًا».

وقد كان، فكما اختلفت الأمم من قبلنا، اختلفت هذه الأُمَّة اختلافًا كثيرًا، اختلفت على بضع وسبعين فرقة، كما جاء في حديث آخر: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»^(١).

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الفرقة الواحدة الناجية من النار، السالمة من سخط الجبار، فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٢).

هي التي اتَّبعَتْ منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهج أصحابه، ولم تنحرف يمينًا ولا يسارًا... هذه هي الفرقة الناجية.

المخرج من هذا الخلاف:

قال عليه السلام: «مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فسيرى اختلافًا كثيرًا».

في العقائد، والعبادات، والأقوال، والأعمال، والقوانين.

(١) رواه أحمد (١٦٩٧٩). وانظر كلامنا عليه في كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف

المشروع والتفرق المذموم ص ٣٤، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٢) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٤١)، وقال: مُفَسَّرٌ غريب. عن عبد الله بن عمرو. وانظر تخريج

الحديث والكلام عليه في كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق

المذموم ص ٣٤ وما بعدها.

لكن ما المخرج من هذا الخلاف؟ قال: «فعلَيْكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ».

عرَّفنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه الداء والدواء، الخلل والعلاج.

سبب الاختلاف وبعض صورته:

سيكون اختلافٌ كثيرٌ حينما تختلط الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم، وحينما يحتك الإسلام بغيره من الديانات، وحينما يجاور الفكر الإسلامي غيره من الثقافات والأفكار، هناك تشوبه الشوائب، وتدخل عليه الأخلاط من هنا ومن هناك، وهذا ما حدث في حياة المسلمين بالفعل، فاختلَفوا في أمور كثيرة.

هذا يُكْفِّر مَنْ ارتكب كبيرة ولو مرَّة واحدة، ويحكم عليه بالخلود في النَّار أبد الأبدِين، إذا مات ولم يحدث توبة من تلك الكبيرة التي ارتكبها. وآخر يقول: هو في منزلة بين المنزلتين: بين الإيمان والكفر، ولكنه مَخْلَدٌ في النَّار.

وآخر على عكسه تمامًا، يقول: لا تضرُّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فمهما ارتكب من الكبائر فهو لا يستحق النَّار في نظره، وهكذا.

اختلفت الأمة في أمور كثيرة، وقامت حرب جدلية بين النَّاس نتيجة الاختلاط باليهود والنصارى والمجوس، وغيرهم من أتباع المِلَل والنَّحَل المختلفة.

الدواء الناجع:

وكان الدواء والحل لكلِّ عُقْدة والمخرج من كل ظُلْمة، أن يتبع النَّاس وصيَّة رسول الله ﷺ، فقد قال: «عليكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء

الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ». أي استمسكوا بها بأقصى ما تستطيعون ولا تُفَرِّطُوا فيها.

إنَّها سُنَّةُ رسول الله ﷺ، وطريقته ومنهجه، وما كان عليه في حياته كلها، من قول وعمل وسلوك، وعقيدة وفكر، وعبادة وأخلاق.

هذه هي السُّنة، سُنَّةُ النبي ﷺ، وسُنَّةُ الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ لأنَّها مستمَّدة من سُنَّته، سائرة على هديها.

الخلفاء الراشدون المهديون:

وقد أجمع المسلمون على أنَّهم الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وبعدهم الحسن بن علي في فترته القصيرة، وأضاف إليهم كثير من الأئمة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه جميعًا.

فأولئك هم الراشدون الهداة المهديون، على كلِّ مسلمٍ يريد أن يتجنَّب الخلاف ويتجنَّب الهلاك، ويتجنَّب الانحراف يمينًا أو يسارًا: أن يتبع نهج هؤلاء وطريقتهم.

كتاب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته وعماله في الأقاليم:

«أمَّا بعد، فقد سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سُنَّنا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها، ولا النظر في أمرٍ خالفها.

مَنْ اهتدى بها فهو المُهتدي، ومَنْ استنصر بها فهو المنصور، ومَنْ تركها واتَّبَعَ غير سبيل المؤمنين، ولَّاه الله ما تولَّى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا»^(١).

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٥٩٦٩)، تحقيق أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة نزار مصطفى

الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.

الزائغون عن المحجة البيضاء:

هذا فيمن انحرف عن هدي الله وهدي رسول الله ﷺ، وهدي أصحابه وخلفائه الراشدين، الذين وضعوا لنا مسالك نيرة، ومعالم واضحة، ومناهج قويمه، على المسلمين أن يتبعوها، لقد قال ﷺ: «لقد تركتكم على الواضحة، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١).

أي إنه ﷺ، تركنا على المحجة البيضاء، وعلى الطريقة الواضحة الغراء البينة، ليلها كنهارها، لا يزيغ ولا ينحرف عنها إلا هالك، أصم أذنيه عن الحق، وأعمى عينيه عن النور، فتفرقت به السبل هنا وهناك، فكان من الهالكين.

لا يمكن أن يجتمع للأمة شمل، وأن يتوحد لها هدف، وأن تتفق على غاية وطريق، إلا إذا اتخذت رسول الله ﷺ إمامًا، واتخذت أصحابه المهديين وخلفاءه الراشدين من بعده نجومًا، بهم يُقتدى فيُهتدى.

اتباع صراط الله المستقيم:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

صراط الله واحد، هو الذي يمكن أن يوحد الأمة الإسلامية مهما تعددت، ومهما تكاثرت، ومهما ذهبت بها المشارق والمغارب، فإنها إذا التقت على صراط الله، وعلى طريق محمد ﷺ، اتفقت غايتها ومناهجها، وتوحد صفها، واتحدت كلمتها.

(١) سبق تخريجه ص ٩٥.

فإذا تنكبت هذا الطريق، وحادت عن هذا المنهج، فلا يمكن أن تتفق أبداً، ستختلف اختلافاً كثيراً، يُشَرِّق بعضها ويُغَرِّب بعضها، هذا إلى اليمين وذاك إلى اليسار، هذا إلى جانب، وذاك إلى جانب آخر، فلا تلتقي للأمة كلمة، ولا يجتمع لها صف، ولا يلتئم لها شمل، ولا تكون لها قوّة ولا كيان مُعتبر.

لا نجاة بغير اتباع هدي رسول الله وأصحابه الراشدين:

الوصيّة الوحيدة التي يضمن العمل بها حلّ الخلاف، ورأب الصدع، والبرء من كلّ داءٍ هي: أن تتّبع الأمة هدي رسول الله ﷺ، وهدي أصحابه الراشدين المهديين من بعده، وأن يتركوا مُحَدَّثات الأمور، كما قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُور، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

الابتداع في الدين أساس كل بلاء:

ما أحدث النَّاسُ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَفْكَارِ، وَمَا أَحْدَثُوا مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالشَّرَائِعِ، وَمَا أَحْدَثُوا مِنَ الْأَدَابِ وَالتَّقَالِيدِ، مِمَّا لَيْسَ لَهُ فِي دِينِ اللَّهِ أَصْلٌ، وَلَا فِي شَرِيعَتِهِ دَلِيلٌ، كُلُّ هَذَا يُرَدُّ وَيُرْفُضُ؛ لِأَنَّهُ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ.

ولقد شرحنا حديثه ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، أي مردود عليه ومرفوض، وغير مقبول ولا يُتَّبَع. ولا نريد أن نعيد ما قلناه هناك.

الاختلاف في شأن القرآن: مخلوق أو غير مخلوق؟

عندما اختلف النَّاسُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي عَصْرِ الْمَأْمُونِ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ، اخْتَلَفُوا فِي خَلْقِ الْقُرْآنِ: هَلِ الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ أَمْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟

(١) سبق تخريجه ص ١٥٤.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٠.

وصار المأمون ومَن بعده يمتحنون النَّاس ويسألونهم: هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ فإذا قال: غير مخلوق. عُدَّ وأُوذِيَ؛ لأنَّ المأمون على رأي المعتزلة الذين يقولون: إنَّ القرآن مخلوق.

وبقيَّة علماء الأمة يتحرَّجون من هذه الكلمة ويقولون: لا نقول القرآن مخلوق، إنَّ القرآن كلام الله.

موقف أعرابي من الخليفة المعتصم:

وقد دخل أعرابي على الخليفة المعتصم - الَّذي جاء بعد الخليفة المأمون - وعلى وزيره الَّذي كان يمتحن الناس. قال له الوزير: القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال له الأعرابي: إنِّي أسألك: أهذه المسألة تحدَّث فيها رسول الله ﷺ؟ قال: لا. قال: أتكلَّم فيها أبو بكر؟ قال: لا. قال: أتكلَّم فيها عمر؟ قال: لا. قال: أتكلَّم فيها عثمان؟ قال: لا. قال: أتكلَّم فيها علي؟ قال: لا. قال: أكانوا يعلمونها؟ فقال: علموه، ولم يدعوا الناس إليه. قال: أفلا وسَّعَكَ ما وسَّعَهُم^(١)؟

هذا المنطق الفطري، منطق الأعرابي، هو المنطق السليم، الشَّيْء الَّذي تركه رسول الله ﷺ، وأعرض عنه هو وخلفاؤه الراشدون من بعده، ولم يبحثوا فيه، فلماذا يأتي النَّاس ويجعلون منه معركة يُمتحن النَّاس عليها ويُعذبون في سبيلها؟

الابتداع بين أمور الدين وأمور الدُّنيا:

إنَّ ما أحدث من بدع العقائد والعبادات والأفكار وما شابه ذلك، يجب أن يُردَّ كله؛ لأنَّه ليس على أمر رسول الله ﷺ، وليس على عمل رسول الله ﷺ.

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٥/٢٤٧).

إذا كان النَّاسُ لا بدَّ أن يُحدثوا، ولا بدَّ أن يبتدعوا، ولا بدَّ أن يَخترعوا، فليخترعوا في أمور دنياهم، وليبتكروا في أمور معيشتهم ما شأؤوا، أمّا أمور الدين فقد حدّدها ربُّ العالمين في كتابه العزيز، وحدّدها رسول ربِّ العالمين ﷺ، وبينها خلفاؤه الراشدون من بعده، فلا حاجة للدين في ابتكار مُبتكر، ولا اختراع مُخترع.

لقد قال عبد الله بن مسعود: إنَّكم أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنَّكم ستُحدثون، وسيُحدث لكم - أي تبتدعون ويُبتدع لكم - فعليكم بالعهد الأول^(١). أي ارجعوا إلى ما كان عليه الرسول وخلفاؤه وصحابته.

هذه الرّجعة والعودة هي المطلوبة من المسلمين، أن يعودوا إلى الوراء أربعة عشر قرنًا، حيث كان رسول الله ﷺ، وكان أصحابه، وكان أولئك الغُر الميامين، فالخير كل الخير في اتباع هؤلاء.

الخير كلّ الخير في اتباع من سَلَف، والشر كل الشر في ابتداع من خَلَف، فلنحذر كلّ مَنْ ابتدع بعد رسول الله ﷺ وأصحابه والقرون الأولى والسلف الصالح، ولنستمسك بما كان عليه سلف هذه الأمة: «إيّاكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلّ بدعة ضلالة».

* * *

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٧٤)، والمروزي في السنة (٨٠).

الدرس السادس عشر

ليلة خير من ألف شهر

عن أنس بن مالك قال: دخل رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكَم، وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حَرَمَهَا فَقَدْ حَرَّمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلَا يُحَرَّمُ خَيْرُهَا إِلَّا مُحَرَّمٌ»^(١).

ليلة خير من ثلاثة وثمانين عامًا:

من فضائل هذا الشهر: أَنَّ اللَّهَ ﷻ خَصَّه بِهَذِهِ اللَّيْلَةِ الْكَرِيمَةِ، لَيْلَةِ الْقَدْرِ، لَيْلَةٌ هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، أَيْ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَتْ فِيهَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ.

وَأَلْفُ شَهْرٍ لَيْسَتْ بِالزَّمَنِ الْقَصِيرِ، وَلَا بِالْشَيْءِ الْهَيِّنِ، أَلْفُ شَهْرٍ تَسَاوِي ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ عَامًا وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، لَيْلَةُ وَاحِدَةٍ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكْسِبَ فِيهَا عَمْرًا مَدِيدًا طَوِيلًا، هُوَ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ عَامًا.

إِنَّ النَّاسَ يَعْتَبِرُونَ مِنْ عُمُرٍ إِلَى الثَّمَانِينَ قَدْ عُمِّرَ وَعَاشَ عَمْرًا طَوِيلًا، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ^(٢):

(١) رواه ابن ماجه في الصيام (١٦٤٤)، والطبراني في الأوسط (١٤٤٤)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب (١٤٩١)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٣٣).

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١١٠، شرح وتقديم الأستاذ علي حسن فاعور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ

ويقول عوف بن محلم^(١):

إِنَّ الثَّمَانِينَ، وَبُلَّغَتْهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ

فهذه ثلاثة وثمانون عامًا وأربعة أشهر، عمر مديد يستطيع الإنسان أن يكسبه في ليلة واحدة يقومها لله وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، يتعبّد له، يذكره ويشكره ويحسن عبادته ويتضرع إليه، ويقف على بابه خاشعًا ضارعًا، تائبًا منيبًا، داعيًا، قائلاً ما قال أبوه وأمه، آدم وزوجه من قبل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

لهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ حُرِمَ خَيْرُ كُلِّهِ، وَلَا يُحْرَمَ خَيْرُهَا إِلَّا مُحْرَمٌ».

لا يُحرم خيرها إلا شقي، حُرِمَ من رحمة الله وَعَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لَأَنَّهُ ضَيَّعَ الْفُرْصَةَ، وهي مواتيّة له، وهي أمامه، وهي بين يديه، فرصة مُحدّدة في شهر واحد، بل مُحدّدة في العشر الأواخر من هذا الشهر، كما قال النبي ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان»^(٢). «من كان مُتَحَرِّيًا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»^(٣).

عشر ليال فقط، يقومها الإنسان لربه، يُغفر له فيها ما تقدّم من ذنبه، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٤).

(١) انظر: أمالي القالي (٥٠/١)، نشر دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م.

(٢) رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠٢١)، عن ابن عباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٥٨)، ومسلم في الصيام (١١٦٥)، عن ابن عمر.

(٤) سبق تخريجه ص ١٧.

أي مكسب وأي ربح أن يخرج الإنسان في ليلة واحدة مغفور الذنوب، مكفر السيئات، طاهراً مُطَهَّراً كيوم ولدته أمه؟! يولد ميلاداً جديداً، بليلة واحدة يقومها الله ﷻ، أو بعشر ليالٍ أو بتسع ليالٍ.

هل كثير على الإنسان أن يتعب بعض الليالي لرَبِّه، ليالٍ عشر، أو تسع إذا كان رمضان تسعاً وعشرين؟! وكثيراً ما يكون تسعة وعشرين يوماً، أي صعوبة في هذا اليوم؟!!

إنَّ فرص المغفرة والرحمة وأبواب القبول والرضوان مُفَتَّحة أمامنا، ولكننا لا نلجُّها، ولكننا لا نجد العزيمة التي تدفعنا إلى عمل الخير وخير العمل.

«إنَّ هذا الشهر قد حضركم، فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، مَنْ حُرِّمَ خَيْرُهَا فَقَدْ حُرِّمَ، وَلَا يُحْرَمُ خَيْرُهَا إِلَّا مُحْرَمٌ».

هذه هي ليلة القدر التي ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿ [القدر: ٤، ٥].

ليلة رحمة، ليلة سلام، ليلة خير، ليلة بركة، ليلة مضاعفة للأجر والحسنات.

بِمَ شَرَّفَ اللَّهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟

هذه هي الليلة التي شَرَّفَهَا اللهُ وَكَرَّمَهَا، وَإِنَّمَا شَرَّفَهَا وَكَرَّمَهَا؛ لِأَنَّهُ أَنْزَلَ فِيهَا أَعْظَمَ كِتَابٍ، أَنْزَلَ فِيهَا الْكِتَابَ الْخَالِدَ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، أَنْزَلَ فِيهَا الْقُرْآنَ، قَانُونَ السَّمَاءِ لِهَدَايَةِ الْأَرْضِ، وَدُسْتُورَ الْخَالِقِ لِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ، الْكِتَابَ الَّذِي مَنْ عَلِمَ عِلْمَهُ سَبَقَ، وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

شَرَّفَ اللهُ هذه الليلة بفضل القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. كما شَرَّفَ الشهر كله (رمضان)؛ لَأَنَّهُ أَنْزَلَ فِيهِ ﴿الْقُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

موقفنا من القرآن الكريم:

إِنَّ هَذَا يَدْفَعُنَا إِلَى أَنْ نُرَاجِعَ أَنْفُسَنَا مَعَ هَذَا الْكِتَابِ، كِتَابَ اللَّهِ، الْقُرْآنَ الْعَظِيمِ، الْقُرْآنَ الْمَجِيدِ.

إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ شَهْرَ رَمَضَانَ بِسَبَبِ الْقُرْآنِ، وَفَضَّلَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ بِسَبَبِ نَزُولِ الْقُرْآنِ.

فكيف يكون موقفنا إذا هجرنا القرآن؟ وأعرضنا عن القرآن؟ كيف نقف بين يدي الله؟ وكيف نخاصم رسول الله حينما يقول: ﴿يَكْرِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]؟

علينا أن ننتفع بالقرآن العظيم، علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم، علينا أن نأخذ عبرة من ليلة القدر، ومن شهر رمضان، لنراجع أنفسنا وموقفنا من كتاب الله.

أعمال الخير المطلوبة من المؤمن في هذه الليلة:

إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَصَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِهَذِهِ اللَّيْلَةِ كَرَامَةً لَهَا، لِنَدْعُو فِيهَا وَنَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، وَنَتَعَبَّدَ لَهُ، وَنَقُومَ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَلَا نُضَيِّعَهَا فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ وَفَارَغِ الْكَلَامِ، بَلْ نَحْيِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ مَا اسْتَطَعْنَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

خير ما يدعو به المسلم في ليلة القدر:

ندعو الله بكلِّ ما تتمناه قلوبنا.

قالت عائشة: إذا صادفت ليلة القدر وعلمت أي ليلة هي يا رسول الله ماذا أقول؟ قال: «قولي: اللهم إِنَّكَ عَفُوٌّ تَحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»^(١).

إنَّ خير ما يطلب المسلم من الله العفو والعافية، وقد كان النبي ﷺ يسأل ربّه العفو والعافية في الدّين والدُّنيا والآخرة^(٢).

وكان أكثر ما يدعو به: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الحكمة من إخفاء هذه الليلة:

وقد أخفى الله ﷻ عنا هذه الليلة لحكمة أرادها، كما أخفى عنا اسمه الأعظم بين أسمائه الحسنی، لدعوته بأسمائه كلّها: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وكما أخفى عنا ساعة الإجابة، في يوم الجمعة لنحرص على الدعاء في اليوم كله، وهكذا أخفى عنا هذه الليلة، لنحرص في رمضان على الطاعة، ونحرص أكثر وأكثر في العشر الأواخر من رمضان، عسى أن يتقبل الله تعالى منّا.

منهج النبيّ في العشر الأواخر من رمضان:

ولهذا كان ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، شدّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله^(٣).

أحيا ليله كلّهُ بالطاعة، وأيقظ زوجاته، ليأخذن حظهن من الطاعة

(١) رواه أحمد (٢٥٣٨٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٥١٣)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٤٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٠)، عن عائشة.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٩٤)، وقال: حسن. عن أنس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، كلاهما في الاعتكاف، عن عائشة.

والعبادة، في هذه الليالي الأخيرة التي هي مسك الختام لهذا الشهر المبارك العظيم.

وكان ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان حتى لحق بالرفيق الأعلى، وكانت زوجاته يعتكفن من بعده^(١).

وهكذا ظلّ الاعتكاف سنة في رمضان عامّة، وفي العشر الأواخر منه خاصّة.

والاعتكاف: الانقطاع عن الناس لله وﷻ، فترة من الزمن، وهو سنة، قلّ من الناس من يحييها.

إحياء ليلة القدر:

أيّها الإخوة المسلمون، هذا فضل ليلة القدر، فاحرصوا عليها، وتحروا أن تقوموها، وأن تحيوها.

انظروا إلى هذه العبارة: «إحياء ليلة القدر»، كأنّ الليلة التي لا طاعة فيها ولا عبادة ليلة ميتة، الزمان الذي لا يُملأ ولا يُعمر بطاعة الله زمان ميت، زمان خرب.

فاعمر زمانك واعمُر أيامك وأحيها بطاعة الله، يُحيي الله قلبك يوم تموت القلوب.

نسأل الله وﷻ أن يجعل لنا حظاً من هذه الليلة، وأن يكتبنا فيها من المغفور لهم، وأن يجعل حظنا من هذا الشهر الكريم القبول والرحمة والمغفرة والعق من النار، إنّه سميع قريب. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢)، كلاهما في الاعتكاف، عن عائشة.

الدرس السابع عشر

المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله

روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإنَّ (لو) تَفْتَحُ عمل الشيطان»^(١).

موازنة نبوية:

يوازن النبي ﷺ في الحديث بين نوعين من المؤمنين، كلاهما مؤمن، ولكن أحدهما قوي، والآخر ضعيف، ويدلُّنا النبي ﷺ، على أنَّ المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف.

إنَّ الله ﻫُوَ يحبُّ الأقوياء، يُحبُّ للمؤمن أن يكون قويًّا عزيزًا، عزيز النفس، مرفوع الرأس، مُحافظًا على كرامته، قويًّا في عزمته، قويًّا في إرادته، لا يتردَّد تردُّد الضعفاء، ولا يتخاذل تخاذل الجبناء، إذا أراد شيئًا من الخير عمل على تنفيذه، لا يُغريه وعد، ولا يثنيه وعيد، لا يقعد به شُحٌّ هالِع، ولا جُبْن خالِع.

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

المراد بالقوة في الدين:

يظنُّ بعض النَّاس أنَّ القوَّة المرادة في الحديث قوَّة الإيمان، ولكن ليس هذا المراد، فالحديث يتحدَّث عن مؤمنين، ولهذا قال: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف»، ثمَّ قال: «وفي كلِّ خير»، لأنَّ كليهما مؤمن، فالمؤمن القوي هو القوي في شخصيته، القوي في إرادته، القوي في تفكيره، القوي في بدنه: خير وأفضل وأحب إلى الله من صاحبه الضعيف. كلُّ أنواع القوَّة مطلوبة من المسلم؛ لأنَّ الإسلام دين القوَّة، دين الجهاد، دين العزَّة والكرامة، فهو يُريد لأبنائه أن يكونوا أقوياء.

التحذير من أسباب الضعف والأخذ بأسباب القوة:

النبِيُّ ﷺ كان يستعيز بالله من كلِّ مظاهر الضعف؛ حتَّى في دعائه، والدعاء مظهر الخشوع والتذلُّ أمام الله ﷻ، كان يقول: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذُ بك من العجز والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من ضلَع الدَّين وغلَبَةِ الرجال»^(١). وفي حديث آخر أنَّه قال لأبي أمامة أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذُ بك من العجز والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من غلَبَةِ الدَّين وقهر الرجال»^(٢).

وكُلُّها من مظاهر الضعف وأسبابه، فالنبِيُّ ﷺ يحثُّنا على أن نأخذ بأسباب القوة، بكل مظاهر القوة، أن نُقوي أنفسنا، أن نُقوي أجسادنا، أن نُقوي عزائمنا، وأن نستعيز بالله من أسباب الضعف.

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٩)، وأحمد (١٢٦١٦)، عن أنس.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٥٥٥)، عن أبي سعيد الخدري، وفي سنده راوٍ لِين الحديث. ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت في الصحاح.

احرص على ما ينفعك:

ثم رتب النبي ﷺ على ذلك عدة أوامر ونواهٍ وتوجيهات، فقال: «احرص على ما ينفعك»، إذا كنت قويًّا حقًّا، إذا أردت أن تكون مؤمنًا قويًّا فاحرص على ما ينفعك، احرص على كل ما ينفعك في دينك ودنياك، وفي يومك وغدك، كل ما ينفعك فردًّا، وينفع أمتك جماعة، احرص عليه، واعمل من أجله، واسع في طلبه، واشدّد يدك عليه، «احرص على ما يَنْفَعُكَ».

استعن بالله على مُهمّات الأمور:

«واستعن بالله ولا تعجز». استعن بالله في طلب ما ينفعك، لا تستعن بالمخلوقين أحياء وأمواتًا استعانة الذليل، ولكن ضع يدك في يد الله، كما علّم النبي ﷺ ابن عباس، وقال له: «يا غلام، ألا أعلمك كلمات؟». ثم قال له: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك»^(١).

استعن بالله على مُهمّات الأمور، على مُلَمّات الحياة.

وفي سورة الفاتحة، التي يقرأها المسلم في صلواته المفروضة كل يوم سبع عشرة مرة، يقرأ المسلم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: يا رب لا نعبد إلّا إياك، ولا نستعين أحدًا سواك، فاستعن برّبك على مُهمّات أمورك.

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرّجوه: إسناده قويّ. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥١)، عن ابن عباس. وهو الحديث التاسع من الأربعين النووية والخمسين الرجبية.



ادفع الأقدار بالأقدار:

«استعن بالله ولا تعجز»، لا تكن عاجزاً، لا تقف موقف العاجزين، الذين يحيلون كل أمر على المقادير: ربنا أراد كذا، ربنا قدر كذا. ولا يفعل ما في وسعه.

وقد روي أن النبي ﷺ رأى رجلين يختصمان ويتصارعان، فغلب أحدهما الآخر، فقال المغلوب: حسبي الله. فقال النبي ﷺ، مُنكراً عليه: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَئِيسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(١). لا تقل: حسبي الله، قولة العاجز، ولكن قلها عندما تنفذ أمامك الحيل، وتُستنفذ كل الوسائل.

هكذا يجب أن يكون المسلم، ولهذا قال الأقدمون: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال الشاعر الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال:

«المؤمنُ الضعيف هو الذي يحتجُ بقضاء الله وقدره، أمّا المؤمنُ القويُّ فهو يعتقد أنه قضاء الله الذي لا يُردُّ، وقدره الذي لا يُدفع... يعتقد أنه هو قدر الله».

قال أحد قواد الفرس لأحد المسلمين يوماً: من أنتم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكُم الله بنا، فلو كنتم في سحابةٍ لهبطتم إلينا، أو لصعدنا إليكم^(٢). هكذا يعتقد المؤمن.

(١) رواه أحمد (٢٣٩٨٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لضعف بقية، وجهالة سيف. وأبو داود في الأقضية (٣٦٢٧)، عن عوف بن مالك الأشجعي.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٦٠١/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

المؤمن لا يعيش مُتَحَسِّرًا:

ثم يقول النبي ﷺ: «ولا تقل: لو أَنِّي فعلْتُ كذا لكان كذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل؛ فَإِنَّ (لو) تفتح عمل الشيطان». لا تعش مُتَحَسِّرًا بـ (لو) و(ليت) على ما فات، فَإِنَّ هذا لا يُجدي.

بعض النَّاس تنزل بهم النازلة من مصائب الدهر، فيظلُّ شهوًّا وأعوامًا يجترُّ آلامها، ويستعيد ذكرياتها القاتمة، مُتَحَسِّرًا تارة، مُتَمَنِّيًا أخرى، شعاره: ليتني فعلتُ كذا، وليتني تركتُ كذا، لو أَنِّي فعلتُ كذا لكان كذا. وقديمًا قال الشاعر^(١):

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مِنِّي (لَيْتٌ)؟ إِنَّ (لَيْتًا) وَإِنَّ (لَوًْا) عناءٌ

ولهذا ينصح الأطباء النفسيون، والمُرشِدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسّه، فيعيش في واقع يومه، فَإِنَّ الماضي بعد أن ولى لا يعود.

ما مضى فاتَ والمُؤَمِّل غيبٌ ولكَ الساعةُ التي أنتَ فيها^(٢)!
فانتفع بها إذن واحرض عليها.

لا تنشر نشارة الخشب:

وصوِّر أحد المحاضرين ذلك تصويرًا بديعًا لطلبته، حين سألهم: من منكم مارس نشر الخشب؟ فقال كثير منهم: فعلنا. ثمَّ سألهم مرّة أخرى: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه.

(١) هو أبو زيد الطائي، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٩٥/١)، نشر دار الحديث، القاهرة.

(٢) من شعر إبراهيم بن عثمان الغزي. انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٥٠٦/٤)، تحقيق د. كامل

سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

وحينئذٍ قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحدٍ أن ينشر نشارة الخشب وهي منشورة فعلاً، وكذلك الحال مع ما مضى، فعندما ينتابكم الحزن لأمر حدث في الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة.

هذا ما ينبغي أن يعرفه المسلم، فالضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون، ويكون على أمس الذهاب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقلبون أكفهم حسرةً على ما مضى.

في الرضا والتسليم راحة:

وأبعد النَّاس عن الاستسلام لهذه المشاعر الأليمة، والأفكار البائسة هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وقدره، فلا يُسلم نفسه فريسةً للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه قضاء الله، وكان لا بدّ أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم، ثم يقول ما قال الشاعر^(١):

سبقت مقاديرُ الإلهِ وحُكمه فأرخَ فؤادك من (لعلّ) ومن (لو)!

أو ما قال الآخر^(٢):

ولستُ براجعٍ ما فات منِّي ب (لهف) ولا ب (ليت) ولا لو أني

إنّه لا يقول: لو أنني فعلتُ كذا لكان كذا، ولكن يقول ما علّمه النبي ﷺ: «قَدَّرَ الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتح عمل الشيطان».

(١) ذكره من غير نسبة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤١٩/٦).

(٢) ذكره ابن مالك ولم ينسبه في شرح تسهيل الفوائد (٢٨٢/٣)، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، نشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

إِنَّهُ يُوقِنُ أَنَّ قَدْرَ اللَّهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ، فَلِمَ السَّخَطُ؟ وَلِمَ الضِّيقُ وَالتَّبَرُّمُ؟ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿[الحديد: ٢٢، ٢٣].

من دروس غزوة أحد:

وفي غزوة أحد، الَّتِي قُتِلَ فِيهَا سَبْعُونَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، نَعَى الْقُرْآنُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَضِعَافِ الْإِيمَانِ، عَاشُوا بَيْنَ (لَوْ) الْمُتَنَدِّمَةِ وَ(لَيْتَ) الْمُتَحَسِّرَةِ، فيقول: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وَيَرُدُّ عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

موقف المنافقين وإخوانهم من الكفار:

المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين، ولا موقف إخوانهم من الكفار، الَّذِينَ نَهَى الْقُرْآنُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ، فِي تَحَسُّرَاتِهِمُ الْأَسِيفَةِ، وَتَمَنِّيَاتِهِمُ الْحَزِينَةِ، حِينَ قَالَ: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾
وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّلَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٦ - ١٥٨].

شعار المؤمن:

إنَّ شعار المؤمن في الشدائد والمصائب: «قَدَّرَ اللَّهُ وما شاء فعل»،
الحمد لله على كل حال، وبهذا لا يئس على ما فات، ولا يحيا في خضمِّ
أليم من الذكريات، وحسبه أن يتلو قول ربه تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾
[التغابن: ١١]^(١).

* * *

(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا: الإيمان والحياة ص ٥٩ - ٢٠٠، فصل: أثر الإيمان في حياة الفرد،
نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

الدرس الثامن عشر

الوصية بالأم

روى الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أحقُّ النَّاسِ بحُسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك»^(١).

الإسلام سباق في الاهتمام بالأم:

قبل أن تحتفل الدنيا بالحديث بالأم، وتجعل لها في كل سنة يوماً تخصُّها فيه بمزيد من الرعاية والإكرام، قبل هذا بأربعة عشر قرناً احتفل الإسلام بالأم، وأوصى أن تكون كل أيامها أعياداً، تُشكر فيها فلا تُكفر، ويُعرف فضلها فلا يُنكر، وتُذكر حقوقها فلا تُنسى، يقول رسول الإسلام: «إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِأَقْرَبِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِأَقْرَبِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٨).

(٢) رواه أحمد (١٧١٨٧)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في الأدب (٣٦٦١)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٦٦)، عن المقدم بن معديكرب.

لماذا كرّر النبي الوصية بالأم؟

إنّما كرّر الوصية بالأم؛ لأنّها أرقُّ قلباً، وأضعف بدنًا، وأكثر حاجة للرعاية والإحسان، فقد يُخشى جانب الأب، ويُحسب حسابه دونها، والأم قد نالها من الجُهد والوهن النصيب الأوفر، والعناء الأكبر، قاست في حملها، وقاست في وضعها من الألم والضعف، وقاست في إرضاعها، وتربيتها من سهر الليل ونصب النهار، وجاءت بذلك كله في انعطاف أشد وأعمق، وأحنى وأرفق، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وفي آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

هذه هي الأم، تبذل من راحتها ونومها، وتبذل من جسدها وقلبها، راضية بتعبها، بل سعيدة ببذلها، فمن ذا الذي يستطيع أن يفِي بجزائها، أو يقوم بحققها.

هل يمكن أداء حق الأم؟

روى البزار أنّ رجلاً كان في الطوف حاملاً أمّه، يطوف بها حول الكعبة، فسأل النبي ﷺ: هل أدّيت حقّها؟ قال ﷺ: «لا، ولا بزفرة واحدة»^(١). يعني بزفرة من زفرات الألم في حمل أو وضع.

وجاء رجل إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، بلغ من برّي بأمي أنّها لا تقضي حاجتها إلّا وظهري لها مطيّة - يحملها على ظهره - فأنا أصنع

(١) رواه البزار (٤٣٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣٩٥): فيه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس. عن بريدة بن الحصيب الأسلمي.

لها ما كانت تصنع لي، فهل جزيئها حقها؟ قال عمر: لا، إنَّك تفعل ذلك وتنتظر موتها غداً أو بعد غد، أمّا هي فكانت تفعل ذلك بك، وتتمنى لك عمراً طويلاً^(١).

بِرُّ الأم طريق إلى الجنّة:

وقد جعل الإسلام بِرَّ الأم سبيلاً إلى رضوان الله تعالى، والدخول في رحمته وجنته، جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك. فقال: «هل لك من أم؟». قال: نعم. قال: «الزمها؛ فإنَّ الجنّة عند رجليها»^(٢). ف «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»، كما أنّ «الجنّة تحت ظلال السيوف»^(٣).

ثواب البرّ:

فَمَنْ لم يستطع أن يفتح أبواب الجنّة مُجاهداً بسيفه، فليفتحها بارّاً بأُمّه، فبرّها قُربة وجواز إلى الجنّة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: إنِّي أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال: «هل بقي من والديك أحد؟». قال: أمّي. قال: «فأبْلِ الله في برّها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاجٌّ ومُعتمر ومُجاهد»^(٤).

(١) البر والصلة لابن الجوزي ص٤٠، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م..

(٢) رواه أحمد (١٥٥٣٨)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٣١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨١)، والحاكم (١٠٤/٢)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الجهاد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥)، عن معاوية بن جاهمة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٤) رواه أبو يعلى (٢٧٦٠)، والطبراني في الصغير (٢١٨)، والأوسط (٢٩١٥)، وقال المنذري في =

كما جعل النبي ﷺ بَرَّ الأمِّ كَفَّارَةً للذنوب وإن عَظُمَتْ، فَبَرُّ الأمِّ يَمْحُو أَثَرَهَا، وَيَغْسِلُ عَنِ الْقَلْبِ أَوْضَارَهَا، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنَ الدِّينِ؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «فَلِك خَالَةٍ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَبَرَّهَا إِذْنٌ»^(١).

بُرُّ الْخَالَةِ؛ لِأَنَّ الْخَالََةَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ، وَلِأَنَّهَا قَرَابَةُ الْأُمِّ، يَكْفُرُ ذَلِكَ الذَّنْبُ، وَيَغْسِلُ أَوْضَارَ الْمَعَاصِي.

حَقُّ الْأُمُومَةِ لَيْسَ فَوْقَهُ إِلَّا حَقُّ اللَّهِ:

إِنَّ حَقَّ الْأُمُومَةِ لَيْسَ فَوْقَهُ إِلَّا حَقُّ اللَّهِ ﷻ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَطْغَى عَلَيْهِ حَقُّ زَوْجَةٍ أَوْ ذَرِيَةٍ أَوْ صَدِيقٍ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، عَدَّدَ فِيهِ أَسْبَابَ الْبَلَاءِ، فَجَعَلَ مِنْ أَسْبَابِ الْبَلَاءِ: فَكُّ رَوَابِطِ الْأُسْرَةِ، قَالَ: «إِذَا فَعَلْتَ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلَاءُ». وَذَكَرَ مِنْهَا: «إِذَا أَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهَ، وَأَدْنَى صَدِيقَهُ وَجَفَا أَبَاهُ»^(٢).

= الترغيب والترهيب (٣٧٤٧): رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط وإسنادهما جيد، ميمون بن نجیح وثقه ابن حبان وبقية رواته ثقات مشهورون. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣٩٩)، عن أنس بن مالك.

(١) رواه أحمد (٤٦٢٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في البر والصلة (١٩٠٤) مرفوعاً ومرسلًا ورجح المرسل، وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٥)، والحاكم في البر والصلة (١٥٥/٤)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٠٤).

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢٢١٠)، وقال: حديث غريب. والطبراني في الأوسط (٤٦٩)، وضعّفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٤٠٧)، عن علي بن أبي طالب.

البرُّ بالأمِّ ولو كانت كافرة مشركة:

ولو كان شيء يُسقط حقَّ الأمِّ أو ينال منه، لكان الشرك بالله تعالى، ولكن اختلاف الدين لم يمنع الوصية بالأم الوثنية الكافرة بالإسلام، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة، في عهد رسول الله ﷺ (أي في مدة العهد الذي عقده مع قريش في الحديبية)، فاستفتيت رسول الله، قلت: قدمت عليَّ أمي وهي راغبة - أي طامعة بأن تصلها ابنتها بشيء ممَّا عندها - أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(١).

وفي مثل هذا نزل قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرُوهُمْ وَتُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وحينما أسلم سعد بن أبي وقاص، حاولت أمه بكل وسيلة أن تردّه عن إسلامه، وأضربت عن الطعام والشراب حتّى تُلَيِّنَ قناته، وتصدّه عن هذا الدين، ورغم هذا نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]^(٢).

الشرك لا طاعة فيه، ولكن البرُّ يبقى واجباً، ويبقى مأموراً به: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

عقوق الوالدين صغيره وكبيره محرّم:

إنَّ تأكيد الوصية بالأم لا يعني التهوين من شأن الأب، فلكلٍّ من الأبوين حقه الأكيد، وفضله الراسخ العتيد، إنَّ الله وصّى بهما في كل

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٣).

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (١٧٤٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

حال، بالأب والأم معاً، ولا سيّما في حال الكبر، أكّد الوصيّة في هذه الحالة، حين يهن العظم، ويشتعل الرأس شيباً، ويحتاج كل منهما إلى الكلمة الرقيقة، والمعاملة الرقيقة، وفي ذلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

يقول الحسين بن علي رضي الله عنه: لو علم الله في العقوق شيئاً أدنى من «أف» لحَرَّمَهُ^(١).

«أف» كلمة تضجّر وتأفّف حرّمها الله ﷻ، وإنّما الواجب على الأبناء أن ينفذ ما أمره الله به: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.

إنّها لفُرصة لطالب الجنّة، أن يُدرك أمه أو أباه عند الكبر، فيأخذها بيده إلى الجنّة، وإنّها لخسارة فادحة أن يضيّع الإنسان هذه الفرصة وقد أتاحت له، ولنستمع إلى هذا النذير من رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثمّ رغم أنفه، ثمّ رغم أنفه». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «مَن أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما ثمّ لم يدخله الجنّة»^(٢).

(١) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي (٣/٣٥٣)، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥١)، وأحمد (٨٥٥٧)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٥)، عن أبي هريرة.

بر الوالدين من أصول الفضائل:

إنَّ بر الوالدين أصل من أصول الفضائل التي جاء بها كل دين، ودعا إليها كل رسول، فمدح القرآن يحيى بن زكريا بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]. وقال على لسان عيسى حين أنطقه الله في المهد صبيًّا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقد أكَّد ذلك القرآن مكثه ومدنيه، واعتبره الحق الأول بعد التوحيد: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وأكَّده رسولنا ﷺ، وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى^(١)، وحرَّم على عاق والديه أن يشمَّ رائحة الجنة، وقد عرفنا من سنة الله في الحياة أنَّ برَّ الوالدين وعقوقهما خُلِقَ يردُّ إلى صاحبه في عاجل دنياه قبل أجل آخرته، وكما جاء في الحكمة: عفوا تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم.

اللهمَّ إِنَّا نسألك أن تجعلنا من الأبرار، إِنَّكَ نعم المولى ونعم النصير.

(١) كما في الحديث المتفق عليه: سئل النبي ﷺ عن الكبائر، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور». رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، عن أبي بكرة.

الدرس التاسع عشر

كُلُّكُمْ لَأَدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ

روى الإمام أحمد، عن أبي نضرة، حدَّثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيُّها النَّاسُ، ألا إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ولا لعجميٍّ على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتَّقوى»^(١). وفي حديثٍ آخر رواه أبو داود والترمذي وحسنه: «الناس بنو آدم، وآدم من ترابٍ»^(٢).

الإسلام سبق جميع الحضارات بتقرير مبدأ المساواة بين البشر:

أيُّها الإخوة، قبل أن تسمع الدُّنيا عن الثورة الفرنسيَّة وغيرها من الثورات، وقبل أن يعرف الغرب مبدأ المساواة بأكثر من عشرة قرون، جاء الإسلام وقرَّر هذه المساواة الإنسانيَّة العامة، مُناديًّا النَّاس جميعًا بهذا النداء الرباني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد

(٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عمن سمع خطبة النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٨٧٣٦)، وقال مخرَّجوه: حسن. وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في

المناقب (٣٩٥٥) وحسنه، وحسنه الألباني في غاية المرام (٣٠٩)، عن أبي هريرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

المساواة الإنسانية العامة:

لا فرق إذن بين عُصر وعُصر، ولا بين قوم وقوم، ولا بين لون ولون، إنه يحترم الإنسان من أي وطن كان، وأي بلد كان، ومن أي طبقة كانت، دون تفرقة بين فئة وأخرى من النَّاس، فكل النَّاس سواسية، وكل المؤمنين إخوة، ولا اعتبار للغنى أو الفقر أو اللون أو اللغة في تقديم النَّاس أو تأخيرهم، بل الواجب إنزالهم منازلهم، وإعطاء كل ذي حقَّ حقه، دون نظر إلى تلك الاعتبارات، بل الإنسان إنسان من أي دين كان، فإنَّ اختلاف الأديان لا يُسقط عن المُختلفين إنسانيَّتهم، ولا يخلعهم منها، حتَّى إنَّ النبي ﷺ قام لجنازة يومًا، ف قيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي. فقال: «أليست نفسًا؟!»^(١).

قيمة النفس الإنسانية واحدة للجميع:

بلى، ولكل نفس إنسانية في الإسلام حُرمة ومكان، قد يختلف النَّاس في أجناسهم وعناصرهم، فيكون منهم الآري والزنجي، والسامي والهامي، والعربي والعجمي، وقد يختلفون في أحسابهم وأنسابهم، فيكون منهم من ينتمي إلى أسرة عريقة في المجد، ومن ينتمي إلى أسرة مغمورة في النَّاس، وقد يتفاوت النَّاس في ثرواتهم، فيكون منهم الغني ومنهم الفقير ومنهم المتوسط، وقد يتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم،

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز، عن سهل بن حنيف، وقيس بن سعد.

فيكون منهم الحاكم والمحكوم، ويكون منهم المهندس الكبير والعامل الصغير، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس ببابها، ولكنّ هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لواحدٍ منهم قيمة إنسانيّة أكبر من قيمة الآخر، بسبب جنسه أو لونه أو حسبه أو ثروته أو عمله أو طبقته أو منصبه، أو أي اعتبار آخر.

إنّ القيمة الإنسانيّة واحدة للجميع، ما دام الكل إنساناً فهم - إذن - سواسية كأسنان المُشط الواحد.

الإسلام أكّد مبدأ المساواة عمليّاً:

لم يكتف الإسلام بتطبيق مبدأ المساواة نظريّاً، وتثبيته فكريّاً، بل أكّده عمليّاً بجملة أحكام وتعاليم، نقلته من مجرّد فكرة إلى واقع ملموس.

الناس سواسية في العبادات والشعائر:

من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام، وجعلها الأركان العمليّة لهذا الدين، ففي مساجد الإسلام، حيث تقام صلاة الجمعة والجماعة، تأخذ المساواة صورتها العمليّة، وتزول كلّ الفوارق التي تُميّز بين النّاس، فمن ذهب إلى المسجد أوّلاً أخذ مكانه في مُقدمة الصفوف، وإن كان أقلّ النّاس مالاً وأضعفهم جاهاً، ولو نظرت إلى صف واحد من صفوف الصلاة، لدهشت بما ترى، ستجد الغني بجانب الفقير، والعالم بجانب الأمي، والشريف بجانب الوضيع، والحاكم بجوار الخادم، لا فرق بين واحد وآخر، فكلهم سواء أمام الله، في قيامهم وقعودهم، وركوعهم وسجودهم، قبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، وربهم واحد، خلف إمام واحد.

وفي الأرض المقدسة حيث تُؤدَّى مناسك الحج والعمرة، تتحقّق المساواة بصورة أكثر ظُهورًا، وتتجسّد تجسّدًا تراه العين وتلمسه اليد، فقد يظلُّ النَّاسُ في صفِّ الصلاة يتميّزون بعض التمايز، بما يلبسون من أنواع الثياب التي تختلف باختلاف البلدان والطبقات والمقدرة. أمّا في الحجِّ والعمرة، فإنَّ شعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمُعتمرين أن يتجرّدوا من ملابسهم العادية، ويلبسوا ثيابًا بيضاء ساذجة، لم يدخلها التكلف أو التصنّع، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، يستوي فيها القادر والعاجز، والملك والشُّوكة، ثمَّ ينطلق الجميع مُلبّين بهتاف واحد: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ».

الناس سواسية أمام الحلال والحرام والواجبات والعقوبات:

ومن المساواة العملية التي قرّرها الإسلام قولاً، وطبّقها فعلاً، المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام، فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع، والفرائض مُلزّمة للجميع، والعقوبات مفروضة على الجميع، والرخص لجميع من انطبقت عليهم شروطها.

حاولت إحدى القبائل عند الدخول في الإسلام، أن تُعفى من الصلاة حيناً من الزمن، فأبى عليها النبي ﷺ، وقال: «لا خير في دينٍ لا صلاة فيه»^(١).

سبب هلاك الأمم السابقة:

وحاول الصحابة أن يُشَفِّعوا أسامة بن زيد، حبّ رسول الله ﷺ وابن حبّه، في امرأة من قريش من بني مخزوم سُرقت، فاستحققت أن

(١) رواه أحمد (١٧٩١٣)، وقال مخزّجوه: رجاله ثقات رجال الصحيح، غير أن في سماع الحسن من عثمان اختلاف. وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٢٦)، والطيالسي (٩٨١)، والطبراني (٥٤/٩)، عن عثمان بن أبي العاص. بلفظ: «... ولا خير في دين ليس فيه ركوع».

يُقام عليها حدُّ السرقة - قطع اليد - فكلمه فيها أسامة، فغضب النبي ﷺ، غضبته التاريخية المعروفة، ووقف يخطب في النَّاس، وقال كلمته التي خلَّدها التاريخ: «إنَّما أهلك الذين قبلكم، أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وإيُّ الله لو سرت فاطمة بنت محمد، لقطعْتُ يدها»^(١).

هذا هو سبيل الهلاك في الأمم، أنَّهم يُعفون الشريف من العقوبة، إذا سرق ترك ولم يُقم عليه الحد، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، هذا هو سبب البلاء، وهذا هو المدخل إلى انهيار المجتمع كله.

هذا هو الذي يهدم المجتمع، ويورث الأحقاد في النفوس، «وأيُّ الله، لو سرت فاطمة بنت محمد، لقطعْتُ يدها». برَّأها الله، ومعاذ الله أن تسرق، لكن لا بدَّ من تقرير المبدأ على كل الناس.

فاطمة صغرى بنات النبي ﷺ، وأعزُّهنَّ عليه، وأحبُّهنَّ إليه، يضرب ﷺ بها المثل: «لو سرت لقطع محمد يدها». وحاشاها.

هذا هو العدل، هذا هو عدل الله الذي لا يفرِّق بين إنسان وإنسان، ولا بين أسرة وأسرة، ولا بين طبقة وطبقة، ولا بين أمة وأمة، ولا بين مخلوق ومخلوق، ما داموا كلهم عباداً لله، من أتى حدًّا من حدود الله كائناً من كان، فليُقم عليه شرع الله، وليقم عليه حدُّ الله، وهذا هو بدء الخير والعدل بين النَّاس، وترك هذا هو بدء الشر والانهيار وبداية الهلاك.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

التمييز بين النَّاس في بعض الدول والديانات:

هناك دول وشرائع وحضارات تُميِّز بين النَّاس بعضهم وبعض: بحسب اللون، فللأبيض من الحقوق ما ليس للأسود. أو بحسب العرق، فللجنس الآري ما ليس لغيره، وللجنس اليوناني ما ليس لغيره، وقد عدَّ أرسطو اليونانيَّ سيدًا لكل جنس سواه. أو بحسب الطبقة، فطبقة النبلاء غير طبقة الفرسان، غير طبقة التجار، غير طبقة الفلاحين والعمال.

وبعض الديانات كالهندوسية، تعتبر الطبقات قَدَرِيَّة تُتوارث، ولا تقبل الترقى ولا التغيير؛ فمن كان في طبقة دنيا، يظل فيها أبدًا هو وذريته إلى يوم القيامة، لا يستطيع أن يترقَّى إلى درجة أعلى، ولو حصَّل كلَّ شهادات العالم، ونال جائزة «نوبل»، أو ما هو أعلى منها.

ولكن المساواة عندنا فريضة ثابتة بنصوص محكمة، من الله ورسوله، ومدعومة بإجماع الأمة في مختلف مدارسها ومذاهبها، ومثبتة بشعائر الإسلام وعباداته العملية والعلمية، ولا يمكن لأحد العبث بها بحال.

نسأل الله وَعَلَى أَنْ يَفْقَهُنَا فِي دِينِنَا، وَأَنْ يَقِفْنَا عِنْدَ حُدُودِهِ، عِنْدَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

* * *

الدرس العشرون

خير الدنيا والآخرة

قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ من أُعطيهنَّ فقد أُوتي خيري الدنيا والآخرة: لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكِرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا، وزوجةً صالحةً لا تبغيه خَوْنًا في نفسها وماله»^(١).

من أعظم نعم الله!

أيُّها الإخوة: هذه نِعَم أربع من أعظم النعم التي يُؤتيها الله الإنسان، خير من المال، وخير من الجاه، وخير ممَّا يسعى إليه الإنسان، من الأنعام والحرث والقناطير المُقنطرة من الذهب والفضة، مَنْ أُوتي هؤلاء الأربع فقد أُوتي خير الدنيا والآخرة.

أول هذه النعم: اللسان الذكر:

أن يُؤتيك الله ﷻ لسانًا يذكره على كلِّ الأحيان، وفي كلِّ الأحوال، لا يفتر عن ذكر الله، أن يُؤتيك اللسان الرطب بذكر الله ﷻ.

حينما يُشغل النَّاسُ بديانهم، وحينما تستغرق النَّاسُ مصالحهم،

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٣٤/١١)، والأوسط (٧٢١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١١٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤٣٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجال الأوسط رجال الصحيح. عن ابن عباس.

يذكر الله وَعَجَّلَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَرْضَ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يذكروه مجرد ذكر، أو ذكراً قليلاً، وإنما قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

إِنَّ المنافقين قد يذكرون الله، ولكن على قلة ونُدرة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، أمَّا المؤمنون فهم دائمو الذكر لله وَعَجَّلَ، ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

إِنَّهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ ذَاكِرُونَ لِلَّهِ، لَا يَنْسَوْنَهُ فِي السَّلَامِ، وَلَا فِي الْحَرْبِ، حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَ الْجَيْشُ الْجَيْشَ، وَالتَّقَى الصِّفَانِ وَالتَّحَمَّا، يذكرون الله، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأشدُّ ما يحرصون عليه أَنْ يذكروا الله في مواطن الغفلة، في الأسواق وغيرها، فذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين.

لسان ذاكِر، أي: لسان رطب بذكر الله، لَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِهِ، كما سأل رجلُ رسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَبَابُ نَتَمَسِّكَ بِهِ جَامِعٌ؟ فقال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

ومع هذا ينبغي أَنْ يكون القلب مع اللسان، وإذا لم يحضر قلبك؛ فبالتعوُّد - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تصل إلى حضور القلب.

(١) رواه أحمد (١٧٦٨٠)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) وقال:

حسن غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، والحاكم في الدعاء (٤٩٥/١)، وصحَّح إسناده،

ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن بسر.

النعمة الثانية: قلب شاكر:

وكثيراً ما يقترن الذكر والشكر، كما في قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي حديث النبي ﷺ: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

فالشكر مطلوب، وأول مراتب الشكر: أن يشعر الإنسان بأنَّ النعم كلها من الله، وأن يعترف القلب بأنَّ كلَّ النعم من عند الله، حتَّى إن جاءت على يد مخلوق، فالذي سخره هو الله، ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

والقلب الشاكر هو الذي يعترف بأنَّ الله هو ولي النعم ومُسديها وصاحبها، وأنَّ كل ما حوله فهو من نعمة الله ﷻ، وما أعظمها نعم الله علينا! فقد جعل كلَّ ما حولنا في خدمتنا وسخره لنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

وعلى المؤمن أن يكون شاكرًا، كما كان سليمان. حينما أُخْصِرَ عرش بلقيس قبل أن يردَّ إليه طرفه. قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، إنَّما يشكر لنفسه؛ لأنَّه المستفيد من الشكر، فالشكر يحفظ عليه النعمة

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٥٢٢)، والنسائي في السهو (١٣٠٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، كلاهما في الصلاة، عن معاذ بن جبل.

ويُقيِّدها، ويجلب عليه المزيد من هذه النعمة، كما في الآية الكريمة:
﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زِيدَنْكُمْ وَلَيْنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].
لسان ذاكِر، وقلب شاكر.

والنعمة الثالثة: بدنٌ على البلاء صابر^(١):

يتحمَّل المشقَّات، يتحمَّل الشظف والحرمان في سبيل الله، يجوع
ويعطش لله وعِزًّا، يتحمَّل السفر والتنقل مجاهدًا في سبيل الله، يتحمَّل
الأذى والبلاء لله، يصبر لله وفي سبيل الله.

والإنسان لا يمكن أن ينجح في حياته الدُّنيا ولا في الآخرة إلَّا
بالصبر، يقول المسيح ﷺ: إنَّكم لا تدركون ما تحبون إلَّا بصبركم على
ما تكرهون^(٢).

ولذلك قال النبي ﷺ: «والصبر ضياءٌ»^(٣)، أي هو الذي يُنير للإنسان
الطريق، وبدون الصبر تُظلم الدُّنيا في وجهه، وتضيق عليه الأرض بما
رُحبت، وتضيق عليه نفسه، فلا بدَّ أن يصبر.

قال الشاعر:

الصبْرُ مفتاحٌ ما يُرَجَّى	وكلُّ صعبٍ به يهونُ
فاصبرْ وإن طالَت الليالي	فربَّما طاوَع الحَرُونُ
وربَّما نيلَ باصطبارٍ ما	قيل: هيهات لا يكونُ ^(٤)

(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا: الصبر في القرآن.

(٢) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٦٢/٤).

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، عن أبي مالك الأشعري.

(٤) الأبيات تُنسب للشافعي، كما ذكر محمد بن أيدير في الدر الفريد وبيت القصيد (١١٢/٤). =

وقال الآخر:

لا تَيْسَنَّ وإن طالت مُطالَبَةٌ إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فرجًا
أَخْلِقْ بذِي الصَّبْرِ أن يحظى بِحاجَتِهِ ومُدمِنُ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجَا^(١)!
فالصبر نعمة، مَنْ أُوتِيَ الصبر فقد أُوتِيَ خيرًا عظيمًا، فهو السيف الذي
لا ينبو، كما قال علي بن أبي طالب: الصبر سيف لا ينبو، ومطيّة لا تكبو^(٢).

النعمة الرابعة: الزوجة الصالحة:

ثم ذكر النبي ﷺ النعمة الرابعة، الزوجة الصالحة التي «لا تبغيه خونا
- أي خيانة - في نفسها ولا ماله». تصون عرضها، وتصون مال زوجها.

هذه هي الصالحة القانئة الحافظة للغيب بما حفظ الله، تسره إذا نظر،
وتطيعه إذا أمر، وتحفظ زوجها في غيبته، كما قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَتُ
قَنِينَتٌ حَافِظَتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

هذه نعمة من نعم الله ﷻ، وهي التي يقول فيها النبي ﷺ: «الدُّنْيَا
متاع، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحة»^(٣). جَرَّبَ ذلك ﷺ حينما تزوّج
خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، إنّه لم يبحث عن المال، ولم يبحث عن السن، ولم يبحث
عن كذا، وإنما بحث عن امرأة صالحة.. إنسانة.

= وقال القاضي التنوخي: وجدت هذه الآيات بخط القاضي أبي جعفر بن البهلول التنوخي
لبعض الشعراء. انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦٧/٥)، تحقيق عبود الشالجي، نشر دار
صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١) هو محمد بن يسير، انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦٩/٥).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٨٧، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

(٣) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، كلاهما في النكاح،
عن عبد الله بن عمرو.

إنَّه إنسان يُفتش عن إنسانة يكتمل فيها معنى الإنسانية، ولهذا تزوجها ولم تكن بكرًا، وتزوجها وهي أكبر منه بخمسة عشر عامًا، وتزوجها وهي ذات أولاد من غيره، ولكن رأى فيها الصلاح، ورأى فيها الخلق، ورأى فيها الإنسانية.

ولا عجب أن كانت قُرّة عينه، وكانت سنده في حياته بعد النبوة، هي التي وقفت تربّت على كتفه، وتُطمئن فؤاده، وتُثبت قلبه، وتقول له: والله لا يخزيك الله أبدًا، إنَّك لتحمل الكلّ، وتصل الرحم، وتقرّي الضيف، وتعين على نوائب الدهر^(١). وقد سَمَّى عام موتها (عام الحزن)، وظلّ يذكرها بالخير بعد وفاتها، حتّى غارت منها عائشة رضي الله عنها^(٢).

هذه هي الزوجة الصالحة.

نساء السلف:

إنَّ المرأة الصالحة كنز عظيم، مَنْ أوتيَه فقد أوتيَ نعمةً من أعظم نعم الدُّنيا والآخرة.

وذلك لأنَّها تُعينه على طاعة الله، تُبعده عن معصية الله، كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج لكسب أو تجارة: يا أبا فلان، إياك وكسب الحرام، فإنّا نصبر على الجوع والفقر، ولا نصبر على حرّ النّار وغضب الجبار^(٣). هذه هي النعمة، المرأة الصالحة، التي تُعين على طاعة الله، لا تُثبّطه عن الجهاد، بل تحثّه عليه.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

(٢) إشارة إلى الحديث المتَّفَق عليه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على

خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها. رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٥).

(٣) إحياء علوم الدين (٥٨/٢).

إِنَّ النساء في أيام السلف كانت المرأة تحضُّ زوجها على أن يخرج للجهاد، وربَّما جاءها مَنْ يقول لها: كيف تركت هذا الرجل يخرج للجهاد؟ وكيف تبقين وحدك؟ ومَنْ يعولك؟ ومَنْ يعول أولادك؟ فتقول لهم في ثقة المؤمنة، وإيمان الواثقة: كُفُّوا أَيُّها النَّاس، إِنَّ زوجي منذ تزوجته وعرفته، عرفته أَكَّالًا، وما عرفته رزاقًا، فلئن ذهب الأَّكَّال لقد بقي الرزاق^(١).

هذه هي النعمة، ولهذا جعلها النبي ﷺ من نعم الدُّنيا والآخرة، وفي بعض الأحاديث قال: «مَنْ رزقه الله امرأةً صالحة، فقد أعانه الله على شطر دينه، فليَتَّقِ الله في الشطر الثاني»^(٢).

عناصر السعادة:

وفي بعض الأحاديث: «أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكِّنُ الواسع، والجارُّ الصالح، والمركبُ الهنيء»^(٣).

فكلُّ هذه من عناصر السعادة التي تُيسِّر للإنسان الحياة الطيبة، فاحرص - أَيُّها المسلم - إذا تزوجتَ، أنْ تتزوج امرأةً صالحة، لا تجعل أكبر همِّك البحث عن المال، ولا البحث عن الجمال، ولا البحث عن الجاه، ولا البحث عن النسب، ابحث أوَّل ما تبحث عن الدين والصالح،

(١) إحياء علوم الدين (٥٨/٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٩٧٢)، والحاكم في النكاح (١٦١/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وضعَّف إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير (٢٥١/٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩١٦): حسن لغيره. عن أنس.

(٣) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٠٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٢)، عن سعد بن أبي وقاص.



وإذا كان معه المال، أو الجمال، أو النسب، فلا بأس بذلك، لكن عليك بذات الدين: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(١).

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من ذوي الألسنة الذاكرة، والقلوب الشاكرة، والأبدان الصابرة، وأن يرزقنا الأسر الصالحة: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

* * *



(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، عن أبي هريرة.

الدرس الحادي والعشرون

قيام ليلة القدر

قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(١). و«مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(٢).

من خصائص شهر رمضان:

مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ هَذَا الشَّهْرَ الْكَرِيمَ الَّذِي افْتَرَضَ فِيهِ الصِّيَامَ وَسَنَّ فِيهِ الْقِيَامَ، وَجَعَلَهُ مَوْسَمًا لِتِجَارَةِ الصَّالِحِينَ، وَمَوْسَمًا لِلْمَغْفِرَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَمُغْتَسَلًا لِتَطْهِيرِ الْقُلُوبِ مِنَ الْأَدْرَانِ وَالْغَفَلَاتِ، مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ هَذَا الشَّهْرَ أَنْ جَعَلَ فِيهِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، والقدر هو: الشرف ورفعة المقام، فهي ليلة ذات قدر، أنزل فيها كتاب ذو قدر، على نبي ذي قدر، لأُمَّة ذات قدر.

ليلة القدر هي: الليلة التي أنزل الله فيها خير كتاب أنزل، على خير نبي أرسل، إلى خير أمة أخرجت للناس.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

ليلة القدر - إذن - هي ليلة القرآن، ليلة هذا الدستور السماوي العظيم، ليلة أنزل فيها هذا القرآن، فضّلها الله على سائر الليالي، بل جعلها خيرًا من ألف شهر.

العمل الصالح فيها - الطاعة والعبادة والقيام - خير من العمل والطاعة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهي تساوي - كما سبق أن بيّنا في الدرس العشرين من دروس رمضان - ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، إنّها عمر طويل.

ليلة خير من عمر طويل:

كم يتمنى الإنسان منّا أن يُعَمَّر، وأن يمدّ له في الأجل حتّى يعيش ألف شهر يعمل فيها صالحًا، يعيش بعد الصبا ثلاثًا وثمانين سنة، فإذا أضيفت إليها سنوات الصبا قبل التكليف كانت قرابة مئة سنة، وهذا عمر طويل.

ولكنّ هذا العمر الذي يتمناه الإنسان ويودّ لو يعيشه، ويدعو الله أن يتيحه له، وأن يُعَمِّره بالخير والعمل الصالح؛ مثل هذا العمر المتمنى آتاه الله لأتباع محمّد ﷺ، في ليلة واحدة، طوي هذا العمر الطويل في تلك الليلة، ليلة القدر.

وأي قدر أعظم من أن يكون العمل في هذه الليلة خيرًا من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر؟!

روي أنّ النبي ﷺ أرى أعمار الأمم قبل الأمة الإسلامية، فرأى أعمارهم تطول، ورأى هذه الأمة يعيش أبنائها ما بين الستين والسبعين، فعزّ عليه تقاصر أعمار أمته، ألاّ يبلغوا من العمل

والصالحات ما بلغت الأمم الخالية، فأعطاه الله هذه الليلة، تَكْرِمَةً لرسوله، وتَكْرِمَةً لهذه الأمة^(١).

أعطاهم ليلة هي خير من عمر طويل، وهي تتكرر كل عام في رمضان المبارك، رأيتم مثل هذه المضاعفة؟! إنها ليست مضاعفة مائة في المائة ولا مائتين في المائة، ولا ألف في المائة، بل ليلة واحدة خير من ثلاثين ألف ليلة ممّا سواها من الليالي. إنها ثلاثة ملايين في المائة (٣,٠٠٠,٠٠٠٪).

نزول الملائكة في هذه الليلة:

إنَّ الله يُنزل في هذه الليلة الرحمة والثواب الجزيل، وينزل فيها الملائكة فتملاً فجاج الأرض. والملائكة مظهر الرحمة، ومظهر الرضوان، ومظهر البركة من الله ﷻ؛ فالملائكة تنزل بالرضا والرحمات والخيرات. ولهذا كان البيت المحروم من الخير هو البيت الذي لا تدخله الملائكة، كالبيت الذي فيه كلب لغير حاجة، وكالبيت الذي فيه تماثيل^(٢).

(١) قال الإمام مالك؛ أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله. أو ما شاء الله من ذلك. فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل، مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، خير من ألف شهر. الموطأ كتاب ليلة القدر (١١٤٥) تحقيق الأعظمي. قال ابن عبد البر في التمهيد: لا أعلم هذا الحديث يروى مسنداً من وجه من الوجوه ولا أعرفه في غير الموطأ مرسلاً ولا مسنداً، وهذا أحد الأحاديث التي انفرد بها مالك ولكنها رغائب وفضائل وليست أحكاماً ولا بنى عليها في كتابه ولا في موطئه حكماً. التمهيد (٣٧٣/٢٤)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ. وقال السيوطي في تنوير الحوالك بعد أن نقل كلام ابن عبد البر: لكن له شواهد من حيث المعنى مرسله. انظر: تنوير الحوالك (٢٣٦/١)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل». رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٢٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٦)، عن أبي طلحة.

هي ليلة سلام، كلها سلام من أولها حتى يشرق فجرها: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

ليلة القدر اختص الله بها هذه الأمة:

هذه هي ليلة القدر، التي اختص الله بها هذه الأمة، وفضلها بها على غيرها من الأمم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

يُفَضِّلُ اللَّهُ مِنَ الْأَيَّامِ مَا شَاءَ، وَمِنَ اللَّيَالِي مَا شَاءَ، وَمِنَ الْأَمَاكِنِ مَا شَاءَ، وَمِنَ الْأَشْخَاصِ مَا شَاءَ، فَإِنَّ التَّفْضِيلَ وَالْإِثَارَ وَالِاخْتِيَارَ وَالِاخْتِصَاصَ مِنْ شَأْنِ الرَّبِّ وَحْدَهُ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، اختار الله هذه الليلة، ولكن الاختيار لحكمة بالغة لم يُعَيِّنْهَا اللَّهُ لَنَا.

أي ليلة هي؟

عَيَّنَ الْقُرْآنُ لَنَا أَنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَلَكِنْ أَيْ لَيْلَةٌ هِيَ مِنْ رَمَضَانَ؟

لَقَدْ قَالَ قَوْمٌ: إِنَّهَا أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ. وَذَهَبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ وَالْأُئِمَّةِ إِلَى أَنَّهَا لَيْلَةُ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، لَيْلَةُ غَزْوَةِ بَدْرٍ، الَّتِي أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وَقَالُوا: إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي ابْتَدَأَ فِيهَا نَزُولُ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَابْتَدَأَ فِيهَا الْوَحْيُ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ.

وَذَهَبَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ إِلَى أَنَّهَا لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ

تلاحي فلان وفلان في المسجد فُرُفُعت». أي إنَّ اثنين من الصحابة تلاحيا وتشاجرا، فكان من شؤم هذا الخصام ووقوع الخلاف: أن رفع الله علمها من قلبه، ولم تُعَيَّن لهم بعد أن كانت معروفة، وأراد أن يخبرهم بها فقال ﷺ حينما أنسيها: «لعلَّ ذلك خيرٌ لكم». ثمَّ قال لهم: «إني أريت كأنني أسجد ليلتها في ماءٍ وطين». قال أبو سعيد الخدري - وقد سمع ذلك من النبي ﷺ - : وما نرى في السماء قزعة، فجاءت سحابة، فمطرت حتَّى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيتُ رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين، حتَّى رأيت أثر الطين في جبهته^(١). وقال: إنها ليلة إحدى وعشرين، فبصرت عيني رسول الله ﷺ، ونظرت إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلئ طينًا وماء^(٢).

ولهذا رجَّح أبو سعيد أنَّها ليلة إحدى وعشرين، أي أوَّل ليلة من ليالي العشر الأواخر من رمضان. وفي سلطنة عمان، يحتفلون بليلة القدر ليلة الحادي والعشرين. وذهب بعض السلف إلى أنَّها تنتقل من عام إلى عام، ولا تثبت في ليلة واحدة أبد الدهر.

وذهب بعض الصحابة والتابعين إلى أنَّها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وقد ذهب إلى ذلك أبيُّ بن كعب، وكان يحلف على ما يقول، كما ذهب إليه عبد الله بن عباس^(٣).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٦)، ومسلم في فضل ليلة القدر (١١٦٧)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه البخاري في فضلة ليلة القدر (٢٠١٨).

(٣) راجع هذه الأقوال في كتابنا: فقه الصيام ص ١٣٠ وما بعدها، وفتح الباري (٢٥٦/٤) وما بعدها.

سبب خفائها:

المهمُّ أنَّها لم تتعيَّن، وكأنَّ الله تعالى أخفى ذلك لحكمة، كما أخفى عنَّا الساعة التي يُجيب فيها الدعاء يوم الجمعة، والتي لا يُصادفها مسلم يدعو الله بخير إلَّا استجاب له^(١)، ولم تُعيَّن هذه الساعة؛ ليظلَّ قلب الإنسان معلقًا بالله، ضارعًا، داعيًا طوال اليوم. وكذلك لم يُعيَّن الله ليلة القدر؛ لأنَّ الإنسان ينزع إلى الكسل ويميل إلى الراحة، فلو عرف ليلة القدر وأيقن أيَّ ليلة هي لكسل معظم الشهر وغفل، حتَّى إذا كانت هذه الليلة اجتهد وشمَّر عن ساعديه، وكشف عن ساقيه، وقام الليل ودعا، وعبد وتضرَّع. لذا أخفى الله وغَيَّب عنَّا بحكمته علْمَ هذه الليلة وتعيينها.

ولكنَّ الظنَّ القويَّ أنَّها في العشر الأواخر من رمضان.

فقد أمرنا النبي ﷺ بالتماسها في العشر الأواخر، وفي الأوتار خاصَّة، وهي الليالي الفردية، ولا يُطلب منَّا التماسها في العشر الأواخر، إلَّا إذا كان الراجح أنَّها في هذه الليالي.

وإذا كان بعض البلاد يصوم متأخرًا عن بعض، فمعنى هذا أنَّ كل ليلة تصلح لأن تكون فردية وأن تكون زوجية، ومن هنا على المسلم الراغب في الخير: أن يلتمسها في سائر الليالي العشر الأواخر، ولا يكسل في ليلة من الليالي.

(١) إشارة إلى الحديث المتَّفَق عليه: عن أبي هريرة، قال: قال أبو القاسم ﷺ: «في الجمعة ساعة، لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي، فسأل الله خيرًا إلَّا أعطاه». رواه البخاري في الطلاق (٥٢٩٤)، ومسلم في الجمعة (٨٥٢)، عن أبي هريرة.



كيف نقيم ليلة القدر؟

عليه أن يقوم ويحسن القيام، فيقوم بخشوع واطمئنان، لا كنقر الغراب ولا كنقر الديكة، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿[المؤمنون: ١، ٢].

عليه أن يتلو القرآن، فإنَّ للمسلم في كل حرف يتلوه عشر حسنات، كما جاء في الحديث: «لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(١).

عليه أن يدعو ويتضرع، فإنَّ «الدعاء هو العبادة»^(٢).

وقد سألت النبي ﷺ السيدة عائشة: أرأيت إن علمتُ أيَّ ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ فقال: «قولي: اللهمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»^(٣). والأدعية كثيرة في القرآن وفي السنة مثل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٤). إلى غير ذلك ممَّا ورد

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن، (٢٩١٠)، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الوتر (١٤٨١)، والترمذي

في تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وقال: صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، وصحَّحه الألباني

في صحيح أبي داود (١٣٢٩)، عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه أحمد (٢٥٣٨٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٥١٣)، وقال:

حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٠)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم

والليلة (١٠٦٤٣)، عن عائشة.

(٤) رواه أحمد (٤٧٨٥)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات. وأبو داود في الأدب

(٥٠٧٤)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧١)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٢١)، عن

ابن عمر.

من أدعية كثيرة في القرآن، وفي أحاديث النبي ﷺ، وخير الدعاء المأثور، فإنَّ فيه أجرين: أجر الدعاء، وأجر اتِّباع السُّنَّة، واتِّباع هدي الرسول ﷺ.

النبيُّ في العشر الأواخر:

وكان النبيُّ ﷺ إذا حضر العشر الأواخر: شدَّ مِئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله^(١).

أحيا ليله كله بالطاعة والعبادة والقيام والقراءة والدعاء.

وأيقظ أهله، أي أهاب بنسائه ليأخذن حَظَّهنَّ من العبادة ومن الطاعة، وكان يعتكف في هذه العشر في المسجد، ليظلَّ ليله ونهاره لله ﷻ، مُستغرقاً في العبادة، مُتَلَذِّداً بمناجاة ربه، فإنَّ للعبادة عند العارفين رُوحاً وَرَوْحاً وريحاناً وقرة عين، كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢)، وكما قال: «إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»^(٣).

إنَّ ليلة القدر في رمضان، وهي أرحى ما تكون في العشر الأواخر، فاحرصوا عليها والتمسوها واطلبوها.

أيُّها المسلمون، لنلتمس ليلة القدر، ولنجتهد في العبادة أكثر ممَّا كنا عليه، ولنحرص على الخير وعلى طاعة الله أكثر ممَّا كنا نحرص، ولنُحسِّن قيامنا وركوعنا وسجودنا أكثر ممَّا كنا نُحسِّن، ولننصَرِّع إلى الله

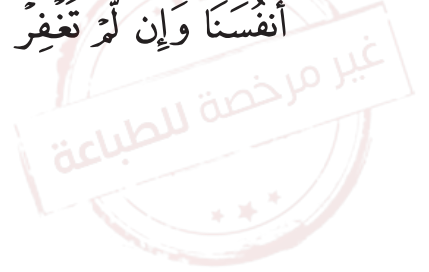
(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف (١١٧٤)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والنسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، وصَحَّح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١)، والبيهقي في الكبرى كتاب النكاح (١٣٢٣٢)، وحسَّنه ابن حجر في التلخيص (١١٦/٣)، عن أنس بن مالك.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.



بقلوبنا، ولنُقبل عليه بكلِّيتنا، واقفين على بابهِ، مُتذللين على أعتابه،
مُتضرِّعين إليه، باسطين أكفنا إليه بالسؤال، داعين خاشعين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا
أَنفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]^(١).



(١) راجع ما ذكرناه حول ليلة القدر في كتابنا: فقه الصيام ص ١٢٩ - ١٣٤.

الدرس الثاني والعشرون

طوبى للغرباء

روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١).

غُرْبَةُ الْبَدَنِ:

إِنَّ الْغُرْبَةَ غُرْبَتَانِ: غُرْبَةُ الْبَدَنِ بِالْبَعْدِ عَنِ الْأَوْطَانِ، وَفِرَاقِ الْأَهْلِ وَالْخَلَانِ. وهي غربة تثير - بلا شك - عواطف الحنين دائمًا، ومشاعر القلق والخوف في كثير من الأحيان، وفي درجات متفاوت فيها النَّاسُ، وهي الَّتِي قال فيها الشاعر يخاطب قبر امرأة غريبة مثله:

أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ^(٢)

غُرْبَةُ الرُّوحِ وَالْفِكْرِ:

وَالْغُرْبَةُ الْأُخْرَى هِيَ غُرْبَةُ الرُّوحِ وَالْفِكْرِ، غُرْبَةُ الْغَايَةِ وَالْوَجْهَةِ، غُرْبَةُ الْعَقِيدَةِ وَالسَّلُوكِ، وَهَذِهِ هِيَ الْغُرْبَةُ حَقًّا، فَإِنَّ صَاحِبَهَا يَعِيشُ وَحِيدًا وَإِنْ

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وأحمد (٩٠٥٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٦)، عن أبي هريرة.

(٢) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٨٣، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

كان بين جماهير النَّاس، مستوحشًا وإن ازدحمت من حوله المواكب، إنَّه يعيش بين النَّاس ولسان حاله يقول:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكُهَا اللَّـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ^(١)
هذه هي الغربة التي وصف النبي ﷺ أصحابها في هذا الحديث، وجعل لهم الطُّوبى، «فطوبى للغرباء».

كيف بدأ الإسلام وكيف انتشر؟

بدأ الإسلام غريبًا بين أقوام يصدُّون عنه، ويحادُّون الله ورسوله، ويصبُّون الصاب والعلقم على كل من آمن بهذا الدين.

بدأ الإسلام بين نُّزاع من القبائل^(٢) من هنا ومن هناك، اعتنقوا دين الله، وآمنوا به، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فرضوا بكل ما يُصيبهم في سبيله، ثمَّ أراد الله لهذا الدين أن يقوى وينتشر شيئًا فشيئًا، حتَّى عمَّ الآفاق، وظهر على الدين كله، وجاء نصر الله والفتح، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا.

كيف سيعود الإسلام غريبًا؟

ولكن - كما هي سُنَّة الله - كلُّ شيء يتغيَّر، لا يبقى شيء على حال، فدوام الحال من المحال.

(١) البيت للمتنبي، كما في ديوانه ص ٢٢، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.
(٢) وهم الذين نزعوا عن أهلهم وعشيرتهم، جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزَّع عن أهله وعشيرته. أي بُعد وغاب. وقيل: لأنَّه ينزع إلى وطنه، أي ينجذب ويميل. والمراد الأول. أي: طوبى للمهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله تعالى. كما في النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مادة (نزع).

إِنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي قَوِيَ وَانْتَشَرَ وَعَمَّ الْآفَاقَ، سَتُصِيبُهُ غُرْبَةٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَسَيَصْبَحُ أَهْلُهُ غَرْبَاءَ، فَطُوبَى لِهَؤُلَاءِ الْغَرْبَاءِ.

طُوبَى لِهَؤُلَاءِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِحَبْلِهِ، الْمُتَشَبِّثِينَ بِذِيلِهِ، الْمُتَعَلِّقِينَ بِأَهْدَابِهِ، الَّذِينَ لَا يُفَرِّطُونَ فِي دِينِهِمْ، وَيَقْبِضُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ قَبْضًا عَلَى الْجَمْرِ.

معنى طوبى:

طوبى للغرباء، ومعنى الطوبى: الفرحة وقرّة العين والغبطة والسرور، تنتهي بالجنة، فطوبى للغرباء.

مَنْ الْغَرْبَاءُ؟

وفي الحديث: قيل يا رسول الله، مَنْ الْغَرْبَاءُ؟ قال: «النُّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»^(١)، وفي حديث عبد الله بن عمرو، قيل: مَنْ الْغَرْبَاءُ، يا رسول الله؟ قال: «أَنَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسٍ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعَصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَطِيعُهُمْ»^(٢). وجاء أيضًا في حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى اللَّهِ الْغَرْبَاءُ». قيل: وَمَنْ الْغَرْبَاءُ؟ قال: «الْفَارُّونَ بِدِينِهِمْ، يَجْتَمِعُونَ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). وفي رواية أخرى من حديث آخر: مَنْ الْغَرْبَاءُ، يا رسول الله؟ قال: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنتي، وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ»^(٤).

(١) رواه أحمد (٣٧٨٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٨)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٦٦٥٠)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والطبراني في الأوسط (٨٩٨٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٩١): فيه ابن لهيعة وفيه ضعف. وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٦١٩).

(٣) رواه أحمد في الزهد (٨٠٩).

(٤) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٣٧)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٠)، والهروي في ذم الكلام (٦٩٥)، عن الحسن مرسلاً.

ولا تناقض ولا اختلاف بين هذه الأحاديث والروايات، فكلُّها أوصاف مُشيرة إلى حقيقة هؤلاء النَّاس، ومُعبرة عنهم، كل حديث منها يشير إلى صفة من صفاتهم، فهي متكامل ولا تتناقض. ولذلك ذكر شيخ الإسلام إسماعيل الهروي في كتابه: «منازل السائرین» في باب «الغربة»: قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]. بدأ بهذه الآية، وعقب على ذلك ابن القيم بقوله: «استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن، فإنَّ الغرباء في العالم، هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية»^(١). يعني الذين ينهون عن الفساد في الأرض.

بِمَ يَنْشَغِلُ الْغُرَبَاءُ؟

هؤلاء هم الغرباء، هم الممدوحون المغبوطون، ولقَّبتهم في النَّاس جدًّا سُمُّوا غُرَبَاء، فإنَّ أكثر النَّاس على غير هذه الصفات.

الناس مشغولون بدنياهم، وهؤلاء مشغولون بدينهم.

الناس مشغولون بالفرار إلى الخلق، وهؤلاء يفرون إلى الحق: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

الناس يعملون لأُمور تافهة، وهؤلاء يعملون لإحياء سُنَّة النبي ﷺ، ويُعلِّمون النَّاس، ولهذا كانوا غُرَبَاء بين النَّاس.

منازل أهل الغربة:

لذا يقول الإمام ابن القيم: «فأهل الإسلام في النَّاس غُرَبَاء، والمؤمنون في أهل الإسلام غُرَبَاء، وأهل العلم في المؤمنين غُرَبَاء.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم (١٨٤/٣).

وأهل السُّنَّة الَّذِينَ يَمَيِّزُونَهَا مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ فَهُمْ غُرَبَاءُ،
وَالدَّاعُونَ إِلَيْهَا الصَّابِرُونَ عَلَى أَذَى الْمَخَالَفِينَ هُمْ أَشَدُّ هَؤُلَاءِ غُرَبَةً،
وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ حَقًّا، فَلَا غُرَبَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا غُرَبَتُهُمْ بَيْنَ
الْأَكْثَرِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ وَجَّكَ فِيهِمْ: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ
يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فَأُولَئِكَ هُمُ الْغُرَبَاءُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَدِينِهِ، وَغُرَبَتُهُمْ هِيَ الْغُرَبَةُ الْمَوْحِشَةُ، وَإِنْ كَانُوا هُمُ الْمَعْرُوفِينَ الْمَشَارِ
إِلَيْهِمْ، كَمَا قِيلَ:

فَلَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارُهُ وَلَكِنَّ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبٌ

وَيُرْوَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَما خَرَجَ فَارًّا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، انْتَهَى إِلَى
مَدِينٍ، عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، وَهُوَ وَحِيدٌ غَرِيبٌ، خَائِفٌ جَائِعٌ. فَقَالَ:
يَا رَبِّ، وَحِيدٌ مَرِيضٌ غَرِيبٌ. قَالُوا: فَنُودِيَ: يَا مُوسَى، الْوَحِيدُ مَنْ لَيْسَ لَهُ
مِثْلِي أَنْيَسُ، وَالْمَرِيضُ مَنْ لَيْسَ لَهُ مِثْلِي طَيِّبٌ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَيْسَ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ مَعَامِلَةٌ^(١).

هَؤُلَاءِ هُمُ الْغُرَبَاءُ حَقًّا، أَمَّا أَهْلُ الْأَنْسِ بِاللَّهِ وَإِنْ كَانُوا غُرَبَاءَ فِي
النَّاسِ، فَهُمْ مَوْصُولُونَ بِاللَّهِ وَجَّكَ، فَلَا غُرَبَةَ عَلَيْهِمْ.

إِنَّ الْغُرَبَةَ الَّتِي وَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، هِيَ مَنَاطُ الْفَخْرِ،
هِيَ تَاجٌ يَتَوَجَّحُ أَصْحَابُهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

هَذِهِ الْغُرَبَةُ لَا وَحْشَةَ عَلَى صَاحِبِهَا، بَلْ هُوَ أَنْسٌ مَا يَكُونُ إِذَا
اسْتَوْحَشَ النَّاسُ، وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ وَحْشَةً إِذَا اسْتَأْنَسُوا، فَوَلِيُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَإِنْ عَادَاهُ أَكْثَرُ النَّاسِ وَجَفَوْهُ.

(١) مدارج السالكين (٣/١٨٦).

وَمِنَ الْغُرَبَاءِ مَنْ جَاءَ وَصَفَهُمْ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَنَسٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١)، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢).

ملوك أهل الجنة:

هؤلاء ملوك أهل الجنة كما جاء في الحديث: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ عَنْ مَلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «كُلُّ ضَعِيفٍ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٣). لَا يُؤْبَهُ لَهُ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ، وَإِنْ قِيلَ لَمْ يُسْمَعْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ وَلَا الْمَنْزِلَةِ، وَلَا أَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ، إِنَّهُ فِي النَّاسِ غَرِيبٌ. كَمَا قَالَ الْحَسَنُ: الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لَا يَجْزَعُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَنَافِسُ فِي عِزِّهَا، لِلنَّاسِ حَالٌ وَلَهُ حَالٌ، النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَبٍ»^(٤).

ليس عند الغرباء يأس:

طوبى لهؤلاء الغرباء، ليس معنى هذا: التئيس من نُصرة الإسلام، كما يُريد بعض الناس أن يفهموا من هذا الحديث، أن يئأسوا.

(١) سبق تخريجه ص ٤٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥.

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٥). والطبراني (٨٤/٢٠)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢١٤/٤ - ٢١٥): هذا إسناد فيه سويد بن عبد العزيز وقد ضعفوه، وله شاهد من حديث حارثة بن وهب رواه الشيخان، ورواه البخاري وغيره من حديث أنس، ورواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة. وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٩٦)، عن معاذ بن جبل.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٥٨).

لا، على كل مسلم أن يُحاول أن يكون من هؤلاء الغرباء، وأن يدعو الناس إلى أن يكونوا مثلهم، حتَّى تزول غربتهم ووحشتهم، وقد جاء أنَّ للإسلام دولة قبل الساعة، وأنَّ الله ناصر دينه، والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ مَثَلَ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ»^(١). وقال: «لَنْ يُخْزِيَ اللَّهُ أُمَّةً أَنَا أَوَّلُهَا وَالْمَسِيحُ آخِرُهَا»^(٢).

تفاوت الغربة:

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الغربة قد تكون في بلدٍ دون بلد، وفي قومٍ دون قوم، وفي زمانٍ دون زمان، وفي حالٍ دون حال، فيكون الإسلام غريباً في وطن، قوياً عزيزاً في وطن آخر، وكذلك في وقتٍ دون وقت^(٣).

فاستمسكوا - أيُّها المؤمنون - بإيمانكم، وعَضُّوا عليه بالنواجذ، ولا يُهمكم موقف الناس منكم، وحسبكم أَنَّ الله معكم، وأنَّ الله وليكم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

(١) روي هذا الحديث عن عدد من الصحابة منهم: أنس، رواه أحمد (١٢٤٦١)، وقال مخرَّجوه: حديث قوي بطرقه وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال حسن غريب. ومنهم عمار، رواه أحمد (١٨٨٨١)، وقال مخرَّجوه: حديث قوي بطرقه وشواهده. والطيالسي (٦٨٢)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٢٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الجهاد (١٩٦٩٠)، عن عبد الرحمن بن جبير.

(٣) مدارج السالكين (١٩٥/٣).

الدرس الثالث والعشرون

زكاة الفطر

روى أبو داود، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان، طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ ^(١).

الإسلام دين الإخاء والعدالة:

الإسلام دين الإخاء ودين العدالة، جاء ليُحَقِّقَ هدفاً عظيماً في الأرض، أن يشعر النَّاسُ جميعاً بأنَّهم إخوة، كما قال ﷺ: «وكونوا عبادَ الله إخواناً» ^(٢)، حتَّى رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ» ^(٣).

(١) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (٥٦٨/١)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الزكاة، والدارقطني في زكاة الفطر (٦١/٣)، وقال: ليس فيهم مجروح. وحسَّن إسناده النووي في المجموع (١٢٦/٦)، عن ابن عباس.

(٢) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٩٢٩٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (١٥٠٨)، والطبراني (٢١٠/٥)، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٢٥)، عن زيد بن أرقم.

هكذا جعل هذا الحديثُ الإخاءَ بين النَّاسِ في المرتبة التالية لتوحيد الله وللشهادة لرسول الله ﷺ بالرسالة.

الناس كلهم أبناء آدم، وهم جميعاً عباد لله ﷻ.

جاء الإسلام ليرفع ويُزيل كل الفوارق التي فَرَّقت بين النَّاسِ، وميّزت بينهم وجعلتهم فئات وطبقات، يستعلي بعضهم على بعض، ويستكبر بعضهم على بعض، جاء ليقرّر الأخوة والعدل بينهم، وليعلن أنّ النَّاسِ سواسية كأسنان المشط: «لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضٍ على أسود، ولا لأسودٍ على أبيض، إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١). ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقِمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

إقرار مبادئ أخوة الإسلام عملياً:

هذا ما أعلنه الإسلام في غير لبسٍ ولا غُموض، وما قرّره في تأكيد بعد تأكيد.

والإسلام العظيم لم يكتف بإقرار هذا المبدأ نظرياً، لم يكتف بأن يقول لكل إنسان: هذا أخوك ثم يدعه وشأنه. فليس هناك مكان للأخوة إذا جاع بعض النَّاسِ على حين يشبع الآخرون، وإذا اكتسى بعض النَّاسِ على حين يعرى الآخرون، فإنّما تتحقّق الأخوة حقّاً، وإنّما تؤتي أكلها صدقاً؛ إذا أثمرت التعاون والتكافل والتضامن، بحيث يحمل القوي الضعيف، ويأخذ الغني بيد الفقير، ويحمل القادر العاجز، ويجود النَّاسُ بعضهم على بعض، هذه هي الأخوة حقّاً.

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧.

تحقيق الكفاية للفقراء والمساكين:

ومن هنا كان في تعاليم الإسلام وشرائعه وأحكامه مكان عظيم لتحقيق الكفاية للفقراء والمساكين.

فرض الله للفقراء والمساكين زكاة المال، وهي الركن الثالث في الإسلام، كما جعل أدائها دليلاً على الإيمان، وجعل منعها دليلاً على الكفر، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١] وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

الإسلام يوجب حقوقاً غير الزكاة:

ولم يكتفِ الإسلام بزكاة الأموال فحسب، بل انتهز كل فرصة، ليأخذ من الغني ليعطي الفقير، ومن الواجد ليكفي المحروم.

إذا ظاهر الرجل من امرأته، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي. فإن الإسلام يُحرّمها عليه حتى يحرّر رقبة، فإن لم يستطع فيصوم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

وكذلك من جامع امرأته في نهار رمضان عليه هذه الكفارة.

ومن حلف يميناً بالله، ثم حنث فيها، ولم يف بيمينه، كانت كفارته إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

فليست كفارة الحنث في اليمين الصيام - كما يظن كثير من الناس - إنما الصيام لمن عجز عن الإطعام أو الكسوة أو العتق^(١).

(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ص ١١٧ وما بعدها، نشر

مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٨.

ترك الحَضُّ على إطعام المسكين يُوجب النار:

وهكذا ينتهز الإسلام كلَّ فرصة لإطعام المساكين، ويجعل إطعامهم واجباً، ومَن ترك المسكين يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته، فقد استوجب النار، فإنَّ الله حدَّثنا عن المجرمين في سقر، فقال **وَعَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ۖ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ۖ** [المدر: ٣٨ - ٤٤].

فترك الصلاة والقسوة على المساكين والمحرومين، سببٌ من أسباب أزدتهم في النار وبئس القرار.

ولم يكتفِ الإسلام بذلك، بل جعل النار جزاءً لِمَن ترك إطعام المسكين، ومثله مَن لم يحضَّ على إطعام المسكين.

واجبان نحو المسكين:

أي أنَّ كلَّ إنسان عليه واجبان نحو المسكين:

الواجب الأول: أن يُطعمه ويكسوه، ويرعى ضروراته وحاجاته ما قدر على ذلك.

والواجب الثاني: أن يحضَّ غيره، ويحثَّه على إطعامه وعلى رعايته.

فإذا لم يفعل فليس من المؤمنين، ولا يستحق أن يكون من المصدقين بالدين، فلو صدَّق بالدين - بالحساب والجزاء عند الله - لحثَّ على إطعام المسكين. اقرأ قوله تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ﴾** [الماعون: ١ - ٣].

ويُحدِّثنا الله عن أصحاب الشمال ممَّن يؤتى كتابه بشماله فيقول:

﴿يَلْبِسَنِي لَمْ أُوتِ كَنِيَّةً * وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِي * يَلْبِسَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

ثم يحكم الله عليه حكماً عدلاً، فيقول لملائكته وزبانية جهنم: ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾، ما أسباب هذا الحكم؟ يقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٤].

لم يكن يهتم بالمسكين، فيحث الناس على إطعامه، ويرى أنه مسؤول عن كل جائع في الأمة، وعن كل غريان أو مشرد أو مريض في المجتمع الذي يعيش فيه.

هذه هي عناية الإسلام بالفقراء والمساكين، بالضعفاء من الناس، قبل أن تعرف الدنيا المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية المستوردة من هنا ومن هناك.

فرضية زكاة الفطر وسبب تسميتها بذلك:

ثم أكد الإسلام هذه العناية حين فرض زكاة الفطر، فرضها على كل مسلم، وسُميت زكاة الفطر؛ لأنها تجب بالفطر من رمضان، حينما تغرب شمس آخر يوم من رمضان، يحين وقت أداء هذه الزكاة الدورية السنوية، وهي ليست زكاة متعلقة بالأموال، كزكاة الزروع والثمار، أو زكاة الحيوانات أو التجارة، أو كزكاة النقود والأموال المدخرة، وهكذا. بل هي زكاة تتعلق بالرؤوس، وهي ضريبة أشخاص... هي فريضة على كل رأس مسلم، على نفسه، وعلى من يمونه ويولي عليه. ولهذا يخرجها الرجل عن نفسه، وعن زوجته وأولاده الصغار، وخدمه الذين يعيشون معه.

حكمة مشروعية زكاة الفطر:

فُرِضَتْ زكاة الفطر طُهْرَةً للصائمين من اللغو والرَّفَث، وطُعْمَةً للمساكين، كما قال رسولُ الله ﷺ. فهي تحقِّق هدفين: هدف للصيام وهو تطهيره، وهدف للمجتمع، وهو إسعاف المساكين.

تطهير الصائم ممَّا يكدر صيامه:

إِنَّ الصَّائِمَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَشُوبَ صِيَامَهُ بَلْغُوٌّ أَوْ رَفَثٌ، بِكَلَامٍ يَخُوضُ فِيهِ، بِبَاطِلٍ، يَتَوَرَّطُ فِيهِ، بِكَلِمَةٍ يَقُولُهَا أَوْ يَسْمَعُهَا، أَوْ نَظْرَةً يَنْظُرُهَا غَيْرَ مَبَاحَةٍ لَهُ، أَوْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ حَيَاةَ الصَّائِمِ أَنْ تَكُونَ زَاكِيَةً طَاهِرَةً، لَا لَغْوَ فِيهَا، وَلَا تَأْثِيمَ، يَرِيدُ الْحَيَاةَ فِي رَمَضَانَ، كَأَنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ عُجِّلَتْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا شُوتُمْ أَوْ قُوتِلَ، فَلَا يَرُدُّ الشَّتْمَ بِالشَّتْمِ، وَالسَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، بَلْ يُقَابَلُ السَّيِّئَةُ بِالْحَسَنَةِ، وَيَقُولُ: «إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ». هذه هي حياة الصائم مع صومه، فليس الصيام عن الطعام والشراب فحسب، بل عن اللغو والرَّفَث، والصخب والجهالة، والسفه والشتيمة، والزور والباطل.

هذا ما يحبه الله من الصائم، ولكن مَنْ مِنَ الصَّائِمِينَ يَرْقَى إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ.

إِنَّ الصَّائِمَ كَثِيرًا مَا يَلْغُو، وَكَثِيرًا مَا يَصْخَبُ وَيَجْهَلُ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الزَّكَاةُ فِي خَتَامِ الصِّيَامِ، تَطْهِيرًا لِلصَّائِمِ مِمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ كَدَّرَ صِيَامَهُ أَوْ شَابَهُ مِنْ تِلْكَ الشَّوَائِبِ.

وقد رُوي في حديث ضعيف: «صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يُرْفَعُ إِلَّا بِزَكَاةِ الْفَطْرِ»^(١).

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١٦٥٣) وقال: رواه أبو حفص بن شاهين في فضائل رمضان، وقال: حديث جيد الإسناد.

ومعنى أنه مُعلّق: أي إنَّ قبوله غير تام، ولا يتمُّ إلا بإخراج هذه الزكاة؛ فهي طهرة للصائم من ناحية، ومن ناحية أخرى هي طعمة للمساكين.

إغناء الفقراء عن السؤال يوم العيد:

وقد قال ﷺ، في حديث آخر: «أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم»^(١). لا تدع المسكين مهما بلغ فقره، ومهما اشتدت حاجته، يمدُّ يده لسؤال الناس في يوم العيد، يوم المسرات والأفراح. بل اسع أنت إليه، ووصل إليه نصيبه من زكاة الفطر.

على المسلمين أن يُشركوا إخوانهم الفقراء في مسرات هذا اليوم، ولهذا وجبت هذه الزكاة، تُعطى للفقير قبل أن يسأل، وقبل أن يُريق ماء وجهه، وقبل أن يمدَّ يده.

مقدار زكاة الفطر:

إنَّه من شكر نعمة الله على المرء أن يؤدي هذه الزكاة، زكاة الفطر، وهي ليست شيئاً كثيراً، إنَّها صاع من طعام، فرضها رسول الله ﷺ، صاعاً من تمر أو من زبيب، أو من قمح أو شعير، أو ممّا يأكل الناس^(٢).

ولهذا قال العلماء: إنَّها تكون من غالب قوت البلد، والصاع يقدر بنحو خمسة أرطال تقريباً، يُخرجها الإنسان، لا عن نفسه فحسب، بل عن نفسه وعن كل شخص يمونه وتلزمه نفقته؛ وزوجه، وأولاده الذين

(١) رواه الدارقطني في زكاة الفطر (٢١٣٣)، والبيهقي في الزكاة (١٧٥/٤)، عن ابن عمر.

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كنا نخرج زكاة الفطر صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر أو صاعاً من أقط أو صاعاً من زبيب. متفق عليه: رواه البخاري (١٥٠٦)، ومسلم (٩٨٥)، كلاهما في الزكاة.

يعيشون معه، وخدمه، كل هؤلاء، يُخرج عنهم سواء أكانوا يصومون أم لا يصومون، فإنَّما هي تنمة لصيام نفسه، فهو يُخرجها عن الذكر والأنثى، وعن الصغير والكبير، وعن الحرِّ والعبد.

إخراج القيمة:

وأجاز الإمام أبو حنيفة أن يخرج المسلم قيمتها نقدًا، وهو ما روي عن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد، أنَّه كتب إلى واليه بالبصرة عدي بن أرطاة، يأمره أن يأخذ صدقة الفطر من أهل الديوان من كل واحد نصف درهم^(١). وقد كان نصف الدرهم آنذاك معادلًا لصاع الطعام بالقيمة. وهكذا قال الثوري والحسن البصري وغيرهم، بجواز إخراج القيمة. وهو ما أجازَه شيخ الإسلام ابن تيمية إذا كانت القيمة أنفع للفقير^(٢).

مراعاة مصلحة الفقير:

ولعل ذلك يكون أنفع في بعض الأحيان، إذا كان الفقير في حاجة إليها، فإنَّ الأطعمة إذا تكاثرت عند الفقير، لم ينتفع بها، واضطرَّ إلى بيعها ولو بثمن بخس، أمَّا القيمة فإنَّه يستفيد منها، كأن يشتري ملابس، أو حلوى لأولاده، أو أي شيء نافع لأسرته. وفي حديثه ﷺ: «أَغْنَوْهُمْ عَنِ السَّوَالِ»^(٣)، والإغناء يتحقَّق بالطعام كما يتحقَّق بالقيمة. وإنَّما فرض النبي ﷺ صدقة الفطر طعامًا في وقته؛ لأنَّ النقود كانت عزيزة عند العرب، وخاصَّة أهل البوادي، فلم يكن عندهم نقود إلَّا في النادر. هذا شيء.

(١) عن قرعة قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز في صدقة الفطر: نصف صاع عن كل إنسان أو قيمته نصف درهم. رواه ابن أبي شيبة في الزكاة (١٠٤٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٨٢/٢٥ - ٨٣).

(٣) سبق تخريجه ص ٢٢٣.

وشيء آخر، أَنَّ النقود تختلف قدرتها الشرائية باختلاف الأزمان والأحوال والبيئات، فلو قَدَّرَها بدرهم مثلاً، فإنَّ الدرهم في بعض الأوقات لا يُساوي شيئاً يُذكر، وفي أوقات أخرى يُساوي شيئاً كثيراً، أمَّا صاع الطعام فإنَّه محدود، يغطي حاجة بشرية محدَّدة، وهي طعام إنسان، أي ما يكفيهِ ليوم، فهذا لا يختلف باختلاف الأزمنة ولا الأمكنة. ولهذا يجوز إخراج القيمة، ولا بأس بذلك، بل ربَّما رُجِّح ذلك في عصرنا هذا، فإنَّ النَّاس أصبحوا يتعاملون أكثر ما يتعاملون بالنقود.

أمَّا الطعام ونحوه، فربما كان أفضل لِسُكَّان البوادي، أو في وقت الأزمات وشُحِّ الأطعمة في الأسواق، أمَّا الحضر فلعل الأولى لهم والأيسر عليهم أن يخرجوها بالنقود، ولا حرج عليهم إن شاء الله.

على مَنْ تجب زكاة الفطر؟

وهذه الزكاة تجب على مَنْ ملك مقدارها فاضلاً عن قوت يوم العيد وليلته. فهي ليست كزكاة المال، يشترط فيها النصاب، بل هي تلزم المسلم بشرطها السالف الذكر، وهو أن يفضل لديه مقدار الزكاة زائداً عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته؛ لأنَّ الإسلام يريد منها معنىً جميلاً، هو أن يتعوَّد المسلم البذل، وأن يتدرَّب على الإعطاء والإنفاق، حتَّى الفقير، يتعوَّد يوماً من الدهر أن تكون يده هي العليا، فيعطي. ولا بأس بأن يُعطى ويُعطى، وأن يُنفق ويُنفق عليه، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «زكاة الفطر صاعٌ من بُرٍّ على كل إنسان، صغير أو كبير، حرٌّ أو مملوك، غني أو فقير»، ثمَّ قال ﷺ: «أمَّا غنيُّكم فيزكِّيه

الله تعالى، وأما فقيركم فيردُّ الله عليه أكثر ممَّا أعطى»^(١). فهو يُعطي من هنا، وتجيئه صدقات وزكوات من هناك، ويعوِّضه الله خيرًا ممَّا أتى.

وبهذا يتعوّد المسلم البذل في السراء والضراء، وقد وصف الله تعالى المتّقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

هذه هي زكاة الفطر التي شرعها الإسلام.

وقت خروجها:

ووقت هذه الزكاة يجب بغروب شمس آخر يوم من رمضان، إلى ما قبل صلاة العيد. فمن أخرها بعد صلاة العيد، فقد قال ابن عباس: مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ.

أي ليس لها ثواب صدقة الفطر، إذا أخرها عن وقتها.

إنَّه يَأْثِمُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْقُطُ عَنْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ بِالتَّأْخِيرِ حَتَّى يُوَدِّيَهَا. فعلى المسلم أن يحرص على أدائها في وقتها، قبل صلاة العيد، بل يجوز أن يؤدّيها قبل العيد بيوم أو يومين، كما جاء عن ابن عمر: أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤَدُّونَ صَدَقَةَ الْفِطْرِ، قَبْلَ الْعِيدِ يَوْمَ أَوْ يَوْمَيْنِ^(٢).

بل أجاز الإمام الشافعي، أن تُخرج من أوّل رمضان، وأجاز الحنابلة أن تخرج من منتصف رمضان، وفي هذا تيسير على النَّاسِ، وتوسعة عليهم.

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦٤)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الزكاة (١٦١٩)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٦٨)، عن عبد الله بن ثعلبة.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٥١١).



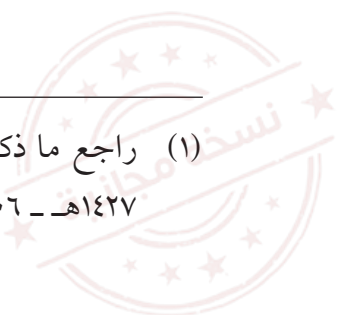
ولكن الأولى والأرجح أن تخرج قبيل العيد، أو في النصف الثاني من رمضان؛ لتظلّ في مناسبتها، فإنّها شُرعت لهذا الغرض، لإشراك الفقراء في مسرّة العيد، فكلّما كانت أقرب إلى العيد أدّت هذا المعنى وحقّقت هذا الغرض^(١). ما لم تكن تنتقل إلى بلد إسلامي آخر، فإنّ المسلمين أُمَّة واحدة.

* * *



(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا: فقه الزكاة (٢/٩٦٣ - ٩٦٦)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٥،

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.



الدرس الرابع والعشرون

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

روى الترمذي وأبو داود، عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى مِنْهُمْ أَخَاهُ، فَيَقُولُ لَهُ: أَيُّ فُلَانٍ، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِّ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ».

وفي رواية: «وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

ثم قرأ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]^(١).

مسؤولية المسلم عن صلاح المجتمع:

إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَعْرُوفَ وَيَتْرَكَ الْمُنْكَرَ فَحَسَبَ، بَلْ حَمَلَهُ وَاجِبًا آخَرَ، حَمَلَهُ وَاجِبًا نَحْوَ الْمَجْتَمَعِ، حَمَلَهُ مَسْئُولِيَّةَ إِصْلَاحِ الْجَمَاعَةِ.

(١) رواه أحمد (٣٧١٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٧) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٦)، عن ابن مسعود.

إِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَعْرُوفَ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ غَيْرَهُ، وَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْمُنْكَرَ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَنْهَى عَنْهُ غَيْرَهُ.

إِنَّ مَسْئُولِيَةَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مُصْلِحًا فِي مَجْتَمَعِهِ، هُوَ مَسْئُولٌ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ عَلَى ثَغْرِ مَنْ تُغَوِّرُ الْإِسْلَامَ، فَلِهَذَا إِذَا رَأَى الْمُنْكَرَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ إِنْ أَمَكَنَ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِلِسَانِهِ، بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْبَيَانِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ^(١).

معنى التغير بالقلب:

ولكن النَّاسُ يَفْهَمُونَ هَذِهِ الرِّتْبَةَ الْآخِرَ (التغير بالقلب) فَهَمًّا مَغْلُوطًا، يَظُنُّونَ التَّغْيِيرَ بِالْقَلْبِ أَمْرًا سَلْبِيًّا، وَلَوْ كَانَ أَمْرًا سَلْبِيًّا مَا سُمِّيَ تَغْيِيرًا، النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: يُغَيِّرُ بَقْلَبِهِ. كَيْفَ يُغَيِّرُ إِذَا كَانَ هُوَ مَجْرَدَ امْتِنَاعٍ فَقَطْ؟! التَّغْيِيرَ بِالْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُ الْمُسْلِمِ مُمْتَلَأًا بِالْكَرَاهِيَةِ لِلْمُنْكَرِ وَأَصْحَابِهِ، يَتَمَزَّقُ كَبِدُهُ حَسْرَةً وَأَسَى عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَأَنْ يَغْلِي قَلْبُهُ وَيَمْتَلَأَ غَيْرَةً كُلَّمَا رَأَى الْمَعْصِيَةَ وَالْمُنْكَرَ، كَمَا يَغْلِي الْقَدْرُ فَوْقَ النَّارِ.

هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ، أَمَّا أَنْ يَقُولَ أَنَا أُغَيِّرُ بِقَلْبِي، وَمَعَ هَذَا يَخَالِطُ أَصْحَابَ الْمُنْكَرِ، وَيُؤَاكِلُهُمْ وَيُشَارِبُهُمْ وَيَصَافِحُهُمْ. فَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّغْيِيرِ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ لَيْسَ مِنَ التَّغْيِيرِ فِي شَيْءٍ.

إِنَّ أَقْلَ مَظَاهِرِ التَّغْيِيرِ بِالْقَلْبِ: أَنْ تَقَاطِعَ أَصْحَابَ الْمُنْكَرِ، أَنْ تَتَبَعَدَ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا ذَكَرَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أَنَّهُمْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَلْقَى بَعْضًا وَيَقُولُ لَهُ: يَا فُلَانُ، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ هَذَا فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ.

(١) رواه مسلم (٥٠)، وأبو عوانة (٩٨)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

هذا النهي باللسان لم يُغنهم شيئاً؛ لأنَّه لم يتبعه عمل، لم يكن وراءه موقف إيجابي؛ لأنَّهم ظلوا يَؤاكل بعضهم بعضاً، ويجالس بعضهم بعضاً، فلهذا ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على ألسنة أنبيائهم، وقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]. لم يعتبر القرآن قولهم هذا باللسان تناهياً عن المنكر؛ لأنَّه قول سلبى لا يعبر عن موقف إيجابي.

إنَّما الواجب أن يأمر الإنسان وينهى، ويُتبع ذلك بالمقاطعة، حتَّى يشعر صاحب المنكر أنَّه مُقاطع، وأنَّه مُحاصر حصاراً أدبياً من المجتمع. فَمَنْ لم يُزلِ المنكر فليُزلْ عن المنكر، حتَّى لا تنزل عليه اللعنة حين تنزل، فإنَّ النعمة واللعنة تعمُّ من لم ينكر.

رُوي عن النبي ﷺ: «لا يقفنَّ أحدكم موقفاً يُقتل فيه رجلٌ ظلماً؛ فإنَّ اللعنة تنزل على مَنْ حضره حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفنَّ أحد منكم موقفاً يُضرب فيه أحد ظلماً، فإنَّ اللعنة تنزل على مَنْ حضره حين لم يدفعوا عنه»^(١).

كراهية المنكر وعدم الرضا به:

فإذا اضطررت اضطراراً إلى أن تبقى بمكان فيه معصية، فتكفيك كراهية ما يقع من منكر لذاته ولمن يرتكبونه.

وفي الحديث: «إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض، كان مَنْ شَهِدَهَا

(١) رواه الطبراني (٢٦٠/١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٠)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب (٣٧٠٥)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٧١٠): رواه الطبراني، وفيه أسد بن عطاء، قال الأزدي: مجهول، ومندل وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقيّة رجاله ثقات. والألباني في غاية المرام (٤٤٨)، عن ابن عباس.

فَكَرِهَهَا - وقال مرة: أنكرها - كان كَمَنْ غاب عنها، ومن غاب عنها
فرضيها، كان كمن شهدها»^(١).

فالرضا له أهميته، الرضا بالمنكر هو نفسه منكر، كما قيل: الرضا
بالكفر كفر، والرضا بالظلم ظلم.

ترك إنكار المنكر يجلب سخط الله:

إذا ترك النَّاسُ إنكار المنكر، ولو بالقلب، ورضوا عنه وعن فاعليه،
فهذه هي المصيبة التي تُحلُّ بالناس سخط الله، وتُنزل بهم بلاءه وعذابه،
وفي الحديث: «لا تزال لا إله إلا الله تنفع مَنْ قالها، وتدفع عنهم عذاب
الله، حَتَّى يَسْتَخَفُّوا بِحَقِّهَا». قيل: وما الاستخفاف بحقها، يا رسول الله؟
قال: «أَنْ يُعْمَلَ بِمَعَاصِي اللَّهِ فَلَا تُنْكَرُ وَلَا تُغَيَّرُ»^(٢)، أي لا تُغَيَّرَ باليد
ولا باللسان ولا تُنْكَرَ بالقلب.

شرُّ ما يصيب المجتمع اختلال القيم واضطراب المقاييس:

فهذا هو الذي يجلب على النَّاسِ سخط الله وعذابه، وشرُّ من ذلك أن
تختلَّ الموازين، وتضطرب المقاييس والقيم في المجتمع، فيُصبح
المعروف في نظر النَّاسِ مُنْكَرًا، ويُصبح المُنْكَرُ معروفًا، وتُصبح السُّنَّةُ
بدعة، وتصير البدعة سُنة.

هذا شرُّ ما يصيب النَّاسَ، أن تختلَّ القيم في الأذهان والأفكار، فإذا
التمسك بالدين يصبح رجعيةً أو تخلفًا، أو التحلل من الفضائل والعفاف
والحشمة والوقار يصبح ضربًا من التمدُّن والترقي والتحرُّر. وهكذا.

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٢٣)،
عن عُرْس بن عميرة.

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٩٨)، وعزاه إلى الأصبهاني.

الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف شر ما يصيب المجتمع:

إنَّ اختلال الموازين هو شرُّ ما يُصاب به المجتمع من تأخر، وأشدُّ من ذلك أن تجد في النَّاس مَنْ يأمر بالمنكر، ومَنْ ينهى عن المعروف، أن تجد للمنكر أصواتًا تجهر به؛ تدعو إليه في صحافة تُروِّج، وفي كتب تُنشر، وفي إذاعات تملأ الآفاق، وفي التلفزيونات، وفي السينمات، وفي غيرها من المجالات.

ترى للباطل أصواتًا عالية، تُدوي في كل أذن، وتتجاوب في كل أُفق، وتملأ كل عين وأذن، بما يرى، وما يُسمع، وما يُقرأ.

أصوات تدعو إلى الفجور، إلى الإلحاد، إلى الإباحية، إلى التغريب، إلى الشيوعية، إلى السُّخرية من الدين، من الصلاة، من أوامر الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

هذا هو شر ما يصاب به المجتمع.

فِتْنٌ تدع الحليم حيران:

يقول النبي ﷺ في حديثٍ له: «كيف أنتم إذا فسق شُبَّانكم، وطغت نساؤكم، وتركتم جهادكم؟». قال الصحابة: وكائن ذلك يا رسول الله؟ تفسق الشُّبَّان، وتطغى النساء، ويُترك الجهاد؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده، وأشدُّ منه سيكون». قالوا: وما أشدُّ منه؟ قال: «كيف أنتم إذا صار فيكم المعروف مُنكرًا، والمُنكر معروفًا؟». قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده، وأشدُّ منه سيكون». قالوا:

وما أشدُّ منه؟ قال: «كيف أنتم إذا أمرتم بمُنكر، ونهيتم عن المعروف؟ قال الله تعالى: لَا تُيْحَنَ لَهُمْ فِتْنَةٌ تَذَرُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا»^(١).

وأي فتنة أشد ممّا فيه المسلمون الآن؟! أي فتنة أشد ممّا تلاقي الأمة الإسلاميّة في هذا العصر؟ بعد أن اضطربت أمورها، واختلّت موازينها، وأصبح كتاب الله وراءها ظهريًّا، وأصبح المتدينون لا حول لهم ولا طول، وأصبح الفجار شامخين بأنوفهم، ثانين أعطافهم ليضلوا عن سبيل الله.

ما المخرج من الفتنة؟

إنّها فتنة لا مخرج منها إلّا كتاب الله، إلّا أن نرجع لنضع أيدينا في يد الله، إلّا أن نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، ونصرخ بأعلى أصواتنا أمرين ناهين حافظين لحدود الله، وما ينبغي أن يرتفع المنكر، وأن يعلو صوته في مجتمع مسلم، وما ينبغي أن يضيع المعروف حتّى لا يجد من يأمر به.

سبب خيرية الأمة الإسلاميّة:

إنّ الله حينما وصف الأمة الإسلاميّة، وتحدّث عن خيريّتها قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فالسبب الأول لخيرية الأمة هو هذه الفضيلة، وهذه الفريضة؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) رواه ابن أبي الدنيا (٣٢)، وعبد الغني المقدسي (٥٦)، كلاهما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال العراقي في تخريج الإحياء ص ٧٨٤: إسناده ضعيف. عن أبي أمانة الباهلي.

وحينما تحدّث الله عن المؤمنين والمؤمنات قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

فقبل أن يتحدّث عن الصلاة والزكاة، تحدّث عن أخص أوصاف المؤمنين والمؤمنات، وهي أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

مَنْ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ نَصْرَ اللَّهِ؟

وحينما حدّثنا الله عن نصر مَنْ نصره، ذكر مَنْ هم الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ نصر الله فقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * [الحج: ٤٠، ٤١].

نسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين، الأمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الحافظين لحدود الله.

* * *



الدرس الخامس والعشرون

فضل الله في الثواب والعقاب

روى الشيخان، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربِّ العزة تبارك وتعالى، أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

فضل وإحسان لا عدل وامتحان:

في هذا الحديث الكريم نتبين فضل الله تعالى، وسعة رحمته بعباده، وأنه يعاملهم بكرمه وجوده، لا معاملة العدل فحسب، بل معاملة الإحسان والكرم والفضل والجود.

فمن هَمَّ بحسنة ولم يعملها، بأن خطرت في باله، وحدث بها نفسه، ونوى قلبه عملها، ولم يبلغ درجة العزم المُصمَّم، كتبها الله له حسنة كاملة، بهمَّه بالحسنة. فإذا عمل الحسنة، ونفَّذَ بالفعل ما حدثت به نفسه من طاعةٍ وقربةٍ لله، كتبها الله له عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، يعلمها الله وَعَلَّمَ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان (١٣١).

مضاعفة الحسنات:

أدنى ما يُثاب به الإنسان على الحسنة عشرة أمثالها: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وهناك من الحسنات ومن الصالحات ما يثاب عليه الإنسان أضعافاً مضاعفة، تبلغ سبعمائة ضعف وما فوق السبع المائة؛ كالنفقة في سبيل الله، وفي نصره الإسلام، وإعلاء كلمة الله في الأرض، يقول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد ورد في الصيام، عن النبي ﷺ، فيما يخبر به عن ربِّ العزة: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ لَهُ، الحسنةُ بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعفٍ، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به»^(١). أي: يضاعف الله ثواب الصيام بأكثر من سبعمائة ضعف، إنَّ الله يضاعف بنفسه، ويجزي بنفسه، والكريم إذا أعطى بيده، ولم يَكِلْ ذلك إلى خدمه أو أعوانه أو وكلائه، فإنه يُجزل العطاء ويُعظم الأجر.

ولهذا ورد عن أبي هريرة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فقال: الأجر العظيم من الله، فمن يقدر قدره^(٢)؟

وقال الله تعالى في شأن الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. هذا في جانب الحسنات.

(١) سبق تخريجه ص ٢٢.

(٢) رواه أحمد (١٠٧٦٠)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف.

لماذا يكتب الله الهم بالسيئة دون العمل حسنة؟

وفي جانب السيئات نجد الحديث يقول بأن من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة.

فمن حدث نفسه بأن يقترب إثماً، أو يرتكب معصية، ثم خاف الله، وخشي الحساب، وتذكر الآخرة، وتذكر الجزاء، فرجع وتراجع عن فعل المعصية، هنالك يكتبها الله له حسنة كاملة، كما قال الله وَجَلَّ فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فإذا هم الإنسان ووسوس له الشيطان بارتكاب معصية، ثم خاف الله فلم يفعلها، كتبت له حسنة كاملة.

وقد ورد في حديث أبي هريرة ما يفسر هذا^(١)؛ لأن من ترك السيئة من أجل ربه، كتبت له حسنة، فإن هو هم بالسيئة فنفعها واقتربها فعلاً، كتبت عليه سيئة واحدة: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وفي رواية لمسلم: «أو محابها الله وَجَلَّ، ولا يهلك على الله إلا هالك»^(٢). إما أن تكتب عليه سيئة واحدة، وإما أن يعفو الله وَجَلَّ، وعفو الله واسع ومغفرته واسعة، ورحمته وسعت كل شيء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) يشير فضيلة الشيخ إلى الرواية الأخرى التي عند البخاري في التوحيد (٧٥٠١)، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: إذا أراد عبي أن يعمل سيئة... وإن تركها - أي السيئة - من أجلي فاكتبوها له حسنة». وفيه بيان عظم أجر الخوف من الله وَجَلَّ.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٣١) (٢٠٨)، عن ابن عباس. ومعنى «لا يهلك على الله إلا هالك» أي: لا يهلك مع فضل الله إلا هالك، ف«على» بمعنى: مع، وفيه مضاف محذوف تقديره: فضل.

إقبال الله وإدبار العبد:

الله ﷻ يفتح لنا الباب على مصراعيه، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها^(١).

إنَّه ﷻ يدعونا إلى نفسه، وينادينا إلى حظيرة قدسه، ويفتح لنا ميادين مغفرته، ويهيب بنا جميعاً أن ندعوه ونتضرّع إليه، ونسأله المغفرة.

إنَّ الله تعالى يقترب منّا، ولكنّا نحن بسوء أعمالنا نهرب منه، ونبعد عنه، ونفرّ منه، بدل أن نفرّ إليه، وهو ﷻ يقول: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد بيّن ذلك في حديث قدسي رواه البخاري: «قال الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فمن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، ومن تقرب إليّ شبراً، تقربتُ إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً، تقربتُ إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٢). أهناك أقرب من الله ﷻ؟!

أهناك أعظم رحمة وأوسع مغفرة وعفواً، وأكرم يداً، وأكثر فضلاً من الله ﷻ؟

(١) إشارة إلى حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». وقد رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩)، وأحمد (١٩٥٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

لا والله، إنه يفتح لنا الأبواب ونحن نصدُّ عنها بوسوسة الشيطان، وبتسويل الأنفس الأمّارة بالسوء، ولقد رُوي في بعض الأحاديث القدسية أن الله ﷻ يبين إعراضنا وإقباله علينا، وقربه وبعدها عنه، فيقول ﷻ:

«إني والجن والإنس في نبيٍّ عظيم، أخلق ويُعبَد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليَّ صاعد.

أحبُّ إليهم بنعمي وأنا الغنيُّ عنهم، فيتعرَّضون إليَّ بالمعاصي وهم أفقر شيءٍ إليَّ، مَنْ أقبل عليَّ منهم تلقَّيته من بعيد، ومَنْ أعرض عني ناديته من قريب.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل محبَّتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، أحبُّ التَّوابين وأحبُّ المتطهرين، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعاييب.

الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ أو أزيد، والسيئة عندي بواحدةٍ أو أعفو، رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، وأنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها»^(١).

هذا الحديث إن لم يصح سندًا فقد صحَّ معنًى، فإنه يبين العلاقة بين الله وبين عباده، بين خلقه من الجن والإنس وبين ربهم ﷻ.

لا يهلك على الله ﷻ إلا هالك:

إنَّ الله يتقبل وينادي النَّاس من قريب، ويتلقاهم من بعيد، وهم يبعدون عنه، ويعرضون عن ذكره، ولا يقبلون عليه، ويصدون عن سبيله.

(١) مدارج السالكين (٢١٢/١).



أليس هذا جحودًا من الناس؟

أليس هذا كنودًا من الخلق؟

أليس هذا كفرًا للنعمة؟

أليس مَنْ هلك بعد ذلك فإنَّه هالك فعلاً؟ «لا يَهْلِكُ على الله إِلَّا هالك».

إذا كانت السيئة بواحدةٍ أو يُعفى عنها، وإن كانت السيئة التي يفكر فيها الإنسان، ويُحدِّث بها نفسه ثم تركها إذا تذكَّر الله، تكتب له حسنة كاملة، وإذا كانت الحسنات تضاعف أضعافاً كثيرة إلى سبعمئة ضعف إلى ما شاء الله، والله واسع عليم، فَمَنْ ذا يهلك بعد ذلك إِلَّا الهالكون؟ إِلَّا الَّذِينَ مَرَضَتْ قُلُوبُهُمْ، وَمَاتَ أَنْفُسُهُمْ، وَسَيَّطَرَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ عِبِيدًا، وَاتَّخَذُوا أَهْوَاءَهُمْ آلِهَةً!

مَنْ يهلك بعد هذا؟! وفرص المغفرة كثيرة أعظم من أن تُحصى: الصيام، والقيام، والصلوات الخمس، والصدقات، وصلاة الجمعة، والحج والعمرة بلا رَفَث ولا فسوق، والذكر والدعاء والاستغفار، وتلاوة القرآن، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وأعمال الخير، والمصائب تنزل بالإنسان، وغير ذلك كثير.

كل ذلك من كفارات الذنوب، ومن وسائل المغفرة، فَمَنْ أَعْرَضَ عن الله بعد ذلك، فلا يلومنَّ إِلَّا نفسه.

فَمَنْ جاءه مثل رمضان، وخرج منه غير مغفور له، فيا ويله! ثم يا ويله! ويا خيبته! ثم يا خيبته!

لقد دعا عليه جبريل، وأَمَّن على دعائه مُحَمَّدٌ ﷺ، فقد رقي النبي ﷺ

منبره، فقال: «آمين». فسأله الصحابة، فقال: «إِنَّ جبريل قال: بُعْدًا لِمَنْ أدرك رمضان ولم يُغفر له»^(١). وفي رواية: «من أدرك رمضان ولم يُغفر له، فأبعده الله ثم أبعده»^(٢). قال هذا جبريل، وأَمَّن عليه مُحَمَّد ﷺ.

يدعو عليه جبريل، سيّد الملائكة وأمين الوحي، ويؤمن عليه سيّد الخلق أجمعين، مُحَمَّد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه!

نسأل الله ﷻ أن يجعل لنا في هذا الشهر المبارك مغفرة، وأن يتقبَّل مِنَّا صيامنا وقيامنا، وأن يكون صيامنا وقيامنا إيمانًا واحتسابًا.

الدعوة إلى صلاة العيد في المصلّى:

وأودُّ أن أنبّه إلى صلاة العيد في المصلّى، في الخلاء، فإنَّ السنة أن تكون صلاة العيد في الخلاء، كما كان يفعل النبي ﷺ، ولم يرد أنه ﷺ صَلَّى في المسجد، إلّا مرة، رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى في المسجد لعذر المطر^(٣). وأهل الأعدار يستطيعون أن يصلُّوا في المساجد؛ المرضي، والمقعدون، ومَنْ لا يستطيع الذهاب، ومَنْ لا يملكون سيارات تنقلهم، وقد بعدت منازلهم عن المصلّى.

أمّا عامّة المسلمين فليصلُّوا في الخلاء، في المصلّى، خلف الإمام،

(١) رواه الحاكم في البر والصلة (١٥٣/٤) وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي. عن كعب بن عجرة.

(٢) رواه البزار (٣٧٩٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٣١٤): رواه البزار، والطبراني بنحوه، وفيه من لم أعرفهم، عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي.

(٣) كما في حديث أبي هريرة: أَنَّهُ أَصَابَهُمْ مطر في يوم عيد، فصلّى بهم النبي ﷺ صلاة العيد في المسجد. رواه أبو داود في الصلاة (١١٦٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣١٣)، والحاكم في صلاة العيدين (٤٣٥/١)، وصحّحه، وحسّن إسناده أبي داود النووي في خلاصة الأحكام (٢٩٠٧) وضعّف ابن حجر إسناده في التلخيص الحبير (١٦٦/٢).



فإنَّ يوم العيد يوم مهرجان إسلامي، يجتمع فيه المسلمون مُكَبَّرِينَ مُهَلَّلِينَ، مُظْهِرِينَ شَعَائِرَ الْإِسْلَام وقوة المسلمين، ولهذا كان يحضره الرجال، ويحضره الصبيان المُمَيِّزُونَ، وتحضره النساء، حتَّى النساء الحيض، كنَّ يحضرن صلاة العيد في عصر النبي ﷺ، ويعتزلن الصلاة، ليشهدن الخير ودعوة المسلمين^(١)؛ يسمعن الخطبة، ويشاركن في فرحة الصلاة وفرحة العيد، وفرحة الاجتماع الكبير بين أبناء المسلمين.

إنَّ العيد يوم تجمع وتجمهر إسلامي، مظاهرة إسلامية كبرى، تهتف لله بالتحميد والتكبير، فاحرصوا - أيُّها المسلمون - على صلاة العيد في مُصَلَّاه في الخلاء، والله ولي التوفيق. وكل عام وأنتم بخير، وتقبَّل الله مِنَّا ومنكم.

* * *



(١) كما في حديث أم عطية، قالت: أمرنا أن نخرج الحيض يوم العيدين، وذوات الخدور فيشهدن جماعة المسلمين، ودعوتهم ويعتزل الحيض عن مصلاهن، قالت امرأة: يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب؟ قال: «لتلبسها صاحبها من جلبابها». متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥١)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٠).

الدرس السادس والعشرون

سؤال الناس

روى الإمام مسلم، عن قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ الْهَلَالِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا. فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا». ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحُلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ: رَجُلٍ تَحْمَلُ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يَصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ، وَرَجُلٍ اجْتَنَحَتْ مَالَهُ جَائِحَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَابِ مِنْ قَوْمِهِ: قَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يَصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ - يَا قَبِيصَةُ - مِنَ الْمَسْأَلَةِ فَسُحَتْ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا»^(١).

مجتمع المسلمين مجتمع نَجْدَةٌ ومروءة:

في هذا الحديث، يحدثنا سَيِّدُنَا قَبِيصَةُ بْنُ الْمُخَارِقِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُهُ أَنْ يَعِينَهُ فِي حَمَالَةٍ تَحْمَلُهَا.

وَالْحَمَالَةُ: مَا يَلْتَزِمُهُ الرَّجُلُ فِي ذِمَّتِهِ لِيُدْفَعَهُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ.

كَانَ هُنَاكَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْكَبِيرَةِ، عَرَفَهُمُ الْمَجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ وَالْإِسْلَامِيُّ، إِذَا وَجَدُوا قَبِيلَتَيْنِ أَوْ أُسْرَتَيْنِ بَيْنَهُمَا نِزَاعٌ وَخِصَامٌ وَثَارَاتٌ،

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٤٤)، وأحمد (٢٠٦٠١).

وبينهما ديات، وهذه الديات تقف عائقاً في سبيل الإصلاح، يأتي هؤلاء الرجال الكبار ويلتزمون بهذه الأموال على كواهلهم.

وجاء الإسلام، ولم يضيّع هؤلاء الرجال النبلاء وقدّر لهم مروءتهم، وجعل لهؤلاء نصيباً من الزكاة، في سهم الغارمين.

وفي هذا الحديث جاء قَبِيصَةُ يسأل النبي ﷺ أن يعينه في الحمالة التي تحمّلها وألزم بها نفسه، فقال له النبي ﷺ: «أقم حتّى تأتينا الصدقة»، أي الزكاة، وهي تسمّى الصدقة في عُرف القرآن والسُّنَّة، وليس كما يظنّ بعض الناس من أنّها صدقات التطوُّع فقط.

ثم أراد النبي ﷺ، أن يعلمه درساً، فعلمه أن المسألة - أي السؤال - لا تحلّ إلّا في مواطن معينة، حتّى ولو كان المسؤول هو ولي الأمر.

إنّ الأصل في المسألة التحريم؛ لأنّ الأصل: أنّ المسلم لا يسأل أحداً إلّا الله، «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١)، ولكن عند الضرورة، أو عند الحاجة، فلا بدّ أن يسأل.

متى يسأل المسلم؟

هنا حدّد النبي ﷺ لقبیصة، ولكل مسلم من بعده مواطن السؤال، في مواطن ثلاثة:

١ - من غرم في خير المجتمع:

الموطن الأول: أن يتحمّل الإنسان حمالة، مثل قبيصة، من أجل مصلحة اجتماعية، من أجل إصلاح ذات البين، أو من أجل أي مشروع اجتماعي خيري، غرم فيه، واستدان من أجله.

(١) سبق تخريجه ص ١٧٤.

إِنَّ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا الْخَيْرَ لَا بَدَّ أَنْ يُعَانَ، لَا بَدَّ لِلْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَ لِأَهْلِ الْخَيْرِ خَيْرَهُمْ، وَلِأَهْلِ الْمَعْرُوفِ مَعْرُوفَهُمْ، وَلِهَذَا أَبَاحَ النَّبِيُّ ﷺ، لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَسْأَلَ وَلِي الْأَمْرِ، وَالْقَادِرِينَ فِي الْمَجْتَمَعِ مِنَ الْجُمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ، حَتَّى يَصِيبَ حَمَالَتَهُ الَّتِي تَحْمِلُهَا وَالتَّزَامَهُ الَّذِي التَّزَمَهُ ثُمَّ يُمْسِكُ، أَيْ يَكْفِ عَنْ السُّؤَالِ، وَلَا يَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْأَلُ لِفَقْرٍ، وَإِنَّمَا يَسْأَلُ لِسَدَادِ دَيْنٍ. هَذَا هُوَ الْمَوْطِنُ الْأَوَّلُ.

٢ - إنقاذ أصحاب الكوارث:

الموطن الثاني الذي تباح فيه المسألة: هو أن تصيب الإنسان جائحةٌ تجتاح ماله.

هنا يحلُّ له أن يسأل حتَّى يصيب قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ. مَا أَكْثَرَ الْكَوَارِثَ وَالْمَصَائِبَ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّاسِ! مَا أَكْثَرَ ضَرْبَاتِ الدَّهْرِ!

كَمْ مِنَ النَّاسِ تَنْزِلُ بِهِ هَذِهِ الضَّرْبَاتُ فَيُفْلِسُ بَعْدَ أَنْ كَانَ تَاجِرًا، وَيُفْتَقِرُ بَعْدَ أَنْ كَانَ غَنِيًّا، وَيَعُوزُ بَعْدَ أَنْ كَانَ وَاجِدًا! وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الَّذِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ الْكَوَارِثُ مِثْلُ الزَّلَازِلِ وَالْفَيْضَانَاتِ، فَتَدْمُرُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَمَحَاصِيلَهُمْ، وَتَدْعُهُمْ فِي الْعَرَاءِ.

فَهَلْ يُتْرَكُ غَنِي قَوْمٍ يَفْتَقِرُ، وَعَزِيزٌ قَوْمٍ يَذُلُّ؟ لَا، إِنَّ الْإِسْلَامَ يُبِيحُ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ، وَيَجْعَلَ لَهُ حِطًّا فِي مَصَارِفِ الزَّكَاةِ، فِي سَهْمِ الْغَارِمِينَ.

فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ يَقُولُ الْإِمَامُ مُجَاهِدُ التَّابِعِيِّ الْمُفَسِّرُ الْفَقِيه: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْغَارِمِينَ: رَجُلٌ ذَهَبَ السَّيْلُ بِمَالِهِ، وَرَجُلٌ أَصَابَهُ حَرِيقٌ فَذَهَبَ بِمَالِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ عِيَالٌ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ فَهُوَ يَدَّانُ وَيَنْفَقُ عَلَى عِيَالِهِ^(١).

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزكاة (١٠٧٦٣).

وقد رأينا الحديث الذي معنا يجعل هذا الصنف - الذي اجتاحت ماله جائحة - يجعل له حق السؤال من الزكاة، حتَّى يصيب قِوامًا من عيش.

الزكاة تسبق التأمين وتزيد عليه:

والزكاة بهذا تقوم بنوع رفيع من التأمين الاجتماعي ضدَّ الكوارث ومفاجآت الحياة، سبق كل ما عرّفه العالم من أنواع التأمين، غير أنَّ التأمين الذي حقّقه الإسلام لأبنائه بنظام الزكاة، أسمى وأكمل وأشمل من التأمين الذي عرّفه الغرب في العصر الحديث بمراحل ومراحل.

فالتأمين على الطريقة الغربية لا يعوّض إلا مَنْ اشترك بالفعل في دفع أقساط محدودة لشركة التأمين، وعند إعطاء التعويض يُعطى الشخص المنكوب على أساس المبلغ الذي أمّن به، لا على أساس خسائره وحاجاته.

فمن كان قد أمّن بمبلغ أكبر أعطي تعويضًا أكثر، ومن كان مبلغه أقل كان نصيبه أقل، مهما عظمت مصيبته وكثرت حاجته، وذوو الدخل المحدود يؤمّنون عادة بمبالغ أقل، فيكون حظُّهم إذا أصابتهم الكوارث أقل أيضًا وأدنى.

وذلك أنَّ أساس نظام التأمين الغربي: التجارة والكسب من وراء الأشخاص المؤمن عليهم.

أمّا التأمين الإسلامي الذي تُحقّقه الزكاة، فلا يقوم على اشتراط دفع أقساط سابقة، ولا يُعطى المصاب بالجائحة إلا على أساس حاجته.

هذا ما جاء به الإسلام.

فالإسلام وقف من الغارمين موقفًا فريدًا رائعًا.

موقف الإسلام من الغارمين:

وقف الإسلام يعلم أبناءه الاعتدال والاقتصاد في حياتهم، حتى لا يلجؤوا إلى الاستدانة؛ لأن الدين هم بالليل، ومذلة بالنهار، لهذا كان الرسول الكريم يستعيد بالله من الدين، وإذا اضطرت المسلم ظروف الاستدانة، كان عليه أن يعقد العزم على التعجيل بالوفاء والأداء، فيكسب بذلك معونة الله وتأييده فيما نوى، «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ إِتْلَافِهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(١).

وليس الدين خطراً على نفسيّة المُستدين واطمئنانه فحسب، بل هو خطر على أخلاقه وسلوكه كما جاء في الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ - أَيِ اسْتَدَانَ - حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(٢).

وهي لفته نبويّة صادقة إلى أثر الحالة الاقتصادية في الأخلاق والسلوك، وهو ما لا نُنكره وإنّما نُنكر على القائلين به جعلهم الاقتصاد هو العامل الوحيد والمؤثر الفذ في سلوك الإنسان.

وكان من الوسائل التي اتّخذها النبي ﷺ في تنفير أصحابه من الدين أنّه لم يكن يُصلي على مَنْ مات من أصحابه وعليه دين^(٣).

إنّ الإسلام بسداده هذه الديون العادلة عن أصحابها من مال الزكاة، قد حقّق هدفين كبيرين:

(١) رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٨٧)، وأحمد (٨٧٣٣)، وابن ماجه في الصدقات (٢٤١)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣٢)، ومسلم في المساجد (٥٨٩)، عن عائشة.

(٣) عن سلمة بن الأكوع، أنّ النبي ﷺ أتى بجنازة ليصلي عليها، فقال: «هل عليه من دين؟». قالوا: لا. فصلى عليه، ثم أتى بجنازة أخرى، فقال: «هل عليه من دين؟». قالوا: نعم. قال: «صلوا على صاحبكم». قال: أبو قتادة عليّ دينه يا رسول الله، فصلى عليه. رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩٥).

الأول: يتعلق بالمدين الذي أثقله الدين وركبه من أجله همُّ الليل وذُلُّ النهار، وأصبح مُعَرَّضًا بسببه للمطالبة والقضاء والحبس، فالإسلام يُسَدِّد دِينه ويكفيه ما أهَمَّهُ.

والثاني: يتعلق بالدائن الذي أقرض صاحب الدين، وأعانه على مصلحته، فالإسلام حين يساعد على الوفاء بدينه يُشجع أبناء المجتمع على الأخلاق والمروءة والتعاون والقرض الحسن.

وبهذا تُسهم الزكاة من هذا الجانب في مُحاربة الربا، وهكذا تأخذ شريعة الإسلام بيد الغارم المجهود، ولا تُكَلِّفه بيع حوائجه الأصلية لسداد ما عليه، ويعيش محرومًا من المُقومات الأساسية للحياة.

كلا.. فقد كتب عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى ولاته: أن اقضوا عن الغارمين. فكتب إليه من الولاة مَنْ يقول: إنَّا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث وهو مع ذلك غارم. فكتب عمر: إنَّه لا بدَّ للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يُجاهد عليه عدوه، ومن أن يكون له الأثاث في بيته، نعم، اقضوا عن مثل هذا فإنَّه غارم^(١).

بين الشريعة والقانون:

هذا ما جاءت به شريعة الله، شريعة العدل والرحمة منذ أربعة عشر قرنًا، فأين ما جاءت به القوانين الوضعية، قوانين الحضارة الحديثة والمدنية الحديثة، من اضطرار التُّجار المَدِينين ونحوهم إلى إعلان إفلاسهم، وتصفية تجاراتهم وخراب بيوتهم.

(١) رواه أبو عبيد في الأموال (١٧٥٣)، تحقيق محمد خليل هراس، نشر دار الفكر، بيروت.

ثم أين من هذا ما كان عليه القانون الروماني الذي كان يُسمى قانون الألواح الاثني عشر الذي قال: إِنَّ المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق إن كان حُرًّا، ويُحكم عليه بالحبس أو بالقتل إن كان رقيقًا. هذا أيُّها الأخوة ما جاء به الإسلام، يُعين الغارمين في سبيل الله، ويُعين كل مَنْ أصابته فاقة حتَّى يشهد ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه: أن فلانًا قد أصابته فاقة.

هذا هو الإسلام، وهذا هو شرع الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٣ - من أصابته فاقة فآلجأته إلى السؤال:

والموطن الثالث الذي يبيح للإنسان أن يسأل: رجل أصابته فاقة - أي حاجة وعوز - حتَّى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَا وأصحاب العقول: قد أصابت فلانًا فاقة.

فهذا النوع من الناس من المستورين المخفيين، الذي لا يعرف جمهور الناس حقيقة ما يعانونه من قِلَّة الموارد، وكثرة النفقات، وضغط الحاجة، بل ربَّما يظن بعض الناس أنَّهم أغنياء بمعنى أنَّهم مكفَّيُّون، ولكنَّ أهل الفطنة والعقل من الناس يعرفون حقيقتهم وأنَّهم في حاجة، ومثل هؤلاء إذا سألوا لا حرج عليهم؛ فإنَّما يسألون فيما لا يجدون منه بُدًّا.

ولكن حتَّى لا يختلط الحابل بالنابل، والحق بالباطل، ومن يستحق ممَّن لا يستحق، كان لا بدَّ من لجنة من عقلاء القوم تشهد بحاجة هذا الصنف وتقرُّها، لتمييز الصادق من الدَّعيِّ، بقرائن وأمارات ووسائل تتخذها لتبيين الحقائق.

وهذا الحديث أصل في ضرورة التبيين والاستيثاق فيمن يستحقُّ معونة الزكاة أو الدولة أو مؤسسة الزكاة.

وبيّن ضرورة العدد، وضرورة الوصف، وأنَّهم من ذوي الحِجَا، لا من أهل الغباوة والغفلة، واللَّذين تغرُّهم الظواهر، أو يتعجَّلون الحكم دون بيّنة.

فهذا هو الموطن الثالث الَّذي يجيز السؤال، وما عدا ذلك فهو سحت يأكله صاحبه سحتًا، كما قال رسولُ الله ﷺ. وفي هذا من التحذير ما فيه. وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم.

* * *

الدرس السابع والعشرون

ثلاث شهادات

روى الإمام أحمد في مسنده، عن زيد بن أرقم قال: كان نبي الله ﷺ يقول في دُبر صلاته: «اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحده لا شريك لك - قالها إبراهيم مرتين^(١) - ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مُخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله الأكبر الأكبر، الله نور السماوات والأرض، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل، الله الأكبر الأكبر»^(٢).

دعاء النبي في كل صلاة:

بهذا الدعاء القوي كان ينادي رسول الله ﷺ ربه بعد كل صلاة، يُناجيه بهذه الأمور الثلاثة، يشهد لله تعالى عليها.

التوحيد جوهر الأديان الربانية:

الأول: الشهادة لله تعالى بالوحدانية، «أنا شهيد أنك الله وحده لا شريك لك»، التوحيد هو جوهر الإسلام وروحه، بل هو جوهر الأديان

(١) وهو إبراهيم بن مهدي شيخ الإمام أحمد.

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٧.

كلها، كل الأديان، كل الكتب التي نُزِّلَتْ، كل الأنبياء التي أُرسلت إنما جاءت لتُخرج النَّاس من الوثنية إلى التوحيد، جاء الجميع ينادون هذا النداء: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ضلال الإنسانية عن التوحيد:

إنَّ الإنسانية قد ضلَّت الطريق، فعبدت مع الله آلهة أخرى، منهم مَن عبد الشمس والقمر، ومنهم مَن عبد الجن والبشر، ومنهم مَن عبد الوثن والحجر، ومنهم مَن عبد النبات والشجر، ومنهم مَن عبد العنز والبقر، ومنهم مَن عبد أشياء كثيرة، ولكنَّ الله ﷻ لم يَدْعهم في هذا التيه، لم يَدْعهم في هذا الظلام الدامس، بل أُرسل إليهم رسلاً، ليُخرجوهم إلى نور التوحيد، من ظلام الشرك والوثنية، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده.

هكذا كان الأنبياء جميعاً، وهكذا كان آخرهم محمد ﷺ، جاء بالتوحيد الخالص، جاء يُحرِّر النَّاس من كل شائبة للوثنية، جاء يدعو النَّاس إلى «لا إله إلا الله»، ليس هناك آلهة مع الله، ولا دون الله، لا بشر ولا حجر، ولا شيء في الأرض ولا شيء في السماء، كان يختم رسائله إلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى غيره من أهل الكتاب بهذه الآية: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ليس هناك بشر ربُّ لبشر، إنما الكل عبيدُ ربٍّ واحد، عبيد لرب السماوات والأرض، وخالق الكون، ومُدبِّر الأمر كله.

هذا المبدأ الأول الذي يُنادي به رسول الله ﷺ ربه (التوحيد): «أنا شهيد أنك الله وحدك، لا شريك لك».

محمد عبد الله ورسوله:

والمبدأ الثاني: «أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك».

لقد ضلّ الناس في معرفة حقائق الأنبياء، فمنهم من أضفى عليهم صفة من صفات الألوهية، ومنهم من اعتقد الأنبياء آلهة، ومنهم من اعتقد أنهم أبناء الآلهة، ومنهم من اعتقد أنهم شركاء الله وَجَلَّ، ولكن النبي ﷺ، جاء ليعلن في كتابه أن الأنبياء بشر مثلنا، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

لا يمتاز الرسول إلا بالوحي إليه، ومضمون هذا الوحي هو (التوحيد)، فليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا نصف إله، ولا ثلث إله، ولا شيئًا حلّ فيه روح الإله، إنما هو عبد من عبيد الله، ومن هنا كان يقول في دبر كل صلاة هذه الشهادة: «أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ». وكان يُعلِّمنا أن نقول في التشهُّد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله»^(١)، ويقول مُحذِّرًا: «لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

هذا ما كان يحرص عليه النبي ﷺ، ولهذا كان يُحارب كل غلو في شخصه، جاء بعض الناس يقولون: يا محمد، يا خيرنا وابن خيرنا، يا سيّدنا وابن سيّدنا، فقال: «قولوا بقولكم ولا يستجريَنَّكم الشيطان، أنا محمّد عبد الله ورسوله»^(٣).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣٥)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، وأحمد (١٥٤)، عن عمر.

(٣) رواه أحمد (١٣٥٩٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٠٩٧)، عن أنس.

وجاء مَنْ دخل عليه فارتعد، فقال له: «هَوِّنْ عليك، فلستُ بملك،
إنَّما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد بمكة»^(١).

هكذا كان يحرص ﷺ، على أن يُظهر عبوديته لله، وأنه مجرد رسول
مُبلَّغ عن الله ﷻ: «اللهم ربَّنَا وربَّ كلِّ شيء ومليكه، أنا شهيد أنَّ
محمدًا عبدك ورسولك».

البشر كلهم إخوة:

ثم يأتي الجزء الثالث من هذا الدعاء الجليل: «اللهم ربَّنَا وربَّ كلِّ
شيء ومليكه، أنا شهيد أنَّ العباد كلَّهم إخوة». إخوة لأنَّ أباهم واحد،
وأُمُّهم واحدة، وقبل ذلك: لأنَّ ربَّهم واحد، ولهذا قال: «أنَّ العباد كلهم
عباد الله»، فكلهم إخوة في عبوديتهم لله.

إنَّ هذا الحديث الجليل، ليدلُّنا أوضح الدلالة، على قيمة الإخاء
البشري في رسالة الإسلام.

إنَّ هذا الدعاء نرى فيه دلائل على قيمة الإخاء في هذه الرسالة.

دعائم الأخوة الإنسانية في الإسلام:

هو أوَّلاً: يُعلن الأخوة بين عباد الله، كلَّ عباد الله، لا بين العرب
وحدهم، ولا بين المسلمين وحدهم، مُشيرًا إلى الجامع المُشترك بينهم،
المُوحد بين أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم، وهو العبودية لله تعالى: «أنَّ
العباد كلهم إخوة».

(١) رواه ابن ماجه في الأُطعمة (٣٣١٢)، والحاكم في المغازي والسير (٤٧/٣) وصحَّحه على
شرطهما ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٧٧)، عن
أبي مسعود.

وهو ثانيًا: يُقرّر ذلك في صيغة دعاء يُناجي به ربه، ويشهد بنفسه أمام الله سبحانه على حَقِّية هذا المبدأ وصدقه. فتقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلامٍ أو دعوى للاستهلاك المحلي، أو للتضليل العالمي، وإنما هي حقيقة دينيّة، لا ريب فيها ولا جدال فيها.

وهو ثالثًا: قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيّين في عقيدة الإسلام، والذي لا يدخل أحد في هذا الدين إلّا آمن بهما، وشهد بهما، وهما توحيد الله، ورسالة عبده محمّد، وهذا الاقتران دليل على أهميّة هذا المبدأ لدى رسول الإسلام، كما أنّ لهذا الاقتران أهميّة أخرى في تأكيد هذا الإخاء، فإنّ توحيد الله تعالى، معناه إسقاط كافة المُتألّهين في الأرض، المُتعالين على غيرهم من عباد الله، وهذا أوّل ما يُعمّق أساس الأخوة بين الخلق.

ثمّ رابعًا: لا يكتفي بإعلانه مرّة في العمر، مرّة كلّ عام، أو حتّى في كل شهر، أو كلّ أسبوع، بل يدلّ هذا الحديث أنّه كان يُكرّر ذلك في كلّ يوم، وعقب كلّ صلاة، أي خمس مرات في اليوم واللييلة، وهذا دليل على مزيد العناية والاهتمام.

ثمّ خامسًا: جعله ذلك من الأذكار والأدعية التي يُتعبّد بها، ويُتقرّب إلى الله تعالى بتكرارها، وربطه بالصلاة وختمها، وهذا يُضفي عليه قدسية ومنزلة في قلوب المؤمنين، لا تعدلها منزلة مبدأ يُقرّر بعيدًا عن الله، وعن هدي الله.

المسجد النبوي أكبر دليل على الأخوة الإنسانيّة:

هذا هو الإخاء في الإسلام، إخاء دعا إليه وأكّده رسول الله ﷺ، وثبّته في مسجده.

المسجد الذي كان يضمُّ أجناسًا من النَّاس، منهم الرومي كصهيب،
والفارسي كسلمان، والحبشي كبلال. ضمَّ العرب عدنانيين وقحطانيين،
ضمَّ مَنْ كانت بينهم الحروب والثارات كالأوس والخزرج، ضمَّهم
المسجد في رحابه الفيحاء، ضمَّتْهم أخوة الإسلام، فشعروا بروح هذه
الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا، فإنَّ معناه صحيح، مبثوث في كثير
من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، فعبارة: «أنا شهيد أنَّ
العباد كلهم إخوة»، يشهد لها ويؤكدها قول النبي ﷺ في الحديث المتَّفَق
عليه: «وكونوا عباد الله إخوانًا»^(١).

هذا هو إخاء الإسلام، الذي هو إخاء بشري عام، يُؤكِّد الأخوة في
العقيدة «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(٢).
فاللهمَّ ارزقنا حُسْنَ الأخوة فيك، إِنَّكَ سميعٌ قريبٌ.

(١) سبق تخريجه ص ٢١٧.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

الدرس الثامن والعشرون

التَّقْوَى مِنْهُجَ حَيَاةٍ

روى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدَبِ بْنِ جُنَادَةَ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ
مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ
السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١).

الْوَصِيَّةُ الْجَامِعَةُ:

وهذا الحديث اشتمل على ثلاث وصايا:

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: هِيَ الْأَمْرُ بِتَقْوَى اللَّهِ رَأْسَ كُلِّ خَيْرٍ.

وَالْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: هِيَ إِتِّبَاعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وَالْوَصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ: هِيَ مَخَالَفَةُ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ. وَالْخُلُقُ الْحَسَنُ مِنْ
تَمَامِ التَّقْوَى، وَلَا يَبْلُغُ عَبْدٌ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ إِذَا كَانَ سَيِّئَ الْخُلُقِ، أَوْ سَيِّئَ
الْمَعَاشَرَةِ لِلنَّاسِ.

وَهُوَ وَصِيَّةٌ مُوجِزَةٌ جَامِعَةٌ، تَرْسُمُ لِلْإِنْسَانِ سِيَاسَةً مَعَ اللَّهِ، وَسِيَاسَةً مَعَ
نَفْسِهِ، وَسِيَاسَةً مَعَ النَّاسِ.

(١) رواه أحمد (٢١٥٣٦)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) وقال
هذا حديث حسن صحيح.

مع الله بالتقوى، ومع نفسه بالمحاسبة والمراقبة، ومع الناس بحُسن الخلق.

التقوى أم الوصايا:

والتقوى أم الوصايا، وهي رأس الأمر، وجماع كل خير، وصَّى الله بها الأولين والآخرين في كتابه، فقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وقد أوصى بها النبي ﷺ أصحابه والأمة من بعدهم في كثير من الأحاديث، ففي حديث العزْباض بن سارية الذي سبق أن تناولناه بالشرح، أنه ﷺ وعظهم موعظةً ذَرَفَتْ منها العيون، وَوَجِلَتْ منها القلوب، وقالوا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا. فكان أوَّل ما أوصاهم به تقوى الله^(١).

وكذلك كان الخلفاء والعلماء والأتقياء من بعده أوَّل ما يوصون به وأهم ما يوصون به هو تقوى الله ﷻ.

فأول ما أوصى به الصديق أبو بكر عمر بن الخطَّاب حينما استخلفه وعهد إليه من بعده أن يتَّقِيَ الله، روى أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط قال: لَمَّا حضر أبا بكر الموت، دعا عمرَ رضي الله عنه، فقال له: اتَّقِ الله يا عمر، واعلم أن الله ﷻ عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنَّه لا يقبل نافلةً حتَّى تؤدَّى الفريضة^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ١٥٤.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦/١).

وبعث عمر إلى ابنه عبد الله فأوصاه بتقوى الله قال له: اجعل التقوى نصب عينيك، وجلاء قلبك^(١).

وكذلك فعل علي بن أبي طالب^(٢).

وحينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز رقي المنبر، فكان أول ما أوصى به الناس: أيها الناس، أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خَلَفَ من كل فائت، وليس من تقوى الله خَلَفَ^(٣).

«وقال رجل ليونس بن عُبيد: أوصني! فقال: أوصيك بتقوى الله والإحسان، ف ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]. وقال له رجل يريد الحج: أوصني! فقال له: اتق الله، فمن اتقى الله فلا وحشة عليه.

وقيل لرجل من التابعين عند موته: أوصنا! فقال: أوصيكم بخاتمة سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]^(٤). وكتب رجل من السلف إلى أخ له: أوصيك بتقوى الله، فإنها من أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادّخرت، أعاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها.

وكتب رجل منهم إلى أخ له: أوصيك وأنفسنا بالتقوى، فإنها خير

(١) ذكره المتقي الهندي وعزاه لابن أبي الدنيا في التقوى، انظر: كنز العمال في سنن الأقال والأفعال للمتقي الهندي (١٥٥/١٦)، تحقيق بكري حيان و صفوة السقا، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٤٠).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦٧/٥).

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٢١/٢).

زاد الآخرة والأولى، واجعلها إلى كل خير سبيلك، ومن كل شر مهربك، فقد تكفل الله وُجَّهَكَ لأهلها بالنجاة ممَّا يحذرون والرزق من حيث لا يحتسبون.

وقال شُعبَة: كنت إذا أردتُ الخروج قلت للحكم: ألك حاجة؟ فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السُّبُلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١)»^(٢).

التقوى زاد المؤمن:

والتقوى خير زاد يتزوّد به المؤمن ليوم المعاد، ولن يعطيك أحد من زاده في ذلك اليوم، فكلُّ يقول: نفسي نفسي! قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

فعليك أن تعدّ زادك بنفسك، ولا تنتظر معونة أحد في ذلك اليوم حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقد قال الشاعر:

تزوّد للذي لا بدّ منه فإنّ الموتَ ميقاتُ العبادِ

أترضى أن تكونَ رفيقَ قومٍ لهم زادٌ وأنتَ بغيرِ زادٍ^(٣)؟

وزادك هو التقوى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَأْتُوا لِيِ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٧.

(٢) جامع العلوم والحكم (٤٠٦/١ - ٤٠٧).

(٣) ذكره ابن رجب من غير نسبة بلفظ مقارب في لطائف المعارف ص ٣٤٤، نشر دار ابن حزم

للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

التقوى خير زاد، والتقوى خير وقاية، وخير ستر، وخير لباس يستر عورتك، ويقيك من حرّ نار الآخرة ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التُّقى تقلّب عُرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربّه ولا خير فيمن كان لله عاصياً^(١)

مفهوم التَّقوى:

ولكن ما التَّقوى؟

التقوى: أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخشاه ويخافه وقاية.
وتقوى الله: أن تجعل بينك وبين ما تخافه من الله وقاية تقيك.
وما الذي يخافه الإنسان من الله؟
يخاف غضبه وسخطه ونقمته وعذابه، فاجعل بينك وبين سخط الله وقاية.

ولن تكون هذه الوقاية إلا بامتنال أمره واجتناب نهيه، إلا بفعل الطاعات وترك المحرّمات، فمن فعل الطاعة واجتنب المحظور فقد اتقى الله، واتقى سخط الله، واجتنب عذاب الله، واتقى النار التي وقودها الناس والحجارة.

ومن تذكّر ذلك، وصار ملء قلبه، وحديث نفسه، فإنّه لا بدّ أن يبتعد عن كل معصية، ويسارع إلى كل خير، وإلى كل عمل صالح.

ولهذا كان أصل التَّقوى في القلب.

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: ديوانه ص ٤٨٢.

أشار النبي ﷺ إلى صدره وقال: «التَّقْوَى هاهنا، التَّقْوَى هاهنا، التَّقْوَى هاهنا»^(١).

أي التَّقْوَى ليست مظهرًا يخدع، وليست كلمات يلوكها الإنسان، وليست ثيابًا مرقَّعة، وليست مسبحة باليد، وليست طأطأة للرأس، وجلوًا في المسجد.. ليس هذا كله هو التَّقْوَى.

فكم من النَّاس يفعل ذلك ولا يعدُّه العارفون بالله متقيًا!

شهد عند عمر رضي الله عنه شاهد، فقال: ائتني بمن يعرفك. فأتاه برجل، فأثنى عليه خيرًا، فقال عمر: أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. فقال: كنت رفيقه في السَّفر الذي يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال: لا. قال: أظنُّك رأيته قائمًا في المسجد يُهمِّهم بالقرآن، يخفض رأسه طورًا ويرفعه أخرى؟ قال: نعم. فقال: اذهب فلست تعرفه. وقال للرجل: اذهب فأتني بمن يعرفك^(٢).

فليست التَّقْوَى بعض المظاهر إذا لم يكن وراءها هذا القلب السليم الذي يخشى الله عزَّ وجلَّ، فالقلب المليء بخشية الله هو سرُّ التَّقْوَى وروحها: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٣). فإذا وجد هذا القلب كان الخلق الحسن، والسلوك القويم، والعمل الصالح، فالأخلاق والأعمال مرآة لما في القلب، وعنوان لما يستكنُّ في النفس. ولهذا لما سئل أبو هريرة رضي الله عنه عن التَّقْوَى. قال للسائل: هل أخذت

(١) سبق تخريجه ص ١٥٦.

(٢) رواه البيهقي في آداب القاضي (١٢٥/١٠). وانظر: إحياء علوم الدين (٨٢/٢ - ٨٣).

(٣) سبق تخريجه ص ٢٨.

طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التَّقوى^(١).

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز الشاعر فقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى^(٢)

يقول ميمون بن مهران - أحد السلف وأحد العلماء العاملين - التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح^(٣).

أي يراقب نفسه قبل العمل: ما نيتك؟ وبعد العمل: لماذا فعلت هذا؟ ولماذا تركت هذا؟ ولا يفوت على نفسه أمرًا مهما صغر حتى يحاسبها عليه، ويؤنبها على التقصير، وتظل هذه المحاسبة أشد من محاسبة السلطان الغاشم لعماله، ومن محاسبة الشريك الشحيح، الذي يحاسب على الدانق^(٤) وعلى الخردلة لشريكه.. هكذا هو مع نفسه، لا يعذرهما في شيء.

وقال الحسن البصري: ما زالتِ التَّقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام^(٥).

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٩٦٣).

(٢) ديوانه ص ٢٩، نشر دار صادر، بيروت.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩) عن ميمون، بلفظ: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاصٍ. وانظر: إحياء علوم الدين (٤/٤٠٥).

(٤) في الصحاح (دق): والدانق: سدس الدرهم. وربما قالوا للدانق: داناق، ويطلق أيضًا على المهزول الساقط.

(٥) ذكره السيوطي وعزاه لابن أبي الدنيا، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٦١/١)، نشر دار الفكر، بيروت.

وقال طلق بن حبيب: التَّقوى أَنْ تعملَ بطاعةِ الله، على نورٍ من الله، ترجو ثوابَ الله، وَأَنْ تتركَ معصيةَ الله على نورٍ من الله، تخافُ عقابَ الله^(١).

هذه هي التَّقوى، أصلها في القلب، لكن ثمرتها تظهر على الجوارح وفي الأعمال.

فالتقي يبتعد عن المعاصي، ويفعل الطاعات، ويسلك كل سلوك طيب، ولكن هل معنى هذا أنه إنسان معصوم أو ملك مطهر؟!

كلا، إِنَّ التقي إنسان كالناس، مخلوق من لحم ودم وعصب، ليس ملكًا ذا جناحين، ميزته عَمَّن سواه أَنَّهُ إِذَا وسوس إليه الشيطان وغره بالله الغرور، سرعان ما يستيقظ ضميره، وسرعان ما تلومه نفسه، وسرعان ما يندم ويتوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. تذكروا الله، وتذكروا عين الله التي ترى ولا تنام، وتذكروا عقوبة الله في الدنيا وفي الآخرة، وتذكروا ضعفهم عن احتمال العذاب، تذكروا ذلك كله، فرجعوا إلى الله، وتابوا إلى الله، فإذا تذكروا ذلك ورجعوا، كان بها، وإن زلّت بها أقدامهم وعصوا الله فعلاً، فإنّهم أيضاً سرعان ما يرجعون إلى باب الكريم، وسرعان ما يقفون على عتبة الرحمن خاشعين ضارعين تائبين، قائلين ما قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقد وصف الله المتقين الذين أعدّ لهم جنته فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ

(١) رواه هناد في الزهد (٥٢٢)، عن طلق بن حبيب.

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِ الْفَيْضِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣-١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥].

﴿إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ هؤلاء هم المتقون، ليسوا معصومين ولا مطهرين من كل دنس، ولكنهم أوابون إلى الله، رجّاعون إليه، وقد قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

من أراد خير الدنيا وخير الآخرة فعليه بالتقوى:

أولئك هم المتقون الذين أعدَّ الله لهم جنته، والذين نجّاهم الله من ناره، فقال ﴿وَعَلَىٰ رِبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧١، ٧٢﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

فمن أراد الجنة فعليه بالتقوى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. ومن أراد الخلاص من كيد الأعداء فعليه بالتقوى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ومن أراد الخلاص من الشدائد والخروج من المهالك فعليه بالتقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومن أراد أن يجعل الله له من أمره يسراً، ومن همّه فرجاً، فعليه بالتقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومن أراد خير الدنيا وخير الآخرة، أراد ولاية الله، وأراد حب الله، وأراد

معية الله، فعليه بالتقوى فإن الله ولي المتقين، وإن الله يحب المتقين، وإن الله مع المتقين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [البجائية: ١٩]، وقال: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

اتق الله حيثما كنت:

علّق الله كل خير في الأولى وفي الآخرة على التقوى، فاحرصوا على التقوى أيها المسلمون، واسمعوا هذه الوصية: «اتق الله حيثما كنت». أي: في أي مكان كنت، وفي أي زمان كنت، وعلى أي حال كنت، اتق الله في المسجد، وفي المنزل، وفي المتجر، وفي المكتب، وفي الشارع، في الجلوة وفي الخلوة، اتق الله، فربك معك في كل مكان: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

اتق الله في كل زمان، في رمضان، وفي شوال، وفي كل الساعات والأيام والشهور، فرب رمضان رب الزمان ورب الأشهر والسنوات كلها.. يحب أن يطاع في كل زمان، ويكره أن يعصى في كل أوان.

ومن كان يعبد رمضان فإن رمضان سيموت، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

مراقبة الله أصل التقوى:

اتق الله في ليلك وفي نهارك، واتق الله في كل حال، في السر وفي العلانية، في الشدة والرخاء، في السراء والضراء، في الغنى وفي الفقر، حيثما يراك الناس وحيث لا يرونك.. فإن عين الله تعالى ناظرة إليك.

إلى كم أنت في بحر الخطايا
وسمئك سمْتُ ذي وَرَعٍ ودينٍ
فيا من بات يخلو بالمعاصي
أطمعُ أن تنال العفو ممَّن
فُتِبَ قبل المماتِ وقبل يومٍ
تبارزُ من يَراك ولا تراه
وفعلك فعلُ مُتَّبِعِ هواه
وعينُ الله شاهدةٌ تراه
عصيتَ وأنت لم تطلبِ رضاه
يُلاقي العبدُ ما كسبت يده^(١)

وحُكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها، فقالت له: ألا تستحيي؟ فقال: ممَّن أستحي؟ وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: ويحك فأين مكوبها^(٢)؟!

التقوى، هي التي تردع الإنسان عن كل إثم، وعن كل فاحشة، وعن كل ظلم للناس، فإنَّ المتقي يرى الله في كل مكان.

وحُكي أنه كان لبعض المشايخ تلميذٌ شابٌّ، وكان يخصُّه ويُكرمه ويقدمه، ويقبل عليه أكثر ممَّا يُقبل على غيره، فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شابٌّ ونحن شيوخ؟! فدعا بعدة طيور، وناول كل واحد منهم طائرًا وسكِّينًا، وقال: ليزبح كلُّ واحدٍ منكم طائرَه في موضع لا يراه أحد. ودفع إلى هذا الشاب مثل ذلك، وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائرَه مذبوحًا، ورجع الشاب والطائر حيٌّ في يده! فقال له: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: أمرتني أن أذبحه حيث لا يراه أحد، وأنا لم أجد موضعًا لا يراني فيه أحد، إذ الله مطلع عليَّ في كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة، وقالوا: حقُّ لك أن تكرم^(٣).

(١) الأبيات للحلاج الحسن بن منصور.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٥٢)، عن الأصمعي.

(٣) إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).

هذه هي المراقبة.. مراقبة الله في كل شيء، وهذه هي أصل التَّقوى.

فراقبوا الله في سرِّكم وعلنكم أيُّها المسلمون، واتقوا الله حيثما كنتم، فمن اتقى الله زاده من كل خير، وحجب عنه كل شر، وكان الله وليه في الدنيا والآخرة.

سُنَّة الله أَنَّ الحسنات يذهبن السيِّئات:

على أَنَّ الإنسان مهما أوتي من التَّقوى فهو بشر، من نسل آدم، وآدم نفسه، قد عهد الله إليه، فنسي، ولم يجد الله له عزمًا، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وإذا كان الأب قد أذنب، فليس عجيبًا على الأبناء أن يذنبوا، ولا على الذرية أن تعصي.

فإذا أذنب الإنسان، واقترب سيئة من السيِّئات، فهل سُدَّ الباب في وجهه؟ وهل تقطعت أسباب الرحمة دونه؟ كَلَّا! إِنَّ في يده مفاتيح كثيرة يستطيع بها أن يفتح أبواب الله وَعَجَّلَ، ومن هنا قال النبي ﷺ بعد أن أوصى أبا ذرٍّ ومعاذًا بالتقوى: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا».

أي إذا وقع الإنسان في سيئة، وهو لا بدَّ واقع، وإذا زَلَّت قدمه إلى معصية، وهي لا محالة زالَّة، فَإِنَّه يستطيع أن يمحو أثر السيئة بأن يتبعها بحسنة، كما يمحو النهار أثر الليل، وكما يطرد النور الظلمة، وكما يزيل الماء الدرن، وكما يُطفئ النار.

اقتضت سُنَّة الله أن يمحو الذنوب ويكفر السيِّئات بالحسنات، وما أكثر الحسنات! إِنَّ باب الحسنات باب واسع، فسيح، لمن أراد أن يدخله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنتُ عند النبي ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله، إنني أصبتُ حدًا فأقمه عليّ. قال: ولم يسأله عنه. قال: وحضرت الصلاة، فصلّي مع النبي ﷺ، فلمّا قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه الرجل، فقال: يا رسول الله، إنني أصبتُ حدًا فأقم فيّ كتاب الله. قال: «أليس قد صليتَ معنا؟». قال: نعم. قال: «فإنَّ الله قد غفر لك ذنبك». أو قال: «حدك»^(١).

وعن ابن مسعود: أنَّ رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له. قال فنزلت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ قال: «للمن عمل بها من أمتي»^(٢).

الصلاة تُكفِّر السيئات:

وقد جاء عن النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره (أي في شدة البرد ونزوع النفس إلى الكسل)، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(٣). أي كأنَّ الإنسان في هذه الأعمال مرابط في سبيل الله.

فالصلاة تكفر السيئات، والخطوات إلى صلاة الجماعة في المسجد تكفِّر السيئات، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطهَّر في بيته، ثمَّ مشى إلى بيتٍ من بيوت الله، ليقضي فريضة

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الحدود (٦٨٢٣)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٤).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٣).

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٥١)، وأحمد (٨٠٢١)، عن أبي هريرة.

من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحطُّ خطيئة، والأخرى ترفع درجة»^(١).

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للصلاة بنهر يغتسل فيه المصلي كل يوم خمس مرات، يتطهر فيه من غفلاته، ومن أدراجه، كل يوم خمس مرات. عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَابُ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟». قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا»^(٢).

وعنه عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ، ثُمَّ يَصَلِّيَ مَعَهُ؛ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى، وَفُضِّلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»^(٣).

الصدقات تطفي الخطيئات:

والصدقات أيضاً من مكفرات الذنوب، التي يطهر بها عباده، ويطفئ بها نار المعاصي، قال النبي ﷺ: «الصدقة تطفي الخطيئة كما يطفئ الماء النار»^(٤). وبخاصة صدقة السر، فإنها تطفي غضب الرب^(٥)، قال تعالى:

(١) رواه مسلم في المساجد (٦٦٦)، وأحمد (٧٤٣٠)، والترمذي في الجمعة (٦٠٣)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد (٦٦٧)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الجمعة (٨٥٧).

(٤) رواه أحمد (٢٢١٣٣)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)،

وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦)، عن معاذ بن جبل.

(٥) رواه الطبراني (٢٦١/٨)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣١٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٣٧)، عن أبي أمامة.

﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوْتُوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ومما يكفر به الله السيئات الصيام والحج والجهاد:

والصيام عبادة يدع الإنسان فيها طعامه من أجل الله، وشرابه من أجل الله، وشهوته من أجل الله، هي كذلك مكفرة للسيئات، سواء في ذلك صيام الفرض وصيام النفل، قال ﷺ حاثًا على صيام رمضان: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

وقال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدّم من ذنبه»^(٢).

ثلاث فرص في هذا الشهر المبارك للمغفرة، وللتطهير، وللخروج من عهدة الذنوب: الصيام، والقيام، وإحياء ليلة القدر.

ولهذا قال ﷺ «بعدًا لمن أدرك رمضان ولم يُغفر له»^(٣)، إذا لم يغفر له اليوم، فمتى؟

وفي الحديث الصحيح: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر»^(٤).

وصيام النفل أيضًا يكفر الذنوب، وبخاصّة صيام يوم عرفة الذي قال فيه النبي ﷺ: «صيام يوم عرفة أحسب على الله أن يُكفّر السنّة التي قبله،

(١) سبق تخريجه ص ٢٠١.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٠١.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٤١.

(٤) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥)، والترمذي في الصلاة (٢١٤)، عن أبي هريرة.

والسَّنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء، أحْتَسِب على الله أن يكفر السَّنة التي قبله»^(١).

والحج فريضة كان أو نافلة، جعله الله تطهيراً عاماً للمسلم من كل ما أصابه من الأدْران، يقول النبي ﷺ: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه»^(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذَّنْبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِبَرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٣).

والجهاد، وهو أفضل من صيام المرء الدهر كله، وقيام الدهر كله، يغفر الله للإنسان به كل شيء إِلَّا الدَّين: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»^(٤)، كما قال النبي ﷺ.

ومن الديون التي لا تغفر للشَّهيد: زكاة المال، كما قال العلماء.

رُدُّ حقوق العباد:

ومن هنا قال العلماء: إِنَّ ما جاء في هذه العبادات والحسنات والصالحات من الأعمال مكفراً للسيئات، مطلقاً من غير قيد، إِنَّمَا يَقِيدُ بهذا الحديث. أي أَنَّهُ لا يكفي أن تصوم أو أن تقوم أو تحج أو تصلي أو

(١) رواه مسلم (١١٦٢)، وأبو داود (٢٤٢٥)، كلاهما في الصوم، عن أبي قتادة

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٣٦٦٩)، وقال مخرَّجوه: صحيح لغيره. والترمذي في الحج (٨١٠)، وقال: حسن

صحيح غريب. والنسائي (٢٦٣١)، وابن خزيمة (٢٥١٢)، كلاهما في المناسك، عن

ابن مسعود.

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٦)، وأحمد (٧٠٥١)، عن عبد الله بن عمرو.



تتوضأ أو تتصدق، لا يكفيك هذا، إذا كنت مغلول العنق بديون العباد وحقوق العباد.

فعليك أولاً أن تردّ ديون العباد، وقد مرّ بنا الحديث الذي ذكره النبي ﷺ عن الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ، يا ربّ. ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُدّيّ بالحرام، فإنّي يُستجابّ لذلك^(١)!

من هنا إذا كان على الإنسان ديون، أو عليه تبعات للعباد، فعليه أن يُبرّئ ذمّته من هذه الديون أولاً، فإنّ الله قد يتسامح في حقّه، ولكنّه لا يسامح في حقوق العباد، حتّى تردّ المظالم إلى أهلها، وتردّ الأمانات إلى أهلها، فمن كان عليه دين، ومن كان عليه حقّ لعبد من عباد الله، فعليه أن يرجعه، وعليه أن يرده إلى أهله وأصحابه. قال العلماء: فإن كان من له الحقّ أو الدين قد مات، فعليك أن تدفع الحقّ إلى ورثته، ولا يموت الحقّ بموته.

هذه أيّها المسلمون هي تعاليم الإسلام. باب الله واسع فسيح لمن أراد أن يمحو أثر السيئات عن نفسه.

الأعمال الصالحة كثيرة:

الأعمال الصالحة كثيرة، فرائضها ونوافلها: من صلاة، وصدقة، وصيام، وقيام، وحج، وجهاد، وبرّ، وصلة للرحم.. فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إنّي قد أذنبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ فقال له: «ألك والدان؟». قال: لا. قال: «ألك خالة؟». قال: نعم.

(١) سبق تخريجه ص ٤٨.

قال: «اذْهَبْ فَبَرِّهَا»^(١). فجعل برَّ هذه الخالة ممَّا يكفر الله به الذنوب وإن عظمت.

ورحمتي وسعت كلَّ شيء:

إِنَّ أَيَّ ذَنْبٍ مِّمَّاهُ عَظِيمٌ لَا يَعْظُمُ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَكُلُّ ذَنْبٍ مِّمَّاهُ كَبِيرٌ، فَعَفْوُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَيُنَادِيهِمْ إِلَى حَظِيرَةِ قُدْسِهِ، وَيَقُولُ: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ليس في الإسلام ذنب إلا وله ما يمحوه، وله ما يكفره ويزيل أثره. فجعل الأعمال الصالحة مكفرة، وجعل التوبة النصوح مكفرة ماحية، وأكثر من ذلك، أنه جعل مصائب الدنيا مكفرة للذنوب.

ما يصيب الإنسان من لأواء هذه الحياة، وبأساء هذه الدنيا وضررائها، إذا صبر عليها المسلم واحتسب عند ربِّه، فإنَّها مكفرة لسيئاته. روى البخاري عن النبي ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ، وَلَا غَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٢). وهذا إذا رضي واحتسب، أمَّا إذا جزع وسخط على قضاء ربِّه، ولم يستشعر بالرضا، فإنَّ هذا لا تكفر المصيبة سيئته، بل تزيده سيئة على سيئة، والعياذ بالله.

(١) رواه أحمد (٤٦٢٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في البر والصلة (١٩٠٤) موصولاً ومرسلاً، وقال عقب المرسل: وهذا أصح من حديث أبي معاوية (أي الموصول). وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٥)، عن ابن عمر.

(٢) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في المرضي (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.



لا تترك ذنوبك تتراكم عليك:

فهل لأحد حُجَّة بعد ذلك؟ وهل لمسلم عُذْر بعد ذلك؟ إذا ترك سيئاته تتراكم يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام، حتَّى يقسو قلبه، ويمتلئ بالصدأ والظلام، فيحاول التوبة فلا يستطيع! لأنَّ القلب إذا اشتد ظلامه وعظم سواده، فهيهات أن يجد فيه الإنسان مكاناً للتوبة أو للمراجعة، أو للعودة إلى الله وَعَلَيْكَ، وصدق الله العظيم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

لا عذر لأحدٍ، ولا حُجَّة لأحد وقد فتح الله باب الحسنات للناس ليلجوه، وليدخلوه من أوسع مداخله، ليمحوا ما أصابهم من السيئات، وما وسوس لهم به الشيطان، فيا أيُّها المسلمون، أحسنوا حتَّى تمحى إساءاتكم، واعملوا صالحاً فيما بينكم وبين ربكم، وفيما بينكم وبين أنفسكم، وفيما بينكم وبين عباد الله، يكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم.

وخالق الناس بخُلُق حسن:

إنَّ كثيراً من الناس يظنُّون التَّقوى هي القيام بحقوق الله وَعَلَيْكَ فحسب!! فهم يقصرون التَّقوى على التعبد لله من الصلاة والصيام والحج، ولكن رسول الله ﷺ يقول: «وخالق النَّاسَ بخُلُق حَسَن».

يقول ابن رجب: «هذا من تمام التَّقوى، فلا تتم إلَّا به، وإنَّما أفردَه ﷺ بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإنَّ كثيراً من النَّاس يظنُّ أنَّ التَّقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصَّ ﷺ على الأمر بإحسان العشرة للناس»^(٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٤٥٤).

وهي وصية صريحة واضحة.. اصدقهم إذا حدثت، وأوف لهم إذا عاهدت، وأنجز إذا وعدت، وأد إذا أوّمت، أحبّ لهم ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تکره لنفسك، لا تستكبر عليهم، ولا تعتد على حقوقهم، ولا تسخر منهم، أو تحقر شأنهم، ف«بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم»^(١)، لا تظلمهم وإن ظلموك، ولا تغشهم وإن غشوك، ولا تخنهم وإن خانوك.

والمعلوم من كتاب الله أنّ الإنسان لا يكون تقيًا لرّبه ما لم يحسن خلقه، وما لم يُلنّ جانبه، وما لم يُحسن عشرته للناس.

إنّ الله تعالى وصف عباده المتّقين الذين أعدّ لهم جنّة عرضها السماوات والأرض، فكان أوّل أوصافهم ما قاله الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أوّل صفات عباد الرحمن أوصاف أخلاقيّة:

وكذلك أوّل ما وصف به عباده الذين شرفهم بنسبتهم إليه، وأعطاهم هذا الوصف الجميل عباد الرحمن، فقال ﷺ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

حُسن الخلق من أفضل القربات:

فحُسن الخلق من العبادة، ومن التّقوى، ومن أفضل ما يتقرّب به المؤمن إلى الله. يقول رسول الله ﷺ في ذلك: «ما من شيء أثقل في

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

مِيزَانُ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»^(١). وقال: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(٢).

بِحُسْنِ الْخُلُقِ تَثْقُلُ الْمَوَازِينُ، وَتَرْجَحُ الْكِفَّةُ عِنْدَ اللَّهِ وَجَلَّ.

ولا عجب أن وجدنا أبرز ما وصف الله به رسوله، وأثنى به عليه في كتابه، أن وصفه بهذا الجانب الإنساني الكريم، فقال تعالى رادًا على الكفار الذي زعموا أن محمدًا ﷺ قد مسّه شيء من الجنون؛ لأنّه قام يدعو إلى الله، وسط دعاة الطاغوت وعبدته، وإلى الجنة بين دعاة إلى النار، وإلى الحق بين دعاة إلى الباطل، وإلى التوحيد بين دعاة إلى الشرك، اتهموه بالجنون، وبأنّه قد أصابه مسّ، فقال الله ﷻ مدافعًا عن رسوله: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].

لم يصفه الله ﷻ بكثرة الصوم، ولا بكثرة الصلاة، وما أكثر ما كان يصوم! وما أكثر ما كان يصلي! وما أكثر ما كان يقوم بالليل حتّى تتورّم قدماه! ولكنّه وصفه بهذا الجانب.. الجانب الإنساني الأخلاقي ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ولقد سئلت السيّدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت للسائل: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: كان خلقه القرآن^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٧٥٣٢)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، وصحّحه

الألباني في صحيح الجامع (٥٣٩٠)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه أحمد (٢٥٠١٣)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٧٩٨)،

وابن حبان في البر والإحسان (٤٨٠)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٥٣٠٢)، وأبو داود في الصلاة (١٣٤٢)،

عن عائشة.

كَانَ ﷺ قَرَانِيًّا فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا، فِي آدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَمَعَامَلَاتِهِ وَسَائِرِ شُؤُونِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَكَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا.

وَلَقَدْ جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُسْنَ الْخُلُقِ مِمَّا يُوْدِّي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمِمَّا يُقَرِّبُ الْمُسْلِمَ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ.

سُئِلَ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الْفَمُّ وَالْفَرْجُ»^(١). أَيِ الشَّهَوَتَانِ الْخَبِيثَتَانِ: شَهْوَةُ الْبَطْنِ، وَشَهْوَةُ الْفَرْجِ. وَالْفَمُّ أَيْضًا فِيهِ اللِّسَانُ، فَالْثَّرَثَةُ وَالْكَذِبُ وَأَفَاتُ اللِّسَانِ كُلُّهَا مِمَّا يُوْدِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى النَّارِ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ. ثُمَّ سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٢). وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مُحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِيَكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفِيهَقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ»^(٣).

أَيِ إِنَّ أَسْوَأَ النَّاسِ أَخْلَاقًا هُمُ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ، وَأَبْغَضُهُمْ إِلَيْهِ، وَهُمُ الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفِيهَقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ، الْمُتَبَاهُونَ بِكَثْرَةِ الْكَلَامِ، فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالصَّدَقِ وَالْكَذِبِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ شَرَّ أَرْكَامِ الْمَشَّائُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمَفْسُدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ الْبِرَّاءَ الْعَنْتَ»^(٤).

(١) رواه أحمد (٧٩٠٧)، وقال مخرّجوه: حديث حسن. والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٤) وقال: حديث صحيح غريب. وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧)، عن أبي هريرة.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) رواه أحمد (١٧٧٣٢)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. وابن حبان في حسن الخلق (٤٨٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٧/٣): رواه أحمد ورواته رواة الصحيح. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦٥)، عن أبي ثعلبة الخشني.

(٤) رواه أحمد (١٧٩٩٨)، وقال مخرّجوه: حسن بشواهده. وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٧٠٠)، عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري.

الأخلاق التي دعا إليها الإسلام تتلاءم مع الفطرة:

وحُسْنُ الخُلُقِ شيءٌ تعرفه الفطرة، ويعرفه العقل، ويعرفه النَّاسُ، لا يحتاج إلى تعريف أو توضيح، فإنَّ النَّاسَ يعرفون الخُلُقَ الحسنَ ما هو، والخُلُقَ السيِّئَ ما هو. والإسلام لم يَجِئْ في أمر الخلق بما تشمئزُّ منه النفس، أو بما تستنكره الفطرة، أو بما ينكره العقل، كلا، بل جاء بالأخلاق الفطرية الواقعية التي يُقرُّها كل عقل سليم، وكل عرف قويم، وكل إنسان عاقل.

وقال الرسول لمن جاء يسأله عن البرِّ والإثم: «البرُّ ما سكنت إليه النَّفْسُ، واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثمُ ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئنَّ إليه القلب، وإن أفتاك المفتون»^(١).

لقد عرفت البشرية أدياناً تأمر بأخلاق فوق الاستطاعة البشرية، كما روى عن المسيح أنه قال في الإنجيل: أحبُّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، من ضربك على خدِّك الأيمن فأدِرْ له خدِّك الأيسر، ومن سخَّرَكَ لتسير معه ميلاً فسيرْ معه ميلين، ومن سرق قميصك فأعطه إزارك^(٢).

هذه الأخلاق فوق ما يستطيعه البشر، أن يحبَّ الإنسان عدوه، وأن يبارك الإنسان مبغضه ولاعنه، وأن يدير الإنسان خدَّه الأيمن لمن ضربه على خده الأيسر، شيء فوق ما يستطيعه البشر العادي، ولهذا لم نجد من يُطبِّق هذه التعاليم بين أهلها أنفسهم.

ولهذا جاء دين الإسلام رسالة عالمية خالدة للبشر كافة، في سائر

(١) رواه أحمد (١٧٧٤٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والطبراني (٣١٩/٢٢)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨٤)، عن أبي ثعلبة الخشني.

(٢) انظر: إنجيل متى (٥: ٣٩ - ٤٢)، وإنجيل لوقا (٦: ٢٩ - ٣٠).

الأمصار وفي سائر الأعصار، وفي سائر الأجيال، جاء دينًا ملائمًا للحياة ملائمًا للفترة، ملائمًا للعقل، فلم يأمر الإنسان أبدًا أن يحبَّ عدوه، ولا أن يبارك لاعدائه، ولا أن يدير الخدَّ الأيسر لمن ضربه على الأيمن، بل أمر الإنسان بما يستطيع، أن يعدل ولو مع عدوه، وهذا أمر مستطاع: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فلم تأمر شريعة الإسلام بحبِّ الأعداء، فالحبُّ أمرٌ لا يملكه الإنسان، وخاصَّة حبِّ من يعاديه، وإنَّما أمرت بالعدل معه، وبالبرِّ بالمخالف في الدين إذا لم يعتدِ ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

معنى حسن الخلق:

وحُسن الخُلُق أو مكارم الأخلاق كلمة بعيدة المدى في مدلولها، حتَّى إنَّ الرسول ليحدِّد مهمة رسالته فيقول: «إنَّما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق»^(١).

لذلك قال ابن القيم: الدين كلُّه خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في الدين^(٢).

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرَّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) مدارج السالكين (٢٩٤/٢).

حُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا:

ولهذا كانت الوصية بهذا المعنى العام: «خالق النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». لم يقل: خالق المسلمين بِخُلُقٍ حَسَنٍ، بل قال خالق الناس.

الناس كلُّ النَّاسِ القريب والبعيد، العدو والصديق، المسلم والكافر، الرجل والمرأة، الصغير والكبير.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَسَّمْعُكَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] ^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «قد قلت: وعليكم» ^(٢).

هذا ما أمر به الإسلام كل مسلم، أمره بأن يحسن خُلُقَه للنَّاسِ كل النَّاسِ، يقول معاذ بن جبل: كان آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ بعد أن

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٨).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥).

وضعتُ رجلي في الغَزَز - وذلك حين سافر إلى اليمن معلِّماً وقاضياً ووالياً ومؤدباً - أن أحسن خُلُقِي للناس^(١).

سؤال النبي ربه حسن الخلق:

وكان النبي ﷺ إذا نظر في المرأة قال: «اللهم كما أحسنت خُلُقِي فأحسن خُلُقِي»^(٢).

وكان يقول في استفتاح صلاته: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلَّا أنت»^(٣).

وكان يستعيز بالله ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق ومن سوء الأخلاق»^(٤). فإنَّ سوء الأخلاق شر ما يصاب به الإنسان.

سيئ الخلق مثل البعير الأجرب:

إنَّ مثل سيئ الخلق كمثل البعير الأجرب الذي يجب أن يُتجنَّب

(١) رواه مالك في حسن الخلق (٣٣٥٠) تحقيق الأعظمي، وقال ابن عبد البر في التمهيد (٣٠٠/٢٤): هكذا روى يحيى (الليثي) هذا الحديث، وتابعه ابن القاسم والقعني، ورواه ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن جبل، وهو مع هذا منقطع جدًّا، ولا يوجد مسندًا عن النبي ﷺ من حديث معاذ ولا غيره بهذا اللفظ، قال البزار: لا أحفظ في هذا مسندًا عن النبي ﷺ، قال أبو عمر (ابن عبد البر): يريد بهذا اللفظ؛ لأنَّه قد ثبت عنه ﷺ من حديث أنس قال: بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال: «يا معاذ، اتَّق الله وخالق الناس بخلق حسن...» الحديث. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٩٧/١) الحديث الثامن عشر: في إسناده نظر.

(٢) رواه أحمد (٢٤٣٩٢)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (٨١٨٤)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣)، عن علي بن أبي طالب.

(٤) رواه أبو داود في الصلاة (١٥٤٦)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٧١)، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٣٢)، عن أبي هريرة.

ويُهرب منه، سوء الخلق نار تأكل الأخضر واليابس، وسيّئ الخلق ينفر منه النَّاسُ، وتشمئز منه الأنفس، وتنبو عنه القلوب والفطر السليمة، ولذا قال الحسن: من ساء خُلُقه عَذَّب نفسه^(١).

وقيل: ليس لسيّئ الخُلُق توبة (أي ما لم يُحسن خلقه)؛ لأنّه كلّما خرج من ذنب دخل في آخر لسوء خُلُقه.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ يتركه النَّاسُ - أو يدعه النَّاسُ - اتِّقَاءً فُحْشه»^(٢).

وقالوا: سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر العسل. أي أنّ مرارة الصبر تفسد حلاوة العسل.

أفضل الأخلاق:

لهذا أوصى رسول الله ﷺ أمته بحسن الخلق، وقد قال ﷺ لعقبة بن عامر: «ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدُّنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عَمَّن ظلمك»^(٣).

ليس حُسْن الخُلُق أن تكفَّ أذاك عن النَّاس، بل تحتل منهم الأذى، وليس ذلك فحشَب، بل تقابل الإساءة بالإحسان، والقطيعة بالصلة، والجفوة بالزيارة، والظلم بالعفو، وهكذا كان رسول الله ﷺ.

حينما فتح مكّة التي أخرجته ليلاً متستراً، ثمّ عاد إليها نهائراً فاتحاً منتصراً، يحطّم الأصنام ويضربها برمحِه وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٦٨٣).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٩١)، عن عائشة.

(٣) رواه الحاكم في البر والصلة (١٦١/٤ - ١٦٢) وسكت عنه هو والذهبي.

وَزَهَقَ الْبَطْلُ إِنَّ الْبَطْلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿[الإسراء: ٨١]﴾. وحينما فتح مكة وتمكّن من القوم الذين كذبوه وآذوه كل الأذى وأسأؤوا إليه أعظم الإساءة، وعذّبوا أصحابه، وتأمروا على قتله، وحاربوه، جمعهم ووقف فيهم خطيباً، وقال والناس منصتون كأنّ على رؤوسهم الطير، ينظرون أن يفصل في أمرهم محمّد بن عبد الله، الذي تأمروا على قتله، بعد أن آذوه وحاربوه وصدّوا عن سبيل الله الذي دعاهم إليه، ينتظرون ماذا يقول محمد، وبأيّ شيء يحكم، إنّ مصيرهم جميعاً مرهون بكلمة منه.. فقال لهم: «يا معشر قريش، ما تظنّون أنّي فاعل بكم؟». قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. أصبحوا يُليّنون القول الآن بعد أن كانوا جبابرة الأرض، فقال ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

هذا هو الخلق العظيم، الخلق الحسن، أن يتمكّن الإنسان من أعدائه، الذين فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل، وصبّوا عليهم العذاب صبّاً، وجرّعوه الصاب والعلقم، ومع هذا يعفو ويغفر، ويقول لهم كلمة تذهب مثلاً في التاريخ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

الخلق الحسن أيّها المسلمون من تمام التّقوى، ومن كمال الإيمان، فقد قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وأطفهم بأهله»^(٢). وفي رواية: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم

(١) ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق، قال: فحدثني بعض أهل العلم.. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤١٢/٢).

(٢) رواه أحمد (٢٤٦٧٧)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح لغيره. والترمذي في الإيمان (٢٦١٢)، وقال: صحيح. عن عائشة.

خيارُكم لنسائكم»^(١). فمن كمال الإيمان حُسن الخُلُق، ومن تمام التَّقوى حُسن الخُلُق.

وممّا يحبّ الإنسان إلى الله وإلى النَّاس حُسن الخُلُق، فأحسنوا أخلاقكم، فإنَّ رسول الله ﷺ إنّما بُعث - كما حدّث عن نفسه - ليتمّم مكارم الأخلاق.

ثمرات العبادات ثمرات أخلاقيّة:

ولهذا كانت ثمرات العبادات في الإسلام ثمرات أخلاقيّة، فمن لم تؤدّ به العبادة من صلاة وصيام وقيام وحج وسائر الفرائض والشعائر الدينيّة إلى حسن الخُلُق، فشكّوا في عبادته، وشكّوا في صلاته وصيامه، وتذكروا قول الرسول ﷺ في مثل هؤلاء: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(٢).

«كم من صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلّا السهر»^(٣).

وفي بعض الآثار: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلّا بُعداً»^(٤).

(١) رواه أحمد (١٠١٠٦)، وقال مخرّجوه: صحيح. والترمذي في الرضاع (١١٦٢) وقال: حسن صحيح. عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٤.

(٣) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (٤٣١/١)، كلاهما في الصوم، وصحّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٤) رواه الطبري في التفسير (٤١/٢٠)، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة. من قول ابن عباس.

وقال بعض السلف: رُبَّ تَالٍ للقرآن والقرآن يلعنه^(١).

ذلك أنَّ العبادة الصحيحة الخالصة التي تربط الإنسان برَّبِّه وتفجّر في القلب ينابيع الخشية لله، وتملأ هذا الفؤاد بالنور.. هذه العبادة من شأنها أن تنضح على سلوك الإنسان مع النَّاس وعلى معاشرته لهم، فإذا بهذا الإنسان أكرم خُلُقًا وأحسن معشرًا، وألين جانبًا، وأفضل من سائر النَّاس معاملة للناس.

هذه هي وصية رسول الله ﷺ لاثنين من كرام الصحابة، فعُوها واحفظوها ونفذوها، واجعلوها نصب أعينكم. فهي وصية لكل واحد منكم: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

وقد منَّ الله علينا - نحن المسلمين - فجعل لنا مثالًا خُلُقيًا عمليًا نقتدي به، ونقتبس من سنانه، ونهتدي بهداه، ذلكم هو سيّد الأولين والآخرين، وأكمل النَّاس أخلاقًا: محمّد رسول الله ﷺ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنَّ سوء الأخلاق ليس خطرًا على الفرد وحده، بل على الجماعة والأمة كلها، فالأمم إنما تحيا وتتميّز بعقائدها وأخلاقها، وتموت بموت الفضائل فيها.

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢٧٤/١)، عن أنس.



ورحم الله شوقي إذ يقول^(١):

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُوهُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا
وقال^(٢):

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلًا
نسأل الله حُسنَ الأخلاق وحسنَ الأفعال، ونسأله تقواه في السرِّ والعلن.

* * *

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين (١٦٦/١)، نشر المطبعة النموذجية بالحلمية الجديدة، القاهرة.

(٢) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٨٣/١).

الدرس التاسع والعشرون

كونوا عباد الله إخوانًا

روى أحمد والترمذي عن معاذ بن جبل قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحتُ يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل». قال: ثم تلا ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ثُمَّ قَالَ: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟». قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟». قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا نبي الله، وإنَّا لمؤاخذون ممَّا نتكلَّم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناس في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١).

(١) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحاكم في التفسير (٤١٢/٢، ٤١٣)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن معاذ بن جبل.



ارتباط الإيمان بالعمل وارتباط أركان الإسلام ببعضها ببعض:

حين سأل معاذ رسول الله ﷺ عما يدخله الجنة ويباعده عن النار، دلّه الرسول ﷺ على الطريق، ووضع المصباح بين يديه، ينير له السبيل، فبين له أنّ الطريق إلى الجنة هو العمل، ولا عمل بلا إيمان، ولهذا كان أوّل هذه الأسس هو عبادة الله وحده، لا يشرك بذلك شيئاً... ثمّ ذكر له أركان الإسلام ودعائمه ومبانيه العظام: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

وهذه الفرائض مرتبط ببعضها ببعض، فلا بدّ أن تؤدّي هذه الأركان كلها، فلا يقبل الله إيماناً إلاّ بصلاة، ولا يقبل صلاةً إلاّ بزكاة، ولا يقبل هذه وتلك إلاّ بالصيام والحج.

وقد قال أبو الدرداء: لا إيمان لمن لا صلاة له، ولا صلاة لمن لا وضوء له^(١).

وجاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أربع فرضهنّ الله في الإسلام، فمن جاء بثلاث، لم يُغنن عنه شيئاً، حتّى يأتي بهنّ جميعاً: الصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحجّ البيت»^(٢).

لا يغني المسلم أبداً أن يؤدّي بعض هذه الفرائض، ويترك بعضها، فهو في نظر المسلمين، إما كافر أو فاسق فسقاً يؤدي إلى الكفر - والعياذ بالله - فإنّ الإسلام كالشجرة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، أصل هذه

(١) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٩٤٥).

(٢) رواه أحمد (١٧٧٨٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف، ابن لهيعة - وهو عبد الله - سيئ الحفظ، ثم إنّ الحديث مرسل.

الشجرة هو الإيمان، هو التوحيد، ولهذه الشجرة فروع، وهذه الفروع الكبيرة هي: الصلاة والزكاة والصيام والحج.

فإذا رأينا الشجرة تنكسر فروعها وتتقطع واحدًا بعد الآخر، لم يبق منها إلا الجذع، يخشى على الجذع نفسه أن يصيبه ما أصاب الفروع من الآفات، فيفقد الإنسان - والعياذ بالله - أصل الإيمان وجذر التوحيد.

ومن هنا حرص النبي صلوات الله وسلامه عليه على أن يبين لمعاذ كما بين لغيره من الصحابة أن العبادات الإسلامية هي الأركان التي لا بد منها، ولا يقبل الله إنسانًا في عباده الصالحين إلا بها، ولا يطمع إنسان في أن يدخل جنّة الله ما لم يؤدّها حقّ أدائها.

وقد روي أن الله أوحى لموسى عليه السلام: «ما أقلّ حياء من يطلب جنّتي بغير عمل! كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي؟»^(١).

لا تقبل نافلة حتى تؤدّي الفريضة:

هكذا علّم الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يعبد الله ويصلي ويزكي ويحج.

ثم قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير؟».

معاذ وإخوانه من الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يكتفون بأداء الفرائض وحدها، لهذا أشبع رسول الله ﷺ نهمه في طلب الخير وفي حبّ الزيادة، فقال له تلك العبارة والسؤال الشيق: «ألا أدلك على أبواب الخير؟».

(١) ذكره أبو حيان في تفسيره البحر المحيط (٣/٣٥١)، تحقيق صدقي محمد جميل، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

وتلك الأبواب غير الفرائض والأركان، سنن ونوافل مفتحة أمام الإنسان يستفيد منها ويستزيد من الثواب، وينجو بفعلها من العقاب، ولم يدلّه النبي ﷺ على هذه المكملات والسنن إلا بعد أن دلّه على الفرائض أولاً، فإن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، فلو أن رجلاً يصوم الاثنين والخميس مثلاً، ومع هذا لم يحج وهو قادر على الحج، نقول لمثل هذا حُجّ أولاً.

ولو أن رجلاً يقوم من الليل فيصلي ويتهجّد، وهو مانع للزكاة، لا يفكر في إخراج حق الله من ماله وثروته، نقول له بدلاً من قيام الليل يا هذا أدّ زكاة مالك أولاً، فالفريضة مقدّمة على سواها، ولا يقبل الله النافلة حتى تؤدى الفريضة، كما أوصى بذلك أبو بكر عمر بن الخطاب^(١).

النوافل جابرة لنقص الفرائض:

لا يقبل الله المكملات حتى تؤدى الأساسيات، وأساسيات هذا الدين هي الأركان الخمسة، فإذا فعلها الإنسان، فلا بأس أن يستزيد من الخير، والخير هنا ينفع في أنّه يجبر القصور والنقص الذي يتخلّل أركان الدين حين تؤدى.

لا يضمن الإنسان أن يكون في صلاته بعض الوسوسة أو المشغلة، ولا يضمن أن يكون في صيامه بعض المن أو بعض الأذى، ولا يضمن أن يكون في حجّه بعض الجدال أو بعض الرفث، لا يضمن أن يكون في عبادته شيء من ذلك.

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٨.

فجاءت السنن والنوافل تجبر ما عسى أن يكون من قصور أو نقص في أداء الفرائض.

ومن هنا يحرص المسلم على أداء هذه السنن ليَجبر فرائضه، ثمَّ ليستزيد من الخير، ويثقل ميزان حسناته.

ولذلك جاء في الحديث الصحيح الَّذي رواه البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ عن ربه ﷻ في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممَّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحبَّته كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ويده الَّتِي يبطش بها، ورجله الَّتِي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١).

أبواب الخير الَّتِي ذكرها النبي ﷺ لمعاذ:

النبي ﷺ يدل معاذ بن جبل على أبواب الخير ويعددها بقوله: «الصوم جُنة، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل».

هذه أشياء يستطيع المسلم أن يكسب منها كثيرًا، وأن يربح منها ثوابًا عظيمًا.

الصوم جُنة:

الباب الأول الَّذي ذكره النبي ﷺ لمعاذ: «الصوم جُنة». أي يَجُنُّه ويحميه من المعاصي، درع يقي الإنسان من الركون إلى الشيطان، والإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى.

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

والصوم المذكور هنا في حديث معاذ ضمن أبواب الخير هو صيام النفل، إذا صام المسلم نفلاً في غير رمضان، كأن يصوم الاثنين والخميس، كما كان يفعل الرسول ﷺ، أو يصوم أفضل الصيام إذا كانت لديه عزيمة أقوى وأكبر، كما كان يصوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً^(١).

أو يصوم الأيام المباركات التسعة من ذي الحجة إلى يوم عرفة، وصيام يوم عرفة الذي يكفر الله به سنتين، وصيام عاشوراء وتاسوعاء، فإنَّ صيام عاشوراء يكفر الله به سنة من الذنوب^(٢)، ثمَّ صيام ستة من شوال كما قال ﷺ: «من صام رمضان ثمَّ أتبعه بستاً من شوال كان كصيام الدهر»^(٣).

كل هذه أنواع من الصيام تقوي عزيمة المسلم على الخير، وتربي إرادته على مقاومة الشهوات، وعلى الاستعلاء على الباطل، وعلى مطاردة وساوس الشيطان. فإنَّ الذي يصوم لله متطوعاً - فضلاً عن رمضان - يجد في صيامه هذا جنةً ودروعاً واقيةً تقويه وتحصنه، وتعطيه سلاحاً وقوة أمام الإغراء والإغواء والوسوسة من شياطين الإنس وشياطين الجن.

هذا هو الصوم، ولهذا أوصى النبي ﷺ كل شاب تعتمل في جوانحه أسباب الشهوة وبواعثها، ولكنه لا يجد القدرة المالية على الزواج والنكاح، أوصاه بالصوم ليقوي بذلك إرادته، وتقوى مراقبة الله عنده.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧٢.

(٣) رواه مسلم في الصوم (١١٦٤)، وأحمد (٢٣٥٣٣)، وأبو داود (٢٤٣٣)، والترمذي (٧٥٩)، وابن ماجه (١٧١٦)، ثلاثهم في الصوم، عن أبي أيوب الأنصاري.

قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج (والباءة هي القدرة المادية على الزواج) فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

والوجاء: معناه نزع خصيتي الكباش. ومعناه هنا أنه يكسر الشهوة ويضعفها فشبهه النبي ﷺ بالخصاء.

وكسر الشهوة بالصوم؛ لأن الصوم يكون بما يقوي في النفس من مراقبة الله ﷻ، وما يبعثه ذلك في نفس المرء من الاستحياء من الله ﷻ أن يرتكب المعصية ويقترف الفاحشة.

فالصوم - إذن - وجاء وجئة وحصانة، سواء في ذلك صوم رمضان أو التطوع في غير رمضان.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإذا سابّه أو قاتله أحد فليقل: إني صائم، إني صائم»^(٢).

سواء كان هذا القول بلسانه، أو استحضاراً لهذا بقلبه؛ لأن الصائم لا يجوز له أن ينزل إلى هذا المستوى من القول البذيء، ومن الفحش مع الناس ومسابّتهم ومقاتلتهم.. لقد أجاع نفسه لله، وأعطش كبده لله، وفي حديث آخر: «الصيام جنة لأحدكم، ما لم يخرقها»^(٣).

وإنما يخرق الإنسان هذا الدرع بالمعاصي، بالغيبة، بالزور، بالكذب،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣.

بالنميمة، بالاستهزاء بالناس، بالكلام الباطل، بالنظر إلى الحرام، وقد قال بعض الصحابة ومن تبعهم: إِنَّ مثل هذه المعاصي تبطل الصيام إبطالاً كالأكل والشراب. وغيرهم قال: إِنَّها تذهب أجر الصائم. بمعنى: إِنَّه يظل طول النهار محروماً من الأكل والشرب والشهوة، ومع هذا يعمل في غير عمل، ولا يأخذ على ذلك أجراً ولا ينال ثواباً. فهذا هو الشقي المحروم وهذا هو البائس التعيس.

فليحافظ كلُّ منا - أيُّها المسلمون - على هذه الجُنَّة، وعلى هذا الدرع، وليجعل أحدنا صيامه خالصاً لله وَحْدَهُ، طاهراً من دنس المعاصي، ف «ليس الصيام من الأكل والشرب، إِنَّمَا الصيام من اللغو والرفث». كما قال الرسول ﷺ^(١).

وفي حديث آخر: «كم من صائم ليس له من صيامه إِلَّا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إِلَّا السَّهَر»^(٢).

الصدقة دعامة من دعائم الإسلام وباب من أبواب الخير:

ذكرت الصدقات في هذا الحديث مرتين، مرّة صدقة الفرض - وهي الزكاة - في بيان الأمور التي سأل عنها معاذ النبي ﷺ ممّا يدخله الجنة ويباعده عن النَّار، فقال: «وتؤتي الزكاة». ومرة صدقة النفل، فقال في أبواب الخير: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».

وقلّما ذكرت الصلاة في قرآن إِلَّا قرنت بها الزكاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

(١) رواه ابن خزيمة (١٩٩٦)، والحاكم (٤٣٠/١)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٢٧٠/٤)، ثلاثهم في الصيام، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٥.

فالزكاة شقيقة الصلاة وقرينتها، وقد ذكرت معها في بضع وعشرين موضعًا في القرآن الكريم.

ولا يتم إسلام المسلم ولا إيمان المؤمن إلا بإيتاء الزكاة مع الصلاة، ولا يستحق غير المسلم أخوة الإسلام والانتماء إلى مجتمع المسلمين إلا إذا أقام الصلاة وآتى الزكاة، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ومعنى هذا ومفهومه أن من لم يُقم الصلاة ولم يؤت الزكاة فليس أخًا لنا في الدين ولا يستحق الانتماء إلى جماعة المسلمين.

إيتاء الزكاة هو هذه الفريضة العظيمة التي فرضها الله على المسلمين ليحلُّوا مشكلة الفقر ويرعوا حقوق الفقراء ويؤاخوا بين الطبقات، فلا يحسد غنيًا فقير، ولا يحقد ضعيف على قوي، ولا تثور الفتن بين الناس، فيستغل ذلك أعداء الإنسانية وأعداء الله.

التحذير من ترك الزكاة:

فرض الله هذه الفريضة وأمر بها في كتابه على لسان رسوله وحذر من تركها، وجعل تركها من صفات المشركين: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿ [فصلت: ٦، ٧].

يقول النبي ﷺ: «من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، فيأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ويقول: أنا مالك، أنا كنزك»^(١). ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، وأحمد (٨٦٦١)، عن أبي هريرة.

الْقِيَمَةُ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].
ويقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

ولم يقتصر الإسلام على تهديد الغني البخل بعقوبة الآخرة بل جعل هناك عقوبات معجلة في الدنيا، بعضها يتولاه القدر الأعلى كمرض يصيبه، أو خيبة في أولاده، أو تلف في ماله، أو محق للبركة في ذريته وثروته. كل هذا من العقوبات التي يبتلى بها مانع الزكاة.

يقول ﷺ: «ما منع قومُ الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»^(١). جمع سنة، وهي المجاعة والقحط.

وفي حديث ابن عمر: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»^(٢).

وفي حديث آخر: «ما خالطت الصدقة - أو قال: الزكاة - مالا إلا أفسدته»^(٣).

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤٥٧٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧)، عن بريدة بن الحصيب.

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)، والبزار (٦١٧٥)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٤٠/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦١٥): روى ابن ماجه بعضه، ورواه البزار ورجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٣) رواه البزار - كما في كشف الأستار - (٨٨١)، والبيهقي في الزكاة (٢٦٨/٤)، والحميدي في مسنده (٢٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٣٤١): رواه البزار وفيه عثمان بن عبد الرحمن الجمحي. قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٠٦٩)، عن عائشة.

وهناك عقوبات شرعية بجوار هذه العقوبات القدرية يتولاها السلطان، فقد قال ﷺ في زكاة الإبل: «من أعطاها مؤتجرًا فله أجره، ومن منعها فإننا آخذوها وشرط ماله، عزمة من عزمات ربنا، لا يحلُّ لآل محمدٍ منها شيء»^(١).

أي من امتنع عن أداء الزكاة أُجبر عليها، وغرم نصف ماله، وهذه عقوبة تعزيرية متروكة لولي الأمر، يؤدَّب بها المتهربين أو الممتنعين من أداء هذه الفريضة.

الإسلام سبق جميع النظم التي ترفع شعار العدالة الاجتماعية:

بل أكثر من ذلك، أنَّ الإسلام يجيز في سبيل ذلك سلَّ السيوف وإيقاد نار الحرب على من امتنع من أداء الزكاة، وكان له شوكة.

فلو أنَّ أهل بلد أو قبيلة أو جماعة من النَّاس لهم قوَّة ومنعة، وامتنعوا عن أداء الزكاة، فلولي الأمر المسلم أن يُجيش الجيوش ويجنِّد الجنود، ويقاتلهم حتَّى يأخذ منهم حق الله وحق السائل المحروم.

وقد فعل ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، وجهَّز أحد عشر لواءً ليحارب المرتدين ومانعي الزكاة، ولما جادله في ذلك عمر: كيف تقاتل النَّاس وقد قالوا: لا إله إلا الله؟ وقد قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منِّي ماله، ونفسه، إلاَّ بحقه. وحسابه على الله».

فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإنَّ الزكاة

(١) رواه أحمد (٢٠٠١٦)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي (٢٤٤٤)، وابن خزيمة (٢٢٦٦)، ثلاثتهم في الزكاة، عن معاوية بن خيَّدة.

حقُّ المال، والله لو منعوني عقلاً^(١) - وفي رواية: عَنَّا^(٢) - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فوالله، ما هو إلا أن رأيت الله ﷻ قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

وقاتل أبو بكر والصحابة معه ومن ثبت على الإسلام المرتدين ومانعي الزكاة، وانتصر الإسلام وأهله عليهم، وسبق الإسلام بذلك كل المبادئ والمذاهب والأنظمة التي يتنادى بها الناس في عصرنا، قبل أن يولد كارل ماركس، وقبل أن تولد الشيوعية والاشتراكية الذين يظنون أنهم أتوا بالجديد، وأنهم جاؤوا ليحلوا عقدة الدهر، ومعضلة المعضلات بأنظمتهم وأفكارهم.

جاء الإسلام قبلهم بقرون ليحلَّ هذه المشكلة، مشكلة العدالة الاجتماعية، مشكلة الفقر والعوز؛ فحلَّها بهذه الفريضة، بل بهذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

جمع الإسلام الزكاة من أموال الأغنياء، الذي يملك كل واحد منهم نصيباً، سواء أكان هذا المال من الماشية وبهيمة الأنعام: الإبل أو البقر أو الغنم، أو كان من النقدين الذهب والفضة - والنقود الورقية في عصرنا - أو كان من عروض التجارة، أو من الزروع والثمار، وأعطاه للفقراء، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]. وقال في وصف المتقين المحسنين: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٥٦).

أنصبة الزكاة أنصبة عادلة:

أخذ الإسلام من هذه الأموال النامية الزكاة بالعدل وبالحق، وقدر في كل مال ما يلائمه، وما يناسب جهد صاحبه فيه؛ فالزرع الذي نبت بقدرة الله وتديره وسقي بماء السماء، فرض الإسلام فيه العشر؛ لأنَّ الإنسان لم يتعب بسقيه والقيام عليه، بل سقاه الله بالسماء، وأنماه من غير أن يكون للإنسان فضل في ذلك، إلَّا إلقاء الحب ثمَّ الاعتماد على الربِّ.

أمَّا الزرع الذي يتولَّى الإنسان سقيه بنفسه، عن طريق الحيوان أو الآلة، ويتكلَّف في تهيئة البيئة الصالحة لنموه جعل الإسلام فيه نصف العشر، والمال الذي يتعب الإنسان في كسبه بالتجارة، ويضرب في الأرض يبتغي من فضل الله، ومن رزقه الحلال جعل الإسلام فيه ربع العشر.

والكنز الذي يعثر عليه الإنسان في الأرض دون أدنى تعب ولا تقدير له جعل فيه الخمس. وهكذا راعى الإسلام المجهود وقدر للفقير حقه.

الزكاة تحفظ كرامة الفقير:

وقد جعل الإسلام الفقير يأخذ حقه المفروض في مال الغني وهو مرفوع الرأس، محفوظ الكرامة، مصون ماء الوجه؛ لأنَّه جاءه عن طريق الإمام وعن طريق ولي الأمر، وعن طريق المجتمع المتآخي المترابط كالبنيان المرصوص، فلم يثر فقير على غنيٍّ، ولم يستعلِ غنيٌّ على فقير، وعاش المجتمع بنعمة الله إخوانًا يضمُّهم المسجد، حيث يقف عبد الرحمن بن عوف بجوار أبي ذر الغفاري أو بلال الحبشي فلا أجناس ولا ألوان ولا طبقات ولا عمال ولا فلاحين

ولا أرباب الأموال. بل مؤمنون جمعهم الإسلام، وأخوة الإسلام، وكانوا بنعمة الله إخواناً.

حل الإسلام بهذه الفريضة مشكلة الفقر ومشكلة الطبقات، وأخذ من الأغنياء هذا الحق بكل ما استطاع من قوّة، ليضعه في أيدي أولئك الذين ذكرهم الله في كتابه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوجِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]. حل الإسلام مشكلة الفقر بذلك وخاصة يوم كان الإسلام إسلاماً، وكان أهله مسلمين حقاً، كان الكل يعمل، والكل يكسب، والكل إلا القليل عندهم ثروات. وكانت الزكاة تجمع حصيلة ضخمة، وكان الفقراء قليلين، فكانت الزكاة تُعطى بالمقدار الكبير، بحيث تحل مشكلة مستحقها.

ولهذا نجد الإمام النووي وغيره من أئمة الشافعية يقولون في الزكاة: يُعطى الفقير ما يغنيه على الدوام، أي ما يغنيه طوال عمره بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرّة أخرى^(١).

قالوا: فمن كان تاجراً وافتقر يُفتح له «دُكَّان» من جنس تجارته، وإن كان زارعاً تشتري له ضيعة، أو حصة في ضيعة أو مزرعة، يعمل فيها طول الحياة، ولا يمد يده بالسؤال مرّة أخرى.

وإن كان لا يحسن عملاً ولا حرفة يعطى المال الذي يكفيه عمر أمثاله، قالوا: يشتري له عقار يكره ويؤجره ويغله، فيأتي له دخل يكفيه. هذه هي الزكاة.

(١) انظر: روضة الطالبين للنووي (٣٢٥/٢)، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي،

بيروت، ط ٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

إنَّها ليست دُرَيْهَمَاتٍ أو حِفْنَاتٍ من الحبوب تعطى للفقير، ويظل طول الأبد محتاجًا فقيرًا.

إنَّما يريد الإسلام أن يحلَّ بالزكاة تلك العقدة عقدة الفقر، فمن كان قادرًا على عمل، أخذ من الزكاة ما يكفي لتوفير عمل له.

لو كان للمسلمين دولة ونظام يفرض جباية الزكاة، لاجتمع من تحصيلها أموال ضخمة، ثم بُنيت وأنشئت المصانع والمنشآت ليعمل فيها الفقراء القادرون، بحيث تكون باسمهم وملكا لهم، بموجب حصص وأسهم، ويعملون فيها باسم الزكاة.

ولو فعلوا ذلك ما احتاج النَّاس إلى المبادئ المخربة والمذاهب الهدامة، ولكن لم يفعل ذلك المسلمون.

وقد قال النبي ﷺ: «ليس المسكينُ الَّذي تردُّه التمرة والتمران، واللقمة واللقتان، ولكن المسكين الَّذي لا يجدُ غِنًى يُغنيه ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه، ولا يقوم فيسأل النَّاس»^(١).

وفي رواية أخرى: «إنَّما المسكينُ الْمُتَعَفِّف، اقرؤوا إن شئتم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]»^(٢).

فكم من أهل بيت يعتبرون من المساكين يستحقُّون الزكاة، كلُّ من لا يكفي دخله يعتبر من أهل الزكاة.

وكفاية الدخل معناها أن يعيش الإنسان وأهله وأولاده عيشة ملائمة معقولة كريمة، وإلا فهو مسكين، وإن لم يكن فقيرًا.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٣٩) (١٠٢)، عن أبي هريرة.

فكل مَنْ لا يجد مَنْ دخله تمام الكفاية له ولمن يعول فهو من المساكين الذين يستحقون الزكاة.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته في الأقاليم أن اقضوا الدين عن الغارمين. فبعث إليه بعضهم يقول: يا أمير المؤمنين، إننا نجد الرجل له الدار وله الفرس وله الخادم وله الأثاث في بيته، ومع ذلك هو غارم، فهل يستحق شيئاً من الزكاة؟ فبعث إليهم يقول: إنه لا بدّ للمرء المسلم من دار يسكنها، ومن أثاث في بيته، ومن خادم يخدمه، ومن فرس يجاهد عليه عدوّه، اقضوا عنه الدين فإنه غارم^(١).

الرجل الذي تصيبه آفة تأكل زرعه، أو يُحرق بيته، أو يذهب السيل بماله، أو تصيبه مصيبة في تجارته فيفلس.. مثل هذا يكون من الغارمين - كما جاء عن السلف الصالح - ويستحق سهماً من الزكاة.

الزكاة ليست صدقة تبرع يُمتنُّ بها، بل هي فريضة لازمة، وضريبة حتمية تتولاها الأمة ممثلة في إمامها ودولتها.

ولهذا، كان كبار الناس وزعماءهم يأتون إلى رسول الله ﷺ يسألونه من الصدقة معونة.. حيث أصبحوا ذوي دين، أو غرموا في أمور معينة لمصلحة المجتمع، فتسد هذه المغارم، وتلك الديون من الزكاة.

المال مال الله:

هذه هي فريضة الزكاة، وتلك هي وظيفتها في المجتمع الإسلامي. ولكن المسلمين - للأسف - غفلوا عن هذا الركن، وشح أغنيائهم بحق الله، وظنوا أن المال الذي في أيديهم مالهم، مع أنهم في الحقيقة

(١) سبق تخريجه ص ٢٤٨.

أمناء ووكلاء على هذا المال، والمال مال الله، هو الذي خلقه، وهو الذي أنشأه، وهو الذي رزقه، وهو الذي يَسِّر السبيل إلى اكتسابه، وهو الذي أعطاهم العافية والقوة لتحصيله، وهو الذي فجَّر الأرض أنهاراً، وأنزل من السماء ماءً طهوراً، وهو الذي خلق كل شيء ووهب كل شيء.

فماذا للإنسان في هذا المال؟

إذا زرع الإنسان زرعاً وأنبت حبّاً، فمن في الحقيقة صاحب هذا الزرع؟!

﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

الله هو صاحب الفضل في ذلك كله، هو الذي أنزل الماء، والذي هيأ للنبات في تربة الأرض الجو الملائم، وهيأ من قوانين الطبيعة غذاء الحب، وأودع في الأرض عناصر معلومة موزونة حتّى ينمو النبات، ويستوي على سوقه، ثم يزهر، ثم يثمر. الله وَجَّكَ هو صاحب هذا الزرع في الحقيقة.

فإذا قال لك: ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ، يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]؛ فإنَّ الله يطلب أن تعطي من ماله لعباده.

التاجر الذي يكسب من تجارته، مَنْ الذي هيأ لسفنه في البحر أن تُقلع من بلاد إلى أخرى كالأعلام، تحمل البضائع، وتنقل التجارات؟ مَنْ الذي فعل هذا؟ إنَّه الله الذي ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

ولهذا يقول الله وَجَّكَ في المكاتبين: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. ويقول: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].



فَأَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ وَكِيلٌ عَلَى الْمَالِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَغْنِيَاءَ حِينَ شَحُّوا بِهَذَا الْقَلِيلِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِمْ - وهو ربع العشر - كانت النتيجة الحسد والبغضاء والصراع الذي تلاقيه شعوب الإسلام اليوم والثورات والانقلابات الهدامة ودعاة التخريب والفوضى في مجتمعاتنا، كل هذا عقاب من القدر، لأثرياء الأمة وأغنيائها وأصحاب الأموال فيها.

جاءهم من لا يكتفي بخمسة ولا بعشرة ولا بعشرين ولا بخمسين، بل جاء من يصادر أموالهم، ويأخذها منهم أخذًا، جزاءً على ما شَحُّوا، وعلى ما أسرفوا في جنب الله، ولو اتَّبَعُوا شَرَعَ الله، ونَفَّذُوا قَانُونَ الله، وحكم الله، ما كانت هذه المذاهب الباطلة.

فالدواء لدائنا، والمرهم لجراحنا، والحل لعُقْدنا ومشكلاتنا أن نعود إلى الإسلام، نستفتيه ونحتكم إليه وننفذ شرعه.

يجب على المسلمين أن يتنادَوْا بِالزَّكَاةِ زَكَاةَ النُّقُودِ الْمُدْخَرَةِ وَالتَّجَارَاتِ، وَزَكَاةَ الْأَنْعَامِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْأَغْنَامِ، وَزَكَاةَ الزَّرْعِ، وَأَنْ يَاقُمُوا فِيهِمْ أَهْلُ الرَّأْيِ، فَيَجْمَعُوا هَذِهِ الزَّكَاةَاتِ مِنْ كُلِّ مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْفِقُونَهَا فِي مَصَارِفِهَا الشَّرْعِيَّةِ.

ما نقص مال من صدقة:

لَقَدْ أَقْسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنَّهُ مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ^(١)، لَا تَظُنُّوا

(١) رواه أحمد (١٦٧٤)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. والبزار (١٠٣٣)، وأبو يعلى (٨٤٩)، والطبراني في الأوسط (٢٢٧٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٥٧٧): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه رجل لم يسم، وله عند البزار طريق عن أبي سلمة عن أبيه، وقال: =

أَنَّ الصَّدَقَةَ تَنْقُصُ الْمَالَ، وَلَا تَظُنُّوا الزَّكَاةَ تَنْقُصُ الْمَالَ، لَا وَاللَّهِ، إِنَّهَا لَتَنْمِيهِ وَإِنَّهَا لَتُبَارِكُهُ، عَرَفُوا ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فهل نصدّق وعد الشيطان، أم نصدّق وعد الرحمن؟!

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ويقول النبي ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»^(١).

فالمنفق له خلف وله فضل، وعدًا من الله ورسوله، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

والممسك البخيل الشحيح له التلف: في ماله، في ذريته، في صحته، في دينه. له التلف كل التلف، إن لم يتداركه الله برحمته فيتوب من قريب.

يا جماعة المسلمين، هذه هي فريضة الزكاة، فلنحرص عليها، وليحاسب كلُّ منا نفسه في كل حين، وليجعل له يومًا في رأس كل عام هجري، يخرج فيه زكاته، عسى الله ﷻ أن يبارك له في ماله، ويبارك له في أهله، ويبارك له في نفسه.

= إنَّ الرواية هذه أصح. وقال الألباني في صحيح الترغيب (٨١٤): صحيح لغيره. عن عبد الرحمن بن عوف.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فضل صدقة التطوع:

وبعد أن بين النبي ﷺ لمعاذ بن جبل فضل الصوم وأثره الطيب في نفس صاحبه، بقوله: «الصوم جنة».

دلّه بعد ذلك على باب آخر من أبواب الخير وهو الصدقة، وذلك بقوله ﷺ: «والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار».

وأي إنسان تنزه عن الخطيئة؟!

وأي إنسان يدعي لنفسه العصمة والحفظ؟!

وأي بشر يزعم أنه ملك مقرب، وأن حياته كلها طهر في طهر؟! لا يستطيع إنسان أن يزعم ذلك، فكل إنسان يتورط في الخطايا، ويقع في المعاصي، وكل بني آدم خطاء^(١). كما قال رسول الله ﷺ.

ولكن الله لم يدع الإنسان دون عناية منه، ومساعدة من لدنه، بأمر تطهر من خطاياهم، وتكفر عنه سيئاته، وتغسله من ذنوبه، ومن هذه الأمور: الصدقة.

وكأن الخطيئة لهب ووقود يأكل الأخضر واليابس، وكأن الإنسان يوشك أن تأكله نار خطاياهم، فهو في حاجة إلى «مضخة إطفاء»، فدلّه الرسول ﷺ على هذه الوسيلة التي تطفى هذا الحريق، وتطفى ذلك اللهب، وهي الصدقة، إنها تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار.

(١) سبق تخريجه ص ١٢٧.

شروط قبول الصدقة:

ولكن أي الصدقات تلك التي يقبلها الله وَعَلَيْكَ، وتطفئ الخطايا وتكفر السيئات؟!

إنَّ الصدقة المقبولة، لا بدَّ لها من شروط.

أن تكون من مال حلال:

أول هذه الشروط: أن تكون من مال طيب حلال؛ فالمال الخبيث والحرام لا يقبله الله وَعَلَيْكَ، فإنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإنَّ الخبيث لا يمحو الخبيث، إنَّ مثل الذي يتصدَّق بالمال الحرام ليتطهر به من الذنوب كمثل الذي يغسل القاذورات بالبول.

المال الحرام لا يمكن أن يطهَّر صاحبه، والذي يجمع ماله من سحت؛ نهب أو رشوة أو استغلال نفوذ أو أكل أموال اليتامى ظلماً وعدواناً، أو من الفوائد الربوية، أو من الغش في التجارات، ومن إغلاء الأسعار على المسلمين.. ومن غير ذلك من طرق الكسب غير المشروع، ثمَّ يحاول أن يبني به مسجداً، أو يقيم به مشروعاً خيرياً، أو يتصدق به على الفقراء، كأنه يخدع الله وَعَلَيْكَ، وحاشاه.

لا، لا، يا هذا!

بنى جامعاً لله من غير حلِّه فكان بِحَمْدِ الله غَيْرَ مُوَفَّقٍ
كُمُطْعِمَةِ الْيَتَامِ مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا لك الويلُ لا تزني ولا تتصدَّقِي^(١)

(١) ذكره من غير نسبة المقرري في المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٢٧٦/٤)، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

إنَّما يقبل الله الصدقة من المال الطيب، من المال الحلال، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(١).

وإذ يقول: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طَهْوَرٍ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ»^(٢). والغلول هو الخيانة في المال العام، كالسرقة من مال الدولة، ومال المسلمين، وكل صدقة من حرام لا يقبلها الله.

وقد حلف النبي ﷺ فقال: «لَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيَنْفَقَ مِنْهُ، فَيُبَارِكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ، فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ»^(٣).

فأول شروط الصدقة المقبولة أن تكون من مال حلال.

إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَقُولُ لِمَنْ كَسَبُوا أَمْوَالَهُمْ مِنْ حَرَامٍ: تَصَدَّقُوا. وَلَكِنْ يَقُولُ لَهُمْ: رَدُّوا الْأَمْوَالَ الَّتِي فِي أَيْدِيكُمْ إِلَى أَصْحَابِهَا، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ أَمْوَالَكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنْ وَضَعْتُمْ عَلَيْهَا أَيْدِيَكُمْ، وَطَالَ بِهَا الزَّمَنُ، وَانْقَضَتْ الْعُصُورُ، فَإِنَّ مَضِيَّ الزَّمَنِ فِي الْإِسْلَامِ لَا يَحِلُّ الْحَرَامَ، وَلَا يَبِيحُ الْمُحْظُورَ، وَلَا يَسْلُبُ السَّرْقَةَ صِفَتَهَا الْأُولَى، وَلَا يُضْفِي عَلَيْهَا صِفَةَ الشَّرْعِيَّةِ أَبَدًا.

القوانين الوضعية تقول: إذا دام الملك في يد الإنسان مدة ما، جعل هذا الملك لمن وضع يده عليه.

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٤)، وأحمد (٤٧٠٠)، والترمذي في الطهارة (١)، عن ابن عمر.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٢.

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَلَا يَقْبَلُ هَذَا أَبَدًا، الْحَرَامُ لَا يَنْقَلِبُ حَلَالًا، وَإِنْ طَالَ عَلَيْهِ الزَّمَنُ.

هذا هو الشرط الأول.

أَلَّا يُضَيِّعَ بِالصَّدَقَةِ حَقًّا وَاجِبًا عَلَيْهِ:

أَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي: فَهُوَ أَلَّا يُضَيِّعَ بِالصَّدَقَةِ حَقًّا وَاجِبًا عَلَيْهِ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَدَّقَ صَدَقَةً تَطَوُّعًا، وَهُوَ لَمْ يُوَدِّ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَطَوَّعَ بِالصَّدَقَاتِ وَعَلَيْهِ حُجٌّ مَفْرُوضٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَطَوَّعَ بِالصَّدَقَةِ، وَعَنْقَهُ مَغْلُولٌ بِالذَّيْنِ لِلْعِبَادِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَطَوَّعَ بِالصَّدَقَةِ وَعِيَالَهُ مُحْتَاجُونَ لِلنَّفَقَةِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»^(١).

فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَطَوَّعَ بِالصَّدَقَاتِ، وَيُضَيِّعَ حَقًّا وَاجِبَةً عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ النَّافِلَةَ حَتَّى تَوْدَى الْفَرِيضَةُ، وَيَقْدَمَ الْأَهَمُّ عَلَى الْمَهْمِ، وَيَقْدَمُ الْمَهْمُ عَلَى غَيْرِ الْمَهْمِ.

وَتَفْرِغُ ذِمَّةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ لِلَّهِ تَعَالَى أَوْ لِعِبَادِ اللَّهِ، هُوَ وَاجِبُهُ الْأَوَّلُ.

هذا هو الشرط الثاني.

الْإِخْلَاصُ:

وَالشَّرْطُ الثَّلَاثُ: الْإِخْلَاصُ، أَنْ يَحَرَّرَ نِيَّتَهُ مِنَ الرِّيَاءِ، فَلَا يَتَصَدَّقُ مِثْلًا لِيُقَالَ عَنْهُ: مَا أَبْسَطَ يَدَهُ! وَمَا أَجُودَهُ! وَمَا أَكْرَمَهُ!

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، عن أبي هريرة.

ولهذا يجود بالخير إذا رآه النَّاسُ، أو تحدّثت عنه المجالس أو الصحف أو نحو ذلك، فإذا كان بينه وبين ربه، ولم يره أحد كفَّ يده.

الرياء يحبط الأعمال ولا يجعل لها عند الله ثوابًا، بل إنّ المرأين هم أوّل من تسعّر بهم النَّار يوم القيامة، من قاتل ليقول عنه الناس: إنّهُ شجاع، ولم تكن نيته لنصرة الإسلام، ومن تعلّم العلم وعلم ليقول النَّاس عنه: إنّهُ عالم، ولم تكن نيته نفع النَّاس، ومن تصدّق ليقول النَّاس عنه: إنّهُ سخيّ كريم^(١).

هؤلاء هم أوّل من تأكلهم نار جهنم، وأوّل من توقد بهم النَّار التي وقودها النَّاس والحجارة.

وهذا ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، فلا بدّ للمسلم إذا أراد الصدقة أن يحرّر نيته، وأن يعرف: لمن يتصدّق، لله أم للناس؟

فإذا رأى نفسه يتصدّق للنَّاس فليكفّ يده، ولينتظر وقتًا آخر، فإنَّ الله لا يقبل العمل إلّا إذا كان خالصًا لوجهه، ولهذا إنّما يقبل الله النفقة إذا كانت لله وفي سبيل الله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. لا في سبيل السمعة أو الرياء، أو الفخر، أو المباهاة، أو العجب، أو ثناء النَّاس ومدحهم له، فذلك ليس في سبيل الله، وإنّما هو في سبيل الطاغوت، هذا هو الشرط الثالث.

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، وأحمد (٨٢٧٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٢)، عن أبي هريرة.

أَلَّا يَتَّبِعَهَا بِمَنْ وَلَا أَدَى:

والشرط الرابع: أَلَّا يَتَّبِعَهَا بِمَنْ وَلَا أَدَى. فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَتَصَدَّقُ مِنْ مَالٍ حَلَالٍ، وَلَا يَضِيعُ حَقًّا وَاجِبًا بِالْصَّدَقَةِ، وَحِينَ يَتَصَدَّقُ لَا تَكُونُ نِيَّتُهُ مِرَاءَةَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَبْطُلُ تِلْكَ الصَّدَقَةُ، وَيَخْسِرُ ثَوَابَهَا.

وكيف ذلك؟

بأن يتبع صدقته باليمن والأذى، بأن يمنَّ على مَنْ تَصَدَّقَ عليه، ويظهر له أنَّه صاحب الفضل، وأنَّه الَّذِي أعطاه يوم كذا وسنة كذا، هذا هو المَنَّ.

والأذى أن يجرح شعوره، بالكلام السيِّئ، بإظهار التكبر عليه، بمحاولة استخدامه في مقابلة ما تَصَدَّقَ عليه.

كل هذا أذى، وليس الأذى هو أذى البدن فقط، بل إيذاء النفس أشدَّ من إيذاء البدن.

جَرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا التِّئَامُ وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ^(١)

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَدَىٰ ۖ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]. ثُمَّ يَقُولُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

لذا كان على المسلم أن يترك المَنَّ والأذى، وألَّا يرتكب ما يحبط عمله ويبطل ثوابه، فيكون من الخاسرين.

(١) ذكره الثعالبي ولم ينسبه في اللطائف والظرائف ص ١٠٤، نشر دار المناهل، بيروت.

وهذا من عناية الإسلام بالفقراء، فهو لا يريد أن يُطعموا فقط من جوع، وأن يُكسوا من عُري، ثم يهانوا. لا، بل الإسلام يصون للفقير كرامته كما يحفظ له حقّه.

هذه هي شروط الصدقة المقبولة عند الله ﷻ.

تفاوت أجر الصدقات:

والصدقات المقبولة تتفاوت درجاتها، وتتفاضل مراتبها، فبعض الصدقات أفضل من بعض.

إنّها تتفاضل بحسب المتصدّق عليه، يقول النبي ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي القربة اثنتان: صلةً وصدقة»^(١). أي إنّ الفقير الغريب، الصدقة عليه صدقة فقط لها أجر واحد، ولكنّ الصدقة على المسكين القريب فيها أجران: أجر الصدقة، وأجر صلة الرحم. وخاصة إذا كان بينك وبين هذا القريب ضرب من العداوة. ففي الحديث: «أفضل الصدقة، الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^(٢). أي المضمّر للعداوة، لأنّك في هذه الحالة لا تكافئ إحساناً بإحسان، وإنّما تتصدّق هنا لله، وللصلة، لا لشيء آخر.. حتّى ولو كان بينك وبينه عداوة.

كذلك إذا كان المسكين شديد الحاجة، فكلمّا اشتدت حاجته، كانت الصدقة عليه أفضل.

فعلى من يريد الصدقة أن يبحث عن أكثر النّاس حاجة إليها فيعطيه.

(١) رواه أحمد (١٦٢٢٧)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح لغيره. والترمذي (٦٥٨) وقال: حسن.

والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، ثلاثهم في الزكاة، عن سلمان بن عامر الضبي.

(٢) رواه أحمد (٢٣٥٣٠)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. والطبراني في الكبير (١٣٨/٤)،

والأوسط (٣٢٧٩)، عن أبي أيوب الأنصاري.

قد قال الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً * أَوْ
إِطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

يتيمًا ذا مقربة أي بينك وبينه قرابة، ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] أي
يده والتراب. خفقت يده بالأرض، فليس معه شيء يقيه من التراب، فهذا
الصنف من الفقراء الذين اشتدت حاجتهم تكون الصدقة عليهم أفضل.

ثم تتفاضل الصدقة أيضًا بحسب المتصدق نفسه، فالذي يتصدق
وهو صحيح أفضل ممَّن يتصدق وهو على حافة الموت، سئل النبي ﷺ:
أي الصدقة أفضل؟ فقال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ، تخشى الفقر
وتأمل الغنى، ولا تُمهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ
كَذَا. وقد كان لِفُلَانٍ»^(١).

كذلك من يتصدق وماله قليل، أفضل ممَّن يتصدق وماله كثير، فقد
قال النبي ﷺ: «سَبَقَ دَرَاهِمُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ».

فعجب الصحابة من ذلك، فسألوه، فقال: «كَانَ لِرَجُلٍ دَرَاهِمَانِ، فَأَخَذَ
أَجُودَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفٍ
فَتَصَدَّقَ بِهَا»^(٢).

فالذي يتصدق بأحد درهميه وهو في أشد الحاجة إليها، ولا يملك
سواهما، خير من ذلك الذي عنده مال كثير فتصدق منه؛ لأنه مهما
تصدق فهو في سعة ويسر، ولا يتأثر ماله بالصدقة التي يخرجها منه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه النسائي (٢٥٢٧)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده
حسن. والحاكم (٤١٦/١)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، جميعهم في الزكاة،
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٣)، عن أبي هريرة.

كذلك تتفاوت الصدقة وتتفاضل بحال التصدق نفسه، فصدقة السرّ أفضل من صدقة العلانية، فإنّ العلانية قد يدخلها الرياء، وقد يشوبها العُجب، أمّا صدقة السرّ فبريئة من ذلك.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقال ﷺ: «إِنَّ صَدَقَةَ السَّرِّ لَتُطْفِئَ غَضَبَ الرَّبِّ»^(١).

وفي السبعة الذين يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: «رجل تصدّق بصدقة فأخفاها، حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٢). وهذا كناية عن المبالغة في الإخفاء.

وفي حديث رواه الترمذي عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ حِينَما خَلَقَ الْجِبَالَ عَجِبَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ شِدَّتِهَا، فَقَالُوا: يَا رَبِّ، هَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الْجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْحَدِيدَ. قَالُوا: هَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الْحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، النَّارَ. قَالُوا: فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْمَاءَ. قَالُوا: فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الْمَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الرِّيحَ. قَالُوا: فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ابْنُ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ الصَّدَقَةَ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ»^(٣).

فهذه هي القوّة النفسيّة، والقوّة الروحيّة، إنّها أشد من قوى الطبيعة.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٤٢١/١٩)، والأوسط (٩٤٣)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب

(١٥/٢): رواه الطبراني في الكبير وفيه صدقة بن عبد الله السمين ولا بأس به في الشواهد.

وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٨): حسن لغيره. عن معاوية بن حيدة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٢٢٥٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في التفسير (٣٣٦٩)، وقال:

حديث غريب. وأبو يعلى (٤٣١٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٤٧٧٠)، عن أنس.

إِنَّ قُوَّةَ الْإِنْسَانِ حِينَ يَخْلُصَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، وَيَحْرَّرَ نِيَّتَهُ لِلَّهِ، وَيَجْرِدَ عَمَلَهُ لِلَّهِ، أَقْوَى مِنْ كُلِّ مَا فِي الْوُجُودِ.

أَقْوَى مِنَ الْجِبَالِ عَلَى شُمُوحِهَا وَشِدَّتِهَا وَارْتِفَاعِهَا، أَقْوَى مِنَ الْحَدِيدِ الَّذِي يَقْطَعُ الْجِبَالَ، وَأَقْوَى مِنَ النَّارِ الَّتِي تَصْهَرُ الْحَدِيدَ، وَأَقْوَى مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يَطْفِئُ النَّارَ، وَأَقْوَى مِنَ الرِّيحِ الَّذِي يَسُوقُ الْمَاءَ، أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، الْقَلْبُ الْإِنْسَانِي الْمُؤْمِنُ الْمَخْلُصُ الَّذِي يَتَصَدَّقُ الصَّدَقَةَ بِيَمِينِهِ، فَيَخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ.

ثُمَّ تَتَفَاوَضُ الصَّدَقَةُ أَيْضًا بِحَسَبِ الزَّمَانِ؛ فَفِي زَمَانِ الْمَجَاعَاتِ، حَيْثُ يَكُونُ الْغَلَاءُ وَالْكَرْبُ وَالضِّيقُ عَلَى النَّاسِ، تَكُونُ الصَّدَقَةُ أَفْضَلَ.

وَقَدْ مَرَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤ - ١٦].

فَبَيْنَمَا يَسْتَغْلُ بَعْضُ النَّاسِ زَمَنَ الْمَجَاعَاتِ لِيَحْتَكِرَ وَيُغْلِي عَلَى النَّاسِ، وَيَكْسِبُ الْأَرْبَاحَ الطَّائِلَةَ وَالثَّرَوَاتِ الضَّخْمَةَ، يَكُونُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ سَخِيًّا جَوَادًّا، يَطْعَمُ الْجَائِعَ، وَيُغِيثُ الْمَلْهُوفَ، وَيَقْرِي الضَّعِيفَ، وَيَكُونُ عَوْنًا لِلْيَتِيمِ الْقَرِيبِ، أَوْ الْمَسْكِينِ الْغَرِيبِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّدَقَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، أَفْضَلُ مِنْ سِوَاهَا فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى.

وَفِي بَعْضِ الْأَزْمَنَةِ كَرَمَضَانَ، الصَّدَقَةُ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ فِي غَيْرِهِ، وَالنَّافِلَةُ فِيهِ كَفَرِيضَةٍ فِي غَيْرِهِ، وَالْفَرِيضَةُ فِيهِ كَسَبْعِينَ فَرِيضَةً فِي سِوَاهِ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي

رمضان حتى ينسلخ، فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة^(١).

حرص السلف على الصدقة:

وقد كان سلفنا الصالح يحرصون لا على الصدقة فقط، بل يحرصون على أن يكون لهم أفضل أنواع الصدقة، ليكسبوا بذلك أعظم أجر وأكبر ثواب من الله ﷻ.

لم يحرصوا على المال حرصنا عليه اليوم، ولم يشحوا به شحنا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ. قَالَ: «نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ». قَالَ: أُرْنِي يَدَكَ. فَنَاولَهُ يَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي (بِسْتَانِي)، وَفِي حَائِطِي سِتْمِائَةُ نَخْلَةٍ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْحَائِطِ فَنَادَى: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ. وَهِيَ فِي الْحَائِطِ، فَقَالَتْ: لَبَّيْكَ. فَقَالَ: أَخْرَجِي فَقَدْ أَقْرَضْتَهُ رَبِّي^(٢).

وكان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، فكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨).

(٢) رواه البزار (٢٠٣٣)، وأبو يعلى (٤٩٨٦)، والطبراني (٣٠١/٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧٩٢): رواه أبو يعلى، والطبراني، ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. وانظر: تفسير ابن كثير (١/٦٦٢ - ٦٦٣)، عن ابن مسعود.

تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرِحاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي ﷺ: «بَخ، ذلك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابح، وقد سمعتُ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعَل يا رسول الله. قال أنس بن مالك راوي الحديث: فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه^(١).

وبَيْرِحاء اسم حديقة له كانت تغلُّ له الثمر الكثير، فكانت أحبَّ أمواله إليه.

لقد كان بين الصحابة وبين هذا القرآن تجاوب عميق، فلم يكونوا يتلقَّونه للتسلِّي أو للتغني أو للمتعة بمقاماته وموسيقاه، بل يتلقونه للتنفيذ والتطبيق العملي في الحياة والمجتمع، وفي أمور الدُّنيا والدين. هكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم.

لقد كان بعضهم من أصحاب الأموال والأثرياء لا تجب عليه الزكاة! رغم كثرة ما يدخل عليهم من مال! وذلك لأنَّهم لم يكونوا يدعون هذه الأموال تتراكم حتَّى يحول عليها الحول، هكذا قالوا عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان من أعظم أثرياء المسلمين، وعن الإمام الليث بن سعد أحد الأئمة، وهو يقارن بمالك في الفقه.

فقد ورد أنَّ امرأةً جاءت تسأله شيئاً من العسل، فأعطاه زِقاً مملوءاً عسلاً، فلامه بعض النَّاس فقال لهم: يا قوم، إنَّها تطلب على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا^(٢).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الوكالة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، عن أنس بن مالك.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٥٠/٣).

ولامه بعض جلسائه على كثرة الصدقة فقال: دعوني من كلامكم، إن الله عودني عادةً وعودتُ عباده عادة، عودني أن يعطيني، وعودت عباده أن أعطيهم، فأخشى إن قطعت عادتي عن عباده، أن يقطع الله عادته عني. هؤلاء هم الذين آمنوا بوعد الرحمن ولم يصدقوا وعد الشيطان، وقد وعدهم الله مغفرةً منه وفضلًا، فما افتقروا ولا نقصت أموالهم فما نقص مال من صدقة، لا والله، لا تُنقص الصدقة المال، بل تزيده وتباركه وتنميّه. وصدق الله العظيم: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فيا جماعة المسلمين، دَعُكم من الدنيا وزخرفها، ولا تحرصوا على المال كل هذا الحرص، ولا تشحُّوا به كل هذا الشح الذي أهلك الناس اليوم، وأهلك من كان قبلنا. جودوا بالمال، وتصدقوا به، وأقرضوا الله قرضًا حسنًا؛ يكن ذلك لكم في موازينكم يوم القيامة، ولا تحقروا من المعروف شيئًا، فكل معروف صدقة، وكل قرض صدقة، ومن لم يستطع أن يتصدق بالمال لفقره، فقد دلّه الرسول ﷺ على ألوان من الصدقات: إمطة الأذى عن الطريق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمشي إلى المسجد، والكلمة الطيبة، كل ذلك صدقات مفتحة أبوابها أمام كل إنسان، وتبشُّمك في وجه أخيك صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق السوي صدقة، ونظرك للرجل الضعيف النظر صدقة، وغير ذلك كثير، ممّا هو ميسور للفقير الذي لا يجد المال لكي يتصدق، أمّا من يجد المال فلا يبخلن به، فإنّه ما نقص مال من صدقة، والله تعالى وعد المنفق بالخلف، وزيادة الفضل عنده: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]، ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

رأس الأمر وعموده وذروة سنامه:

بعد أن بيّن الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل، أبواب الخير، قال له: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

رأس الأمر الإسلام:

وقد جاء في رواية أخرى: «رأس هذا الأمر شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله»^(١).

فهذه الكلمات الخفيفة على اللسان، الثقيلة في الميزان، الحبيبة إلى الرحمن، هي مفتاح هذا الإسلام ورأسه وبابه وعنوانه.

فمن أقرّ بهما ظاهرًا وباطنًا فقد دخل باب الإسلام، ومن أقرّ بهما ظاهرًا، ولكنه كذّبهما باطنًا، فهو منافق، ممّن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

فرأس الأمر الإسلام، أن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله، ويشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

وعموده الصلاة:

ثم عمود هذا الدين، هو الصلاة.

وقد اشتهر بين المسلمين: الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

(١) رواه البزار (٢٦٦٩).

وقد تحدّث النبي ﷺ عن الصلاة في أوّل الحديث فقال لمعاذ: «أنّ تعبد الله... وتقيم الصلاة». ثمّ عاد فكرّر هنا أمر الصلاة، لأهميّة هذا الركن من أركان الإسلام، فهو الفريضة اليوميّة التي تبيّن المسلم من غير المسلم، إنّها المحكّ الذي يمتحن به إيمان العبد، ويعرف أهو في زمرة المؤمنين أم ليس في زمرة المؤمنين.

الصلاة هي الفيصل بين المسلم والكافر.

إنّ النّاس اليوم تهاونوا في أمر الصلاة، ولو دقّقوا فيها، وحافظوا عليها، وعاملوا النّاس على أساسها، لأصبح تارك الصلاة لا يجد له مكاناً في مجتمع المسلمين.

لو كان كل صاحب مؤسسة لا يوظف عنده تارك الصلاة، وكل رجل لا يبقى على ذمته امرأة تاركة الصلاة، وكل إنسان يقطع حبال ومودة كل تارك للصلاة، وكل تاجر يقاطعه النّاس ولا يتعاملون معه إذا كان تاركاً للصلاة، وكل صاحب حرفة من الحرف يقاطعه النّاس، ولا يقبلون عليه إذا كان تاركاً للصلاة.

لو حدث هذا، لأجبرنا تارك الصلاة على أن يصلي، ولكن كلّ يقول: نفسي نفسي!

المصليّ يكتفي بأنّه يصلي، ولا يستشعر المسؤولية عن غيره. وهذا خطأ. فإنّ المجتمع متكافل، بعضه مسؤول عن بعض، ولهذا يخاطب الله المؤمنين فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أنّ المسلمين جميعاً أسرة، يُسأل كل واحد منها عن الآخر.

وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ:

ثم يتابع النبي ﷺ حديثه فيقول: «وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ». والمعروف أَنَّ السَّنَامَ هو أعلى شيء في الجمل، وأعلى السنام ذروته، كذلك أعلى الأعمال مكانة عند الله وأعظمها منزلة وأرقاها درجة: الجهاد.

فالجهاد أرقى الأعمال الصالحة، وأرفعها منزلة.

وقد جاء في بعض الأحاديث أَنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «أَنْ يُسَلِّمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ وَرَبِّكَ، وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ». قال: فأَيُّ الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان». قال: وما الإيمان؟ قال: «تَوْمَنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ». قال: فأَيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «الهجرة». قال: فما الهجرة؟ قال: «أَنْ تَهْجُرَ السُّوءَ». قال: فأَيُّ الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد». قال: وما الجهاد؟ قال: «أَنْ تَقَاتِلَ الْكُفَّارَ إِذَا لَقَيْتَهُمْ». قال: فأَيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَنْ عَقَرَ جَوَادَهُ وَأَهْرَيْقَ دَمَهُ»^(١).

فهذا هو أعلى شيء في هذه السلسلة كلها.

ولهذا سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم آتني أفضل ما آتيت به عبادك الصالحين. قال: «إِذَنْ يَعْقُرَ جَوَادَكَ، وَيَهْرَاقَ دَمَكَ»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧٠٢٧)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٤)، وقال

الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير بنحوه، ورجاله ثقات. وصحّحه الألباني بشواهده في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٣)، عن عمرو بن عبسة.

(٢) رواه البزار (١١١٣)، وأبو يعلى (٧٦٩)، وابن خزيمة في الصلاة (٤٥٣)، والحاكم في الإمامة

وصلاة الجماعة (٢٠٧/١)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٥٢٥): رواه أبو يعلى والبزار بإسنادين وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح خلا محمد بن مسلم بن عائذ وهو ثقة. عن سعد بن أبي وقاص.

حتى الحصان أصابته من هذه الدعوة نفحة.. فلو كان حصاناً يجر
عربة لعاش طويلاً، أمّا حصان المجاهد فيصيبه ما يصيب صاحبه، فهذا
يستشهد وهذا يعقر.. وذلك أعلى ما يتطلع إليه الناس: أن يموت الإنسان
في سبيل الله، فيغفر له بأول قطرة من دمه، ويكون حياً عند ربه يرزق،
﴿وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾
[البقرة: ١٥٤]، وفي الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
مِائَةَ دَرَجَةٍ، كُلُّ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

وسئل النبي ﷺ: يا رسول الله دُلّني على عملٍ يعدل الجهاد؟ قال:
«لا أجده». قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم
ولا تفتر، وتصوم ولا تُفطر؟». قال: ومن يستطيع ذلك^(٢)؟
هذه المعاني هي التي جعلت الصحابة والسلف الصالح يحرصون
على أن يكون لهم نصيب من الجهاد، وحظ من إعلاء كلمة الله.

كانوا يدعون بيوتهم ومسقط رؤوسهم وبلادهم، ويذهبون ليقيموا في
الثغور، أي في المدن التي على حدود الكفار، فإنّ الأمن فيها يكون أقلّ،
واحتمال الهجوم من الأعداء يكثر، وهم معرضون لأن يُقاتلوا وأن يُهاجموا.
وفي الحديث: «رباطٌ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدُّنيا وما عليها،
وموضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما عليها، والغدوةُ
يغدوها العبدُ في سبيل الله أو الروحة، خيرٌ من الدُّنيا وما عليها»^(٣).

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وأحمد (٨٤١٩)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٨)، عن
أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٨١)، عن سهل بن سعد.

وفي غزوة بدر سمع عُمير بن الحُمَام رسولَ الله ﷺ يُحَمِّسُ الصحابة، ويشدُّ من عزائمهم، ويقول: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

فقال عمير: بخ بخ! فقال له النبي ﷺ: لم تبخ بخ يا ابن الحمام؟ قال: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أتقدم فأقاتل فيقتلني واحد من هؤلاء؟ قال: «بلى، ليس بينك وبين الجنة إلا ذاك».

وكانت بيده تمرات يلوكها ويأكل منها. فقال: أأعيش حتى آكل هذه التمرات؟ إنها لحياة طويلة.

وألقي التمرات من يده، وخاض غمار المعركة يقاتل وهو يقول:
رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلُ الْمَعَادِ
وَالصَّبْرُ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرُ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ
وَمَا زَالَ يقاتل حتى قُتِلَ^(١).

وفي غزوة أحد كان هناك من الصحابة رجل اسمه: عمرو بن الجموح، لم يشهد بدرًا، وكان أعرج، فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى أحدٍ منعه بنوه من الخروج، وقالوا: قد عذرك الله، وبك من الزَّمانة ما بك. فأتى عمرو رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن بنيي يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك إلى هذا الوجه، والله إنني لأرجو أن أظا

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٥٦٥/٣).

بِعَرْجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ عَذَرَكَ اللَّهُ وَلَا جِهَادَ عَلَيْكَ». ثُمَّ قَالَ لَبْنِيهِ: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ». فَخَلُّوا عَنْهُ. قَالَتْ امْرَأَتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ حِرَامٍ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُؤَلِّيًا قَدْ أَخَذَ دَرَقَتَهُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِ خُرَبَى. وَهِيَ مَنَازِلُ بَنِي سَلِمْةَ^(١).

هُوَ يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ وَيَتَمَنَّاها وَيَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَلَّا يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ وَدِيَارِهِ. وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ لَهُ مَا أَرَادَ، وَقَضَى شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ، يَخُوضُ فِي الْجَنَّةِ بِعَرْجَتِهِ»^(٢).

وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ أَبْنَاؤُهُ أَنْ يَرُدُّوهُ قَالَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ أَطَّأَ بِعَرْجَتِي هَذِهِ الْجَنَّةَ.

وَكَذَلِكَ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ وَأَبُوهُ خَيْثَمَةُ، تَنَافَسَا عَلَى الْخُرُوجِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَأَفْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمَا، فَكَانَتِ الْقُرْعَةُ مِنْ نَصِيبِ سَعْدٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ خَيْثَمَةُ: يَا سَعْدُ، أَثَرَنِي بِهَا أَنَا أَبُوكَ، وَلِي عَلَيْكَ حَقٌّ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَبْتَ إِنَّهَا الْجَنَّةُ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ غَيْرُهَا لَأَثَرْتُكَ^(٣).

هَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ، وَهَكَذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ، يَحْرَصُونَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَلَى الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يِيَالُونَ أَوْقَعُوا عَلَى الْمَوْتِ أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِمْ.

كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَكْتُبُ لِقَادَةَ الْفَرَسِ لَمَّا امْتَنَعُوا عَنْ أَدَاءِ الْجَزِيَةِ:

(١) رواه البيهقي في السير (٢٤/٩). وانظر: صفة الصفوة (٢٤٧/١ - ٢٤٨).

(٢) رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٢٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد. عن جابر.

(٣) رواه ابن المبارك في الجهاد (٧٩).

لأَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ الْمَوْتَ كَحُبِّكُمْ الْحَيَاةَ. وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدْيَ^(١).

فَلَمَّا التَقَّتْ جِيُوشُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ أَقْلُ عُدَدًا وَأَضْعَفُ عُدَدًا انْتَصَرَتْ الْقَلَّةُ عَلَى الْكَثْرَةِ، وَانْتَصَرَ الضَّعْفُ الْمَادِي عَلَى الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ، وَانْتَصَرَ بِهِمُ الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالتَّوْحِيدُ عَلَى الشِّرْكِ، وَالْإِيمَانُ عَلَى الْكُفْرِ، وَكَانَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى.

ثُمَّ دَارَ الزَّمَنُ دَوْرَتَهُ، وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ أَوْلَئِكَ الْأَبْطَالُ الْمِيَامِينُ خَلْفُ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ وَأَضَاعُوا الْجِهَادَ، وَصَارَ الْجِهَادُ مَعْنَى مَيِّتًا فِي حَيَاتِهِمْ، بَعْدَ أَنْ كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَسْلَافُ يُحَفِّظُونَ أَبْنَاءَهُمْ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ وَمَعَارِكَهُ كَمَا يُحَفِّظُونَهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ إِعْدَادُ نَفْسِيٍّ وَرُوحِيٍّ لَهُمْ، لَخَوْضِ مَعَارِكِ الْحَيَاةِ، وَالذُّودِ عَنْ حِيَاظِ الدِّينِ وَحُرْمَاتِ الْإِسْلَامِ.

مَضَى ذَلِكَ حَتَّى جَاءَ عَصْرٌ انْحَطَّ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ، وَأَضَاعُوا دِينَهُمْ، فَضَاعَتْ دُنْيَاهُمْ، وَأَصْبَحُوا عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ، طَمَعَ فِيهِمْ كُلُّ طَامِعٍ، احْتَلَّتْ أَرْضَهُمْ، وَهَلَكَتْ دِيَارُهُمْ، وَنُهَبَتْ خَيْرَاتُهُمْ، وَامْتَصَّتْ دِمَاؤُهُمْ، وَغُصِبَتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَمَنْ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ؟ إِنَّهُمْ الْكُفَّارُ وَالْيَهُودُ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، لِمَاذَا؟! لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَضَاعُوا مَعْنَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَصْبَحَ ذَلِكَ شَيْئًا لَا يَكَادُ يَخْطُرُ بِبَالِ الْمُسْلِمِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَلَيْسَ فِيهِ أَثَرٌ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ»^(٢). أَيُّ فِيهِ نَقْصٌ أَوْ خَدَشٌ أَوْ كَسْرٌ. وَيَقُولُ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَحْدِثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»^(٣).

(١) رواه ابن أبي شيبة في البعث والسرايا (٣٤٤١٧)، وأبو يعلى (٧١٩٠)، عن عامر الشعبي.

(٢) رواه الترمذي (١٦٦٦)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه (٢٧٦٣)، كلاهما في الجهاد، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٦٠٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الإمامة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، عن أبي هريرة.

هذا هو الجهاد في سبيل الله، الذي فرضه الله على هذه الأمة ليظلَّ فيها معنى القوَّة حيًّا قائمًا.

ذلك المعنى أضاعه المسلمون للأسف، وصاروا عبيدًا بعد أن كانوا سادة، في المؤخِّرة بعد أن كانوا في الطليعة، يساقون ويقادون بعد أن كانوا يقودون الدُّنيا، أصبحوا أمةً يحكمها المشركون والنصارى واليهود. أيُّها المسلمون، ليس ذلك ظلمًا، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

فإذا أردنا أن نعود أمةً عزيزةً قوية، أمةً تسود العالم، أمةً تتبوَّأ مكانها تحت الشمس، فلننفخ في أبنائنا روح الجهاد، ولنعد إلى تعلُّم الجهاد وفنونه وروحه ودروسه، من سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه وأبطال الإسلام من بعدهم، بهذا تعود الأمة أمةً قويَّة عزيزة.

إنَّ النبي ﷺ يقول: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» ثلاثاً^(١). وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولهذا جعل ﷺ من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي^(٢). وقال لأصحابه: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا»^(٣). وقال: «من علَّمه الله الرميَ فتركه رغبةً عنه، فنعمةٌ كَفَرَهَا»^(٤).

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧)، وأحمد (١٧٤٣٢)، عن عقبة بن عامر.

(٢) رواه البيهقي في السبق والرمي (١٥/١٠)، وضعفه، عن أبي رافع.

(٣) رواه أحمد (١٧٣٢١)، وقال مخرَّجوه: حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده. وأبو داود في

الجهاد (٢٥١٣)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١)، عن عقبة بن

عامر الجهني.

(٤) جزء من الحديث السابق.

إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعِدُّ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونُوا أُمَّةً جِهَادًا، وَأُمَّةً الْجِهَاد لَا يُمْكِنُ أَنْ يَطْمَعَ بِهَا أَعْدَاؤُهَا، أَمَّا الْأُمَّةُ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا هَذَا الْمَعْنَى، وَيَصْبَحُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَشْغُولًا بِنَفْسِهِ، مَشْغُولًا بِمَعِيشَتِهِ، مَشْغُولًا بِأُمُورِهِ الْخَاصَّةِ، عَنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَنْ كَلِمَةِ اللَّهِ وَعَلَى، وَعَنْ دِينِهِ، فَهِيَ هَاتِ أَنْ يَرْتَفِعَ لِهَذِهِ الْأُمَّةُ عِلْمٌ، أَوْ تَعْلُو لَهَا كَلِمَةٌ، أَوْ تَكُونَ لَهَا السِّيَادَةُ فِي الْأَرْضِ.

يَا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ. وَلَنْ يَكُونَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ لِنَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، فَقَدْ سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يَقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلِ يَقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، وَالرَّجُلِ يَقَاتِلُ حَمِيَّةً - أَيَّ عَصَبِيَّةٍ لِقَوْمِهِ وَغَضَبًا لِعَشِيرَتِهِ - أَيُّ هَؤُلَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَأَجَابَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَجَاهِدَ فِي الْمِيدَانِ الدَّاخِلِيِّ إِذَا لَمْ يَتَحَ لَهُ الْجِهَادُ الْخَارِجِيُّ، أَيُّ أَنْ يَجَاهِدَ الْمُنْكَرَاتِ وَالْفُسَادَ وَالْبَاطِلَ وَالظُّلْمَ وَالْفُسُوقَ وَالْعَصْيَانَ.. يَجَاهِدُ هَذَا كُلَّهُ، فَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَلِهَذَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، ثُمَّ رَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»^(٣).

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْخُمْسِ (٣١٢٦)، وَمُسْلِمٌ فِي الْإِمَارَةِ (١٩٠٤)، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ.

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٨٨٢٨)، وَقَالَ مَخْرَجُوه: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَالنَّسَائِيُّ فِي الْبَيْعَةِ (٤٢٠٩)، عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ.

(٣) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ (١٩٥/٣)، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجَاهُ. وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: الصَّفَارُ لَا يُدْرِي مَنْ هُوَ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (٣٧٤)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

فهذا الذي يقتله الحاكم الظالم؛ لأنّه دعاه إلى الله، وأمره بالحق، ونهاه عن الباطل، فكان جزاؤه أن يُقتل، وأن يُعلّق على جبل المشنقة أو المقصلة، من فعل ذلك فقد جاهد في سبيل الله، وهو بجوار سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

ملاك الأمر حفظ اللسان:

وختم النبي ﷺ وصيته الجامعة لمعاذ بن جبل بقوله: «ألا أخبرك بملاك ذلك كلّ؟». قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: «كفّ عليك هذا». وأشار إلى لسانه.

لم يكتف النبي ﷺ بأن يقول: «احفظ عليك لسانك»، فقد ينسى هذه الكلمة، ولكنّه استعمل وسيلة إيضاح وتثبيت للوصيّة، وتأكيد للموعظة.. فأشار إلى لسان نفسه وقال: كفّ عليك هذا، اخزن هذا اللسان واسجنه، فليس هناك شيء في الأرض أحوج إلى طول سجن من اللسان.

إذا أطلق الإنسان لسانه العنان، يفعل، ويقول، ويتكلّم ما يشاء، فإنّه يجلب على صاحبه الويلات، ويجرّ عليه المصائب، ويسوق إليه البلايا في الدُّنيا والآخرة.

هذا اللسان - كما قال أبو بكر - وقد أمسك به يوماً يقول: هذا الذي أوردني الموارد^(١).

وكان ابن مسعود يمسك بلسانه ويقول: يا لسان قلّ خيراً تغنم،

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٩٦).

واسكت عن شرّ تسلّم، من قبل أن تندم^(١). وقد أخذ ذلك من الحديث الشريف: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم»^(٢).

إنّ المسلم ينبغي أن يكون بين أمرين:

إمّا أن يتكلّم بحقّ، بخير، بالدعوة إلى الله، بالأمر بالمعروف، بالنهي عن المنكر، بذكر الله وَعَلَّك، بالإصلاح بين الناس، بحاجات الدنيا التي لا بدّ منها. وإمّا أن يمسك لسانه ويصمت ويكفّه ويضبطه، فمن صمت نجا، ومن تكلم فهو على خطر، وفي القرآن الكريم: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. والمسألة ليست هيّنة.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يقول: «إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة ما يتبين ما فيها، ينزل فيها في النّار أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٣).

وفي حديث آخر: «يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً»^(٤). أي سبعين عاماً.. وذلك من أجل كلمة تافهة، لا يلقي لها بالاً، ولا يعيرها التفاتاً، ولا يدري المسكين أنّ هذه الكلمة هوت به إلى النّار، وبئس القرار.

وفي الحديث الذي رواه أبو الشيخ بإسناد حسن عن أنس مرفوعاً:

(١) رواه الطبراني (١٩٧/١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٥٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٦٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٨٥٥)، عن خالد بن أبي عمران.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٨)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٧٠)، عن أبي هريرة.

«عسى رجل منكم أن يتكلم بالكلمة، يضحك بها القوم، فيسقط بها أبعد من السماء!»^(١).

ولهذا حرص السلف الصالح على حفظ ألسنتهم، وراضوا أنفسهم على طول السكوت، وعودوها ألا تتكلم إلا بخير.

وعن سليمان بن داود: إذا كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب^(٢).

فهم إمّا أن يتكلموا بحق، وإمّا أن يصمتوا؛ لأنّهم إذا لم يتكلموا بالحق ولم يسمتوا، فسرعان ما يتكلمون بالباطل، ولهذا سدوا الباب أولاً، ولم يتكلموا إلا بالخير، فإنّ فضول الكلام، والخوض فيما لا يعني، يجرّ على الإنسان ويلات كثيرة، في الدُّنيا وفي الآخرة: في الدُّنيا يجلب عليه مشكلات وخصومات مع النَّاس، فتارة يتهم هذا، وتارة يلمز ذاك، وحيناً يخوض في عرض زيد، وحيناً في عرض عمرو، ولهذا قالوا قديماً:

جَرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا التَّأْمُّ وَلَا يَلْتَأْمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ^(٣)

وقال شاعر يحثُّ على حفظ اللسان:

احفظ لسانك أيُّها الإنسانُ لَا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ تُعْبَانُ
كم في المقابر من قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ^(٤)

أرأيتم؟! قتيل يقتله لسانه! هذا الذي بين لحييه.

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٦٢)، وقال: رواه أبو الشيخ أيضاً بإسناد حسن، ورواه عن علي بن زيد عن الحسن مرسلًا.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٧)، عن الأوزاعي قال: قال سليمان بن داود.

(٣) سبق عزوه ص ٣١٢.

(٤) ذكره البيهقي في مناقب الشافعي (٨٧/٢)، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث،

القاهرة، ط ١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

قال بعض الصالحين: لسانِي سَبُعٌ إِنْ أَرْسَلْتَهُ أَكْلَنِي^(١).

وقال شاعر بهذا المعنى:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجُلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ وَعَثْرَتُهُ بِالرَّجْلِ تُشْفِي عَلَى مَهْلٍ^(٢)

فهذا من جناية اللسان على الإنسان في دنياءه، بخلاف ما يجره عليه في آخره.

ولقد عدَّ بعض العلماء للسان آفات بلغت سبعين آفة، ولخصها الإمام الغزالي في كتابه «الإحياء» في عشرين آفة رئيسية مثل:

الخوض فيما لا يعني، والكلام في الباطل، والكذب، وشهادة الزور،
والحلف بغير الله، والحلف بالله كاذبًا، والغيبة، والنميمة، والسخرية،
والغمز واللمز، والسب، والتنازع بالألقاب، والاستهزاء بالناس، والمراء،
والمزاح بالباطل.. وغير ذلك كثير^(٣).

ولهذا حين عجب معاذ بن جبل من وصية الرسول، حين قال له: «كفَّ عليك هذا». وقال معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا نبي الله؟! قال له الرسول ﷺ: «تَكَلَّمْتَ أَمُّكَ يَا مَعَاذُ! وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ^(٤) - إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ؟!».

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٧٠٩)، عن معن بن عيسى.

(٢) من شعر جعفر الصادق، كما في العقد الفريد لابن عبد ربّه (٣٠٣/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، آفات اللسان (١٠٧/٣ - ١٦٤).

(٤) هذا شك من الراوي، فقد كان رواية الحديث يجتهدون أن يؤدوا الحديث بالألفاظ التي سمعوها، فإذا شك أحدهم في لفظ ذكر ذلك بالشك، كما هو في الحديث: (على وجوههم أو على مَنَاخِرِهِمْ) مع أن المعنى لا يختلف، ولكن أداءً للأمانة ودقة في الرواية، وحفاظًا على ما سمعه من رسول الله ﷺ، أو ممن رَوَوْا الحديث من بعده.

وكانَّ اللسان منجل، يحصد الأعراض والحرمات، وينال من هذا ومن ذاك! هذا اللسان هو الذي يكبُّ النَّاس في النَّار على وجوههم.

ولهذا جاءت الوصية تلو الوصية، والموعظة تلو الموعظة من رسول الله ﷺ لأصحابه بأن يكفُّوا ألسنتهم، وأن يحذروا من آفاتهما، فإنَّ الأمر جدُّ لا هزل فيه، وإنَّ كل شيء يكتب، إمَّا للإنسان، وإمَّا عليه، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٧]. إنَّ قلم الرقيب العتيد يسجِّل ويحصي، والله تعالى قبل الرقيب العتيد يسمع ويرى ويعلم، ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

قال بعض المشركين لبعض: لا تجهروا بقولكم، فإنَّ إله محمَّد يسمعنا ويبلغه، فنزلت هذه الآية [الملك: ١٣، ١٤].

ولهذا فإنَّ المؤمن الذي يشعر برقابة الله، ويوقن بأنَّ الله سمعًا يحيط بكلِّ المسموعات، وبصرًا يرى كلَّ الموجودات، فهو يسمع ويرى ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، والمؤمن الذي يعلم ذلك يقينًا، يحرص على ألا يسمع ربه ما يكره.

إنَّ النَّاس كثيرًا ما يتحفَّظ بعضهم من بعض، فإذا تكلموا تخافتوا، وقالوا: الحيطان لها آذان، فكيف لا يضع المؤمن في اعتباره أنَّ الله معه حيثما كان يسمع ويرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

أسأل الله لي ولكم أن نكون ممَّن يقول خيرًا فيغنم أو يسكت فيسلم، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علَّمنا. آمين.

الدرس الثلاثون

من صفات المنافقين

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النفاق حتَّى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١).

نوعا النفاق:

النفاق نوعان: نفاق عقيدة، ونفاق عمل.

أمَّا نفاق العقيدة: فهو أن يبطن الإنسان الكفر ويظهر الإسلام، كأكثر المنافقين على عهد الرسول ﷺ يوم كانت للمسلمين قوَّة، ويوم كانت لهم منعةٌ وشوكة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وهؤلاء شرُّ من الكفار؛ لأنَّهم ينتسبون إلى الإسلام، ويحسبون على المسلمين، وإن كانوا من الدُّ أعدائهم المُبْغِضِينَ.

(١) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان.



ذلكم هو نفاق العقيدة.

وهناك نفاق آخر، هو نفاق العمل، نفاق الخلق، وهو من أوصاف المنافقين الأولين، ولكن قد يتلى المسلم بشيء منه.. وذلكم هو النفاق الذي حدّث عنه رسول الله ﷺ في هذا الحديث.

أخلاق أربعة من صور النفاق العملي:

فهناك أربعة أخلاق من أصول النفاق، ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث، قال: «من كانت فيه هذه الأربعة، كان منافقًا خالصًا». وفي حديث آخر: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»^(١).

فإنه من صام وصلى وزعم أنه مسلم، ولكنه جمع أخلاق السوء، وصفات السوء، وخصال النفاق هذه اجتمعت كلها فيه فهو منافق خالص - والعياذ بالله -.

هذه الخصال الأربع هي: الكذب في الحديث، والإخلاف في الوعد، والفجور في الخصومة، والغدر في العهد والميثاق.

وفي روايات أخرى ذكرت خيانة الأمانة في جملة هذه الأخلاق: «إذا أوّتمن خان»^(٢).

الصلة الأولى: الكذب:

فأول هذه الخصال: الكذب.

وهو أن يخلق الإنسان الخبر أو الحديث، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، يوهم محدّثه أنه هو الحق، وليس بحق.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٩)، وأحمد (٩١٥٨)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الإيمان (٣٤)، عن عبد الله بن عمرو.

سئل النبي ﷺ أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم». قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: «نعم». قيل: ويكون كذاباً؟ قال: «لا». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]^(١).

قد يكون المؤمن جباناً، فبعض الناس عندهم ضعف نفسي، لا يستطيع أن يواجه الحوادث الكبار، ولا أن يقارع الأعداء، وبعضهم يغلبه الشح، ويغلبه البخل الفطري، ولم يوق شح نفسه، ولكن هذه الصفات الجبلية، التي لم يستطع الإنسان بالرياضة النفسية وبالمجاهدة القلبية أن يتغلب عليها شيء غير الكذب.

فالكذب ليس من صفات المؤمنين.

وما أخطر الكذب! خاصة إذا أصبح خُلُقاً للإنسان، وخصلة راسخة في النفس، يصدر عنها بيسر وسهولة، فهو يكذب ويكذب ويكذب، مثلما يتنفس ومثلما يأكل ويشرب.

هذا - والعياذ بالله - ليس من المؤمنين بآيات الله.

يقول النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(٢).

فالكذبة تجرُّ إلى مثلها.. وهكذا، حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا.

(١) رواه مالك في الكلام (٣٦٣٠) تحقيق الأعظمي، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٧٢)، عن صفوان بن سليم، مرسلًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلوة (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود.

وفي مقابل هذا يقول ﷺ: «عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، والبرُّ يهدي إلى الجنَّة، ولا يزال الرجلُ يصدق ويتحرَّى الصدق حتَّى يُكْتَبَ عند الله صديقًا»^(١).

فعلى المسلم أن يتحرَّى الصدق، وأن يتجنَّب الكذب، وإن رأى أنَّ فيه النجاة، فليس في الحقيقة فيه النجاة، بل فيه الهلكة.

إنَّما يُنَجِّي الإنسان الصدق، فليصدق قوله، وليعتمد على الله ﷻ.

وقد حذر النبي ﷺ من الكذب، وجعل من ورائه النَّار، وجعل من ورائه الشرَّ كُلَّهُ، حتَّى ولو كان الكذب في المزاح، يقول: «ويلٌ للذي يكذب ليضحك النَّاس، ويلٌ له، ويلٌ له، ويلٌ له!»^(٢).

فليس هناك ما يُسمَّى «الكذب الأبيض»، إنَّ الكذب خلق، فمن تعوَّده فيما لا ضرر فيه لم يستطع بعد ذلك أن يتخلَّى عنه، ويصير ديدنه في شأنه كُلَّهُ.

وهذه الصفة إذا شاعت في النَّاس هدمت الثقة بينهم، وهدمت الاستقرار والطمأنينة في التعامل، إذا عرف الإنسان بالكذب، فمن يدري أنَّه هذه المرَّة صادق أو كاذب؟ النَّاس سيعاملونه على هذا الأساس، وإن كان يصدق أحيانًا.

ومن هنا تهتزُّ الثقة، ويضطرب التعامل بين النَّاس.

فعلى المسلم أن يتحرَّى الصدق، وأن يتجنَّب الكذب في كلِّ أموره، فإنَّ الكذب ليس من خصال المؤمنين، إنَّما هو من خصال المنافقين.

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) رواه أحمد (٢٠٠٢١)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢٣١٥)، وقال: حديث حسن. عن معاوية بن حيدة.

والكذب يعظم ويتفاحش في مناسبات، فليس كلُّ كذب كغيره، بل هناك كذب أفحش من كذب، وأقبح من كذب.

الكذب على الله أفحش الكذب:

الَّذِي يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَيَتَقَوَّلُ عَلَى اللَّهِ بغير علم، ويفتي في دين الله ما ليس من دين الله، ويلصق بالدين ما ليس من الدين، إرضاءً لحاكم أو لظالم أو لرئيس أو لكبير.

هؤلاء الذين يبيعون دينهم بدنياههم، ويتدعون في الدين ما ليس من الدين، هذا أفحش الكذب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

والكذب على رسول الله ﷺ بأن يقول الإنسان عن رسول الله حديثاً لم يقله ﷺ، كما اخترع بعض الناس أحاديث في فضائل سور القرآن وفي الترغيب وفي التهريب، تروج عند الناس وليس من قول رسول الله ﷺ.

فالذي يتسوّل، ويسأل الناس ويقول: قال رسول الله ﷺ: «لقمة في بطن جائع خير من بناء ألف جامع». كلام سخيّف وكذب، لا يعقل أن يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكل من افتري حديثاً، أو من يروي هذا الحديث، وهو يعلم أنه ليس بحديث، ولكن يروّجه في الناس، فهذا من أفحش الكذب؛ لأنه كذب على الله، وكذب على رسول الله ﷺ.



الكذب في الرؤى:

ومن أفحش الكذب أيضاً الكذب في الرؤى، يقول النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْرِى الْفَرَى أَنْ يُرَى الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرِ»^(١). وذلك أَنَّ بعض النَّاسِ يدخل على هذا الأمير، أو على هذا الوزير ويقول: رأيتُ لك في المنام كذا وكذا، رأيتُك في المنام وأنت راكب فرساً وتسبح في الجنة، أو رأيت رسولَ الله ﷺ يقبلُ جبينك أو يدعو لك، أو غير ذلك من الأكاذيب التي يروّجها كثير من النَّاسِ، ممَّن يريدون التزلف أو التقرب إلى أولي السلطة والشأن بهذا الكذب والافتراء.

وذلك من أقبح أنواع الفرى، ومن أفحش الكذب، كما قال رسولُ الله ﷺ.

كذب الملوك والرؤساء:

ومن أقبح الكذب: كذب الملوك والرؤساء؛ ذلك أَنَّهُ يُجرى الرعية على الكذب. ثمَّ إِنَّ كذب الرئيس أو الحاكم هو تدجيل على النَّاسِ، وتدجيل على الشعوب. ولهذا قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»^(٢). وهل رأيتم أقبح من أن يزني الشيخ؟!!

قد يزني الشاب - والشباب شعلة من الجنون، كما يقال - ولكن إذا زنى وهو شيخ، فأى عذر له؟! وقد نضج سنه، ونضج عقله، وقويت إرادته، وضعفت شهوته.

(١) رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٣)، وأحمد (٥٧١٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٠٧)، وأحمد (١٠٢٢٧)، عن أبي هريرة.

كذلك الملك أو الرئيس الذي يكذب! قد يكذب الإنسان خوفاً من غيره، أو طمعاً فيما عند غيره، أمّا الملك أو الرئيس فلماذا يكذب؟! ولا حاجة له إلى الكذب، وهو في موضع القدرة، وموضع الأسوة للآخرين! والعائل المستكبر! يعني الفقير المستعلي! يا الله!

قد يستكبر الغني بما عنده من مال، أمّا هذا الفقير المستكبر، الذي تُكَلِّمُه فلا يكاد يردُّ عليك، فقير ومع هذا مستكبر على الناس! هؤلاء الثلاثة، كما جاء في الحديث الصحيح، لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم.

اليمين الغموس من أقبح أنواع الكذب:

ومن أقبح أنواع الكذب، الكذب في اليمين، وذلك أن يكذب إنسان ويؤكد كذبه بالحلف بالله أو بصفة من صفاته. التاجر يحلف بالله لِيُنْفِقَ ويروّج سلعته، يتخذ يمين الله سلعة، وبضاعة يبيع بها ويشترى.

قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنْفَقُ، ثُمَّ يَمْحَقُ»^(١).

وعن أبي ذرٍّ مرفوعاً: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم، ولهم عذابٌ أليم». فقال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، فقلت: خابوا وخسروا، مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، والمُنْفِقُ سلعته بالحلف الكاذب»^(٢).

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٦٠٧)، وأحمد (٢٢٥٤٥)، عن أبي قتادة الأنصاري.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأحمد (٢١٣١٨)، عن أبي ذر.

إذا جعل الإنسان يمينه مع كذبه، فقد أصبح الكذب هنا من الكبائر، ومن الفواحش الظاهرة.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ويقول النبي ﷺ: «من حلف على يمينٍ هو فيها فاجر، ليقطع بها مالَ امرئٍ مسلم، لقي الله وعجل وهو عليه غضبانٌ»^(١).

ويقول: «اليمينُ الغموسُ الكاذبةُ تَذَرُ الدَّيَارَ بِلَاقِعٍ»^(٢). وتسمى «اليمين الغموس»؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم في الدنيا، وتغمسه في النار في الآخرة.

شهادة الزور:

ثم الكذب إذا ترتب عليه ضياع حقوق الناس، كالكذب في الشهادة، وهو الذي يسمى شهادة الزور، فذلك من أكبر الكبائر، كما جاء عن رسول الله ﷺ في الصحيحين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟». قالوا: بلى، يا رسول الله! قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، ثم قال: «ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور»^(٣).

وفي حديث آخر: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله وعجل». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]^(٤).

- (١) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٥٦)، ومسلم في الإيمان (١٣٨)، عن ابن مسعود.
- (٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٤٣)، عن واثلة بن الأسقع.
- (٣) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، عن أبي بكرة.
- (٤) رواه أحمد (١٧٦٠٣)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأفضية (٣٥٩٩)، =

ذلك أنَّ شهادة الزور يترتب عليها ضياع الحقوق، ويترتب عليها حل دماء وأموال وفروج.

من شهد أمام القضاء، والمفروض في شهادته أن تبين الحق، وأن تفصل في النزاع، فماذا يترتب على هذه الشهادة إذا كانت كذباً زوراً؟
إنَّها تنقل حقاً من واحد إلى آخر، وتُضيع أمانة لا ترد إلى أصحابها، وتجعل البريء مذنباً، والمذنب بريئاً، لهذا قرنها القرآن في سياق واحد مع الإشراف بالله وَعَلَّك.

أمور رخص الشرع بالكذب فيها:

هذه أنواع من الكذب، فاحشة القبح، كبيرة عند الله وَعَلَّك، والكذب كله حرام، إلا ما جاءت الرخصة فيه عن النبي ﷺ، فقد رخص الرسول ﷺ في الكذب في أثناء الحرب، فإنَّ الحرب خدعة.

ورخص في الكذب في الإصلاح بين الناس، فإنَّه لا يجوز للإنسان إذا أراد أن يصلح بين اثنين، أن ينقل كل ما قاله أحدهما في الآخر، بدعوى أنَّه صادق، فلو فعل ذلك ونقل الشتم، ونقل أقوال السوء، لأفسد بينهما، ولزاد النار اشتعالاً واضطراباً، ولكن ينبغي أن يخبئ بعض الكلام، ويزيد في بعض، ويُلحَّ على بعض الكلام الطيب ويركز عليه، حتَّى يصلح ما بينهما، وحتى يعود الوُدُّ بينهما.

وكذلك جاءت الرخصة بكذب الرجل على امرأته ليرضيها، أي يجوز أن يعدها بأنَّه سوف يشتري لها شيئاً ممَّا لا يجب عليه، ويظهر لها

= والترمذي في الشهادات (٢٢٩٩) وقال: حديث غريب. وضعفه الألباني في الضعيفة (١١١٠)، عن أيمن بن خريم.

من المحبة أكثر ممّا في نفسه يستديم بذلك صحبتها ويصلح من خلقها، وما شابه ذلك.

ومن ذلك ما حدث في خلافة عمر: أنّ أحد التابعين واسمه ابن أبي عذرة الدؤلي، وكان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن، فطارت له في النَّاس من ذلك أحوثة يكرهها، فلمّا علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم، حتّى أتى به إلى منزله، ثمّ قال لامرأته: أنشدك بالله هل تُبغضيني؟ قالت: لا تُنشدني. قال: فإنّي أنشدك بالله. قالت: نعم. فقال لابن الأرقم: أسمع؟ ثمّ انطلقا حتّى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم لتحدّثون أنّي أظلم النساء وأخلعنهن، فاسأل ابن الأرقم! فسأله عمر فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة، فجاءت هي وعمتها، فقال: أنت التي تُحدّثين لزوجك أنّك تُبغضينه؟ فقالت: إنّني أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى، إنّه ناشدني الله، فتحرّجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فاكذبي! فإن كانت إحداكن لا تحبُّ أحدنا فلا تُحدّثه بذلك، فإنّ أقلّ البيوت الذي يُبنى على الحبّ، ولكنّ النَّاس يتعاشرون بالإسلام والأحساب^(١).

ليس كلّ زوج وزوجة قيسًا وليلاه، وليس كلّ امرأة عاشقة لزوجها، فأقلّ البيوت ما يبنى على هذه العواطف الغرامية، إنّما يتعاشر النَّاس بالدين والخلق، بما عندهم من إسلام، وما عندهم من شرف وحسب، فبهذا يتعاشرون.

وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فهذا ما يجب على الرجل في علاقته الزوجية.

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٣٨).

وفي هذا جاء حديث أمِّ كُلثوم بنت عُقبة: «ليس الكَذَاب الَّذِي يَصْلَح بين النَّاس فيخبر خيراً أو يقول خيراً». وما كان رسول الله ﷺ يرخص في شيء ممَّا يقول النَّاس أَنَّهُ كَذِب إِلَّا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين النَّاس، ومحادثة الرجل امرأته، ومحادثة المرأة زوجها^(١).

في المعارض مندوحة:

والمراد بالكذب في هذه الأشياء المعارض، كما جاء في الأثر: إِنَّ في المعارض لمندوحة عن الكذب^(٢). لا الكذب الصريح، وإنَّما يقول الإنسان قولاً يعرض فيه.

والتعريض: أن يقول قولاً يحتمل وجهين: وجهًا بعيدًا ووجهًا قريبًا، فالمستمع يأخذ الوجه القريب، والمتكلم ينوي المعنى البعيد.

مثلاً: في سيرة ابن هشام، في قصة غزوة بدر، روى ابن إسحاق أَنَّ النبي ﷺ ركب هو ورجل من أصحابه - هو أبو بكر - حتَّى وقف على شيخٍ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمَّد وأصحابه وما بلغه عنهم! فقال الشيخ: لا أخبركما حتَّى تُخبراني ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: أوذاك بذاك؟ قال: «نعم». فأخبرهما الشيخ بما يعلمه وما يستنتجه. فلمَّا فرغ من خبره قال: ممَّن أنتما؟ قال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء!». ثمَّ انصرفا عنه. قال: يقول الشيخ ما من ماء؟! أمَّن ماء العراق^(٣)؟

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٠٥)، وأحمد (٢٧٢٧٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢١).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٦٢)، عن عمران بن حصين موقوفًا.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٦١٦/١).



وإنَّما قصد النبي ﷺ بعبارته أننا كلنا خلقنا من ماءٍ مهين.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه في رحلة الهجرة إذا سئل: من هذا معك؟ قال: هذا الرجل يهديني السبيل^(١). فيحسب الحاسب أنه إنَّما يهديه الطريق، وإنَّما يعني سبيل الخير. والرسول هداية لكل مسلم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وكان إبراهيم النخعي رحمه الله إذا طلبه مَنْ يكره أن يخرج إليه - وهو في الدار - قال للجارية: قل لي له: اطلبه في المسجد.

وكان الشَّعْبِيُّ إذا طلبه مَنْ يكره لقاءه، خَطَّ «دائرة» وقال للجارية: ضعي إصبعك فيها، وقولي: ليس هاهنا^(٢)!

وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنه، فلمَّا رجع قالت له امرأته: ما جئت به ممَّا يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء، فقال: كان عندي ضاغط (أي رقيب). قالت: كنتُ أمنيًا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه، فبعث عمر معك ضاغطًا! وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر، فلمَّا بلغه ذلك دعا معاذًا وقال: بعثت معك ضاغطًا؟ قال: لم أجد ما أعذر به إليها إلا ذلك. فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئًا، فقال: أرضها به^(٣).

وأراد الله تعالى فهو الرقيب سبحانه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩١١)، عن أنس بن مالك.

(٢) إحياء علوم الدين (١٤٠/٣).

(٣) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (١٧١)، تحقيق مصطفى بن أبو النصر الشلبي، نشر مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

فبهذا التعريض وبهذه التورية ينجو الإنسان من الكذب الصريح.

ولكن استعمال المعارض لا ينبغي أن يكون إلا في الأغراض المشروعة، قالت أسماء: سمعت امرأة سألت رسول الله ﷺ قالت: إن لي ضرّة، وإنني أتكثر من زوجي بما لم يفعل، أضارّها بذلك، فهل عليّ شيء فيه؟ فقال ﷺ: «المتشبع بما لم يُعطِ كلابس ثوبي زور»^(١). أي كأنه يلبس ثوبين يزور بهما على الناس.

وقد دخل عبد الله بن عتبة عند عمر بن عبد العزيز مرّة وهو كاره، وقد رآه بعض الناس، وعليه ثوب جميل وعباءة، فظنوا ذلك خلعة من أمير المؤمنين، فقال له بعضهم: كساك هذه أمير المؤمنين؟ فأراد أن يفتخر على صاحبه، فقال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً. إنّه لم يكذب، ولكنه أراد أن يفاخر، وهذه مفاخرة لا معنى لها. فقال له أبوه: يا بني الصدق أولى، الصدق منجاة^(٢).

وهكذا كان السلف الصالح يحرصون على الصدق، حتّى في هذه الدقائق، وفي الأمور الصغيرة، حتّى كان بعضهم يغالي في ذلك أكثر ممّا يلزم.

هذا هو التعريض الذي يخرج الإنسان من الكذب الصراح، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فليفعل هكذا.

وأكرّر: الكذب كلّهُ إثم وكله حرام، ولكنه درجات تتفاوت في فحشها وإثمها وقبحها عند الله ﷻ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢١٩)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٣٠)، عن أسماء بنت أبي بكر.

(٢) إحياء علوم الدين (١٤٠/٣).

وكما تقدم: لا يجوز للمرء أن يكذب إلا مضطراً إلى الكذب، وفي مواضع معينة.

إنَّ الإسلام يريد من أهله أن يكونوا صادقين، فقد قال الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

الكذبة تكتب كذبة:

حتى المعارض لا ينبغي أن يلجأ إليها الإنسان إلا مضطراً، وإلا لغرض ديني مشروع، وفيما عدا ذلك، يجب التزام الصدق.

عن أسماء بنت عميس قالت: كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ، ومعني نسوة. قالت: فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قَدْحاً من لبن. قالت: فشرب منه، ثم ناوله عائشة، فاستحيت الجارية، فقلنا: لا تردّي يد رسول الله ﷺ، خذي منه، فأخذته على حياء فشربت منه، ثم قال: «ناولني صواحبك». فقلنا: لا نشتهي. فقال: «لا تجمعن جوعاً وكذباً». قالت: فقلت: يا رسول الله، إن قالت إحدانا لشيء تشتهي لا أشتهي يعد ذلك كذباً؟ قال: «إن الكذب يكتب كذباً، حتى تكتب الكذبة كُذْبة»^(١).

أي: الكذبة الصغيرة تكتب كذبة صغيرة أيضاً، وكل شيء يسجل، إما لصاحبه أو عليه، ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَنِينِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: ١٠ - ١٢].

(١) رواه أحمد (٢٧٤٧١)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (١٥٥/٢٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦١٥١): رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وفيه أبو شداد، عن مجاهد روى عنه ابن جريج، ويونس بن يزيد، وبقية رجاله رجال الصحيح إلا أن أسماء بنت عميس كانت بأرض الحبشة مع زوجها جعفر حين تزوج النبي ﷺ عائشة، والصواب حديث أسماء بنت يزيد، والله أعلم.

حرص السلف على الصدق:

وجاءت أخت الرِّبيع بن خُثَيْم عائدةً لابن له، فانكبت عليه فقالت: كيف أنت يا بُنَيَّ؟ فجلس الرِّبيع، وقال: أَرْضَعْتِه؟ قالت: لا. قال: ما عليك لو قلت يا ابن أخي فَصَدَقْتُ^(١)؟

أي أَنَّهُ يستنكر أن تقول لابنه: يا بُنَيَّ. وكان يحبُّ أن تقول له: يا ابن أخي.

وبهذا ربَّى رسول الله ﷺ هذا المجتمع على الصدق، الصدق في القول، والصدق في العمل، والصدق في الدين، فكان مجتمعًا خالصًا، لا رياء فيه، ولا كذب فيه، ولا نفاق فيه.

وهكذا كان السلف الصالح من بعدهم، حتَّى رأينا رجلًا في عهد الحجاج الثقفي الظالم، وقد خطب الحجاج الجمعة، فأطال الخطبة، فقام إليه رجل فقال: إِنَّ الوقت لا ينتظرك، والرَّبُّ لا يعذرك. فأمر به إلى الحبس، فأتاه آل الرجل فقالوا: إِنَّه مجنون. فقال: إن أقرَّ على نفسه بما ذكرتم خليت سبيله، فقال الرجل: لا والله لا أزعم أَنَّهُ ابتلاني وقد عافاني^(٢).

يحكون عن الشيخ الخوَّاص - وكان من الصالحين - أَنَّهُ كان يصنع ما يصنع من الخوص، وجاءه رجل يلتجئ إليه من ظالم. قال له: أَخْفِنِي أَخْفِنِي. فألقى عليه كومة من الخوص. ثُمَّ جاء طالبه يسأل عنه، فأجابه الخوَّاص: ابحث عنه تحت الخوص. فنظر إليه الرجل شزراً ثُمَّ انصرف، فألقى الرجل الخوص من على جسمه ثُمَّ قال له: أَخْتَبِئْ عندك ثُمَّ تدل الرجل عليَّ؟ فقال له: يا بُنَيَّ، والله ما نَجَّاكَ إِلَّا الصدق.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٥٢٩).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢١١/٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.



إخلاف الوعد:

ومن الكذب الذي حذر منه الإسلام بصفة عامة: الكذب في الوعد، كما يفعل معظم أهل الحرف وأهل المهن من الخياطين والنجارين والحدادين وغيرهم. فقد تمضي المدة الطويلة، وأنت تطلب من أحدهم قضاء عمل من الأعمال، وهو يكذب عليك في المواعيد، ويذكر معلقًا، كل يوم يقول: غداً، وهكذا. ولا يصنع لك شيئاً.

وهذا من شر الكذب الذي جعله الإسلام من صفات النفاق.

أمّا الصدق في الوعد فهو من صفات النبيين والصديقين: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

ومما يؤسف له ومما يقطع نياط القلوب أن نجد هذه الصفات تنتشر بين المسلمين، ونجد «الخواجات» يشتهرون بصدق الكلمة ودقتها والوفاء بالوعد، مع أنه لا يوجد دين كالإسلام يحذر من إخلاف الوعد، ويحث على الوفاء بالوعد.

فيا جماعة المسلمين، طهروا ألسنتكم من الكذب، وطهروا حياتكم من النفاق، وطهروا قلوبكم من الرياء، واحرصوا على صدق الكلمة، والوفاء بالوعد، والتخلق بأخلاق الإسلام، حتى تكونوا مسلمين بحق.

الغدر ونقض العهود:

فالمنافق يعاهد ويغدر، ويقول الكلمة وينكث، ولا يرضى الله عهداً ولا يرضى لما بينه وبين الناس حرمة، كلمته لا قيمة لها، وعهده لا وزن له، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وفي هذا الحديث: «إذا عاهد الله غدر». وإذا عاهد الناس نقض، وإذا عاهد نفسه نكث.

فنقض العهود صفة المنافقين وصفة الكفار، فإنَّ الله وصف الكفار بنقض العهود، فقال وَعَلَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. على حين وصف الله وَعَلَى المؤمنين بأنهم يراعون العهود، ويحفظون المواثيق: ﴿أَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَجُ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠]، وفي أوصاف المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح في سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

لقد أمر الله بالمحافظة على العهود، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وفي آية أخرى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، أمر الله بالمحافظة على العهود والمواثيق، ولو كانت بين المسلم والكافر، فإنَّ الله أمر جماعة المسلمين أن يوفوا بعهودهم إلى الكفار، ما دام الكفار موفين بعهودهم، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

يقول الله وَعَلَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، فهو يجعل الوفاء بالعهد من التقوى، ومن صفات المتقين، هكذا أمر الله المؤمنين، أن يوفوا بعهودهم، حتى مع المشركين

والكافرين. بل نرى القرآن يقدم الكافر الذي بينه وبين المسلم ميثاق على المسلم الذي يعيش في غير دار الإسلام. يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]. أي إذا استنصركم المسلمون الذين لم يهاجروا من دار الحرب ودار الكفر إلى دار الإسلام، فعليكم النصر، إلا إذا كان أولئك المسلمون بين قوم ارتبطوا معكم بالمواثيق والعهود.

ويجعل للقتيل الذي هو من أهل الإيمان ولكنه في دار الكفر ودار الحرب، يجعل له كفارة، وأمّا إذا كان من أهل العهد والميثاق من غير المسلمين، فإنّ له دية إلى جوار الكفارة، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وفي الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١). هذا في احترام عهود المشركين، فما بالكم باحترام عهود المسلمين؟!

وكلُّ عقد وكلُّ التزام هو عهد، يجب الوفاء به، إلا إن اشتهل على محرّم، ويدخل في ذلك عقود البيع والشراء والزواج وغيرها. يقول الله ﷻ في الزواج: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾

(١) رواه البخاري في الجزية (٣١٦٦)، عن عبد الله بن عمرو.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿النساء: ٢٠، ٢١﴾، فهو ميثاق غليظ، وعهد وثيق، وحبل متين. كلُّ العقود الشرعية عهود، ولذلك صدر الله سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. فلا يجوز لأحد أن يفسخ عقداً عقده، أو يرجع فيه بدون رضا الطرف الآخر؛ لأنَّ العقد - كما أسلفنا - عهد بين المسلم وأخيه المسلم، سواء أكان مكتوباً أم غير مكتوب.

إِنَّ للعهود حرمة، وإنَّ لها منزلة لا ينبغي للإنسان أن يستهين بها، أو ينقضها، أو ينكث عنها، ولو كان مقابل ذلك ملء الأرض ذهباً، فإنَّ الدُّنيا كلُّها بفضَّتها وذهبها، وأرضها وسماؤها، وعلوِّها وسفليها، متاع قليل، ولذلك سمَّى الله هذا المتاع ثمناً قليلاً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

كلُّ شيء في الدُّنيا هو متاع قليل، وثمرن زهيد، بجوار ما ينتظر المؤمن من الثواب الجزيل عند الله في الآخرة.

ويقول ﷺ: «لكلِّ غادر لواء يوم القيامة»^(١). راية ينصبها الله لمن غدر أو نكث ليفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؛ أنَّه غدر بعهد الله، ولم يرع له حرمة، إنَّ الله وعَّظَ حرَّم نقض العهود، وجعله من صفات الكفار والمنافقين، وأمر المسلم أن يفي بعهده ولو كان لكافر.

لقد صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء: على

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٦)، عن أنس.

أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَاهُمُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ، وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيَقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانٍ السِّلَاحِ، السِّيفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ. فَجَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ يَحْجُلُ فِي قِيودِهِ فَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ^(١). وما جاء في قصة حذيفة بن اليمان في غزوة بدر. قال حذيفة: ما منعني أن أشهد بدرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حَسِيلٍ، قَالَ: فَأَخَذْنَا كَفَارَ قَرِيشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تَرِيدُونَ مُحَمَّدًا. فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لِنَنْصُرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نَقَاتِلَ مَعَهُ، فَآتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بَعْدَهُمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ»^(٢).

فهو ﷺ في هذا المقام العصيب، في حالة الحرب والعداوة، يفي بالعهود، ولم ينقض عهدًا قط عاهد أحدًا عليه.

ولم يبح الله نقض العهود إِلَّا إِذَا ظَهَرَتْ بُوَادِرُ الْخِيَانَةِ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ الْمُشْرِكِينَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: لا تأخذهم على حين غرّة، بل أعلمهم قبل ذلك أَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، حَتَّى تَسْتَوِيَ أَنْتَ وَهُمْ فِي الْعِلْمِ بِذَلِكَ. ثُمَّ هَاجَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَإِذَا عَاهَدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، أَوْ عَاهَدَ رَبَّهُ، دُونَ أَنْ يَرَى أَوْ يَسْمَعَ بِذَلِكَ أَحَدًا، فَعَلَيْهِ أَنْ يُوَفِّيَ بِهَذَا الْعَهْدِ، وَالنَّذْرُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وكما وصف الله الأبرار بقوله: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وقد وصف الله

(١) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، عن البراء بن عازب.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤)، عن حذيفة بن اليمان.

المنافقين بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥ - ٧٧].

الفُجْر في الخصومة:

ومن أخلاق المنافقين ومن خصالهم: أنَّ أحدهم إذا خاصم لا يقف عند حدود الله، ولا يلتزم الحق، ولا يلتزم البر، وإنَّما يخرج من الحق إلى الباطل، ومن العدل إلى الظلم، يريد أن يتغلب على خصمه بكل سبيل، يبرّر كلّ وسيلة للانتصار أو الانتقام، يقول خصمه ما لم يقل، يشنّ عليه في كل مكان، ينسب إليه ما لم يقترف من الأعمال.

كل هذا لأنّه خصمه!

فهو إذا رضي جعل صاحبه في أعلى عليين، وإذا سخط نزل به إلى أسفل سافلين، وليس هذا من صفات المؤمنين، فالمؤمن إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق.

يعدل حتّى مع عدوه ومع خصمه، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨].

اعدل حتّى مع عدوك:

كان النبي ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة ليخرص على اليهود نخلهم وزرعهم، أي يقدر قيمة الثمر وقيمة التمر على النخل، ويقول لهم: عليكم كذا وكذا. فأراد اليهود أن يرشوه ليخفف عنهم، فقال لهم

ابن رواحة: تطعموني السحت! والله لقد جئكم من عند أحبّ النَّاس إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من عدّتكم من القردة والخنازير، لا يحملني بغضي إياكم وحبّي إياه على ألاّ أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض^(١).

إنّه يعدل رغم أنّ خصومه يهود.. ويحاولون بطرقهم الماكرة والخبيثة أن يرشوه. إنّه يعدل كما أمر الإسلام الذي آمن به، وكما أمر رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه.

إنّ النبي ﷺ يقول: «إنّكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض، وإنّما أقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له شيئاً من حق أخيه فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من النار»^(٢).

إذا كان بعض النَّاس لسنّاً وأوتي جدلاً وقدرة على تزييف الحقّ وإلباس الباطل لبوس الحقّ، واستطاع أن يؤثر في القاضي وفيمن يحكم له، حتّى حُكم له بغير حق، فهل قضاء القاضي وحكم الحاكم يجعل الحرام حلالاً؟ لا، ولو حكمتُ له ألف محكمة ومحكمة.

حتى إنّ رسول الله ﷺ يقول بأنّه لو حكم هو بنفسه، تبعاً لما يسمع من حجة ومن بيان، وكانت تلك الحجة وذلك البيان من مبطل أوتي القدرة على الإقناع، فإنّ حكم الرسول له لا يجعل الحرام حلالاً، ولا يبيح له أن يأكل حقّ أخيه بهذا الحكم، فإذا أكله كان قطعةً من النَّار اقتطعها لنفسه.

(١) رواه ابن حبان في المزارعة (٥١٩٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٢٦٨٠)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، عن أم سلمة.



فلا بدّ للمؤمن أن يقف في الخصومة عند حدود الله، وعند العدل، وعند الحق. وفي الحديث: «من خصم في باطل هو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتّى ينزع»^(١). أي حتّى يرجع عن هذه الخصومة الباطلة.

فيا أيُّها المسلمون، احذروا خصال المنافقين التي ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث.. وعددها أربع خصال: «إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خصم فجر».

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

(١) رواه أحمد (٥٣٨٥)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٧)، والحاكم في البيوع (٢٧/٢)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ابن عمر.

الدرس الحادي والثلاثون

من حقوق الأخوة

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابِرُوا، وَلَا يَبِغْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ - بِحَسَبِ امْرَأٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ»^(١). صدق رسول الله ﷺ.

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة التي حَدَّدَتِ العلائق بين المسلمين بعضهم وبعض، وقد جاء الإسلام لينظم علاقة الناس بربهم، ثمَّ ينظم علاقتهم بعضهم ببعض، والعلاقة بين النَّاسِ قائمة على أساس الإخاء الإنساني، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والإخاء في العقيدة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وفي هذا الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا».

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) مختصرًا، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

الهدفان الكبيران لرسالة الإسلام:

لقد بعث الله رسوله محمدًا ﷺ لهذين الهدفين الكبيرين:

الهدف الأول: إحسان الخلق صلتهم بالله تعالى الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى، رب الناس، ملك الناس، إله الناس. وأن يعرفوا الله ﷻ حق معرفته، وأن يعبدوه حقّ عبادته. هذا هو الهدف الأول للإسلام، بل الهدف الأول لكل دين بعث الله به رسولاً، وأنزل به كتاباً، بل هو الهدف من خلق الجن والإنس، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

والهدف الثاني: أن تحسّن صلة الناس بعضهم ببعض، فيعيشوا في ظلال المحبة والأخوة والصفاء والوئام، فلا يعادي بعضهم بعضاً، ولا يكون بعضهم حرباً على بعض، ولا يكيد بعضهم لبعض، فتقلب الحياة إلى غابة، يتهارش فيها الذئاب، ويتعاوى فيها الكلاب، ويأكل القوي الضعيف.

لا يريد الإسلام أن تكون الحياة غابة، وإنّما يريد لها جنة، وخير ما في الجنة صفاء القلوب، وصدق الله العظيم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

الأخوة، المحبة، صفاء النفس، سلامة الصدور، طهارة القلوب من الأحقاد والضغائن التي تُظلم بها النفوس، هذا هو الهدف الثاني الذي جاء ليقرره الإسلام وليؤكدّه رسول الله ﷺ.

الإسلام يُحذّر من كل شيء يضعف الأخوة بين المسلمين، ويأمر بكل ما يقوّيها:

لهذا نهى الإسلام عن كل ما يشوب هذه الأصرة الكريمة، آصرة الإخاء، فحرّم النميّة، والغيبة، والسخرية، والتنازع بالألقاب، كل هذه الأمور، التي تجعل الناس ينفر بعضهم من بعض، ويكره بعضهم بعضاً، ولهذا بعد أن بيّن العلاقة بين المسلمين وأمر بالإصلاح بينهم في سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، قال عقبها: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [الحجرات: ١١].

واللمز هو الطعن في الناس والعيب فيهم، إما أمامهم أو من وراء ظهورهم، إما بالكلام وإما بالإشارة، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضاً. وإنما قال ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ولم يقل: «لا يلمز بعضكم بعضاً»؛ لأنّ المؤمن إذا لمز أخاه المؤمن فكأنما لمز نفسه. ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي: لا تتنازوا بالألقاب السوء، التي يكره الإنسان أن ينادى بها، لا تقل لرجل: يا أعور، إذا كان يكره أن يقال له ذلك، أو: يا أعرج، إذا كان يكره أن يقال له ذلك، ناده بأحبّ الأسماء إليه، وهكذا كان النبي ﷺ ينادي أصحابه بأحبّ الأسماء إليهم، بل كان يغير الأسماء الرديئة إلى أسماء حسنة وطيبة. من كان اسمه «حزن» قال له: «أنت سهل»^(١)؛ ليكون اسمه يحمل الفأل الطيب إلى صاحبه وإلى من يسمعه.

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٩٠)، عن حزن بن أبي وهب المخزومي.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ * يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

إنما حرَّم الله هذه الأمور كلها: اللمز، والتنابز بالألقاب، والسخرية، والتجسس، وسوء الظن، والغيبة، وكل ما كان من هذا القبيل؛ لأنها أمور كالسكاكين تقطع في لُحمة الأخوة بين الناس، والله يريد لعباده أن يظلوا إخواناً متحابين، نزع ما في صدورهم من غل.

ونهى الإسلام عن النَمِمة؛ لأنها سعي بين الناس بالفساد، ونقل للكلام على وجه الإفساد، وعلى وجه تقطيع الأواصر بين الناس بعضهم وبعض.

وقد حرَّم القرآن الخمر والميسر، وقرنهما بالأنصاب والأزلام، وجعلهما رجساً من عمل الشيطان، ثم علَّل ذلك فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وقد جعل النبي ﷺ شرَّ النَّاس وأبغضهم إليه الذين يسعون في إضعاف رابطة الأخوة بين النَّاس فقال: «شرار عباد الله: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت»^(١)، وفي المقابل فإنَّ أفضل الجزاء وأعظم الدرجات من الله للذين يقوُّون الأخوة بين

النَّاس، ويُصلحون ما يحدث بينهم من شقاق، ويطفئون نيران العداوة بين المتنازعين والمتخاصمين: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟». هكذا قال النبي لأصحابه، فقالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين، فإنَّ فساد ذات البين هي الحالقة». وفي رواية: «لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(١).

صفاء القلوب من الغلِّ ومن الشحناء ومن البغضاء، أمر يحرض عليه الله ورسوله.

ونجد النبي ﷺ يبيح الكذب من أجل الإصلاح بين الناس، يبيح للرجل إذا أراد أن يصلح بين اثنين أن يزيد في كلام الخير، وأن يطوي كلام السوء وينفيه، ويبرأ منه، من أجل الإصلاح بين الناس يبيح الكذب وهو من أشد الكبائر «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»^(٢). ومن ترغيب الإسلام في إصلاح ذات البين جعل من أسهم الزكاة سهمًا لمن يغرم في الإصلاح بين الناس، فيتحمَّل ديَّات القتلى والجرحى، وهو أمر كانت العرب تفعله من أيام الجاهليَّة، فأقرَّه الإسلام، وجعل القرآن الكريم لمن غرم في هذا الأمر سهمًا من الزكاة، يُعان به.

وجعل الإسلام الإصلاح بين النَّاس من دلائل الإيمان وبراهين التَّقوى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

(١) رواه أحمد (٢٧٥٠٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وقال: صحيح. وابن حبان في الصلح (٥٠٩٢)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤١٤)، عن أبي الدرداء.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٤٤.

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

والحديث الذي نشرحه اليوم يؤكد علاقة الأخوة بين المسلمين، ويرسخها على أسس متينة، يوصي الرسول فيه أمته أن تجتنب الرذائل التي تدمر الأخوة وتدمر العلاقات بين الناس، من التحاسد والتناجش والتباغض والتدابير، وكلها أمور تؤدي إلى التقاطع والبغضاء بين أفراد المجتمع.

لا تحاسدوا:

نهى النبي ﷺ أول ما نهى في هذا الحديث عن التحاسد: «لا تحاسدوا». أي: لا يحسد بعضكم بعضاً، فإنَّ الحسد والبغضاء داء الأمم من قبلنا.

معنى الحسد:

والحسد: أن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن أخيه؛ أن ترى أخاك غنياً، فتتمنى زوال نعمة الغنى عنه، أو تراه صحيح الجسد فتتمنى أن يصاب بالمرض، أو تراه قوي البنية فتتمنى أن يناله الضعف، أو تراه رزق بالولد فتتمنى في نفسك أن يصاب ولده بسوء.

من الناس من يتمنى أن تزول النعمة عن غيره، فتنتقل إليه، وصنف آخر يتمنى أن تزول النعمة عن الغير ولو لم تنتقل إليه، وهذا هو شرُّهما وأخبثهما، إنه كمن يقف بالمرصاد لنعم الله التي ينعم بها على عباده.

إذا رأى هذا أدركته نعمة، فإنه يغتم، ويبيت مهموماً محزوناً، كأنَّ على رأسه ثقل الدنيا وأعباءها، يفرح بالمصيبة تنزل بالناس، ويغتم للنعمة تنزل بعباد الله.

الحاسد عدو لربه عدو للناس عدو لنفسه:

هو ساخط على ربه، لا يرضى بما قسم الله في خلقه، ولا يرضى بما رزقه الله من فضله، وكأنه يريد أن يستدرك على الله، وأن يعدل قسمة الله، فهذا ليس بمؤمن في الحقيقة. ولهذا قال العارفون: الحاسد جاحد؛ لأنه لم يرضَ بقسمة الواحد.

ولقد ذمَّ الله اليهود في القرآن، فقال في شأنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

فالحاسد عدو لربه؛ لأنه لم يرضَ بقضائه وقسمته في خلقه.

وهو أيضًا عدو للناس؛ يحزن لكل نعمة تنزل بالعباد، ويفرح ويشمت بالبلايا تنزل بعباد الله، إذا رأى بلية تنزل بإنسان، أو مصيبة تصيب أحدًا من الخلق، فإنه يظل باسم الثغر، فرح القلب، مسرور الفؤاد بما ينال عباد الله من البلايا والرزايا.

وهو كذلك عدو لنفسه؛ لأنَّ الحسد يُكمدّه، ويقتله همًّا وغمًّا وحزنًا.. ما أكثر النعم التي تنزل بالناس! فإنَّ الله فضله عظيم، وخيره عميم، ويده سخاء، لا تغيضها نفقة الليل والنهار، ونعمه لا تعدُّ ولا تحصى، فإذا ظلَّ الإنسان يحزن لكل نعمة، فما أكثر ما يحزنُ وما أكثر ما يصيبه الغم، ويفترسه الحزن والهم، وهذا هو شأن الحاسد. ولهذا قال بعض الحكماء: الحسد داء يَنهَك الجسد. يصيب صاحبه بقرحة المعدة، بضغط الدم، بتوتر الأعصاب، بما شاء الله من هذه الأمراض والأدواء. وقد قال أحد الحكماء: لله در الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله!

وقال الشاعر:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُو دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنَّ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ^(١)

الحسد شر، وآفة خطيرة على الحاسد، وعلى المجتمع كله، أن يسري فيه هذا الداء، فيتحاسد أفراد، ويكره بعضهم بعضاً، ويُبغض بعضهم النعم التي تنزل بالآخرين، ويشتم بالمصائب تنزل بإخوانه، هذا شر مستطير، وبلاء خطير، وداء وبيل، سمّاه النبي ﷺ داء الأمم، فقال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ. وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ»^(٢).

الحسد يأكل الحسنات:

هذا هو شأن الحسود، لا يسود في الدُّنيا، ولا في الآخرة. هو في الدُّنيا بغيض إلى النَّاسِ لما يعلمونه من حسده وكرهه الخير لغيره، وهو لا يسود عند الله يوم القيامة، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، ولهذا قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدُ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٣).

ذلك لَأَنَّ الْحَسَدَ يَدْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى رِذَائِلَ كَثِيرَةٍ: إِلَى الْغِيْبَةِ، إِلَى النَّمِيمَةِ، فَإِذَا سَمِعَ مَنْ يَقُولُ كَلِمَةً طَيِّبَةً عَنْ أَخِيهِ أَخْفَاهَا، وَإِذَا سَمِعَ كَلِمَةَ السُّوءِ زَادَ فِيهَا طَوْلًا وَعَرْضًا وَعَمَقًا وَجَعَلَ شَبْرَهَا ذِرَاعًا وَذِرَاعَهَا بَاعًا، وَجَعَلَ مِنَ الْحَبَةِ قَبَّةً، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) من شعر عبد الله بن المعتز، كما في الدر الفريد وبيت القصيد (٤٠٠/٣، ٤٠١)، وانظر: ديوانه ص ٣٨٩، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٦١/٣).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٣)، وضعّفه الألباني في الضعيفة (١٩٠٢)، عن أبي هريرة.

إِنْ يَسْمَعُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِّنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا^(١) أي استمعوا وأنصتوا.

وهذا هو شأن الحُساد، إذا سمعوا من خير دفنوه، وأهالوا عليه التراب، وأغلقوا عليه قفلاً بعد قفل، وإذا سمعوا من شر وسوء أذاعوه وطبروه في الآفاق.

ولهذا حذر النبي ﷺ من الحسد وقال: «لا تحاسدوا».

المعصية الأولى منشؤها الحسد:

وقد قال العلماء: إِنَّ أَوَّلَ معصية وقعت في السماء كان منشؤها الحسد، وهي معصية إبليس حين أبى أن يسجد لآدم، ولم يمثل لأمر الله، واستكبر وكان من الكافرين.

ما الذي دفعه إلى هذا العمل السيئ؟!

إنَّه حسد آدم أَنَّ الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعَلَّمَهُ الأَسْمَاءَ كلها، وأمر الملائكة أن تسجد له، فحسده إبليس الشيطان اللعين.

وأَوَّلَ معصية وقعت في الأرض معصية ابن آدم الذي قتل أخاه، قالوا أيضاً إنَّه حسده؛ حسد قابيل أخاه هابيل، فَإِنَّهُ قَدَّمَ لله قرباناً، فتقبَّله الله منه، ولم يتقبل من أخيه، فحسده، وأراد أن ينتقم منه، أراد أن يشفي

(١) من شعر: قعناب ابن أم صاحب، كما في شرح حماسة أبي تمام للفارسي (١٨١/٣)، مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقه، تحقيق د. محمد عثمان علي، نشر دار الأوزاعي، بيروت، ط ١.

غليله، أن يطفىء النَّار التي تَأْكُل قلبه.. نار الحسد.. فأراد أن يقتله، ﴿قَالَ لَا قَتْلَنَّاكَ قَالِ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠].

لم يرتدع بهذا الوعظ البليغ، ولم يخف حين خَوْفه من النَّار ومن العذاب ومن الإثم، لم يرتدع، لأنَّ جرثومة الحسد في قلبه كانت قد عظمت وباضت وأفرخت، فطَوَّعَتْ له نفسه قتل أخيه فقتله، فأصبح من الخاسرين.

أول معصية وقعت في الأرض كانت من الحسد، وأول معصية وقعت في السماء كان منشؤها الحسد.

المؤمن لا يحسد:

ولا ينبغي للمؤمن أن يحسد؛ فالمؤمن ليس بحسود ولا بحقود، وإنَّما الحسد والحقْد من أوصاف الشيطان، ومن أوصاف اليهود، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وقال أيضًا في شأن اليهود: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

أمَّا المؤمن فهو على عكس ذلك، يقول ابن سيرين رضي الله عنه: ما حسدتُ أحدًا على شيء من الدُّنيا، إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على

شيء من الدُّنيا وهو يصير إلى الجنّة؟ وإن كان من أهل النَّار، فكيف أحسده على شيء من الدُّنيا وهو صائر إلى النار^(١)؟

وقال الحسن البصري: يا ابنَ آدم، لِمَ تحسدُ أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه، فلماذا تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك، فلم تحسد مَنْ مصيره إلى النار^(٢).

لا حسدَ إلا في اثنتين:

ويقول النبي ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»^(٣).

والحسد المقصود في الحديث، هو الغبطة، وهذا لا شيء فيه، بل هو أمر محمود، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فهذان اللذان يُغبطان، وينبغي أن يتطلع إليهما النَّاسُ، ويتمنّى كل واحد أن يوتى مثله!

الدُّنيا أقل من أن نتحاسد عليها:

أمّا الدُّنيا فإنّها لا تستحقُّ شيئاً من ذلك، والإسلام يربي المؤمنين على أن يكونوا أكبر ممّا يتعادي النَّاسُ عليه، وأكبر ممّا يتحاسد النَّاسُ فيه، فما الدُّنيا التي يتقاتل النَّاسُ عليها؟! إنّها لا تزن عند الله

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٨٤٥).

(٢) إحياء علوم الدين (١٨٩/٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٥)، عن ابن عمر.

جناح بعوضة، ولو كانت تزن جناح البعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء^(١).

وقد حكى لنا القرآن قصة قارون إذ خرج على قومه في زينته، بموكبه الحافل ومملكه العريض، وكنوزه التي تنوء بمفاتيحها العصبة أولو القوة، خرج في مثل هذا البهرج العظيم من الذهب والفضة والزمرد والزبرجد واللؤلؤ والياقوت.

فلما رآه النَّاسُ ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].
حسدوه أو غبطوه على أمر الدنيا.

وقال المؤمنون حينئذٍ ما أخبرنا به الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَيْكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

ثواب الله أفضل بكثير ممَّا أُوتي قارون من مال وكنوز، كما قال النبي ﷺ: «لَمَْوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٢).

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠) وقال: صحيح غريب. وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) والحاكم في الرقائق (٣٠٦/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: زكريا بن منظور ضَعَفُوهُ. وقال الألباني في الصحيحة (٦٨٦): صحيح لغيره. عن سهل بن سعد.

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٠)، وأحمد (١٥٥٦٤)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٤)، عن سهل بن سعد.

بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاتُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَتْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿ [القصص: ٨١، ٨٢].

ثم يعقب الله ﷻ فيقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

الدُّنْيَا بِفَضَّتْهَا وَذَهَبَهَا، الدُّنْيَا بِجِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَأَنْهَارِهَا، الدُّنْيَا
بَأَرْضِهَا وَسَمَائِهَا، كُلُّهَا لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَحْسَدَ مِنْ نَالَ مِنْهَا.. الدُّنْيَا لَا تَزِنُ
عِنْدَ اللَّهِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ، وَلَا تَسَاوِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، فَلَا تَحْرَسُوا عَلَيْهَا أَيُّهَا
الْمُؤْمِنُونَ، الْحَرَصُ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَى الْحَسَدِ، وَإِلَى الشَّمَاتَةِ بِالنَّاسِ..
وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.

«وَلَا تَنَاجَشُوا»:

لَا تَنَاجَشُوا، أَي لَا تَتَعَامَلُوا بِالنَّجَشِ، وَهُوَ أَنْ يَزِيدَ إِنْسَانٌ فِي سَعَرِ
السَّلْعَةِ وَهُوَ لَا يَرِغِبُ فِي شِرَائِهَا، وَلَكِنْ يَزِيدُ فِي السَّعَرِ، إِمَّا لِإِضْرَارٍ مِنْ
يَرِيدُ الشِّرَاءَ، بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا لِنَفْعِ الْبَائِعِ، بِزِيَادَةِ رِبْحِهِ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْمَعَامَلَةِ، فَهُوَ يَرِيدُ لِلسُّوقِ أَنْ تَظَلَّ
طَبِيعِيَّةً، تَعْمَلُ فِيهَا قَوَانِينُ الْعَرْضِ وَالطَّلَبِ، وَلَا تَتَدَخَّلُ فِيهَا أَهْوَاءُ التِّجَارِ
أَوْ غَيْرِ التِّجَارِ، فَتَزِيدُ فِي الْأَسْعَارِ، وَتُغْلِيهَا عَلَى الْمَشْتَرِينَ بِغَيْرِ سَبَبٍ
حَقِيقِيٍّ وَبِغَيْرِ مَعْنَى اقْتِصَادِيٍّ.

نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّجَشِ، وَنَهَى عَنْ كُلِّ تَدْلِيسٍ فِي الْبَيْعِ أَوْ الشِّرَاءِ،
وَعَنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْغَشِّ.

وَهُنَاكَ تَفْسِيرٌ آخَرٌ، يَجْعَلُ لِلتَّنَاجَشِ مَعْنَى أَعَمَّ وَأَشْمَلَ، وَهُوَ كُلُّ مَكْرِ
وَكُلِّ احْتِيَالٍ وَكُلِّ مَخَادَعَةٍ فِي مَعَامَلَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَأَصْلُ

النجش إثارة الصيد بالمكر والاحتيال والخداع حتَّى يصطاده الصائد، والنبي ﷺ قد نهى عن المكر والخديعة وقال: «هما في النار»^(١).

وقد ذكر الله المكر من أوصاف الكفار، الَّذِينَ مَكُرُوا بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا، فعاقبهم الله على مكرهم بتدبير إلهي أبطل مكرهم وأبطل حيلهم، ودمَّرَ عليهم أمرهم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿[النمل: ٥٠، ٥١].

ويقول الله تعالى مبيِّنًا سُنَّةً من سننه في خلقه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿[فاطر: ٤٣].

فأَيَّا كان معنى التناجش سواء أكان التناجش في البيع، أو كان التناجش في المعاملة بصفة عامة، فالحديث يتضمن النهي عن المكر والاحتيال، والغش والتدليس، فَإِنَّ «من غشنا فليس منا»^(٢). كما قال رسول الله ﷺ.

وقد نهى الرسول عن كل نوع من أنواع التدليس وكل نوع من أنواع الغش في البيع أو في الشراء أو في الزواج، أو في معاملة النَّاس بعضهم لبعض، سواء كانت من المعاملات الماليَّة أو من المعاملات غير الماليَّة، فعلى النَّاس أن يَبَيِّنُوا وَيُفْصِحُوا، وَلَا يَغْشُوا أَوْ يَدْلُسُوا.

هذا أمر من الأمور التي أمر بها الرسول ﷺ في هذا الحديث، أن يكون النَّاس أَصْفِيَاءَ أَنْقِيَاءَ، وأن يمتنعوا عن كل ما يشوب العلائق بينهم، من ألوان الغش وأسباب التدليس.

(١) رواه ابن حبان في البر والإحسان (٥٦٧)، والطبراني في الكبير (١٣٨/١٠)، والصغير (٧٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣٤١): رواه الطبراني في الكبير، والصغير، ورجاله ثقات، وفي عاصم بن بهدلة نزاع كلام لسوء حفظه. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٥٨)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٠١)، وأحمد (٩٣٩٦)، عن أبي هريرة.

لا تباغضوا:

ثم قال ﷺ: «ولا تباغضوا»، أي لا يُبغض بعضكم بعضًا، ولا يكره بعضكم بعضًا، فإنما أنتم إخوة، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. أخوة الإسلام ربطت بينهم، وجمعتهم في نسب، وضممتهم في رحم؛ فالمسلم أخو المسلم، مهما تباعدت به الأوطان، ومهما نأت به الديار، وشطّ به المزار، ومهما كان عنصره أو نسبه: «المسلم أخو المسلم»، العربي والعجمي، والشرقي والغربي، والأبيض والأسود، والعبد والسيد، والخادم والمخدوم، والغني والفقير، والأمير والناطور^(١)، كل هؤلاء إخوة ما داموا في رحم الإسلام، وفي دائرة الإسلام.

البغض لا يكون إلا في الله:

نهى النبي ﷺ عن التباغض، وأمر بالتحاب، أن يحبّ الناس بعضهم بعضًا، وأن يخلص الناس بعضهم لبعض، وأن يصفّي الناس قلوبهم، فالحياة لا تحتمل البغضاء، وهي أهون من أن يتنازع الناس عليها، ويتباغضوا في شأن من شؤونها.

فإن كان لا بدّ من بغض، فليكن البغض في الله، بغض الشر، بغض المنكر، بغض الفسوق والعصيان، بغض هذه الأمور لله، وفي الله، وهذا من دلائل الإيمان، فقد قال ﷺ: «من أحبّ لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»^(٢). وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله»^(٣).

(١) هو حافظ الزرع ونحوه.

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٦.

(٣) سبق تخريجه ص ١٠٦.

ولا تدابروا:

«ولا تدابروا». أي لا تقاطعوا، ولا تتخاصموا، ولا تتصارموا.

والتدابر: أن يخاصم المسلم أخاه المسلم، ويعطيه دبره، يعطى كل واحد منهما ظهره لأخيه، إشارة إلى مقاطعته له، وإلى هجرانه له، وهذا أمر محرّم في الإسلام، أن تظل بين رجلين مسلمين شحناء أو عداوة، أو تقاطع، يمرّ عليهما ثلاثة أيام ولا يتحدثان ولا يتزاوران ولا يتصافحان، كره ذلك النبي ﷺ وحرمه، وجعل من فعل ذلك بعيداً عن مغفرة الله، وعن رحمة الله، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتّى يصطلحا، أنظروا هذين حتّى يصطلحا، أنظروا هذين حتّى يصطلحا»^(١).

فرصتان للمغفرة في كل أسبوع، يفتح بابها للناس جميعاً، إلا من كان بينه وبين أخيه المسلم شحناء وعداوة أو مقاطعة، بل في كل يوم تمرّ مثل هذه الفرصة، مذكرة للناس أن يتصافوا ويصطلحوا، وهي الصلوات الخمس، يقول النبي ﷺ: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أمّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»^(٢).

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٦٣٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١١٩/١): إسناده صحيح ورجاله ثقات. وابن حبان في الصلاة (١٧٥٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. عن ابن عباس.

هؤلاء الثلاثة لا تُرفع صلاتهم ولا تقبل، الصلاة التي يصليها المسلم ويحرص على أن تكون مقبولة عند الله، تذكّر المسلم أن يبادر ويسرع ويهرول في رقة المؤمن ولينه لأخيه، ليصطلح مع أخيه، وليصفّي ما بينه وبينه، وإلا لم ترفع صلاته فوق رأسه شبرًا.

أرايتم أكثر من هذا حرصًا على المودة والمحبة والإخاء بين الناس؟! الإسلام جاء ليقم المحبة، وليزرع الإخاء، ويغرس المودة في صدور الناس، حتّى يعيش النَّاس في صفاء أهل الجنّة، فإنّ من ميزات أهل الجنّة أنّه لا غلّ بينهم، ولا حقد، ولا عداوة، ولا بغضاء ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. فعلى المسلم أن يبادر إلى أخيه فيصلح ما بينه وبينه.

وفي الحديث: «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(١).

أفضل الاثنين الذي يقوى على نفسه، وينتصر عليها، ويذهب إلى أخيه مسامحًا صافحًا، ويبدؤه بالسلام، ويخفض له جناحه.

أدلة على المؤمنين:

الإسلام يأبى على المسلم أن يذلّ نفسه، فالذلّ مذموم، إلا أن يكون المسلم ذليلًا على إخوانه، وإلا ذلّ المسلم لوالديه رحمةً بهما وبرًا، يقول الله تعالى في حق الوالدين: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

ويقول في علاقة المؤمنين بعضهم ببعض: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿[المائدة: ٥٤]. أي: هم هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ.

من كان عنده شدة وعزة وأنفة فليجعلها على الكفار، أمّا المسلم فاخفض له جناحك، اخفض جناحك للمؤمنين، وكن ذليلاً عطوفاً رحيماً على أخيك المؤمن.

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولكنّ ذلّ المؤمن على أخيه المؤمن ممدوح؛ لأنّ وراء هذا الذلّ الظاهري عزة الإيمان، وعزة النفس الطيبة، النفس اللينة الهينة السمحة الكريمة، التي لا تتعزّز على المؤمنين، ولا تستعلي على المسلمين، ولا تستكبر أن تبدأ بالمصافحة والسلام.

ووقع بين الحسن بن علي بن أبي طالب وأخيه محمّد بن عليّ ابن الحنفية لِحَاءً، ومشى النَّاسُ بينهما بالنِّمائم، فكتب إليه محمّد بن الحنفية: أمّا بعد، فإنّ أبي وأباك عليّ بن أبي طالب، لا تَفْضُلُنِي فيه ولا أفضلك، وأمّي امرأة من بني حنيفة، وأمّك فاطمة الزّهراء بنت رسول الله ﷺ، فلو مُلِئَتِ الأرض بمثل أمّي لكانت أمّك خيراً منها؛ فإذا قرأت كتابي هذا فاقدّم حتّى تترضّاني، فإنّك أحقّ بالفضل منّي^(١).

الصلح مطلوب بين المسلمين خاصّة الأقارب منهم:

والصلح مطلوب بين المسلمين جميعاً، وخاصّة بين ذوي القربى وذوي الأرحام، بين الأخ وأخيه، بين ابن العمّ وابن عمّه، بين ابن الخال

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٦٣).

وابن خاله، وبين الأقارب بعضهم وبعض، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ليس الواصل بالمكافئ:

ويقول النبي ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ»، أي ليس واصل الرحم الذي جاءت فيه الأحاديث، ليس هو المكافئ، أي الذي يكافئ زيارة بزيارة، ومودة بمودة، وإحساناً بإحسان، «ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها»^(١).

ومن مكارم الأخلاق أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، كما كان سيّد الأولين والآخرين محمد رسول الله ﷺ.

هيا نتصالح:

وكلّ وقت صالح للألفة والمودة وإصلاح ما بين الأنفس، وخاصة في رمضان، وخاصة في هذا الشهر الكريم، شهر المواساة - كما سمّاه النبي ﷺ - شهر التزاور والتراحم وتصفية القلوب من غلّها ومن ضغائنها ومن كل ما فيها.

هذا هو الشهر الذي يجدر لكل مسلم أن يصفّي فيه ما بينه وبين إخوانه المسلمين، وخاصة بين أقاربه، وخاصة إذا أهلّ علينا عيد الفطر، وبدأت بشائره.

على كل مسلم أن يسعى إلى أخيه، مصافياً له، مصلحاً ما بينه وبينه، حتّى ترتفع صلاته إلى الله، وحتى يفتح له باب المغفرة، في كل اثنين وفي كل خميس.

(١) رواه البخاري في الأدب (٥٩٩١)، وأحمد (٦٥٢٤)، عن عبد الله بن عمرو.

إِنَّ الأخوة شعار الإسلام ودليل الإيمان، حتَّى إِنَّ النبي ﷺ كان يقول بعد ختام صلاته: «اللهم ربنا، رب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا، رب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك. اللهم ربنا، رب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»^(١).

وبهذا جعل الإسلام الإخاء بين الناس مبدأً من مبادئه الأصلية، بعد الشهادتين يأتي بعد ذلك الإخاء بين الناس، «أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة».

فلا ينبغي للناس، من أجل دنيا زائلة، ومن أجل أعراض باطلة، أو من أجل كلمة تُنقل من إنسان إلى أخيه الإنسان، من أجل غصبة للنفس، أن يقاطع أخاه، وأن يهجر أخاه، والله تعالى يناديه أن هَيَّا إلى التسامح وإلى الأخوة وإلى الصلح، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

أمَّا فساد ذات البين، فهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين.

أيُّها المسلمون، أصلحوا ما بين إخوانكم وصُفُّوا علائقكم على أساس المودة، وعلى أساس المحبة، التي هي شعار الإسلام، يقول مجاهد رضي الله عنه: إذا التقى الرجلُ الرجلَ، فضحك في وجهه، تحاتت عنهما الذنوب، كما ينثر الريح الورق اليابس من الشجر، قال: فقال رجل: إِنَّ هذا من العمل يسير. قال: فقال: ما سمعت قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٢١٧.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٥٩٨).

إِنَّ تَأْلِيفَ الْقُلُوبِ لَا يَكْثُرُ عَلَيْهِ أَنْ تَنْفَقَ مِنْ أَجْلِهِ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا.
إِنَّ أَلْفَةَ الْقُلُوبِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَإِنَّ الْأَخُوَّةَ نِعْمَةٌ جَزِيلَةٌ، عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ
اللَّهَ عَلَيْهَا، بِالْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا، وَبِتَقْوِيَةِ جَذُورِهَا دَائِمًا، بِالْمَحَبَّةِ وَالْمَصَافَحَةِ
وَالسَّلَامِ وَالتَّزَاوُرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ، أَوْ زَارَهُ، قَالَ
اللَّهُ وَجَّعَلْ: طُبَّتْ وَطَابَ مِمَّشَاكَ، وَتَبَوَّأَتْ فِي الْجَنَّةِ مَنْزَلًا»^(١).

لَا يَبِيعُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خُطْبَتِهِ:

الْأَخُوَّةُ شِعَارُ الْإِسْلَامِ، وَأَخْتُ الْإِيمَانِ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾
[الحجرات: ١٠]؛ فَالْإِيمَانُ يَقْتَضِي الْإِخَاءَ، وَيَقْتَضِي الْمَحَبَّةَ، لِهَذَا حَرَصَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ يَظَلَّ صَفَاءُ الْإِخَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضٌ.
وَحَذَّرَ مِنْ كُلِّ مَا يَشُوبُ هَذَا الْإِخَاءَ، وَمِنْ كُلِّ مَا يَكْدُرُ الْعِلَاقَ بَيْنَ
النَّاسِ، فَلِهَذَا قَالَ: «لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ».

إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مَعَ أَخِيهِ فِي بَيْعٍ وَتَرَاضِيَا عَلَى الثَّمَنِ فَلَا يَدْخُلُ آخَرُ
وَيَفْسُدُ هَذَا الْبَيْعُ، وَيَبِيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرْبِحَ هُوَ يَفْسُدُ الْبَيْعُ
عَلَى أَخِيهِ.

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ»^(٢). فَإِذَا تَرَاضَى
الْخَاطِبُ وَأَهْلُ الْمَرَأَةِ، وَاتَّفَقَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَجِيءَ آخَرُ وَيَحَاوِلَ أَنْ
يَفْسَخَ هَذِهِ الْخُطْبَةَ، نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَتْرَكَ الْخَاطِبُ قَبْلَهُ أَوْ
يَأْذَنَ لَهُ.

(١) رواه أحمد (٨٥٣٦)، وقال مخرّجه: إسناده ضعيف. والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨)،
وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الجنايز (١٤٤٣)، وابن حبان في الجنايز (٢٩٦١)، وحسنه
الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٨٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم (١٤١٢)، وأحمد (٤٧٢٢)، عن ابن عمر.

وكلما عمقت جذور الإيمان، امتدت فروع الإخاء وظلاله وثماره في النفس والحياة، وتحرّرت الأنفس من الأنانية المقيتة، وتطلعت إلى العطاء لا الأخذ، وإلى التضحية لا الغنيمة، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

كونوا إخواناً:

«وكونوا عباد الله إخواناً»، ما دام قد جمعكم إخاء الإسلام، ونسب الإسلام.

كما قال الشاعر:

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا هَتَفُوا بِبَكْرٍ أَوْ تَمِيمٍ^(٢)

وقلت في بعض أناشيدي التي ألقتها للشباب^(٣):

يَا أَخِي فِي الْهِنْدِ أَوْ فِي الْمَغْرِبِ أَنَا مِنْكَ أَنْتَ مِنِّي أَنْتَ بِي لَا تَسْلُ عَنْ عُنْصُرِي أَوْ نَسَبِي إِنَّهُ الْإِسْلَامُ أُمِّي وَأَبِي

هذا هو النسب الذي يضم المسلمين أينما كانوا، وكيفما كانوا، وحيثما كانوا، عليهم أن يكونوا إخوة متحابين، ولا يتباغضوا، ولا يضرر بعضهم لبعض كراهية، ولا بغضاء، ولا سوءاً، فإن الله امتن عليهم بنعمة الأخوة، فقال **وَجَلَّ**: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (١٣) ومسلم في الإيمان (٤٥)، عن أنس.

(٢) قول نهار بن توسعة الشكري، انظر: الكامل في اللغة والأدب (١٣٣/٣)، تحقيق محمد

أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٣) نشيد المسلمون من ديوان نفحات ولفحات ص ٢٤٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١،

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

وامتنَّ على رسوله وعلى المؤمنين فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[الأنفال: ٦٢، ٦٣].

ألف بينهم بالإسلام وبالإيمان، الذي أنساهم العصبية الجاهلية،
والنعرات القديمة، فلم يعد هناك قيسي ويمني، ومضري وربعي،
وقرشي وغير قرشي، وشمالى وجنوبى.. ضمَّهم مسجد رسول الله ﷺ
في صدره الحنون، فكان فيهم القرشيون المهاجرون من مكة من
العدنانيين، والأوس والخزرج من القحطانيين، والأوس والخزرج
أنفسهم طالما كانت بينهم حروب ودماء وعداوات طوال أيام الجاهلية،
ثمَّ جمع الله بين الجميع، بين العدنانيين والقحطانيين، بين عرب
الشمال وعرب الجنوب، بين الأوس والخزرج، فلا عصبية
ولا طوائف ولا طبقات.

أبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال
الحبشي، الجنسيات المختلفة، والطبقات المختلفة، وأهل الصفة وأغنياء
الصحابة، ضمَّهم جميعاً مسجد النبي ﷺ.

عثمان بن عفان على ثرائه، وعبد الرحمن بن عوف على نعمته
وغناه، يجلس كل منهما بجانب بلال، وبجانب أبي ذر، لا فرق بين هذا
وهذا، ولا بين طبقة وطبقة، كما يدَّعي الذين يُحتمون الصراع بين
الطبقات، والنزاع بين الناس، ويزعمون أنَّ الناس لم يكونوا إخوة قط،
ولكن كانوا طوال التاريخ أعداء طبقيين، يتصارعون ويتقاتلون.

هذه الفرية كذبها واقع الإسلام، كذبها مجتمع المدينة، كذبها مسجد
رسول الله ﷺ الذي ضمَّ في رحابه الرجل والمرأة، والغني والفقير،

والقوي والضعيف، والعربي والعجمي، ضمَّهم هذا المسجد في صدره وفي رحابه، كانوا كلهم إخوة متحابين، يصلِّي بعضهم إلى جنب بعض، ويسجد بعضهم إلى جوار أخيه، لا يعرفون إلَّا ربًّا واحدًا، ولا يتَّبعون إلَّا نبيًّا واحدًا، ولا يتلون إلَّا كتابًا واحدًا، ولا يتَّجهون إلَّا إلى قبله واحدة.

كُلُّهم وجهتهم واحدة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
وكُلُّهم على منهج واحد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [الفاتحة: ٦، ٧].

علام يتباغض النَّاس إذا كانوا كلهم إخوة، وإذا كانوا كلهم عبادًا لرب واحد، هو الله، وأبناء لأب واحد هو آدم؟! كما قال ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمِيٍّ، وَلَا لِعَجْمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»^(١).

«وكونوا عباد الله إخوانًا». أي: يا عباد الله لتجمع بينكم أخوة الإيمان، فإنَّ عباد الله يحبُّ بعضهم بعضًا، ويؤاخي بعضهم بعضًا، أمَّا عباد الهوى، وعباد الشهوات، وعباد الشيطان، فإنَّهم لا يجتمعون على قلب رجل واحد، ولا يآلف بعضهم بعضًا؛ لأنَّ الهوى قد فرَّقهم، والشيطان قد باعد بينهم، فهيئات أن يجتمعوا، وهيئات أن يلتقوا.

أمَّا من كانوا عبادًا لله، عبادًا للرحمن، فإنَّ رابطة الإيمان تجمعهم، ورحم الإسلام يضمُّهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧.

لا يظلمه ولا يخذله:

ثم بين النبي ﷺ بعد ذلك ما تقتضيه هذه الأخوة الإسلامية، أنت أخي وأنا أخوك، ولكن لهذه الأخوة حقوقاً، فأول هذه الحقوق كما ذكر النبي ﷺ ألا تظلم أخاك المسلم، ولا تخذله إن ظلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله».

لا تظلم أخاك، وكيف تظلمه وهو يرجو أن تكون له عضداً وأن تكون له عوناً وسنداً؟ إن هذا ينافي مبدأ الأخوة.

الظلم ظلمات:

وإن الله تعالى حرّم الظلم على نفسه، وحرّم الظلم على العباد أن يظلم بعضهم بعضاً، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنني حرمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تَظالموا»^(١). أي لا يظلم بعضكم بعضاً.

ويُحذّر النبي ﷺ من الظلم فيقول: «اتَّقُوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يومَ القيامة»^(٢).

والله تعالى لا يحبُّ الظالمين، ولا يهدي القوم الظالمين، ولا يكتب الفلاح للظالمين، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]. وليست خيبة الظالم في الآخرة، ويوم القيامة فحسب، ولكنها خيبة تلاحقه في دنياه، مهما يطل به المدى، ومهما يمتدُّ به العمر، فإنَّ الله يمهل ولا يهمل.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٢٠)، عن أبي ذر.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٨)، وأحمد (٥٦٦٢)، عن جابر بن عبد الله.

يروى الإمام مسلم عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]^(١).

الله تعالى يمهل الظالم حيناً، ثُمَّ يأخذه أخذ عزيز مقتدر، ﴿وَتِلْكَ الْأَقْرَى أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

كم من ديارٍ خربت بعد عمران، وكم من أسر ذلت بعد عِزٍّ، وهانت بعد كرامة، وافتقرت بعد غنى، جزاءً بما ظلموا العباد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

يغضب الله للمظلوم، خاصة المظلوم الضعيف المستضعف، الذي لا يجد من يحميه، ولا يجد له من يذود عنه، الله تعالى هو الذي يغضب له، ويشتد غضبه له، ويدافع عنه، وينتقم من ظالمه، مهما طال به الأيام.

وفي الحديث: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يُفْطِر - وفي رواية: حين يفطر - ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ: وعِزَّتِي لأُنصِرَنَّكَ ولو بعد حين»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

(٢) رواه أحمد (٩٧٤٣)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨)، وقال: حسن. وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، وحسنه الألباني لغيره في التعليقات الحسان (٨٧١)، عن أبي هريرة.

إِنَّ الْكَوْنَ لَا يَسِيرُ سَبْهَلًا، وَلَا يَمْضِي جَزَافًا! وَلَكِنْ لَهُ رَبٌّ يَشْرَفُ عَلَيْهِ وَيَرْقُبُهُ، وَيَرْقُبُ كُلَّ حَرَكَةٍ وَسَكْنَةٍ فِيهِ، فَإِذَا اعْتَدَى الْأَقْوِيَاءُ عَلَى الضَّعَفَاءِ، وَإِذَا طَغَى النَّاسُ وَاعْتَرَوْا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَوْ مِنْ جَاهٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتْرَكُهُمْ عَسَى أَنْ يَرْجِعُوا، وَعَسَى أَنْ يَقْرَعُوا الْبَابَ مَرَّةً إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا لَمْ يَتُوبُوا، وَإِذَا لَمْ يَزِدْجُرُوا، وَإِذَا لَمْ يَرْعُوا فَإِنَّ عِقَابَ اللَّهِ لَهُمْ بِالْمَرَصَادِ. اللَّهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ دَعَاءَ الْمَظْلُومِينَ.

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالْظُّلْمُ مَرْتَعُهُ يُفْضِي إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُتَبِّهُ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنْمِ^(١)

وفيما يروى من القصص يقولون:

بَنَى جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ قَصْرًا، وَشَيَّدَهُ، فَجَاءَتْ عَجُوزٌ فَقِيرَةٌ، فَبِنَتْ إِلَى جَانِبِهِ كُوْحًا، تَأْوِي إِلَيْهِ، فَرَكِبَ الْجَبَّارُ يَوْمًا، وَطَافَ حَوْلَ الْقَصْرِ، فَرَأَى الْكُوْحَ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: لَامْرَأَةٍ فَقِيرَةٍ تَأْوِي إِلَيْهِ. فَأَمَرَ بِهِ فَهَدَمَ، فَجَاءَتْ الْعَجُوزُ فَرَأَتْهُ مَهْدُومًا، فَقَالَتْ: مَنْ هَدَمَهُ؟ فَقِيلَ: الْمَلِكُ رَأَاهُ فَهَدَمَهُ. فَرَفَعَتْ الْعَجُوزُ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَتْ: يَا رَبِّ، إِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا حَاضِرَةً، فَأَيْنَ كُنْتَ أَنْتَ؟ قَالَ: فَأَمَرَ اللَّهُ جَبْرِيلَ أَنْ يَقْلِبَ الْقَصْرَ عَلَى مَنْ فِيهِ، فَقَلْبَهُ^(٢).

أَتَهَرَأُ بِالْدُّعَاءِ وَتَزْدَرِيهِ؟ وَمَا يُذَرِّكَ مَا صَنَعَ الدُّعَاءُ؟!
سِهَامُ اللَّيْلِ لَا تُخْطِي وَلَكِنْ لَهَا أَمَدٌ، وَلِلْأَمَدِ انْقِضَاءٌ
فَيُمْسِكُهَا إِذَا مَا شَاءَ رَبِّي وَيُرْسِلُهَا إِذَا نَفَذَ الْقَضَاءُ^(٣)

(١) ينسب إلى الإمام علي عليه السلام، كما في ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ص ١٨٤،

جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، ١٩٨٨م.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي (١٩٩/٢)، نشر دار الفكر، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٣) ذكرها الأبشيهي من غير نسبة في المستطرف ص ١١٧، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

دعاء المظلوم لا يضيع أبدًا.

والله تعالى عادل لا يظلم أحدًا، ولا يضيع حقَّ أحد، وإذا اقتضت حكمة الله ﷻ أن يترك الظالم المتجبر حينًا، فإنه سرعان ما يقصمه، اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

هذا الختام من القرآن بالحمد لله رب العالمين، إشارةً إلى أن قطع دابر الظالمين نعمة يجب أن يحمد الله عليها، وأن يشكر رب العالمين الذي لا يغفل ولا ينام. ومن سُكت عنه في هذه الدار فلن يفلت من قبضة العدل في الآخرة، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [مُطْعِمِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً] [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

هناك العدل، هناك الميزان المنصوب، الميزان الدقيق الحساس، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. كل إنسان يُعطي حقه، وكل مظلوم يُنصف، ويُؤخذ له حقه.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأسبُّهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يُحسب ما خانوك وعصوك ويكذبونك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك عليهم، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك». فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ:

«ما له؟ ما يقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]». فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم^(١).

أعتقهم وبرأ ذمته وخلّص نفسه من هذا الحساب الدقيق يوم القيامة الذي يقتص فيه للشاة الجماء من الشاة القراء^(٢). كما جاء ذلك في بعض الأحاديث، تنبيهاً للناس على شمول العدل، وعلى أن عدل الله يشمل المخلوقات كلّها، ثم يقول الله لها: كوني تراباً! فيقول الكافر: يا ليتني كنتُ تراباً^(٣)!

التحلل من المظالم:

وقد أمرنا النبي ﷺ أن نتحلل من مظالمنا في الدنيا قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، إنما يتحلل الناس فيه من المظالم بالحسنات والسيئات، قال ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه»^(٤).

يوم ليس فيه درهم ولا دينار، فمن كنت ظلمته في الدنيا، أكلت عليه حقاً، أو أضعت عليه مالاً، أو ضربته أو شتمته أو أهنته، أو هتكت له

(١) رواه أحمد (٢٦٤٠١)، وقال مخرّجوه: حديث ضعيف. والترمذي في التفسير (٣١٦٥) وقال: حديث غريب. وصحّح إسناده الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣١)، عن عائشة.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٨.

(٣) رواه الحاكم في التفسير (٣١٦/٢) وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٩)، عن أبي هريرة.

عرضًا، أو انتهكت له حرمة.. أي ظلم أوقعته على دمه أو ماله أو عرضه أو أي حق من حقوقه، ينتصف الله له منك، إِلَّا أَنْ يَحْلِكَ الْمَظْلُوم؟ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَسَامِحُ فِي حَقُوقِهِ، أَمَّا حَقُوقُ الْعِبَادِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْلُبُ مِنْ كُلِّ مَنَّا أَنْ يَرْضَى خَصْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِمَّا أَنْ يَعْطِيَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَإِمَّا أَنْ يَطْرَحَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ عَلَيْهِ.

ومن يدريك أَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ يَسَامِحُكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي يَتَشَاحِحُ فِيهِ النَّاسُ، يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، كُلُّ إِنْسَانٍ يَوْمَئِذٍ يَقُولُ: نَفْسِي! نَفْسِي! ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

كل شيء من مظالم العباد تظل دينًا على الظالم، لا بدَّ أَنْ يَعِيدَهُ لِأَصْحَابِهِ، قَبْلَ أَنْ يُوفِّيَهُمْ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ، وَلَا جَنْيَةٌ وَلَا دُولَارٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، يَأْخُذُ خَصْمُكَ مِنْ حَسَنَاتِكَ، فَإِذَا انْتَهَتْ حَسَنَاتُكَ وَفَرَّغَ رَصِيدُكَ تَمَامًا؛ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِكَ مِنْ ظَلَمْتَهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْكَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمَفْلَسِ؟». قَالُوا: الْمَفْلَسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمَفْلَسَ مَنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١). إِنَّ الظلم وخيم العاقبة، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨١)، وأحمد (٨٨٤٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨)، عن أبي هريرة.

كيف تظلم أخاك والواجب عليك أن تنصره؟

ف «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه»، وكيف يظلمه وهو مطلوب منه أن ينصره إذا ظلم؟ يردُّ عنه في غيبته إذا اغتیب، يدفع عنه من يعتدي عليه، يقف سندًا له أمام كل ظالم وكل طاغية، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يظلمه ولا يخذله».

ويقول النبي ﷺ: «من أذلَّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره، أذله الله وعجلَّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة»^(١).

وقال ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأً مسلمًا، عند موطن تنتهك فيه حرمة، وينتقص فيه من عرضه: إلَّا خذله الله وعجلَّ في موطنٍ يحبُّ فيه نصرته. وما من امرئ ينصر امرأً مسلمًا، في موطنٍ ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمة، إلَّا نصره الله في موطنٍ يحبُّ فيه نصرته»^(٢).

لا تُعن ظالمًا ولا تخذل مظلومًا:

الإنسان مطالب ألا يظلم، ومطالب أن يعين المظلوم، ولا يقف موقفًا سلبيًا في موقف يظلم فيه إنسان بغير حق، يقول ﷺ: «لا يقفنَّ أحدكم موقفًا يُقتل فيه رجل ظلمًا، فإنَّ اللعنة تنزل على من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفنَّ أحد منكم موقفًا يضرب فيه أحد ظلمًا، فإنَّ اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه»^(٣).

(١) رواه أحمد (١٥٩٨٥)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٧٣/٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٣٦): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. عن سهل بن حنيف.

(٢) رواه أحمد (١٦٣٦٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٨٨٤)، عن جابر، وأبي طلحة بن سهل.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣٠.

فإذا لم تُزل الظلم فُزل أنت عنه، على الأقل، اتركه ولا تشهده، ولا تقف أبداً أمام إنسان يُظلم، لا تقدر أن تدفع عنه.

مقاطعة الظالم والأخذ على يديه:

وإذا كنت قادراً ولكنت تركته، فقد خذلتَه، وخذلان المسلم لأخيه المسلم ظلمٌ بيّن، بل ينبغي عليك بحق الإسلام أن تنهى الظالم عن ظلمه وهذا من حقوقه عليك، وأن تنصر المظلوم وهذا من حقوقه عليك، وأن ترفض كل ظلم؛ لأنّه منكر ينبغي أن تنكره وتنهى عنه.

لا يجوز للمسلم مقاطعة المسلم ولا هجرانه، إلا إذا كان ذلك من أجل الدين، فمقاطعة الظالم المصّر على ظلمه واجبة في دين الله، ف«من رأى منكراً فليغيّره بيده، فمن لم يستطيع فبلسانه، فمن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

ومع أضعف الإيمان تكون المقاطعة، فلا يكفي أن تنكر بقلبك، وأن تغيّر في نفسك، وأنت تصاحبه وتصاحبه وتماسيه، وتراوحوه وتغاديه، فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَقَعَ فِيهِمُ النِّقْصُ، كَانَ الرَّجُلُ يَرَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ فَيَنْهَاهُ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْغَدُ، لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ».

ينهاه باللسان، ومع هذا يؤاكله ويشاربه ويجالسه ويتحدّث إليه، فأين الإنكار إذن؟!

قال رسول الله ﷺ: «فَضْرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ونزل فيهم القرآن، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد (١١١٥٠)، عن أبي سعيد الخدري.

وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٧٨-٨١﴾. قال: وكان رسول الله ﷺ، متكئا فجلس، وقال: «لا حتى تأخذوا على يدي الظالم، فتأطروه على الحق أطرا»^(١).

وفي حديث آخر: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». قالوا: يا رسول الله، نصره مظلوما، فكيف نصره ظالما؟! فقال: «تحجزه - أو تمنعه - من الظلم؛ فإن ذلك نصره»^(٢).

كان أهل الجاهلية يقولون: انصر أخاك ظالما أو مظلوما. أي هو مع أخيه ومع ابن قبيلته على الغرباء مهما يكن أمره، إذا غضب غضبوا له في الحق أو في الباطل، لكن الإسلام كان قد أحدث تغييرا في قلوب الصحابة، فلما قال النبي ﷺ ذلك عجب الصحابة ودهشوا، فبين النبي ﷺ لهم أن نصره أن تمنعه من الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة على صاحبه. فإذا حلت بينه وبين عقوبة الظلم وهي النار، فقد نصرته، وأدبت إليه نفعا عظيما ومكسبا جليلا.

هذه بعض حقوق المسلم على أخيه المسلم كما يصورها النبي ﷺ وكما هو مقتضى الأخوة الصحيحة.

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٨.

(٢) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، وأحمد (١٣٠٧٩)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٥)، عن أنس.

تحريم احتقار المسلم:

ثم يقول النبي ﷺ مبينًا حقًا آخر من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وهو ألاَّ يحقره ولا يزدريه أو يستعلي عليه، فيقول ﷺ: «ولا يحقره».

إنَّ الدافع إلى احتقار النَّاس والازدراء بهم هو الكبر والإعجاب بنفسه؛ لأنَّ الكِبْر ليس من خصال المؤمنين، وإنَّما الكبر من خصال الكفرة ومن صفات الشياطين.

وعلام يحتقر المسلم أخاه، ويستكبر هو في نفسه؟ لماذا تستكبر على أخيك وتحقره؟ ألأنَّك أكثر منه مالًا؟ فإنَّ النَّاس لا يتفاضلون عند الله بالمال، ولا بما ورثوا من ثروة، ولا بما في خزائهم من فضة أو ذهب، كل هذا لا مكان له عند الله، إنَّ الله يزن النَّاس بإيمانهم وبأعمالهم.

إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم:

إنَّ الإسلام لم يعتبر الكرامة والرفعة بالثروة والغنى، أو المنصب والمكانة الاجتماعية، أو اللون أو النسب، إنَّما جعل سبيل التمايز بين النَّاس عند الله التَّقوى والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنَّ النَّاس إنَّما يثقل ميزانهم عند الله بما قدَّموا من عمل الخير، ومن خير العمل، فعلام يحقر الإنسان أخاه؟

مرَّ رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟». فقال: «رجل من أشرف النَّاس، هذا - والله - حُرِّيٌّ إنَّ خطب أن

يُنكح، وإن شفع أن يشفع». قال فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرَّ رجل فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟». فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»^(١).

ونظر قوم قارون إلى قارون، ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]. فردَّ عليهم المؤمنون العارفون أصحاب البصيرة: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وكانت النتيجة أن خسف الله بقارون وبداره الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

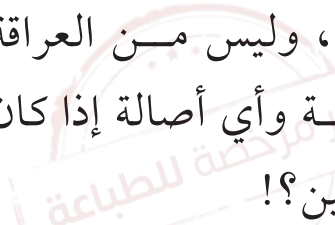
فما أغنى عنه ماله، وما أغنت عنه كنوزه التي تنوء بمفاتيحها العصبة أولو القوة.

وقصَّ الله علينا في سورة الكهف قصة رجلين، كان لأحدهما جنتان من أعناب، محفوفتان بالنخيل والزرع، دخل هذا الغني جنته، فنظر إليها شامخاً بأنفه ثاني عطفه، يقول: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. وافتخر على صاحبه فقال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. فردَّ عليه المؤمن: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. رددت الفضل إلى صاحبه، وأرجعت الأمر إلى أهله، فإنَّ المال مال الله، هو واهبه وخالقه وميسر السبيل إليه ﴿إِنْ تَرَنِ

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧)، عن سهل بن سعد.

أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * [الكهف: ٣٩، ٤٠]. وكانت النتيجة أن ذهب الله بهاتين الجنتين: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * [الكهف: ٤٢].

الناس لا يتفاضلون بالمال ولا بالغنى ولا بالمراكز ولا بالمناصب
فعلام تحقر أخاك الإنسان؟

بعض الناس يحتقرون الآخرين لأنهم أدنى منهم نسبًا، ليس من قبيلة في مستوى قبيلته، ولا من أسرة تداني أسرته، وليس من العراقة ولا الأصالة بحيث يساويه أو يدانيه، وأي عراقة وأي أصالة إذا كان الناس جميعًا ينتهون إلى آدم ومن بعد آدم إلى الطين؟! 

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء^(١)

الكل من ماء وطين، من كان من قريش أو من بني هاشم، عدناني أو قحطاني أو من باهلة، أبيض أو زنجي، كلهم من ماء وطين.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * [الحجرات: ١٣]. أكرمكم عند الله اتقاكم لله.

إنَّ الله خلق الجنة لمن أطاعه؛ ولو كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار لمن عصاه؛ ولو كان شريفًا قرشيًّا. اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. لا أنساب ولا أحساب

(١) نسبه المستعصي في الدر الفريد وبيت القصيد (١٩٠/٤، ١٩١) إلى الإمام علي بن أبي طالب.

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]. الحكم هو الميزان، ميزانك وما في كفتيه من حسنات أو سيئات، وهذا هو المرجع.

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نادى عشيرته الأقربين وقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١).

«ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٢).

نسب الجميع آدم وحواء، ونسب الجميع الماء والطين، فعلام يحتقر الإنسان أخاه؟

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، وهو نطفة الرجل، كلنا خلقنا من هذا الماء المهين، لو أَنَّ أَحَدَنَا خُلِقَ مِنَ الْمَسْكِ، وَخُلِقَ الْآخَرُونَ مِنَ الْمَاءِ الْمَهِينِ، لتفاضل النَّاسُ، وقال بعضهم لبعض: أنا خلقت من ذهب وأنت خلقت من حديد، ولكن الكل سواسية، خطب النبي النَّاسَ في حجته فقال: «أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه ص ١٨٧.

علام يحتقر الإنسان أخاه؟!

يحتقره لضآلة جسمه، أو لدمامة وجهه، أو لقصر قامته؟ يحتقره على هذه الأمور التي ليس له فيها دخل؟ فإنه لم يخلق نفسه، كل إنسان يتمنى أن يخلق طويل القامة، أبيض الوجه، ناصع الجبين، واسع العينين، على أحسن صورة، وعلى أجمل قوام، لو كان الأمر له، ولكن الله هو الخالق البارئ المصور، فهل العائب يعيب النقش أم النقّاش؟ وهل يعيب الصورة أم المصوّر؟ من عاب الإنسان في صورته فإنما يعيب من خلقه وصوّره، وهو الله وَجَلَّ.

ثم إنّ النّاس لا يتفاضلون بالأجسام ولا بالصور، إنّ النبي ﷺ يقول: «إنّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة». ثم قال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِـمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾^(١) [الكهف: ١٠٥].

هامة وقامة وضخامة، ومع هذا لا يزن عند الله جناح بعوضة!

وكان عبد الله بن مسعود صغيراً نحيفاً هزياً قصيراً، لا يملأ عين من رآه لأول وهلة، فقد أمر النبي ﷺ ابن مسعود فصعد على شجرة أمره أن يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله بن مسعود حين صعد الشجرة، فضحكوا من حُموشة (دقة) ساقه، فقال رسول الله ﷺ: «ما تضحكون؟ لرجل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٩٢٠)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٧)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٧٦): صحيح لغيره. عن علي بن أبي طالب.

الرجال لا يقاسون بالأجسام، ولا بالأموال، ولا بالأنساب، ولا بالمظاهر، إنّما يقاسون بالتقوى، والتقوى هاهنا، وأشار النبي ﷺ إلى صدره الشريف ثلاث مرات حتّى لا نغتر بالمظاهر، فالتقوى في القلب، فأياك أن تظنّ نفسك تقيّاً، وتحتقر غيرك من الناس؛ لأنّهم ليسوا أتقياء؛ لأنّ التّقوى بالقلب، والعالم بالقلوب وكاشف أسرارها هو الله.

فعلام يحتقر المسلم أخاه؟!

احتقار الآخرين دليل على الكبر:

إنّ الإيمان إذا استقرّ في القلب، عرف الإنسان قدر نفسه، وعرف مكانه من ربه، فلم يحتقر أحداً ولم يستكبر على أحد، فإنّ الكبر من خصال المنافقين، وقد قال النبي ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». فقال رجل: يا رسول الله، إنّي ليعجبني أن يكون ثوبي غسلاً، ورأسي دهيئاً، وشراكي نعلي جديداً - وذكر أشياء، حتّى ذكر علاقة سوطه - أفمن الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: «لا، ذاك الجمل، إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق، وازدري الناس»^(١). أي رفض الحق ورفض الخضوع له، ونظر للناس نظرة تعالٍ وازدراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

نسأل الله ﷻ أن يعيذنا من الكبر الذي ابتدعه إبليس فاستكبر، وكان أوّل من اقترف هذا الإثم الكبير، وقال عن آدم عليه السلام: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١) بنحوه، وأحمد (٣٧٨٩)، عن ابن مسعود.

نسأل الله أن يُعيننا من الكبر الذي صرف أصحابه عن كل فقه في قرآنه، وعن كل تدبُّر وانتفاع بكتابه، حيث قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولا يكذبه:

«المسلم أخو المسلم، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يكذبه»، أي لا يكذب عليه، فإنَّه واثق به، فكيف يثق بك ثمَّ تكذب عليه. يستمع إليك وينصت لك، ويضع أذنه عندك، يظنُّك تصدقه الحديث، وأنت تكذب عليه.

المسلم لا يكذب على المسلم، والكذب ليس من شأن المؤمنين، بل الكذب على المسلم وعلى غير المسلم من أشدَّ الحرمات، جعله الله في القرآن من خصال الكافرين: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقد أوصى النبي ﷺ بالصدق، ونهى عن الكذب، وحذَّر منه، فقال: «عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة»، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق، حتَّى يكتب عند الله صديقًا، وإيَّاكم والكذب، فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتَّى يكتب عند الله كذابًا^(١).

التقوى عمل قلبي:

ثم قال رسولُ الله ﷺ: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره ثلاثًا. أي: كرَّر الكلمة ثلاث مرَّات مع الإشارة الحسيَّة بيده إلى صدره ليثبتها في العقول والأنفس.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود.

يُبَيِّنُ أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى - الَّتِي هِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ لِلأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَهِيَ أَسَاسُ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْمَكَاسِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا وَلِبَّهَا أَمْرٌ قَلْبِي.

وإلى ذلك أشار القرآن بإضافة التَّقْوَى إلى القلوب في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

والتقوى هي معيار التفاضل المقبول عند الله، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهي عمل قلبي، لذا فلا ينبغي أن يفخر أحد على أحد ولا يتكبر أحد على أحد، ومن ثم قال النبي ﷺ بعدها: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». أي هو الشر الذي ليس بعده شر، والإثم الذي ليس فوقه إثم، يكفيك من الشر احتقار الناس والاستعلاء عليهم، مع أن بعض من تزدريه لفقره أو مظهره قد يكون عند الله أفضل منك، وقد يكون أتقى لله منك، لذا قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «رُبَّ أَشْعَثٍ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١).

كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ:

وختم رسول الله ﷺ حديثه بهذه الوصية العظيمة الجامعة: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ». وهي الوصية التي وصّى

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة.

بها الرسول أمته في حجة الوداع فقال: «إِنَّ أموالكم وأعراضكم ودماءكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^(١).

لذا فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه يوماً وهو ينظر إلى الكعبة: ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة منك^(٢).

وحرمة المؤمن تتمثل في حرمة دمه وماله وعرضه.

حرمة دم المسلم:

أول هذه الحرمات المصونة، هي حرمة دم المسلم، بأن يراق بغير حق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

قرن القرآن بين القتل والشرك، لبشاعة هذه الجريمة وفضاعتها، الشرك اعتداء على الدين، والقتل اعتداء على الحياة.

ومن أنت أيُّها الإنسان حتى تعتدي على حياة غيرك؟!

لقد جاء الدين يُحرِّم سفك الدماء، ولا يجيز للإنسان أن يعتدي على إنسانٍ بغير حق، حرَّم الأنفس المعصومة، والنفس المعصومة هي نفس المسلم، أو نفس المعاهد، بل كل من سالم المسلمين وألقى إليهم السلم وكفَّ يده عنهم فلا يجوز قتله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَتِّلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، عن أبي بكر.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٦٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي. وحسنه الألباني في غاية المرام (٤٣٥).

ولكنَّ الإنسان من قديم الزمان سوَّلت له نفسه الأمانة بالسوء أن يقتل أخاه من أجل دنيا تافهة، أو من أجل غضب طارئ، أو من أجل حسد أو كراهية أو بغضاء، أو تنافس على عرض من أعراض هذه الحياة، إلخ. رأينا ذلك في قصة ابني آدم: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

وقد قال النبي ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منها؛ لأنه أوَّل من سنَّ القتل»^(١).

الإسلام ينفي أن يقتل المسلم أخاه المسلم إلا خطأ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ [النساء: ٩٢].

استبعد القرآن كل الاستبعاد أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن، إلا أن يقع ذلك خطأ منه وبغير قصد، وجعل في ذلك دية تُسَلَّم لأهل القتل وكفارة يفعلها القاتل: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

هل في هذه الدنيا ما يستحق أن يقتل المسلم أخاه المسلم لأجله؟! هذه الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، فكيف يقتل الإنسان من أجلها أخاه المسلم؟! وقد أمره الإسلام أن يحميه ويدافع عنه ويبذل نفسه من أجله، فكيف يقتله؟!

ومن هنا يقول القرآن: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)، عن ابن مسعود.

انظروا إلى هذه الأجزاء الكبيرة، إلى هذه العقوبات الضخمة:

١ - فجزأوه جهنم.

٢ - خالداً فيها.

٣ - وغضب الله عليه.

٤ - ولعنه.

٥ - وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

جهنم والخلود فيها والغضب واللعنة من الله والعذاب العظيم.

وقال النبي ﷺ فيما رواه النسائي والترمذي: «لزوال الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجل مسلم»^(١). وجاء في حديث آخر: «لو أنَّ أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمنٍ لأكبَّهم الله في النار»^(٢).

كيف يسوغ بعد هذه النصوص المحكمات في عقل إنسان مسلم وفي ضميره وفي دينه أن تمتدَّ يده بالإثم ليقتل إنساناً بغير حق؟!

في حديث ابن مسعود الذي رواه البخاري وغيره: «أَوَّلُ ما يُقضى بين الناس يومَ القيامة في الدماء»^(٣). أي: أنَّ أَوَّلَ ما يحاسب عليه الناس في المحكمة الإلهية يوم القيامة: الدماء، الأنفس، وما ذلك إلَّا لخطرها وعظم أمرها.

ويرى عدد من الصحابة وعلماء السلف أنَّ القاتل لا توبة له لشدة

(١) رواه الترمذي في الديات (١٣٩٥)، مرفوعاً وموقوفاً ورجح الموقوف، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٨٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٨).

جرمه، وذلك لما روى بعضهم: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصَبِّ دماً حراماً»^(١). أي يضيق عليه دينه، أو يضيق عليه ذنبه، كما في بعض الروايات.

وروى معاوية عن النبي ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»^(٢).

كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا هذين الذنبتين: ذنب الشرك والموت على الكفر، وقتل امرئ مؤمن بغير حق، ويلحق به أن يساعد على قتله. لقد حذر رسول الله ﷺ الأمة من بعده أن يرتدوا إلى عصر الجاهلية الجهلاء، فيعادي بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً بغير حق، فقال في حجة الوداع أمام الجماهير المؤمنة بعد أن أمر باستنصات الناس: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٣).

فاعتبر هذا من شأن الكفار لا المسلمين: أن يضرب بعضهم رقاب بعض، كما صح عنه قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(٤).

هناك أناس يجترئون على قتل الأنفس، ولم يبح الله قتل النفس إلا في حالات ثلاث، كما في حديث ابن مسعود: «لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس

(١) رواه البخاري في الديات (٦٨٦٢)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (١٦٩٠٧)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. والنسائي في تحريم الدم (٣٩٨٤)، والحاكم في الحدود (٣٥١/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في غاية المرام (٤٤١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١). الزاني المحصن، والقصاص من القاتل، والمرتد بعد الاستتابة وإزالة ما عنده من شبهات.

والعقوبة هنا حق السلطان والأمير، حق ولي الأمر، فلا يجوز للفرد أن يجعل نفسه خصمًا وحكمًا، يأخذ سلطة الاتهام وسلطة القضاء وسلطة التنفيذ، يعاقب كما يشاء.

والقتل مسألة كبيرة، فلا يجوز للناس أن يقدموا على قتل من استحق القتل إلا بعد محاكمة عادلة، يدافع فيها عن نفسه، ثم يقضى له أو عليه.

الإسلام حرّم سفك الدماء، سواء دم المسلم أو دم غير المسلم إذا كان بينه وبين المسلمين عهد وميثاق، وجاء في حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة - أي لم يشم رائحتها - وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا»^(٢).

هذا بالنسبة للإنسان المعاهد وليس بمسلم، فكيف بالمسلم؟!

وحتى في الحروب المشروعة لم يجز الإسلام قتل من لا يقاتل، مثل المرأة والطفل والشيخ الكبير، بل كان الخلفاء الراشدون ينهون قادة الجند أن يقتلوا الرهبان الذين فرّغوا أنفسهم للعبادة، وقد روى ابن عمر أن النبي ﷺ وجد في بعض المغازي امرأة مقتولة، فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان^(٣).

الإنسان يستحق الحياة، ولا يجوز أن يُعتدى عليه ولو كان طفلاً،

(١) سبق تخريجه ص ٧٩.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٥١.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠١٥)، ومسلم (١٧٤٤)، كلاهما في الجهاد والسير.

للطفل حق الحياة واحترام النفس كالكبير تمامًا، ولذلك يجب في هذا دية كاملة وفي هذا دية كاملة، وفي هذا كفارة وفي هذا كفارة.

بل حتى الجنين لا يجوز الاعتداء على حياته بالإجهاض والإسقاط، وخاصة إذا كان بعد مرور أربعة أشهر، أمّا الإجهاض في الأربعين الأولى فهو أخف، ولكنه أيضا مجرم ومحرم، ولا يجوز اللجوء إليه إلا لضرورة يقدرها الأطباء الثقات المتخصصون، كأن يكون الحمل خطرًا على صحة المرأة أو نحو ذلك؛ لأنّ حياة الأم مقدمة على حياة الجنين، وصحتها مقدمة على صحته.

بل لو نشأ هذا الجنين من حرام، لم يجز لأمه ولا غيرها الاعتداء على حياته، كما رأينا ذلك في قصة المرأة الغامدية، التي طلبت من الرسول أن يقيم عليها الحد، لأنّها حبلى من الزنى، فرفض ذلك حتى تضع، وبعد الوضع حتى يفطم طفلها^(١)!

إلى هذا الحدّ يحترم الإسلام النفس البشرية.

وقد جاء في الحديث: «رجل قتل رجلًا متعمدًا، يجيء يوم القيامة أخذًا قاتله بيمينه، أو بيساره، وأخذًا رأسه بيمينه، أو بشماله، تشخب أوداجه دمًا في قُبُل العرش، يقول: يا ربّ سل عبدك فيم قتلني؟»^(٢)

حرمة مال المسلم:

وقد جمع الرسول ﷺ بين حرمة المال وحرمة الدم والعرض في هذا الحديث وغيره، وقد عظم الإسلام حرمة مال المسلم، قال ﷺ:

(١) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، عن بريدة بن الحصيب.

(٢) رواه أحمد (٢١٤٢)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. والترمذي في التفسير (٣٠٢٩) وحسنه،

والنسائي في تحريم الدم (٣٩٩٩)، عن ابن عباس.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال النبي ﷺ: «لا يحلُّ لمسلم أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه»^(١).

وجعل سرقة مال المسلم منافية لما يوجبه الإيمان، فقال: «لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»^(٢).

ولأجل صيانة المال والمحافظة عليه، جعل الله هذا الحد في سرقة المال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

ولم يجز الإسلام لأحد أن يأخذ مال أحد إلا بأحد طريقين:

إمّا عن طريق المعاوضة المشروعة، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وإمّا عن طريق طيب النفس بالهبة والتبرع اختياراً، كما قال ﷺ: «لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»^(٣).

وممّا يدلُّ على نظرة الإسلام لأموال النَّاس ما تقرر من أنَّ الله تعالى

(١) رواه أحمد (٢٣٦٠٥)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والبخاري (٣٧١٧) وقال: إسناده حسن. وابن حبان في الرهن (٥٩٧٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٨٦١): رجاله رجال الصحيح. وصحّحه الألباني في غاية المرام (٤٥٦)، عن أبي حميد الساعدي.

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٩.

(٣) رواه أحمد (٢٠٦٩٥)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره مقطوعاً. وأبو يعلى (١٥٧٠)، والدارقطني في البيوع (٢٨٨٦)، عن عم أبي حرة الرقاشي.

لا يقبل توبة تائب حتّى يؤدي للعباد حقوقهم، أو يستحلهم منها، بل إنّ الشهادة في سبيل الله تكفر عن الشهيد خطاياهُ إِلَّا الديون.

والإنسان لا يجوز له أن يستهين أبداً بأخذ أموال الآخرين بغير حق، ولو كان شيئاً قليلاً، فعن أبي أُمّامة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النَّار، وحرّم عليه الجنّة». فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإنّ قضيباً من أراك»^(١).

قضيب من أراك من حقّ أخيك يحرم عليك الجنّة، فما بالك بمن يأكلون أموال النَّاس بالباطل! آلاف وعشرات الآلاف ومئات الألوف من الديون على أناس ولا يدفعونها لأصحابها! وما بالك بأكل أموال النَّاس ظلماً ونهباً، أو اختلاساً، أو رشوة، أو بأيّ طريقة من الطرق! كل هذا لا يجوز.

حُرمة عرض المسلم:

ومن الحرمات المصانة حرمة العرض، والعرض: هو ما يتعلّق بسمعة الإنسان وشرفه وكرامته، سواءً كان ذلك في نفسه، أو في أهله، أو في كلّ من يعزُّ عليه، وهو ما نسّميه بمفهوم عصرنا «الكرامة»، فلا يجوز أن يهان المسلم في حضرته، أو يؤذَى في غيبته، بأيّ كلمةٍ أو إشارةٍ تسوؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٣٧)، وأحمد (٢٢٣٩).

وفي هذا الحديث أَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ حرمة العرض والكرامة للإنسان، فقرنها مع حرمة الدماء والأموال، وفعل ذلك أيضًا في غيره من الأحاديث. من ذلك: أَنَّهُ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَمَامَ الْجُمُوعِ الْمُحْتَشِدَةِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْيَوْمِ الْحَرَامِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(١).

وقد حفظ الإسلام عِرْضَ الْفَرْدِ مِنَ الْكَلِمَةِ الَّتِي يَكْرَهُهَا، تُذَكَّرُ فِي غَيْبَتِهِ وَهِيَ صَدَقٌ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ افْتِرَاءً لَا أَصْلَ لَهُ؟! إِنَّهَا حِينَئِذٍ تَكُونُ حُوبًا كَبِيرًا، وَإِثْمًا عَظِيمًا.

وفي الحديث: «مَنْ ذَكَرَ امْرَأً بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ لِيَعِيبَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَأْتِيَ بِنَفَاذٍ مَا قَالَ فِيهِ»^(٢).

وعن سعيد بن زيد: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الْاِسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٣). ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومن هنا كانت هذه العقوبة الكبيرة لهذه الجريمة وهي رمي المؤمنات العفيفات بالفاحشة، لما فيه من ضرر بالغ بسمعتهن، وسمعة أسرهن، ومن خطر على مستقبلهن، فضلًا عما فيه من حب إشاعة الفاحشة في المجتمع المؤمن.

(١) سبق تخريجه ص ٣٩٨.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٦)، وقال المنذري في الترغيب (٤٢٣٢): رواه الطبراني بإسناد جيد.

وصحَّحه السيوطي في الصغير (٨٦٧٦)، وضعَّفه الألباني في غاية المرام (٤٣٧)، عن أبي الدرداء.

(٣) رواه أحمد (١٦٥١)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٨٧٦)، عن ابن مسعود.

ولذا عدّه الرسول من الكبائر السبع الموبقات^(١)، وأوعد القرآن عليه بأشدّ أنواع الوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣ - ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقد أوجب الإسلام حدًّا شرعيًّا، هو عقوبة بدنيّة تتمثّل في ثمانين جلدة، يُحدُّ بها من قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، إلى جوار عقوبات تابعة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤، ٥].

ومعنى رمي المحصنات أي: قذفهنّ بالزنى، أو بنفي الولد. وجعل القرآن بعد الجلد عقوبة اجتماعيّة ثانية، وهي: ردُّ الشهادة وعدم قبولها. وهي عند أبي حنيفة وأصحابه لا تسقط أبدًا ولو بالتوبة، لقول الله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، كما جعل القرآن بعد ذلك عقوبة دينيّة عبّر عنها بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

أخوة الإسلام ليست كلامًا:

فاحرصوا أيُّها المسلمون على هذه الأخوة، الَّتِي مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَيْنَا، حيث يقول: ﴿فَأَصْبَحْتُ مِمَّنْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

واحرصوا على حقوقها، فليست أخوة الإسلام كلامًا يقال، ولا دعوى فارغة تُدَّعى، وإنَّما هي واجبات وحقوق، وأعمال وآداب وأخلاق. «لا تحاسدوا»، لا ينبغي للمسلم أن يحسد مسلمًا على نعمةٍ آتاها الله إياه.

«ولا تناجشوا»، في البيع، أي لا يعامل بعضكم بعضًا بالمكر والخديعة؛ فالمكر والخديعة في النار.

«ولا تباغضوا»، لا يبغض بعضكم بعضًا؛ فالبغضاء هي الحالقة، تحلق الدين، وهي داء الأمم من قبلنا.

«ولا تدابروا»، أي لا تخاصموا ولا تتقاطعوا ولا يقطع بعضكم صلته بأخيه؛ إذ لا يحل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الَّذِي يبدأ بالسلام.

نسأل الله تعالى أن يؤلِّف بين قلوبنا، ويجعلنا إخوانًا متحابين.

الدرس الثاني والثلاثون

ثلاث وصايا للمؤمنين

(الإحسان إلى الجار - إكرام الضيف - حفظ اللسان)

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِم ضَيْفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

الإيمان قول وعمل:

ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الإيمان ينتج أخلاقاً، وينتج ثماراً في سلوك الإنسان وفي تصرفاته، وفي علاقته بالله وبالناس، فمن كان مؤمناً حقاً بالله وباليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار، واستقرّ ذلك في أعماق قلبه، فإنّ هذا الإيمان العميق سينضح - ولا شك - على سلوكه.

وأول ما ينضح هذا الإيمان ينضح على معاملته للآخرين، ينضح على معاملته لجاره، وحسن استقباله لضيفه، وحفظ اللسان عن كل ما يحرم من القول؛ لأنّ صاحب الإيمان يحاسب نفسه على كل ما يقول وما يفعل، ويعلم أنّه سيحاسب على كل كلمة يقولها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

الوصية بالجار:

جاءت الوصية الأولى في هذا الحديث آمرة بإكرام الجار، والإحسان إليه، وعدم إيذائه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»^(١). وفي رواية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»^(٢). وفي رواية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره»^(٣).

والثلاثة كلها مطلوبة: إكرام الجار، والإحسان إلى الجار، وكف الأذى عن الجار.

إنَّ الإسلام دين يرفع العلاقات بين النَّاس، وخاصَّة فيمن بينهم مخالطة ومعاشرة، كالأقارب والجيران، ولهذا وصَّى الله تعالى في كتابه بالجيران، بعد أن وصَّى بحقه وحق الوالدين وذوي الأرحام، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

فالجار ذي القربى هو الجار القريب، إما القريب في المكان، وإما القريب في النسب، والجار الجنب هو البعيد في المكان، هو الذي ليس بينك وبينه هذه الصلة. أو الجار القريب لك دينًا وعقيدة، والجار الجنب هو الجار غير المسلم الذي ليس بينك وبينه صلة الإسلام ورابطة الإيمان.

كل هذه احتمالات يحتملها معنى الجار ذي القربى والجار الجنب.

وقد روي في حديث: «الجيران ثلاثة: جارٌ له حقٌّ واحد، وهو أدنى

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، وأحمد (١٦٣٧٤)، عن أبي شريح العدوي.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٤٨)، وأحمد (١٦٣٧٠)، عن أبي شريح الخزاعي.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٧)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

الجيران حقًا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فأما الذي له حق واحد: فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار. وأما الذي له حقان: فجار مسلم، له حق الإسلام وحق الجوار. وأما الذي له ثلاثة حقوق: فجار مسلم ذو رحم، له حق الإسلام، وحق الجوار، وحق الرحم^(١).

وقد وصّى الإسلام بالجار ولو كان كافرًا.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه ذبح شاة، فقال: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي؟ ثلاث مرات، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٢).

وهكذا وصّى الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالجار، حتى ظنّ الصحابة أنه سيورث الجار من الجار.

التشديد في إيذاء الجار والتشديد في عدم إكرامه:

إنَّ مَنْ آذَى جاره جدير ألا يكون الإيمان قد خالط قلبه أو وصل إلى أعماقه واستقر في سويداء نفسه، وقد حلف على ذلك رسول الله ﷺ فقال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «الجار لا يأمن جاره بوائقه». قالوا: يا رسول الله، وما بوائقه؟ قال: «شره»^(٣). وفي حديث آخر فسّر بوائقه بأنها غشه وظلمه، أو غشمه وظلمه^(٤).

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٨٩٦)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٤٥٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٠٧/٥)، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء ص ٦٧٥.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥١٥٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣) وقال: حسن غريب. وقد روي هذا الحديث الوصية بالجار من طرق كثيرة، وعن عدد من الصحابة، وفي الشيخين وغيرهما.

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٦)، وأحمد (٢٧١٦٢)، عن أبي شريح الكعبي.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٢.

فمن لا يأمن جاره غشه وظلمه وغشمه وأذاه، فإنه ليس بمؤمن، حلف على ذلك محمد رسول الله وهو الصادق المصدوق عليه صلاة الله وسلامه.

ليس بمؤمن من تناول على جاره، واعتدى على حرماته، وأذاه بسلطانه أو بقوته أو بنفوذه، وقد قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: «هي في النار»^(١).

لم يغن عنها كثرة صلاتها، ولا كثرة صيامها، ولا كثرة قيامها، ما دامت مؤذية لجيرانها.

وإذا كان لك جار، لم تصبه بأذى، ولم تمسه بسوء، ولكنه عاش إلى جوارك وهو قلق منك، ويخشى منك الضرر، ويخاف أن تهتك له سترًا، أو تطلع له على عورة، أو تقول عنه سوءًا، فلست بمؤمن.

الإيمان الحق أن يأمن جارك بوائقك، أمّا إيذاء الجار وظلمه والاعتداء عليه فحرام، بل من أشد المحرمات. يقول رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنى؟». قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: «لأن يزني الرجل بعشرة نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟». قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره»^(٢).

(١) رواه أحمد (٩٦٧٥)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والبخاري في الأدب المفرد (١١٩)، والحاكم في البر والصلة (١٦٦/٤) وصحّح إسناده ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٨٥٤)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، والبخاري (٢١١٥)، والطبراني (٢٥٦/٢٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٦١): رواه أحمد =

الجريمة تتضاعف ويتضاعف وزرها إذا كانت في حق الجار، فإنَّ الجار مفروض فيه أن يكون سترًا لجاره، وحمايةً لجاره، فكيف يهتك ستره؟ وكيف يعتدي على حُرْمه؟ وكيف يسرق منه أو يزني بامرأته؟ إنَّ عنتره العبسي في جاهليّته كان يقول^(١):

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا
فإن كان هذا خلق امرئ في الجاهليّة، فكيف يكون خلق أهل الإسلام؟!!

وسُئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال: ثمَّ أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قال: ثمَّ أي؟ قال: «أن تُزاني حليّة جارك»^(٢).

وكذلك أعدَّ الله الويل لمن يبخل على جيرانه بالأموال التي يتعاورها النَّاس بينهم، كالقدر والدلو والإبرة والفأس والقدوم والمنخل وما شابه ذلك، ممَّا يحتاج إليه الجيران بعضهم من بعض، وهذا هو الَّذي سمَّاه القرآن «الماعون»، وهو كل ما يستعين به النَّاس في حاجاتهم اليوميّة.

قال الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

فمنعهم الماعون دليل على أنَّ صلاتهم لم تنفعهم، وعلى أنَّ صلاتهم

= والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات. وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٦)، عن المقداد بن الأسود.

(١) شرح ديوان عنتره للخطيب التبريزي ص ٢٠٨، تحقيق مجيد طراد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، عن ابن مسعود.

لم تدخل إلى أعماق قلوبهم، فتنهاهم عن المنكر، وتردُّهم عن الفحشاء، وتوقظ قلوبهم فتملأها بالخشية لله، والرحمة بالناس.

فكأنه ليس مطلوباً من الإنسان عدم إيذاء جاره فحسب، بل مطلوب منه أن يكون بينه وبين جاره من حسن الصلة وقوة الرابطة، ما يجعل جاره يطمئن ويأمن ألا يصيبه منه أذى.

إكرام الجار:

لذا فإنَّ من حقوق الجار على جاره أن يكرمه، وأن يحسن إليه بكل ما استطاع من الإحسان.

فقد ورد فيما روي عن النبي ﷺ: «من أغلق بابَه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدري ما حقُّ الجار؟ إذا استعانك أَعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنَّأته، وإذا أصابته مصيبة عزَّيته، وإذا مات اتَّبع جنازته، ولا تستطيل عليه بالبناء تحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتارٍ قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، أتدرون ما حق الجار، والذي نفسي بيده ما يبلغ حق الجار إلا قليلاً ممَّن رحم الله». فما زال يوصيهم بالجار حتَّى ظنُّوا أنَّه سيورثه^(١).

(١) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١١٣)، وقال: سويد بن عبد العزيز وعثمان بن عطاء وأبوه ضعفاء، غير أنَّهم غير متهمين بالوضع، وقد روي بعض هذه الألفاظ من وجه آخر ضعيف. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٠): ولعل قوله: «أتدري ما حق الجار...» إلى آخره في كلام الراوي غير مرفوع، لكن قد روى الطبراني (٤١٩/١٩) عن معاوية بن حيدة قال: قلت: يا رسول الله ما حق الجار عليَّ؟ =

هذا هو الجار، وهذا هو حق الجار.

ويقول رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم»^(١). وفي حديث آخر: «أيما أهل عَرْصَة (حي أو ساحة) أصبح فيهم امرؤٌ جائع، فقد برئت منهم ذمّة الله تعالى»^(٢).

وفي الحديث: «أول خَصْمين يوم القيامة جاران»^(٣). فُسِّر هذا بحديث آخر: «كم من جار متعلّق بجاره يوم القيامة، يقول: يا ربّ، هذا أغلق بابَه دوني، فمَنع معروفه»^(٤).

= قال: «إن مرض عدته، وإن مات شيعته، وإن استقرضك أقرضته، وإن أعوز سترته...». فذكر الحديث بنحوه. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٥٠/١ - ٣٥١): ورفع هذا الكلام منكراً، ولعله من تفسير عطاء الخراساني. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٤٦/١٠) بعد أن ذكر روايات الحديث: وأسانيدهم واهية، لكن اختلاف مخرجها يُشعر بأن للحديث أصلاً.

(١) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (٢٥٩/١)، وحسّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمى في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٥)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو يعلى (٥٧٤٦)، والحاكم في البيوع (١١/٢)، وذكره ضمن عدة أحاديث، وقال: هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب، احتساباً لما فيه الناس من الضيق، والله يكشفها، وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب. وقال الذهبي: عمرو بن الحصين العقيلي تركوه، وأصبع بن زيد الجهني فيه لين. عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد (١٧٣٧٢)، وقال مخرّجوه: حديث حسن. والطبراني (٣٠٣/١٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٦٦): رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٧٢): رواه أحمد والطبراني بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير أبي عشانة وهو ثقة. وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٣)، عن عقبة بن عامر.

(٤) رواه البخاري في الأدب (١١١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٤٦)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨١): حسن لغيره. عن ابن عمر.

ولهذا سأل الإمام أحمد أحد تلاميذه، إنني أسمع السائل في الطريق يقول: إنني جائع. فقال: قد يصدق وقد يكذب. قلت: فإذا كان لي جار أعلم أنه يجوع؟ قال: تواسيه. قلت: إذا كان قوتي رغيفين؟ قال: تطعمه شيئاً^(١).

هذا هو الإسلام، ورعايته لحقوق الجيران، وأول حقوقهم: كف الأذى عنهم.

وثانيها: إكرامهم والإحسان إليهم، وأن تعلمهم إذا جهلوا، وأن تنصح لهم بالمعروف.

الصبر على أذى الجار:

ثم الحق الثالث للجار على جاره: أن تصبر على أذاهم. فليس حق الجوار كف الأذى فحسب، بل احتمال الأذى. فقد روى أبو ذر عن النبي ﷺ أن مَن يحبُّهم الله: رجلاً له جار سوء، فهو يؤذيه ويصبر على أذاه، فيكفيه الله إياه بحياة أو موت^(٢).

الجار الصالح نعمة والجار السوء نقمة:

أيُّها المسلمون، إنَّ الجار الصالح نعمة سابعة، وستر جميل، حتَّى إنَّ النبي ﷺ جعل الجوار الصالح من عناصر السعادة، وجعل الجوار السوء من عناصر الشقاء، والتعاسة في الدنيا.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٣٥٢/١).

(٢) رواه أحمد (٢١٥٣٠)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في الجهاد

(٨٨/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

يقول عليه السلام: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والجار الصالح، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»^(١).

وفي حديث آخر: «ثلاث من الفواقر (أي من المصائب الكبرى، ومن الرزايا الثقيلة التي تكسر فقار الظهر): إمام إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر. وجار السوء، إن رأى خيراً دفنه، وإن رأى شراً أذاعه. وامرأة إن حضرتك آذتك، وإن غبت عنها خانتك»^(٢).

فالجار السوء من الفواقر، ومن مصائب الدنيا.

من علامات حسن الخاتمة حب الجيران:

والجار الصالح من سعادة الدنيا ومن نعم الله، ينفع الإنسان بها في الدنيا وفي الآخرة، حتى إن الرسول ﷺ يقول: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله». قيل: وما استعمله؟ قال: «يفتح له عمل صالح بين يدي موته حتى يرضى عنه من حوله»^(٣). وفي رواية: «إذا أراد الله بعبده خيراً عسّله». قيل: وما عسّله؟ قال: «يُحَبِّبُهُ إِلَى جِيرَانِهِ»^(٤).

(١) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٢)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه الطبراني (٣١٨/١٨)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٥٣/١)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٣): رواه الطبراني بإسناد لا بأس به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٦٠): رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه، وبقية رجاله وثقوا. عن فضالة بن عبيد.

(٣) رواه أحمد (٢١٩٤٩)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وابن حبان في البر والإحسان (٣٤٢)، والحاكم في الجنائز (٣٤٠/١) وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي. عن عمرو بن الحمق.

(٤) رواه الخرائطي في مكارم الخلاق (٢٦٣).

وفي الحديث: «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأدينين، إلَّا قال: قد قبلت علمكم فيه، وغفرت له ما لا تعلمون»^(١).

اتِّساع مفهوم الجار:

الجار الجار أيُّها المسلمون.

فقد كان سلفنا يقولون: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

وكان النبي ﷺ يقول: «اللهمَّ إِنِّي أعوذ بك من جار سوء في دار المُقامة، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ»^(٢).

ولم تقتصر وصية الرسول ﷺ على الجار الملاصق لك في السكن، بل أكثر من ذلك. فقد قيل: إِنَّ من صَلَّى معك الصبح في المسجد فهو جار.

وقال بعضهم: من سمع النداء فهو جار. ورُوِيَ أَنَّ الجار أربعون بيتًا من حولك.. وكلهم جيران، وأحقهم من كانوا إليك أقرب، فهو أولى وحقه أوكد.

فقد سألت السيِّدة عائشة رسول الله ﷺ قائلة: لي جاران إلى أيهما أهدي؟ فقال: «إلى أقربهما منك بابًا»^(٣).

(١) رواه أحمد (١٣٥٤١)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وابن حبان في الجناز (٣٠٢٦)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح بشواهده. والحاكم في الجناز (٣٧٨/١)، وصحَّح إسناده على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. عن أنس.

(٢) رواه النسائي في الاستعاذة (٥٥٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٧)، والحاكم في الدعاء (٥٣٢/١) وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الشفعة (٢٢٥٩)، عن عائشة.

وكل أهل حي هم في الحقيقة جيران، لبعضهم على بعض حق الجار على جاره.

هذه هي وصية الإسلام بالعلاقات الإنسانية وبالصلوات الاجتماعية، ليعيش الناس في أمنٍ وطمأنينةٍ واستقرار، حتى يأمن كل إنسان جاره ولا يخاف بوائقه، ولا يظل منه في رعب، خشية أن يوقعه في مكيدة، وأن يطلع له على عورة، أو يهتك له سترًا.

فيا أيها المسلمون، حافظوا على حقوق جيرانكم، وارعوها، وأكرموا الجار، وأحسنوا إليه، ولا يؤذ أحد جاره، وإن ظلم وجار.

الوصية بالضيف:

ثم أوصى النبي ﷺ بالضيف، فقال: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

الضيف ذلك الشخص الذي ينزل عند الإنسان، دُعي أو لم يُدع، وخاصة إذا كان غريبًا مسافرًا، ليس له أهل ولا دار إقامة بهذا البلد، فهذا حقه أن يُكرم، وأن يُحسن إليه.

إكرام الضيف حق واجب، حتى إن النبي ﷺ أباح له أن يطالب بهذا الحق.

عن عقبة بن عامر، أنه قال: قلنا لرسول الله ﷺ: إنك تبعثنا، فننزل بقوم لا يقروننا، فما ترى في ذلك؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: «إذا نزلتم بقوم، فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا، وإن لم يفعلوا، فخذوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٦١)، ومسلم في اللقطة (١٧٢٧)، عن عقبة بن عامر.

وعن أبي هريرة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَيُّمَا ضَيْفٍ نَزَلَ بِقَوْمٍ، فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مُحْرُومًا، فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَدْرِ قِرَاهِ، وَلَا حَرْجَ عَلَيْهِ»^(١).

ذهب أبو هريرة إلى أرضٍ فاستضافهم، فلم يُضَيِّفُوهُ، فتنحى ونزل، فدعاهم إلى طعامه، فلم يُجِيبُوهُ، فقال لهم: لا تُنزلون الضيفَ، ولا تجيبون الدعوة! ما أنتم من الإسلام على شيء. فعرفه رجل منهم، فقال له: انزل عافاك الله. قال: هذا شر وشر، لا تُنزلون إلَّا من تعرفون^(٢).

الإسلام أمر بالبر بابن السبيل:

والإكرام الذي أمر به الإسلام أن يكرم الإنسان من يعرف ومن لا يعرف، بل من لا يعرف أولى، فإنَّ هذا المجهول لا يجد له دار قرار، ولا يجد له معينًا، فهو أولى أن يعان، هذا هو ابن السبيل الذي أكَّد القرآن حقَّه، وجعل له حقًّا في الزكاة، وحقًّا فيما بعد الزكاة، ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٌ خَفِيٌّ﴾ [البقرة: ١٧٧].

إكرام الضيف سنة نبينا وسنة أبينا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام:

وقد وصَّى رسول الله ﷺ بحق الضيف، وحرص عليه أصحابه من بعده، حتَّى إنَّ عبد الله بن عمرو يقول: من لم يُضَيِّفْ فليس من محمَّد ﷺ، ولا من إبراهيم ﷺ^(٣). وقد رُوِيَ هذا عن صحابي آخر، هو عبد الله بن الحارث بن جزء^(٤).

(١) رواه أحمد (٨٩٤٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والحاكم في الأُطعمة (١٣٢/٤)، وصحَّحه، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٣٠).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٣٥٦/١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) رواه سعيد بن منصور في الجهاد (٢٤٣٧).

فكلُّ من نبينا محمد ﷺ وأبيه إبراهيم كان مكرماً لضيافته، ورُوي أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يُسمَّى أبا الضيفان^(١)، وكان يمشي الميل والميلين في طلب من يتغذى معه^(٢).

وقد ذكر الله لنا في القرآن قصة من كرمه وإكرامه لضيافته، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]. رأى وجوهاً غريبة، هي وجوه الملائكة الذين ذهبوا يبشرونه بسلام حليم، وذهبوا لإهلاك قوم لوط الذين شاعت فيهم الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، كانوا يأتون الذكران من العالمين، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم.

﴿فَرَاغَ﴾ إبراهيم ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. رغم أنَّه لم يكن يعرف أحداً منهم، وأنَّه أنكر صورتهم، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]. وهذا شأن الرجل الكريم مع ضيوفه، إذ يحثُّهم على الطعام ويدعوهم إليه، ويأتي إليهم بطعامه وجائزته في غير جلبة ولا ضوضاء.

ولكن ضيوف إبراهيم لم يأكلوا، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَكُمُ عَلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨].

هذا هو شأن إبراهيم عليه السلام، وشأن محمد ﷺ، وشأن أصحابه الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

جاء ضيف إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي

(١) رواه هناد بن السري في الزهد (٣٤٨/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٥/٣)، عن عكرمة قوله.

(٢) رواه هناد بن السري في الزهد (٣٤٧/١)، عن عطاء قوله.

بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت: مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء^(١).

ليس في أبيات محمد ﷺ إلا الماء، وهو أكرم الخلق إلى الله، ولكنه مع ذلك لم يشبع من خبز الشعير، وكان يمضي الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، لا يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، ولم يُطه طعام، كما تروى السيِّدة عائشة رضي الله عنها^(٢).

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «من يُضيف هذا الليلة رحمه الله؟». فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامراته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أننا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقمي إلى السراج حتى تطفئي. فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال: «لقد عجب ربكما من صنعكما الليلة». وأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]^(٣).

حق الضيف ثلاث ليال:

هذا هو هدي الإسلام، ألا يشعر غريب مسلم أنه بدار هوان، أو بأرض مضيعة، حيثما نزل في ديار الإسلام.

بل جعل بعض العلماء حق القرى وحق الضيافة للمسلم والكافر، وإن كان حق المسلم أوكد.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٨)، ومسلم في الأشربة (٢٠٥٤)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢).

(٣) وهو تكملة الحديث قبل السابق.

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة»^(١).
والإسلام لم يأمر بالتكلف للضيف، بل يقدم الإنسان ما استطاع. في أول ليلة عليه أن يكرمه ويتحفه قدر استطاعته، ولهذا سماها النبي ﷺ «جائزته»^(٢). ثم بعد ذلك يطعمه من طعام أهله ويسقيه من شراب أهله.
وقال سلمان رضي الله عنه: «نهينا أن نتكلف للضيف»^(٣).

والمسألة ليست فيما يقدم من طعام وشراب، وليس الأمر بالكَمِّ، ولا بالحجم، فحسن اللقاء، أحسن عند الإنسان من زخم الغذاء. وقد قال بعض الصحابة: البر شيء هين: وجه طلق، وكلام لين^(٤).
لا حق للضيف بعد ثلاث، بل لصاحب الدار أن يطلب منه النزوح.
وقال ﷺ: «ولا يحلُّ له أن يثوي عنده حتَّى يُخرجه»^(٥). أي حتَّى يخرجه، وحتى يضيق صدره.

وفي حديث آخر: «ولا يحلُّ لرجلٍ مسلم أن يُقيم عند أخيه حتَّى يؤثمه». قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال: «يُقيم عنده ولا شيء له يقرِّيه به»^(٦).

- (١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في اللقطة (٤٨) (١٤)، عن أبي شريح.
- (٢) جزء من الحديث السابق.
- (٣) رواه البزار (٢٥١٤)، والطبراني (٢٣٥/٦)، والحاكم في الأُطعمة (١٢٣/٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: سنده لين. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣٩٢).
- (٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٧٠٢)، من كلام ابن عمر.
- (٥) رواه البخاري في الأدب (٦١٣٥)، عن أبي شريح الخزاعي.
- (٦) رواه مسلم في اللقطة (٤٨) (١٥).

بهذا أمر الإسلام أهله أن يعاملوا النَّاس، ليكون المسلم سمحاً كريماً، في كل علاقاته الإنسانية. يريد للمسلم أن يكون في حياته سخيَّ النفس باسط اليد، معواناً للنَّاس جميعاً، القريب والبعيد، الجار المقيم والضيف الغريب. إذا علم النَّاس هذا العلم، وتأدَّبوا هذا الأدب، وتخلَّقوا بهذا الخلق، كانوا جديرين بأن يكونوا من أهل الإيمان الكُمَّل.

خطورة اللسان:

ثم تأتي الوصية الثانية في هذا الحديث وهي قوله ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

إنَّها وصية بحفظ اللسان، هذا العضو القليل الجِزْم، الكبير الجِزْم، الذي تستطيع كلمة تخرج منه أن تصنع أشياء كثيرة من الخير أو الشر، كلمة من اللسان قد توقد ناراً، وتُنشِب حرباً، وتقطِّع أواصل، ولهذا قال النَّاس من قديم: رب قول أنفذ من صول، ورب كلمة سلبت نعمة، ورب حرب شَبَّت من لفظة. وقال الشاعر:

أَحْفَظُ لِسَانَكَ أَتِيهَا الْإِنْسَانُ لَا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ تُعْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ^(١)

وقال آخر:

جَرَّاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا التَّيَّامُ وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ^(٢)
الجرح الذي يأتي عن السَّكَّين أو السيف يلتئم ويندمل، أمَّا جرح اللسان فإنَّه لا يلتئم؛ لأنَّه يجرح المشاعر والكرامة.

(١) سبق عزوه ص ٣٣١.

(٢) سبق عزوه ص ٣١٢.

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجُلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ وَعَثْرَتُهُ بِالرَّجُلِ تُشْفَى عَلَى مَهْلٍ^(١)

إذا كان الحكماء والشعراء يحذرون من قديم من عثرات اللسان،
لنجاة الإنسان في الدنيا، فإنَّ الرسول ﷺ يحذر من آفات اللسان لنجاة
الإنسان في الآخرة، وفي هذا يقول ﷺ: «من صَمَتَ نَجَا»^(٢).

أي أنَّ في الصمت نجاة، ولكن إذا كان لا بدَّ من الكلام فليتكلم
الإنسان بخير، ولينطق بمعروف.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

إنَّ أكثر الكلام لغو، وأكثر الكلام لا خير فيه، فعلى من آمن بالله
واليوم الآخر أن يحترز، وعليه أن يحذر، وعليه أن يخزن هذا اللسان،
فقد كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يحلف بالذي لا إله إلا هو ويقول:
ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان^(٣).

إنَّ اللسان في حاجة إلى أن يسجن، وفي حاجة إلى أن يخزن.

وكان معن بن عيسى يقول: لساني سَبُع، إن أرسلته أكلني^(٤).

(١) سبق عزوه ص ٣٣٢.

(٢) رواه أحمد (٦٤٨١)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والترمذي في صفة القسامة (٢٥٠١)، وقال:
حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وصحَّحه الألباني في الجامع الصحيح
(٦٣٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه الطبراني (١٤٩/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٨٤): رواه الطبراني بأسانيد،
ورجالها ثقات.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٣٢.

ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد:

إذا آمن الإنسان بالله علم أن الله تعالى معه، وأنه يرصد عليه أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، وأن كل كلمة يلفظها فوه، إنما يسمعها الله، الذي وسع سمعه الأصوات كلها، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

كان المشركون يتحدثون، فينزل الوحي يكشف سترهم ويفضح سرهم ويخبر الرسول ﷺ عما يتناجون به من أسرار. فقال بعضهم لبعض: إذا تحدثتم فأسروا القول حتى لا يسمعكم إله محمد ويفضحكم. فنزل قول الله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

فمن كان يؤمن بالله، وعلم أن الله يسمع، استحيا من الله أن يسمع منه ما لا يحب، أن يسمع منه شرًا أو فحشًا أو سبابًا أو غيبة أو نميمة أو زورًا.

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، يعلم أن قد سجل في صحيفته كل ما قال من لغو ونفع، وهزل وجد، وشر وخير، وفحش وتأدب، وأنه سيقراه أمام الأمم يوم الحساب ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

يقول الحسن البصري: يا ابن آدم، قد فتحت لك صحيفة، ووكلك ملكان، يكتبان ما لك أو عليك، فاعمل ما شئت، وتكلم ما شئت، وأقلل أو أكثر^(١).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٨٥).

الكل مسجل، والكل مكتوب، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ * إِذْ يَنْقَلِي الْمَتَلَقَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ [ق: ١٦ - ١٨].

قلم التسجيل الإلهي يحصي على الإنسان كل قول يقوله. كل كلمة يلوكها لسانه مسجلة محصاة عند الله تعالى، في صحائف لا تبلى، ولا تأكلها الأرضة، ولا تنال منها الآفات، حتى يقرأها الإنسان، فيجدها عند الله حاضرة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فليقل خيرًا أو ليصمت:

من هنا أوصى النبي ﷺ كل من كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر أن يقول خيرًا أو ليصمت، ففي السكوت راحة، وفي الصمت سلامة، وقد قيل: إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.

فالسكوت أسلم لمن لم يُحسِن أمر نفسه، ولمن لم يضبط زمام لسانه. عن أسود بن أصرم قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «هل تملك لسانك؟». قلت: فما أملك إذا لم أملك لساني؟! قال: «فهل تملك يدك؟». قلت: فما أملك إذا لم أملك يدي. قال: «فلا تقل بلسانك إلا معروفًا، ولا تبسط يدك إلا إلى خير»^(١).

(١) رواه الطبراني (٢٨١/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٦٠)، عن أسود بن أصرم المحاربي.

املكُ لسانك ويدك، ف «المسلمُ من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(١).
والإنسان يظل مالكا للكلمة ضابطا لها قادرا عليها حتى تخرج من
لسانه، فإذا خرجت كانت هي التي تملكه، وصار عليه تحمُّل تبعاتها عند
الله وعند الناس.

استقامة اللسان دليل على الاستقامة:

إنَّ استقامة اللسان هي الدليل على استقامة الإنسان، وعلى استقامة
قلبه، وإذا لم يستقم اللسان لم تستقم بقية الجوارح، يقول سيِّدنا
عليٌّ رضي الله عنه: غشُّ القلوب يظهر على صفحات الوجوه، وفتلت الألسن!
ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]^(٢).

وقد جاء في الحديث: «إذا أصبح ابن آدم فإنَّ أعضاءه تكفر اللسان»^(٣)،
تقول: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت
اعوجبنا»^(٤).

واستقامة اللسان دليل على استقامة القلب الذي هو محل الإيمان،
يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يستقيم إيمان عبدٍ حتَّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم
قلبه حتَّى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجلٌ لا يأمن جاره بوائقه»^(٥).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (٢٦٧/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أي تذل وتخضع، والتكفير: أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريبا من الركوع كما يفعل من
يريد تعظيم غيره.

(٤) سبق تخريجه ص ١٢٣.

(٥) سبق تخريجه ص ١٢٣.



من صفات المؤمنين ضبط اللسان:

فعلى الإنسان المسلم أن يروض نفسه على استقامة اللسان حتى ينضبط، فلا يتركه كالسبع المفترس، ولا يتركه كالمنشار ينهش في أعراض الناس، ويلتهم كرامات الخلق، يكذب ما شاء أن يكذب، يخوض في الباطل، يسترسل في الفجور، يسعى بالنميمة، ينطلق في الغيبة، يمدح من لا يستحق المدح، يذم من ليس أهلاً للذم، يسخر من الناس، إلى آخر آفات اللسان التي جعلها الإمام الغزالي عشرين آفة، وأوصلها بعض العلماء إلى اثنين وسبعين آفة، كلها جديرة بأن تُردى الإنسان في الهاوية، وأن تلقى في النار وبئس القرار.

يروى البخاري عن النبي ﷺ ويقول: «إِنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات. وإنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم»^(١).

كلمة لا يهتم الإنسان بها، ولا يأبه لها ترفعه درجات، وكلمة لا يُعيرها الإنسان بالاً، ولا يكثر بنتائجها، يهوي بها في جهنم.

وقد ورد في حديث آخر: «يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً»^(٢).

لهذا كان على الإنسان أن يضبط هذا اللسان، وأن يحاول التحكم فيه، وألاً ينطق إلا بخير.

ودخل عمر على أبي بكر رضي الله عنه وهو آخذ بلسانه هكذا، يقول: ها، إنَّ ذا أوردني الموارد^(٣). أي موارد الهلكة والعطب.

(١) سبق تخريجه ص ٣٣٠.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣٠.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٢٩.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه»^(١).

وكان عبد الله بن مسعود يلبي على الصفا والمروة، ويقول: لبيك اللهم لبيك. ثم يشير إلى لسانه ويقول: يا لسان، قل خيراً تغنم، واسكت عن شرِّ تسلم، قبل أن تندم. فقال له بعضهم: هل سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شيء تقوله لنفسك؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»^(٢).

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل بجملة من خصال الخير، ثم قال له: «ألا أدلك على مَلَكٍ ذلك كله؟!». قال: بلى يا رسول الله. فأشار إلى لسانه وقال: «كُفَّ عليك هذا». فقال: يا رسول الله، أومؤاخذون نحن بما نتكلم به؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ثكلتك أمُّك يا معاذ! وهل يكبُّ النَّاسُ في النَّارِ على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إِلَّا حصائدُ ألسنتهم؟!»^(٣).

إنَّ النَّاسَ يستهترون بالكلمات، فيلقونها جزافاً، لا يلقون لها بالاً، ولا يعبؤون بثمراتها، وما تفعل في الدُّنيا والآخرة، ولكنَّ هذا اللسان جدير بأن يردي الإنسان في الهاوية.

إنَّ عائشة رضي الله عنها قالت كلمة عن ضرة لها - وهي صفية بنت حيي - أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، قالت: إنَّها قصيرة. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة! لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»^(٤).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٦٤).

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣٠.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٨٨.

(٤) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٢٧). عن عائشة.

«إنَّها قصيرة»، كلمة جديرة بأن تـدنس ماء البحر، وأن تكـدِّره، فما بالكم بمن يجلسون وكل مجالسهم لغو وهذر، أو فحش وسباب، أو غيبة ونميمة، أو انتهاك لحرمة الله؟!

وأثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك». مراراً، ثم قال: «من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»^(١).

كلمة واحدة قالها كان لها هذا الأثر لو سمعها من قيلت فيه؛ لأنَّه مدح وبالع في المدح، فما بالكم بمن يمدحون النَّاس بما ليس فيهم بالباطل والزور والبهتان؟!

وجاء قوم إلى النبي ﷺ، فقالوا: أنت والدنا، وأنت سيدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأطولنا علينا طويلاً، وأنت الجفنة الغراء. قال ﷺ: «قولوا بقولكم، لا يـسـتـهـويـنـكم الشيطان»^(٢). أي لا تسترسلوا في المدح، فإنَّ هذا جدير بأن يوقعكم في شباك الشيطان من كثرة الكلام والمبالغة في المديح.

كل هذا ليضبط الإنسان لسانه، وليكون حذراً على نفسه، فلا يتكلَّم إلا بما يعلم أنَّ الله تعالى يرضى عنه، أو على الأقل بما يعلم أنَّه لا إثم فيه ولا شر فيه.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢)، ومسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٠)، عن أبي بكرة.

(٢) رواه أحمد (١٣٥٢٩)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٧٨)، عن أنس.

أَمَّا مَا كَانَ الضَّرَرُ فِيهِ وَاضِحًا، أَوْ كَانَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ، أَوْ كَانَ نَفْعُهُ مُخْتَلِطًا بِالضَّرَرِ، فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعَهُ، وَأَنْ يَجْتَنِبَهُ، وَأَلَّا يَتَحَدَّثَ إِلَّا بِمَا يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِ نَفْعًا لَهُ، أَوْ نَفْعًا لِلْمُسْلِمِينَ.

أَمَّا أَنْ يُطْلَقَ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ بِغَيْرِ قِيودٍ وَلَا حُدُودٍ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَلَفُظُ بِهِ لِسَانُهُ مَخْزُونٌ لَهُ، وَمَحَاسِبٌ عَلَيْهِ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

يَكْتُبُونَ وَيَسْجُلُونَ أَعْمَالَهُمْ وَأَقْوَالَهُمْ، وَلَا يَغَادِرُونَ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَوْهَا وَحَفِظُوهَا ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنُوزًا * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

* * *



الدرس الثالث والثلاثون

الطيرة والكهانة والسحر

روى البزار بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سُحر له»^(١).

احترام سنن الله في الكون:

غرس الإسلام في نفوس أبنائه أن هذا الكون لا يسير جزافاً، أو يمشي على غير هدى، ولا يسير وفق هوى أحد من الخلق، فإن أهواءهم مع عماها وضلالها متضاربة متنافرة، ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

لقد علّم الإسلام أبنائه أن هذا الكون مربوط بقوانين مطردة، وسنن ثابتة، لا تتبدل ولا تتحول، كما أعلن القرآن ذلك: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

لقد تعلّم المسلمون من كتاب ربهم وسنة نبيهم، أن يحترموا هذه السنن الكونية، ويطلبوا المسببات من أسبابها التي ربطها الله بها،

(١) رواه البزار (٣٥٧٨)، والطبراني (١٦٢/١٨)، وجوّد المنذري في الترغيب والترهيب إسناد البزار (٤٦٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٨٠): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. عن عمران بن حصين.

ويعرضوا عمّا يُقال عن الأسباب الخفية المزعومة، التي يروّجها عادةً سدنة المعابد، ومحترفو الدجل، والمتاجرون بالأديان.

الإسلام يحارب الأوهام والخرافات:

من أجل هذا جاء الإسلام حرباً على الأوهام والخرافات التي أشاعتها الجاهليّة العمياء، من هذه الخرافات: التطير، والكهانة، والسحر. فقد برى النبي ﷺ في هذا الحديث من هذه الثلاثة، ممّن باشرها واقتربها، وممّن أمر بها أو دعا إليها أو أتى أهلها طالباً منهم إياها: التطير والكهانة والسحر.

وقال في حديث آخر: «العيافة والطّيرة والطّرق من الجبّت»^(١).

العيافة: الخط في الرمل، وهو ضرب من التكهن، لا يزال حتّى اليوم.

الطرق: الضرب بالحصى، وهو نوع من التكهن أيضاً.

الجبّت: ما عبد من دون الله تعالى.

ويقول ابن مسعود: من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً، فسأله فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد^(٢).

(١) رواه أحمد (٢٠٦٠٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الطب (٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٠٨)، وحسنه النووي في رياض الصالحين (١٦٧٩)، وصحّحه السيوطي في الصغير (٥٧٤١)، عن قبيصة بن المخارق.

(٢) رواه أبو داود الطيالسي (٣٨١)، والبزار (١٨٧٣)، وأبو يعلى (٥٤٠٨)، والطبراني في الكبير (٧٦/١٠)، والأوسط (١٤٥٣)، وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٦١٥)، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٤٨)، عن ابن مسعود موقوفاً.

معنى التطير وقدمه في البشرية:

ما معنى التطير؟ التطير: هو التشاؤم ببعض الأشياء من الأمكنة أو الأزمنة أو الأشخاص أو الأرقام، أو غير ذلك من الأوهام التي راجت سوقها قديماً.

ولا تزال للأسف رائجة عند كثير من الجماعات والأفراد، وقديماً قال قوم صالح لصالح: ﴿أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وكان فرعون وقومه إذا أصابتهم سيئة ﴿يَطَيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وكثيراً ما قال الكفار الضالون لدعاتهم ورسول الله إليهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

وكان جواب هؤلاء المرسلين: ﴿طَيَّرْكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]. أي سبب شؤمكم مصاحب لكم، وهو كفركم وعنادكم، وعتوكم على الله ورسوله.

وكان لعرب الجاهلية في هذا الجانب سبح طويل، واعتقادات شتى، حتى جاء الإسلام فأبطلها، وردّهم إلى النهج العقلي القويم، نهج الأسباب والمسببات.

ونظم النبي ﷺ التطير والكهانة والسحر في سلك واحد كما في هذا الحديث الذي نتناوله بالشرح.

التطير لا يقوم على أساس من العلم والواقع:

وهذا التطير أمر قائم على غير أساس من العلم أو الواقع الصحيح، إنّما هو انسياق وراء الضعف، وتصديق للوهم، وإلا فما معنى أن يُصدق

إنسان عاقل أنَّ النحس في شخص معين، أو مكان معين، أو رقم معين، أو ينزعج من صوت طائر أو حركة عين أو سماع كلمة؟!

وإذا كان في الطبع الإنساني شيء من الضعف يُسَوِّل للإنسان أن يتشاءم من بعض الأشياء لأسباب خاصة، فإنَّ عليه ألاَّ يستسلم لهذا الضعف ويتمادى فيه، وخاصَّة إذا وصل إلى مرحلة العمل والتنفيذ.

معنى «أو تُطَيَّر له»:

فهنا معنى التطير فما معنى «أو تُطَيَّر له»، بالبناء للمجهول؟

المعنى إنسان يريد أن يسافر أو يتزوج أو يعقد صفقة تجارية فيأتيه من ينهائه عن فعل أراد الإقدام عليه من غير سبب من الأسباب الحقيقية إنَّما يقول له: إنَّ النجوم تقول كذا، وطالعك لا يتوافق مع الفعل في هذا الوقت وما شابه من الأسباب غير الحقيقية، فإن صدَّقه فهو ممَّن تُطَيَّر له.

فمعنى «أو تُطَيَّر له»: أي قَبْلَ قول من تطيَّر له واتبعه في تطيره، فهذا أيضًا منهي عنه.

وتحكي كتب التاريخ والأدب، أنَّ المنجمين قد قالوا للخليفة المعتصم العباسي فاتح عمورية لمَّا تجهز لغزوها: إنَّ ذلك طالع نحس، وأنَّه يكسر، وأنَّ عليه أن يؤخر موعد الغزو، فخالف ذلك، ومضى لما عزم عليه، ونصره الله تعالى وفتح عمورية. وقال أبو تَمَّام قصيدته:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ^(١)

(١) انظر: شرح ديوان أبي تمام للتبريزي (٣٢/١ - ٣٥).

قال فيها:

وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةً
أَيْنَ الرِّوَايَةِ أَمْ أَيْنَ التُّجُومِ وَمَا
تَخْرُصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً
عَجَائِبًا زَعَمُوا الْأَيَّامَ مُجْفَلَةً
وَخَوْفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءِ مُظْلِمَةٍ
وصَيَّرُوا الْأَبْرَجَ الْعُلْيَا مُرْتَبَةً
يُقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
لو بَيَّنْتَ قُطَّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْعِهِ
مِنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
صَاغُوهُ مِنْ زُخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبٍ؟
لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرْبٍ
عَنْهُمْ فِي صَفَرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبٍ
إِذَا بَدَا الْكُوكَبُ الْغَرْبِيُّ ذُو الذَّنَبِ
مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبٍ
مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطْبٍ
لَمْ يَخَفَ مَا حَلَّ بِالْأَوْثَانِ وَالصُّلْبِ

الطَّيْرَةُ تَذْهَبُ بِالتَّوَكُّلِ:

وفي الحديث عن ابن مسعود أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الطَّيْرَةُ شَرِكٌ، الطَّيْرَةُ شَرِكٌ، الطَّيْرَةُ شَرِكٌ». قال ابن مسعود: وما منَّا إِلَّا، ولكن يذهب الله بالتوكل^(١).
يعني ابن مسعود: ما منَّا أحد إِلَّا ويقع في قلبه شيء من ذلك، ولكن الله يذهب ذلك عن القلب بالتوكل على الله، فلا يثبت على ذلك الخاطر عنده.

الكهان لا يعرفون الغيب:

ثم تحدَّث رسولُ الله ﷺ: «أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ». أي ليس منَّا.
لقد جاء الإسلام وطائفة الكُهَّانِ معروفة عند النَّاسِ، الَّذِينَ يَدَّعُونَ معرفة الغيوب الماضية أو المستقبلية.

(١) رواه أحمد (٣٦٨٧)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩١٠)، والترمذي في السير (١٦١٤)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الطب (٣٥٣٨).

ويموّهون على العوام أنّهم يكشفون ما في قلوب الناس، بزعم اتصالهم بالجن، أو أنّ لهم ما ليس لغيرهم من الاطلاع على أسرار الناس، فأعلن الرسول ﷺ الغارة على هذا الدّجل، الذي لا يقوم على علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وتلا عليهم ما أوحى الله به: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. فلا الملائكة ولا الجن، ولا الرسل ولا غيرهم من البشر يعلمون الغيب.

وأعلن ﷺ بأمر ربه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأخبر تعالى عن الجن المسخرين لسليمان ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

تصديق الكُفَّان كُفْر:

ولم تقتصر حملة الإسلام على الكُفَّان والدّجالين وحدهم، بل أشرك معهم في الإثم من يجيئونهم، ويسألونهم ويصدّقونهم في أوهامهم وتضليلهم. في هذا الحديث يبرأ النبي ﷺ ممّن تكهن له، وهو من أتى الكاهن فصدّقه بما يقول.

وفي الحديث الذي رواه مسلم: «مَنْ أَتَى عَرَافًا، فسأله عن شيء، فصدّقه بما قال: لم تُقبل له صلاةٌ أربعين يومًا»^(١).

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٣٠)، دون قوله: «فصدّقه بما قال»، وأحمد (١٦٦٣٧)، وقال مخرّجوه: صحيح. عن بعض أزواج النبي ﷺ.

وفي حديث آخر: «من أتى كاهنًا، فصدقه بما قال، فقد كفر بما أنزل على محمد»^(١). ذلك أن ما أنزل على محمد أن الغيب لله وحده، ولا يعلم مفاتيح الغيب إلا الله، وأن محمدًا لا يعلم الغيب، ولا غيره من باب أولى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فإذا عرف المسلم هذا من قرآنه صريحًا واضحًا، ثم صدق أن بعض الخلق يكشفون أستار القدر، ويعلمون ما يُكنه صدر الغيب من أسرار، فقد كفر بما أنزل الله على محمد ﷺ.

٣ - السحر:

وثالث الأمور التي برئ منها النبي ﷺ: السحر.

برئ ﷺ ممَّن سَحَرَ أو سُحِرَ له، وقد قال القرآن فيمن يتعلَّمون السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وعدَّ النبي ﷺ السحر من كبائر الذنوب الموبقات، التي تُهلك الأمم قبل الأفراد، وتُردي أصحابها في الدُّنيا قبل الآخرة، قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢). فجعل ﷺ السحر بعد الشرك.

(١) رواه أحمد (٩٥٣٦)، وقال مخرَّجوه: حسن. وأبو داود في الطب (٣٩٠٤)، بلفظ: «فقد برئ ممَّا أنزل»، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، كلاهما في الطهارة، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٨٥)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٠٧.

وقد اعتبر بعض الفقهاء السحر كُفْرًا، وبعضهم اعتبره مؤديًا إلى الكفر، وذهب بعضهم إلى وجوب قتل الساحر تطهيرًا للمجتمع من شره، ورُوي عن ثلاثة من الصحابة أنَّ حدَّ الساحر ضربة بالسيف^(١).

وعلمنا القرآن الاستعاذة من شرِّ أرباب السحر، حيث قال تعالى في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. والنفث في العقد من طرائق السحرة وخواصهم، وقد جاء في الحديث: «من نفث في عُقْدَةٍ فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك»^(٢).

تحريم الذهاب إلى السحرة:

وكما حرَّم الإسلام على المسلم الذهاب إلى العرَّافين لسؤالهم عن الغيوب والأسرار، حرَّم عليه أن يلجأ إلى السحر أو السحرة لعلاج مرض ابتلي به، أو حلَّ مشكلة استعصت عليه، فهذا ليس من شأن المسلم، وقد ذكرنا قول ابن مسعود: مَنْ أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا، فسأله، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد^(٣).

(١) المغني لابن قدامة (٣٠/٩، ٣١)، نشر مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢) رواه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩)، وفي الكبرى في المحاربة (٣٥٢٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٦٩)، وقال الذهبي في الميزان في ترجمة عباد بن ميسرة: هذا الحديث لا يصح للين عباد وانقطاعه. انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، ترجمة رقم (٣٩٤٤)، تحقيق محمد رضوان عرقسوسي وآخرين، نشر مؤسسة الرسالة العالمية، دمشق، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م. وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية بعد أن نقل كلام الذهبي (٨٢/٣): ويتوجه أنه حديث حسن. عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٣٤.

ويقول ﷺ: «لا يدخل الجنّة مُدمن خمر، ولا مُؤمنٌ بسحر، ولا قاطع رحم»^(١).

فالحرمة هنا ليست على الساحر وحده، وإنّما تشمل كل مؤمن بسحره، مشجّع له، مصدّق لما يقول.

وتشتد الحرمة وتفحش إذا كان السحر يُستعمل في أغراض، هي نفسها محرمة، كالتفريق بين المرء وزوجه، والإضرار البدني، وغير ذلك ممّا يعرف في بيئة السحّارين.

هذا هو الإسلام، يخلق العقلية الإسلاميّة التي تؤمن بالسنن والقوانين الكونية، وتعرف الشبكة التي وضعها الله في هذا الكون، شبكة الأسباب والمسببات، ولا تؤمن بالخرافات ولا بالأوهام.

نسأل الله لنا ولكم الهداية والرشاد.

(١) رواه أحمد (١٩٥٦٩)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. وابن حبان في الكهانة والسحر (٦١٣٧)، وأبو يعلى (٧٢٤٨)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٢٩١)، عن أبي موسى الأشعري.

الدرس الرابع والثلاثون

من أنواع الشرك

روى ابن حبان في صحيحه عن يحيى بن الجزار قال: دخل عبد الله على امرأة وفي عنقها شيء معوذ، فجذبه فقطعه، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شُرَكَ». قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ قد عرفناها، فما التَّوَلَةُ؟ قال: شيء يصنعه النساء يتحبَّبن إلى أزواجهن^(١).

التوحيد روح الإسلام:

جاء الإسلام يُقر في الأرض حقيقة التوحيد، ويغرسها في قلوب النَّاس وعقولهم، ويحرر البشرية من كل ألوان الشرك، أكبره وأصغره، جليه وخفيه، فالشرك هو وكر الخرافات والأوهام، وهو مرتع الأضاليل والأباطيل، فيه تُفرخ وتُعشش كل الأضاليل التي عرفها النَّاس، ففي جو الشرك والوثنية تروج بضاعة الدَّجَالين والعَرَّافين والسحرة والكُهَّان وغيرهم ممَّن يضحكون على عقول البشر، وبخاصة السُّذَّج والبسطاء.

(١) رواه ابن حبان في الرقى والتمايم (٦٠٩٠)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح. والحاكم في الطب (٢١٧/٤) مختصراً، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٩٨).

التوحيد حرب على الأوهام والخرافات:

ولكن النبي ﷺ الذي جاء بجوهر التوحيد وحقيقته، وجاء ليحمي حمى التوحيد من كل ما يدنّسه أو يناله أو يصيبه، جاء يعلن في الأرض أن الله تعالى سُنَّنا لا تتبدل ولا تتحول، جاء يعلم أمته أن تتخذ الأسباب، وأن تحترم القوانين التي يقوم عليها هذا الكون، ولهذا حارب هذه الأباطيل من الطيرة والكهانة والسحر والتمايم والرُّقى والتَّوَلَة - وهي ضرب من السحر أيضًا - واعتبر ذلك شركًا بالله تعالى؛ لأنَّ فيه اعتمادًا على غير الله تعالى، واعتمادًا على غير الأسباب التي شرعها، والتي ربط بها المسببات في هذا الكون، المؤمن الذي يعرف الله تعالى، ويعرف أن لا إله إلا الله، ولا رب إلا الله، ولا ملك إلا الله، ولا ضار ولا نافع إلا الله، المؤمن الذي يعرف ذلك، ويوقن به من أعماق قلبه لا يلتفت إلى هذه الأمور ولا يؤمن بها.

لقد جاء النبي ﷺ ولهذه الأشياء رواج وسوق نافقة في عرب الجاهليَّة، ولكنَّه شنَّ عليها الغارة، وأعلن عليها الحرب وأبطلها، وجعلها شِرْكًَا ينافي حقيقة التوحيد الذي هو روح الإسلام.

لا إله إلا الله عنوان الإسلام:

إنَّ باب الإسلام هو هذه الكلمة: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله». بها يدخل الإنسان في هذا الدين، وعليها يولد، وعليها يموت. حين يولد المولود يؤدَّن في إذنه أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله^(١)، وحين يحتضر الإنسان ويودَّع هذه الحياة ويلفظ الأنفاس

(١) إشارة إلى الحديث: أذن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة. رواه أحمد (٢٣٨٦٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٥١٠٥)، والترمذي في الأضاحي (١٥١٤)، وقال: حسن صحيح. وحسَّنه الألباني في إرواء الغليل (١١٧٣)، عن أبي رافع.

الأخيرة، يُلقَّن أن لا إله إلا الله^(١)، وهي كلمة الإخلاص وكلمة التقوى، التي بها يستقبل المسلم الحياة، وبها يستدبرها، هي أوَّل ما يسمع وآخر ما يسمع.

وقد رفض النبي ﷺ التمايم والرقى والتَّوَلَة، ورفض غيرها من الأشياء التي تحدثنا عنها في حديث سابق من السحر والكهانة والطَّيرة؛ لأنها تنافي التوحيد.

تحريم التمايم (الأحجية):

التمايم التي كان يعتقد العرب أنَّها تشفي من المرض، أو تقي منه، أو تقي من العين، ويعلقونها من ودع أو خرزات أو غير ذلك، وما زال هناك أناس في القرن العشرين إلى يومنا هذا يعلقون على أبوابهم جدوة (حذاء) فرس، أو نحو ذلك، وما زال بعض المضللين إلى اليوم في كثير من بلاد الدنيا، يستغلُّون جهل الدهماء، ويكتبون لهم حُجُبًا وتمايم، يخطُّون فيها خطوطًا وطلاسم، ويكتبون فيها أشياء لا تُقرأ، وإن قرئت لا تُفهم، أو تُفهم، لكنَّها في الحقيقة ليس لها تأثير، ويتلون عليها عزائم، ويزعمون أنَّها تحرس حاملها من اعتداء الجن، أو من مسِّ العفاريت، أو من شرِّ العين وحسد النَّاس، إلى آخر ما يزعمون.

التداوي في الإسلام بعيد عن الدجل:

وللوقاية والعلاج طرق معروفة شرعها الإسلام، وأنكر على من تركها، واتجه إلى طرق الدجاجة والمضللين.

(١) رواه مسلم في الكسوف (٩١٦)، وأحمد (١٠٩٩٣)، عن أبي سعيد الخدري.

يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيْثُ خَلَقَ الدَّاءَ، خَلَقَ الدَّوَاءَ، فَتَدَاوُوا»^(١). وقال: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»^(٢). وقال: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أَصَابَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ»^(٣).

وقال فيما رواه البخاري وغيره: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: شَرْبَةُ عَسَلٍ، أَوْ شَرْطَةُ مَحْجَمٍ، أَوْ كَيَّةُ بِنَارٍ»^(٤).

وهذه الأنواع الثلاثة تشمل بروحها، وبالقياس عليها في عصرنا ما يُتناول من الدواء بطريق الفم (شربة عسل)، والتداوي بطريق العملية الجراحية (شرطة محجم)، والعلاج بالكهرباء والأشعة فوق الحمراء وما شابه (كئة بنار).

أمَّا تعليق خرزة أو ودعة أو حجاب أو قراءة بعض الرُقَى الْمُطْلُسَةِ للعلاج أو الوقاية، فهو جهل وضلال يُصادم سنن الله، وينافي توحيده تعالى.

عن عقبة بن عامر أنه جاء في ركبٍ إلى رسول الله، فبايع تسعة، وأمسك عن رجل منهم، فقالوا: ما شأنه؟ قال: «إِنَّ فِي عَضْدِهِ تَمِيمَةً». فقطع الرجل التيممة، فبايعه رسول الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٥).

(١) رواه أحمد (١٢٥٩٦)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. عن أنس.

(٢) رواه البخاري في الطب (٥٦٧٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٤)، وأحمد (١٤٥٩٧)، عن جابر بن عبد الله.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٠٢)، ومسلم في السلام (٢٢٠٥)، عن جابر بن عبد الله.

(٥) رواه أحمد (١٧٤٢٢)، وقال مخرّجوه: إسناده قوي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٣٩٩): رجال أحمد ثقات. وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٢)، عن عقبة بن عامر.

امتنع النبي ﷺ عن مبايعة هذا الرجل، ليعلمه من أول دخوله في الإسلام أنَّ هذه الأمور منافية لهذا الدين الجديد، دين العقل، ودين تحرير النفس من الأوهام والخرافات، ثمَّ ألقى عليه هذا الدرس وهذه الكلمة: «من علّق تميمةً فقد أشرك».

وفي حديث آخر قال: «من علّق تميمةً، فلا أتمَّ الله له، ومن علّق ودعةً فلا أودع الله له»^(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة - أراه قال: من صُفر. أي: من نحاس - فقال: «ويحك، ما هذه؟». فقال: من الواهنة. قال: «أما إنَّها لا تزيدك إلَّا وهناً، انبذها عنك، فإنَّك لو متَّ وهي عليك، ما أفلحت أبداً»^(٢).

هذه الحلقة أو التميمة لا تشفي، بل لا تزيد صاحبها إلَّا مرضاً وضعفاً ووهناً، وإن مات وهي عليه لم يفلح أبداً.

الشرك الأصغر أكبر من الكبائر العملية:

ولهذا يقول المحققون: إنَّ الشرك الأصغر أكبر من سائر الكبائر العملية؛ لأنَّه خدشٌ وشرخٌ في العقيدة، في الإيمان نفسه، في حقيقة التوحيد.

(١) رواه أحمد (١٧٤٠٤)، وقال مخرّجوه: حسن. والحاكم في الطب (٢١٦/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٥٢٤١)، وضعّفه الألباني في الضعيفة (١٢٦٦)، عن عقبة بن عامر.

(٢) رواه أحمد (٢٠٠٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في الطب (٣٥٣١)، وابن حبان في الرقى والتمائم (٦٠٨٥)، والحاكم في الطب (٢١٦/٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٢٣٩): هذا إسناد حسن. وضعّفه الألباني في غاية المرام (٢٩٦)، وصحّحه في الصحيحة (٢١٩٥).

أثر هذه التعاليم في نفوس الصحابة:

وقد أثرت هذه التعاليم في أصحاب النبي ﷺ، فارتفعوا بأنفسهم عن قبول هذه الأضاليل، وتصديق تلك الأباطيل، وأنكروا على كل من فعلها. ولذلك رأينا ابن مسعود ينكر على من فعل ذلك، ينكر على امرأته، ويجذب الشيء الذي علّقه، ويقطعه ويقول: إِنَّا لَا غِنَاءَ عَنِ الشَّرْكِ^(١). ويحكي عن النبي ﷺ هذا الحديث: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شَرْكٌ»^(٢).

كذلك رأى حذيفة من يُعلّق تميمة، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]^(٣).

وعن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلتُ على عبد الله بن عكيم أبي معبد الجهني أعوده، وبه حُمْرة^(٤)، فقلنا: أَلَا تَعْلَقُ شَيْئًا؟ قال: الموت أقرب من ذلك. قال النبي ﷺ: «مَنْ تَعْلَقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ»^(٥).

تعليق التمايم المكتوب بها آيات من القرآن:

فالتمايم لا يجوز أن تُعلّق، وقد اختلف العلماء فيما إن كان المكتوب بالتميمة شيء من القرآن وذكر الله، فترخص بعضهم في تعليق ذلك، ومنعه آخرون، وهو الذي أراه راجحًا، وهو المروي عن السلف.

(١) رواه أحمد (٣٦١٥)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الطب (٣٥٣٠)، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٨٤٥)، عن ابن مسعود.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٤٢.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٠٤٠).

(٤) الحمرة: داء يعتري الناس فيحمر موضعها.

(٥) رواه أحمد (١٨٧٨١)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والترمذي في الطب (٢٠٧٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩)، عن عبد الله بن عكيم.

قال إبراهيم النَّخعي، وهو من التابعين: كانوا يكرهون التَّمائم كُلَّها من القرآن ومن غير القرآن^(١).

وقوله: «كانوا» يشير إلى أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، مثل علقمة والأسود ومسروق، وغيرهم من كبار التابعين رضي الله عنهم.

الأدلة على كراهة تعليق الرقي من القرآن:

والدليل على أنَّ هذه التَّمائم كُلَّها مكروهة:

أولاً: أنَّ النَّهي جاء عاماً، فالنبي ﷺ نهى عن كلِّ التَّمائم ولم يُخصَّص التميمة إذا كانت من القرآن أو من غيره.

ثانياً: سدُّ الذريعة؛ لأنَّ الذي يرى على إنسان تميمة ولا يعرف هل هي من القرآن أو من غيره، يجزؤ على أن يعلق تميمة من غير القرآن، وباب الشر إذا فتح لا يُسد.

ثالثاً: أنَّ في تعليق التميمة من القرآن امتهاً وابتدالاً للقرآن، فقد يدخل بتمييمته المرحاض، وقد يحملها في ساعة الجنابة، وقد تحملها المرأة في ساعة الحيض.

رابعاً: أنَّ القرآن لم ينزل ليعلق تميمة أو حجاباً أو حرزاً، إنما نزل ليكون هداية للناس، ودستوراً للحياة: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، فلا ينبغي أن يجعل القرآن لمثل هذا، إنَّه نزل حرزاً للإنسانية كُلَّها من الباطل والضلال، لا حرزاً للصبيان والأطفال، هكذا ينبغي أن يكون القرآن في قلوبنا وفي حياتنا.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الطب (٢٣٩٣٣).

المنهي عنه من الرقى:

ثم ذكر النبي ﷺ بعد التمايم الرقى، وعدّها أيضًا من الشرك. والمقصود من الحديث ليس كل الرقى؛ فقد كان النبي ﷺ يرقى غيره^(١)، وأقر أصحابه الذين رَقَوْا مَنْ رَقَوْا بفاتحة الكتاب^(٢).

إنّما المنهي عنه من الرقى، وما عدّه النبي ﷺ من الشرك، ما احتوى على شرك وطلاسم وسحر، ممّا كان يفعلُه أهل الجاهليّة.

قال الخطّابي: المنهي عنه من الرقى ما كان بغير لسان العرب، فلا يدري ما هو، ولعلّه قد يدخله سحر أو كفر، فأما إذا كان مفهوم المعنى، وكان فيه ذكر الله تعالى، فإنّه مستحبّ^(٣).

والرقية حينئذٍ دعاء ورجاء إلى الله، لا علاج ودواء، هي تضرع لله بأن يشفي هذا المريض، وأن يزيل هذا الألم^(٤).

رقية النبي ﷺ:

وقد قالت مريم امرأة ابن مسعود رضي الله عنه، أنّه جاء ذات يوم فتنحنح. قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحُمرة^(٥)، فأدخلتها تحت السرير،

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ يقول في الرقية: «تربة أرضنا، وريقة بعضنا، يشفي سقيمنا، بإذن ربنا». رواه البخاري في الطب (٥٧٤٦)، ومسلم في السلام (٢١٩٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإجارة (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام (٢٢٠١)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) معالم السنن للخطّابي (٢٢٦/٤)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط ١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

(٤) انظر كتابنا: حقيقة التوحيد ص ٥٤ - ٥٥، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٩، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٥) الحُمرة: داء يعتري الناس فيحمرُّ موضعها.

فدخل، فجلس إلى جنبي، فرأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قلت: خيط رقي لي فيه. فأخذه فقطعه، ثم قال: إِنَّ آلَ عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرقي والتمايم والتَّوَلَّ شَرَك». قالت: فقلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقئها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخَسُهَا بِيَدِهِ، فَإِذَا رَقَيْتَهَا كَفَّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يَغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

وكان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يَعُوذُ بِهَا إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»^(٢).

هذه هي الرقي المأثورة التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم.

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي، أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مِنْذُ أُسْلِمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمُ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأَحَازِرُ»^(٣).

فمن رقى نفسه أو رقى غيره بمثل هذا فلا حرج عليه، بل هو أمر مستحب، ولكن الرقي التي لا معنى لها، أو التي يُدعى فيها الجن، أو التي تعتمد على الخرافات، أو على السحر، مثل التَّوَلَّ التي يصنعها

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٧.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، عن ابن عباس.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٢)، وأحمد (١٦٢٦٨)، عن عثمان بن أبي العاص.



السحرة وأشباه السحرة، الَّذِينَ يزعمون أَنَّهُم يكتبون للنساء «أعمالاً» أو أحجبة ليحبّها زوجها، أو يكتبون للرجل لتحبّه امرأته، هذه كلّها أباطيل جاء الإسلام بإحباطها، وجاء بالحرب عليها، فلنحذر أيّها المسلمون من ألوان الشرك كلّ، ونسأل الله تعالى أن يُحيينا على التوحيد، إِنَّه سميع قريب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *



الدرس الخامس والثلاثون

تصحيح مفهوم: عليكم أنفسكم

روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يَوْشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ ^(١).

إساءة فهم النصوص الشرعية:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَابَهُ السَّمَاوِيَّةَ لِتَكُونَ آيَاتُهَا نَبْرَاسَ هُدًى، وَدُسْتُورَ حَقٍّ، وَمِيزَانَ عَدْلٍ، تُعَلِّمُ النَّاسَ مَا جَهِلُوا، وَتَهْدِيهِمْ إِذَا ضَلُّوا، وَتَحْكُمُ بَيْنَهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا، وَلَكِنْ شَرَّ مَا تَصَابُ بِهِ هَذِهِ الْآيَاتُ وَالنُّصُوصُ السَّمَاوِيَّةُ الْهَادِيَّةُ أَنْ يُسَاءَ فَهْمُهَا، وَأَنْ تَحَرَّفَ مَعَانِيهَا، وَتُحْمَلَ عَلَى غَيْرِ مَدْلُولِهَا، وَبِذَلِكَ تَفْقَدُ مَهْمَتَهَا فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِ، وَالْفَصْلُ بَيْنَهُمْ، وَهَذَا مَا أَصَابَتْ بِهِ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ قَبْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَدْ حُرِّفَتْ تَحْرِيفَيْنِ خَطِيرَيْنِ.

الأول: تحريف لفظي بحذف نصوص وكلمات منها، أو تبديل أخرى بها، أو بالزيادة فيها.

(١) رواه أحمد (٥٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤).

والثاني: تحريف معنوي بتحريف معانيها، وتأويلها على غير وجهها، وعلى غير مدلولها الذي أراده الله منها.

ولهذا دمع الله أهل الكتاب بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وتحدث عن فريق من بني إسرائيل فقال: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وجوب تغيير المنكر:

ومن هنا ساء الخليفة الأول أبا بكر الصديق أن يجد آيةً من كتاب الله تعالى تُفهم على غير وجهها، وتُوضع على غير موضعها، وتتخذ حجةً للسكوت على المنكر، والسلبية أمام الظلم والطغيان، فقام خطيباً يطارده هذا الوهم، ويقوم هذا العوج، ويصحح هذا الخطأ، فلم يكن الخليفة في العصر الأول مجرد رئيس سياسي، أو قائد عسكري، بل كان فوق ذلك معلماً ومربياً وهادياً للأمة، يرى من واجبه مطاردة الأوهام، وتصحيح الأفهام، وإيقاف الناس على الحق.

أنكر الصديق رضي الله عنه على الذين يجعلون من الآية الكريمة ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ توكأة لعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الظلم والفساد بكل سبيل، وحجة الصديق في إنكاره على هؤلاء أن آيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم صريحة كل الصراحة في وجوب محاربة الظلم وتغيير المنكر بحسب الطاقة والاستطاعة، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما جاء مبيناً للقرآن وليس معارضاً له، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [النحل: ٤٤]. ولهذا لا يتصور أن تتناقض هذه الآية التي فهم البعض أنها تأمر بالسكوت على الفساد والمنكرات، واشتغال كل امرئ بخاصة نفسه كما يفهم هؤلاء الزاعمون، في حين تأمر

آيات كثيرة من كتاب الله وأحاديث جمة للنبي ﷺ بمقاومة الظلم وحزبه، ومطاردة المنكر وأهله، وإنذار كل من أهمل هذا الأمر أو ضيَّعه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقد اعتبر القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصيصة مميّزة للأمة المسلمة عن غيرها، وقدّمه على الإيمان بالله، مع أصالته التي لا ريب فيها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وذمّ القرآن الأمم التي تهمل هذه الفريضة الاجتماعية العظيمة، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ * ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ويقول النبي ﷺ بصريح العبارة: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(١). وفي رواية: «إِنَّ أُمَّتِي إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يَوْشِكُ أَنْ يَعْمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

فكيف يُعقل بعد هذا أن تجيء آية واحدة من القرآن متشابهة المعنى لتهدم سائر الآيات المحكمات الواضحات المناقضة لها، الناطقة بضد ما فهم هؤلاء القاعدون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الآية الكريمة؟!

(١) سبق تخريجه ص ٤٥٢.

(٢) رواه البزار (٦٥)، عن أبي بكر الصديق.



المسلم قوة إيجابية في المجتمع:

ألا ما أجدرنا أيُّها الإخوة أن نقف وقفة تأمل وتبصّر لما يهدي إليه هذا الحديث الموجز من معانٍ وعبر.

إنَّ هذا الحديث يهدي إلى أنَّ الإسلام لا يكتفي من المسلم باجتناّب الظلم في نفسه حتّى يحارب الظلم في مجتمعه، وبذلك يكون قوّة إيجابية فعّالة تُشيع الخير كما تُقاوم الشر، إنَّ المجتمع مسؤول بالتضامن عن صدّ الظلم، والأخذ على يد الظلمة الطغاة، والوقوف في وجه أهل الفساد والمنكر، فإن فرط أفراد المجتمع في هذه المسؤولية، كان عقاب الله لهم بالمرصاد في الدُّنيا قبل الآخرة.

فوائد الأخذ على يد الظالم للظالم نفسه:

والضرب على يد الظالم ومنعه من الظلم أو من التماذي فيه والإصرار عليه، فيه خير كثير، وكسب كبير للظالم نفسه، وللمن يُنكر عليه، وللمجتمع كلّ، أمّا الظالم، فمنعه من الظلم وإبعاده عن المنكر يجنبه شرورًا كثيرة يجلبها عليه الظلم والمعصية، ويجنبه سخط الله وعذابه في الدُّنيا والآخرة، وينصره على نفسه وعلى شيطانه معه، ويقوّي نوازع الخير فيه، ولهذا عدّ الحديث ذلك نصرًا للإنسان الذي يريد الظلم، قال ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرايت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإنّ ذلك نصره»^(١). لأنّك نصرته على هواه وشيطانه.

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٤)، عن أنس.

فوائد الإنكار على المنكر للظالم:

وَأَمَّا الْمُنْكَرُ عَلَى الظَّالِمِ فَقَدْ كَسَبَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَأَبْرَأَ ذِمَّتَهُ مِنْ مَسْئُولِيَةِ السَّكُوتِ عَلَى الْبَاطِلِ، فَإِنَّ السَّكَاتَ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ آخَرَسٌ، كَمَا أَنَّ النَّاطِقَ بِهِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ. وَقَدْ أَدَّى حَقَّ أَخِيهِ عَلَيْهِ، حَيْثُ أَمَرَهُ وَنَهَاها، وَأَسْهَمَ فِي تَطْهِيرِ الْمَجْتَمَعِ مِنَ الْفَسَادِ وَالشَّرِّ.

فوائد الإنكار على المجتمع:

وَأَمَّا الْمَجْتَمَعُ، فَقَدْ أَثْبَتَ بِنَكَارِهِ لِلْمُنْكَرِ وَالظُّلْمِ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْبَقَاءِ وَالْحَيَاةِ، مَا دَامَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَلْفِظَ الْأَشْرَارَ، وَأَنْ يُعْلِيَ الْأَخْيَارَ، مَا دَامَ فِيهِ مَنْ يَقُولُ الْحَقَّ، وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْخُذُ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمَجْتَمَعِ الَّذِي يَتَمَتَّعُ فِيهِ الظُّلْمَةُ الْمَفْسُدُونَ بِهِيَّةٍ وَنَفُوذُ وَسُلْطَانٍ، تَجْعَلُهُمْ يَقْتَرِفُونَ الْمَوْبَقَاتِ وَلَا يِيَالُونَ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَأْمُرَهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، وَفِي هَذَا جَاءَ الْحَدِيثُ: «إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: أَنْتَ ظَالِمٌ! فَقَدْ تُودِّعُ مِنْهُمْ»^(١).

حرمة معاونة الظالم وتأنيده:

وَأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ وَأَمْرٌ أَنْ يُقَالَ لِلظَّالِمِ الْمَفْسُدِ: أَيُّهَا الْمَصْلَحُ الْعَظِيمُ، وَأَيُّهَا الْبَطْلُ الْكَرِيمُ. وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَجِدَ الظَّالِمُ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَجْتَمَعِ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا يَصَدِّقُونَهُ فِي كَذِبِهِ، وَيُؤَاظِرُونَهُ فِي ظُلْمِهِ، وَيَمْشُونَ فِي رِكَابِهِ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِأَعْتَابِهِ، فَهَؤُلَاءِ يُسْتَعَاذُ بِاللَّهِ مِنْهُمْ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ

(١) رواه أحمد (٦٧٨٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والبخاري (٢٣٧٥)، والحاكم في الأحكام (٩٦/٤) وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١١٠): رواه أحمد والبخاري بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البخاري رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد. عن عبد الله بن عمرو.

النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: «أعاذك الله يا كعب بن عجرة من إمارة السفهاء». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون من بعدي، لا يهتدون بهديي، ولا يستنُّون بسنتي، فمن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منِّي ولست منهم، ولا يردون عليَّ حوضي»^(١).

إنَّ الظالم لا يجوز أن يُعان، ولا يجوز أن يؤيِّد خوفًا أو طمعًا، رهبًا أو رغبًا، كما لا ينبغي أن يترك ويسكت عليه باسم الحرية الشخصية، ليعيث في الأرض فسادًا، يقتل ويسرق وينهب ويعتدي على الأعراض والحرمات والأموال، ويخوِّف النَّاس ويؤذيهم أيما إيذاء، والناس ساكتون عليه، إنَّ النَّاس إذا تركوا الظالم يفعل ذلك، ولم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده، يعمُّ الفاعل والساكت، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقد ضرب النبي ﷺ لنا مثلاً بفاعل المنكر والساكت على المنكر والمقاوم للمنكر بقوله ﷺ فيما رواه البخاري وغيره: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُوْذِرْ مِنْ فَوْقِنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٤٤٤١)، وقال مخرَّجوه: إسناده قويٌّ على شرط مسلم. والترمذي في السفر (٦١٤)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤٢٢/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، عن النعمان بن بشير.

وهذا شأن المجتمع والناس فيه، إذا تركوا أصحاب المنكر على أساس أنهم أحرار فيما يصنعون، تكون النتيجة انهيار المجتمع كله، ودمار القيم والأخلاق كلها، غرق السفينة، غرق المجتمع.

وَإِذَا أَصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلًا^(١)

معنى «عليكم أنفسكم»:

ليس معنى «عليكم أنفسكم»، السكوت على الباطل والظلم، ولكن معناه: الزموا أنفسكم، فأصلحوها وزكّوها بالإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، والخُلُق المتين، والأدب الكريم، وكذلك بأداء ما أمر الله، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا ضلّ بعد ذلك من ضلّ بعد أن أمرتم ونهيتهم، وأدّيتهم حق الله وحق المجتمع، وحق إخوانكم عليكم، فلا يضركم بعد ذلك من ضلّ؛ لأنه ليس عليكم هداية الناس، إنّما الهدى هدى الله.

على المسلم أن يعمل على تغيير المنكر، ويأخذ على يد الظالم وأيدي المفسدين والظلمة، وبذلك تنجو فئات المجتمع كلها، كما تنجو السفينة ومن فيها من الغرق إذا ضرب على أيدي من يريد خرقها.

لكن ننبّه إلى أنّ تغيير المنكر أمر واجب، ولكن إذا ترتّب عليه منكر أكبر منه، وجب السكوت عليه سدًا للذريعة، وارتكابًا لأخفّ الضررين، وتفويتًا لأدنى المصلحتين.

الدرس السادس والثلاثون

صنفان من أهل النار

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(١).

حرص النبي ﷺ على أمته:

النبي ﷺ حريص على هذه الأمة، يريد أن يأخذ بأيديها إلى الجنة، وأن يأخذ بحجزها حتى لا تقع في النار، ومن هنا يخبرنا ﷺ في هذا الحديث عن صنفين من الناس ممن سخط الله عليهم، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا، حتى نحاول أن نتجنب الاتصاف بأوصافهما، فنكون من أهل النار والعياذ بالله، هذان الصنفان لم يرهما رسول الله ﷺ في حياته، ولكنه علم أنهما سيوجدان بما علمه الله له، وبما أوحى إليه، وهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨)، وأحمد (٨٦٦٥).

قوم معهم سياط كأذنان البقر يضربون بها الناس:

الصنف الأول: هم الظلمة الطغاة، المستبدون القساة، من الحكام وأعوانهم الجلّادين، الذين لا يراعون للناسِ حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فهم يعذبون البشر، ويستعملون في تعذيبهم السياط التي تشبه أذنان البقر في غلظها ومتانتها، هذا مع أنّ الأصل في أجساد الناس الحرمة، فلا يجوز أن يُضْرَبَ جسدٌ أو يؤذى بدنٌ إلا في حدٍّ من حدود الله، وانحراف عن شرعه، أو تعزيز لارتكاب جريمة من الجرائم، فحينئذٍ يُشرع التأديب بالعدل، والعقوبة بالمعروف، فقد رُوي في الحديث: «ظهر المؤمن حمىً إلا بحقه»^(١). فلا يجوز أن يضرب إلا عقوبة على جريمة ومعصية اقترفها، وقامت عليه البينة بإثباتها.

وروى الطبراني عن أبي هريرة بإسنادٍ جيّدٍ أنّ رسول الله ﷺ قال: «من جرّد ظهر امرئ مسلم بغير حقّ لقي الله وهو عليه غضبان»^(٢).

وأكثر من ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنّه أنذر باللعنة والطرْد من رحمة الله كلّ من شهد مشهداً يضرب فيه إنسان بغير حق، إذا لم يدفع عنه، وهذا ما رواه الطبراني والبيهقي بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقفنّ أحدٌ منكم موقفاً يُضرب فيه أحدٌ ظلماً، فإنّ اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه»^(٣).

(١) رواه الطبراني (١٨٠/١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥٢٢): رواه الطبراني، وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف. وكذا قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨٥/١٢)، عن عصمة بن مالك.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٢٣٣٩)، وفي الكبير (١١٦/٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥٢١): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وإسناده جيد. عن أبي أمامة.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣٠.

اللعنة لا تنزل على الضارب وحده، ولا على الظالم وحده، ولكنها تعم كل من شهد هذا المشهد، وحضر هذا الموقف، إذا لم يدافعوا عن المظلوم ويردوا الظلم عنه.

نساء كاسيات عاريات:

أمّا الصنف الثاني فليس من الرجال، بل من الجنس اللطيف كما يقولون، من النساء، وإن كان الرجال يشاركون في تحمّل إثم هذا الصنف أيضًا.

أوصاف الصنف الثاني:

وهذا الصنف قد صوّره الحديث الشريف تصويرًا بليغًا أخاذًا، ووصفه وصفًا مركّبًا نابضًا بالحركة والحياة: «نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهنّ كأسنمة البخت المائلة».

• الجمع بين العري والكسوة:

وصفهنّ الحديث أوّل ما وصفهنّ بأنّهنّ: «كاسيات عاريات»، جمع بين العري والكسوة!

لقد كان بعض السابقين يؤولون هذا الحديث أحيانًا تأويلات غير مستساغة، كأن يقولوا: نساء كاسيات من الثياب، عاريات من التّقوى، كأنّهم لم يتصوّروا أن تجتمع الكسوة والعري في وقت واحد! كيف يكنّ كاسيات وفي الوقت نفسه عاريات؟! وكيف يجتمع الشيء وضدّه في آن واحد؟

والجواب: نعم، كاسيات عاريات؛ لأنّهنّ يلبسن ثيابًا لا تؤدي وظيفة

الثياب من الستر والاحتشام، فهي إمَّا شفافة رقيقة كالزجاج، تصف ما تحتها، وتشف عما وراءها، وإمَّا ضيقة تحدد مفاتن الجسد وتبرز محاسنه، بصورة تجذب الانتباه وتثير الغرائز، وإمَّا قصيرة تكشف عن بعض ما يجب ستره من الجسد والعنق والنحر والذراعين والساقين وغير ذلك ممَّا أمر الله بستره ونهى عن إبدائه، ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فهؤلاء النساء في الظاهر لابسات، وفي الحقيقة عاريات.

• مائلات مميلات:

وهؤلاء الكاسيات العاريات، مائلات مميلات، أي مائلات في مشيتهن وفي حركتهن، يمشين متكسرات متبخترات، كما تصنع المائعات الخليعات، وهنَّ مميلات لأعطافهن وأكتافهن، وهن بهذا التكسر والتثني والاختيال يُملن قلوب الرجال إليهن، ويجذبن أنظارهم ومشاعرهم وأفكارهم إليهن، لتلتهمهن أعين الرائيين والغادين.

أو هنَّ مائلات عن الحق وعن الطريق المستقيم، زائغات عن طاعة الله وما أمر بحفظه وستره، وهنَّ بهذا المسلك المائل المنحرف يُملن غيرهن من بنات جنسهن، ويُغرينهن بتقليدهن، وسلوك هذا الطريق الأعوج، فالمرأة سريعة إلى تقليد مثلها.

• رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة:

وقد أضاف الحديث الشريف إليهن صورة أخرى مكملة وموضحة لحالهن، وهي قوله: «رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة». والبخت: الإبل ذات السنام العظيم الكبير.

إنَّ الحديث يشير إلى ما يصنع هؤلاء النسوة في شعر رؤوسهن من أشكال وتصفيفات وقصّات، أو ما يصلنه به من شعور مستعارة طبيعية أو صناعية، سمّاها النبي ﷺ في حديث آخر الزور، فعن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها، فخطبنا، فأخرج كُبَّةً من شعر، فقال: ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا يفعل هذا غير اليهود، وإنَّ النبي ﷺ سمّاه الزور. يعني الوصال في الشعر^(١).

وقد لعن النَّبي ﷺ الواصلة والمستوصلة^(٢)، أي التي تصل الشعر بشعر غيرها، والتي تطلب وصل الشعر، هؤلاء النِّساء المائلات المميلات، الكاسيات العاريات، من أهل النَّار، وكفى بالنَّار عقابًا.

السفور والتبرج من الكبائر:

هذا يدل على أنَّ التبرج ليس من توافه الأمور، ولا من صغائر الذنوب، وإلَّا لما حكم النَّبي ﷺ أنَّهنَّ من أهل النَّار، إذ قال: «لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

الجنة - إذن - حرام على هذا الصنف، حتَّى يرجعن إلى الله تعالى ويتبن إليه، ويرتدعن عن هذا الغي، ويسلكن طريق المؤمنات الصالحات القانتات.

النِّساء في هذا الزمان:

والرسول ﷺ بإخباره عن هذا الصنف من النساء، كان ينظر من وراء الغيب إلى نساء زماننا هذا، ونساء عصرنا، هؤلاء اللاتي كشفن عن

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٨)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٧).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٥٩٣٤)، ومسلم (٢١٢٣)، كلاهما في اللباس، عن عائشة.

السواعد والمناكب، وكشفن عن السيقان والركب وما فوق الركب، وكشفن عن النحور - بل الأثداء - والظهور، وما يلبسه هؤلاء النسوة المتبرجات، وبعضهن يلبسن ملابس من زجاج أو كالزجاج، لا تغطي بدنًا، ولا تستر عورة.

مهمة ملابس هذا العصر:

وإذا كان الأصل في الملابس أن تستر العورات، وتخفي المحاسن والمفاتن، فإنَّ ملابس النساء في هذا العصر مهمتها أن تجسّد العورات، وتجسّم المحاسن والمفاتن، وقد تفنّن الشياطين في الغرب من اليهود وتلامذة اليهود في جعلها فتنة للناظرين، ومَعْرِضًا لِإِغْرَاءِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِنَ الرِّجَالِ، وَإِثَارَةِ الشَّهَوَاتِ.

وهؤلاء النساء اللائي لا يشغلن إلاّ تتبع بدع الأزياء، وألوان الزينات والأصباغ والمساحيق، تقليدًا للأجنبيات، وتشبهًا بالكافرات، نذكرهن بقول النبي ﷺ في الحديث: «من تشبّه بقوم فهو منهم»^(١).

هذا هو الخطر الذي ينبغي على المسلمة أن تتجنبه، وأن تحذر الله، وأن تحذر النار التي وقودها النَّاسُ والحجارة.

خطر الصنفين على المجتمع:

أيها الإخوة المسلمون، هذان الصنفان خطرٌ على المجتمع، خطر على حرياته وحرماته وكرامة أبنائه، الصنف الأول بما يقذف في القلوب من رعب، وما يترك في الأجسام من جراح، وفي النفوس من آثار.

(١) رواه أحمد (٥١١٥)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في اللباس (٤٠٣١)، وحسنه السيوطي في الصغير (٨٥٩٣)، وصحّحه الألباني في غاية المرام (١٠٩)، عن ابن عمر.

والصنف الثاني بما يفسد من أخلاق المجتمع وفضائله كالعفاف والاحتشام، وهو خطر على الأسر والعلاقات الزوجية، وخطر على الشباب والشابات بما يثيره من الشهوات، وما يدفع إليه من الانحرافات.

من معجزات الحديث:

ومن معجزات هذا الحديث: أنه قرن بين الاستبداد السياسي الجائر، وبين الانحلال الخلقي الفاجر، وهما مقترنان كذلك في الواقع وفي التاريخ، فما إن يحكم الطغاة المستبدون الذين يذلون البشر ويتحكمون في رقابهم، ويريدون أن يتخذوا عباد الله خولاً، حتى يشجعوا على التحلل والمجون والخلاعة والإباحية، ويطلقوا العنان للشهوات والغرائز الدُّنيا، ليشغل الناس عن جورهم وظلمهم وجبروتهم، بما هم فيه من متع متاحة، وشهوات مباحة، ميسرة السبيل، هذا هو الخطر على المجتمع.

فاحذروا أيُّها المؤمنون، احذروا من هذين الصنفين، احذر أيُّها المسلم أن تكون ظالماً أو عوناً لظالم، واحذري أيُّها المسلمة أن تكوني من هؤلاء الكاسيات العاريات المائلات المميلات.

نسأل الله أن يفقهنا في ديننا، وأن يوفّقنا لما يحب ويرضى، وأن يجعلنا من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

الدرس السابع والثلاثون

لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله

عن عبد الله بن بسر قال: أتى رجلُ النبي ﷺ فقال: إِنَّ شَرَّاءَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابَ نَتَمَسَّكَ بِهِ جَامِعًا! قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

وفي رواية عند الترمذي: إِنَّ شَرَّاءَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبَرَنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

ذكر القلب وذكر اللسان:

ذكر الله تعالى يشمل: الذكر بالقلب، والذكر باللسان. والذكر بالقلب أن يتذكر الإنسان جلال الله ﷻ، أن يكون الله تعالى حاضرًا في قلبه، وألا تصيبه الغفلة والنسيان، فينسى ربه، فينسيه الله تعالى نفسه.

والذكر باللسان يشمل ذكر الدعاء وذكر الثناء. وذكر الدعاء: أن يسأل الله تعالى أن يقضي له مصالحه في الدنيا والآخرة؛ أن يسأله الجنة ويتعوذ به من النار.

(١) رواه أحمد (١٧٦٨٠)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، والحاكم في الدعاء (٤٩٥/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

وأما ذكر الثناء، فيشمل التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والحوقة.. إلخ؛ سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الذكر المطلوب هو الذكر الكثير:

إنَّ الله تعالى لم يأمر عباده بمجرّد أن يذكروه، وإنّما أمرهم أن يذكروه ذكرًا كثيرًا، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]. أمرهم أن يذكروه في كل حين، وفي كل حال، على جنوبهم، وقاعدون، وقائمون، كما قال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

أمر الله بذكره حتّى عند الحرب، وعند لقاء العدو، فلا ينبغي أن يُنسى المسلم لقاء العدو ذكر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وقد وصف الله المنافقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، أي إنّ المنافق يذكر الله في بعض الأحيان على قلة ونُدرة، فما بالكم بمن لم يذكر الله لا كثيرًا ولا قليلًا؟ ماذا نسَمّي هذا الإنسان إن بقي فيه شيء من الإنسانيّة وهو غافل عن الله تعالى؟

الغفلة شرٌّ ما يصيب الإنسان:

إنَّ شرَّ ما يصيب النَّاس هو الغفلة، وشرُّ الغفلة هي الغفلة عن الله سبحانه، وقد وصف الله أهل النَّار، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

بِهَآ أُؤْتِيكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٩]﴾، غفلوا عن الله، وعن ذكر الله، وعن لقاء الله، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

المؤمن لا يلهيه شيء عن ذكر الله:

فالمؤمن ذاكر لله، والمنافق غافل عن الله، المؤمن يذكر الله ذكراً كثيراً، والمنافق لا يذكر الله إلا قليلاً، ولهذا ختم الله سورة المنافقين بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

لا يجوز أن يشغل الإنسان عن ربّه مال أو ولد أو تجارة أو لهو، فقد وصف الله الصالحين من عباده بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا نُلْهِهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، هؤلاء ليسوا عاطلين ولا متبطلين، ولا رهباناً في دير، ولا دراويش في تكيّة، هم رجال لهم بيع وشراء، وتجارة وأموال، ولكن لا تلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله.

البيت الحي والبيت الميت:

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم رطب اللسان بذكر الله، وحي القلب بذكر الله، وعامر البيت بذكر الله، فإن النبي ﷺ جعل للبيوت حياة وموتاً، فالبيت الحي هو الذي يذكر الله تعالى فيه، والبيت الميت هو الذي لا يذكر الله تعالى فيه، قال ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٩)، عن أبي موسى.

والمجلس الذي لا يُذكر الله فيه أهله خاسرون، قال رسول الله ﷺ: «ما قعد قومٌ مقعداً لم يذكروا الله وعجل فيه، ويصلُّوا على النبي ﷺ، إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة، وإن دخلوا الجنة، للثواب»^(١).

وقال: «ما من قومٍ يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة الحمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة»^(٢).

أجر ذاكِر الله في الغافلين:

لذا فقد حثَّ النبي ﷺ على ذكر الله في مجالس الغفلة وأماكنها، قال ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل عن الفارين، وذاكر الله في الغافلين كغصن أخضر في شجرٍ يابس»^(٣).

شبه المؤمن الذاكر الذي يذكر الله بين جماعة الغافلين الذين لا يذكرون الله بالمجاهد الثابت في القتال بعد فرار أصحابه، لأنَّ الذاكر يقهر الشيطان وجنده ويهزمه، والغافل ما أسرع ما يقهره الشيطان ويهزمه، ثمَّ شبهه بالغصن الأخضر الذي يعدُّ للإثمار، لأنَّ الذكر حياة القلب وتطهيره، والقلب إذا صلح صلح الجسد كله، وشبه الغافل باليابس الذي يُهيأ للإحراق؛ لأنَّ الغفلة هي سبيل الشيطان لإغواء ابن آدم.

(١) رواه أحمد (٩٩٦٥)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان في البر والصلة (٥٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٠٦٨٠)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٥٥)، والحاكم في الدعاء (٤٩١/١ - ٤٩٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وصحَّح إسناده أبو داود النووي في رياض الصالحين (٨٣٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٨١/٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٦١)، وضعَّف إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ٣٤٩، عن ابن عمر.

فإذا غفل النَّاس فعلى المؤمن أن يذكر الله تعالى.

ولهذا كان بعض الصالحين يتحسَّس مواضع الغفلة ليتعمَّد فيها ذكر الله، فعن موسى بن المغيرة قال: رأيتُ محمَّد بن سيرين يدخل السوق نصف النهار يكبِّر ويسبِّح ويذكر الله وَعَلَّكُمُ. فقال له رجل: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ قال: إنَّها ساعة غفلة^(١).

المؤمن يذكر الله في كلِّ أحواله:

على المؤمن أن يذكر الله في كلِّ حال، وأن يذكره ذكرًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. فالمسلم مأمور بذكر الله تعالى في كلِّ أحيانه، وعلى كلِّ أحواله، مسافرًا أو مقيمًا، صحيحًا أو سقيمًا، قائمًا أو قاعدًا أو على جنب. حتَّى في حال الحرب، كما قلنا.

وإذا خرج من صلاة الجمعة، وانتشر في الأرض، طالبًا الرزق ومبتغيًا من فضل الله عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وإذا نزلت بالإنسان نازلة، أو دهته كارثة من كوارث الحياة، وما أكثر كوارث الحياة! فعليه أن يذكر الله تعالى، قال تعالى في وصف الصابرين من عباده: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٧٢).

وإذا زلت بالإنسان قدمه فوق في معصية من معاصي الله، فعليه أن يسارع ويعود إلى باب الله، ويذكر الله تعالى تائبًا مستغفرًا، كما قال سبحانه في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

النبي ﷺ يعلمنا أن نذكر الله في كل الأحوال:

كان النبي ﷺ سيّد الذاكرين يذكر الله على كل أحيانه، وعلى كل أحواله، قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه^(١).

وعلمنا النبي ﷺ أن نذكر الله في كل أحوالنا، وصحّت عنه أدعية مأثورات كثيرة، وأذكار من الذكر الطيب النافع، الذي يملأ القلب حياة، ويملأ الروح خشيةً لله، ويجعل في النفس طمأنينةً وأمنًا، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

علمنا إذا نمنا أن نقول عند النوم: «باسمك ربّ وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٢).

علمنا أن نقول عندما نستيقظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(٣).

علمنا أن نقول إذا أصبحنا: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله،

(١) رواه مسلم في الحيض (٣٧٣)، والبخاري في الأذان تعليقًا قبل حديث (٦٣٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، عن حذيفة.

لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه النشور»^(١). وأن نقول مثل ذلك عندما نُمسي.

عَلَّمْنَا أَنْ نَقُولَ إِذَا رَكَبْنَا دَابَّتَنَا أَوْ سَيَّارَتَنَا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ [الزخرف: ١٣، ١٤]^(٢).

عَلَّمْنَا أَنْ نَذْكُرَ اللَّهَ فِي كُلِّ حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِنَا، نَذْكُرُ اسْمَهُ سُبْحَانَهُ، نَحْيَا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَنَمُوتُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، نَأْكُلُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَنَشْرَبُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَنَنَامُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَنَسْتَيْقِظُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، حَتَّى فِي قَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَقَضَاءِ الْإِنْسَانِ وَطَرِهِ مِنْ زَوْجَتِهِ، يَعَلِّمُنَا الرَّسُولُ الْمَعْلَمُ ﷺ أَلَّا يَنْسَى أَحَدُنَا رَبَّهُ حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، بِاسْمِ اللَّهِ»^(٣).

هَكَذَا عَلَّمَنَا الرَّسُولُ ﷺ، وَهَكَذَا عَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ، فَادْكُرُوا اللَّهَ أَئِهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ، اذْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ، اذْكُرُوا اللَّهَ فِي كُلِّ حِينٍ؛ لِيَذْكُرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ ذَكَرْتَهُ فِي مَلَأْ خَيْرِ مَنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرِ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتَهُ هَرْوَلَةً»^(٤).

(١) رواه البزار (٨٦٨٥)، وجوّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩٩٤)، وحسّن إسناده

ابن حجر في مختصر زوائد البزار (٨٢٣/٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، وأحمد (٦٣٠٩)، عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٤١)، ومسلم في النكاح (١٤٣٤)، عن ابن عباس.

(٤) سبق تخريجه ص ٢٣٨.



ذكر الله في الأعياد:

علينا أن نذكر الله، وأن نكبر الله حينما يأتي العيد، فقد ختم الله آية الصيام بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. لنكبر الله في ليلة العيد، وفي صباح العيد، وفي مصلى العيد، ونحيي هذه السنة الكريمة، وأن نغمر المصلى بالتكبير: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد».

ولقد ختم الإمام البخاري جامعہ الصحيح بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١). فأكثروا من التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل أيها المسلمون، واذكروا الله تعالى يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤)، عن أبي هريرة.

الدرس الثامن والثلاثون

تداعي الأمم على أمة الإسلام

روى الإمام أحمد، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت»^(١).

دوام الحال من المحال:

في هذا الحديث يخبرنا النبي ﷺ عمّا تصير إليه هذه الأمة، وعن تغير موازين القوى في الحياة البشرية.

فبعد أن كانت هذه الأمة تنتصر على أعدائها، وهي أقل عدداً وأضعف عدداً، كانت تُنصر بالرعب مسيرة شهر، كان أعداؤها إذا سمعوا بغزواتها فرُّوا من أمامها، كان الرعب يدخل قلوبهم ممّا سمعوا من بطولات المسلمين، ومن جهاد المسلمين، ومن حبّهم للموت والشهادة في سبيل الله، كان هذا في عهد الصحابة، ومن تبعهم بإحسان، وفي

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨).

القرون الأولى التي كان للجهاد فيها مكانة كبرى، وكان الراغبون في الجنة والراغبون فيما عند الله كثيرين كثيرين، هكذا كانت هذه الأمة، ثم دار الفلك دورته، فإذا بها يتغير حالها، ودوام الحال من المُحال، كما يقولون.

مؤامرة عالمية:

يقول النبي ﷺ مشيرًا إلى هذه الحالة: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». مؤامرة دولية من أمم شتى على هذا الدين، وعلى أهله وأتباعه، على أمة محمد ﷺ، على أمة القرآن، تتداعى الأمم، يدعو بعضهم بعضًا، وينادي بعضها بعضًا، سرًا وجهراً، يتفقون على النيل من هذه الأمة، كما يتداعى الأكلة إلى قصعة الطعام، كلٌ يريد أن يأخذ حظه، وأن ينال نصيبه، وأن يسدَّ جوعته من هذه القصعة. هكذا صار حال هذه الأمة، تداعت عليها الأمم لتنتهب خيراتها، ولتحتل أرضها، ولتأكل رزقها، ولتمتص دماءها.

الكثرة وحدها لا تكفي:

وحينما سمع الصحابة أنه يأتي يوم على هذه الأمة الغالبة المنتصرة الفاتحة يوم فتُغلب، وتتداعى عليها الأمم بهذه الصورة! استغربوا الأمر ودهشوا منه، وقالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟

ما الذي يجعل الأمم تطمع في أمة الإسلام إلى هذا الحد؟ فقال: «لا، بل أنتم يومئذ كثير»، ولكن الأمر ليس أمر قلة ولا كثرة، فـ ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

[البقرة: ٢٤٩].

كان المسلمون في بدر أقل من ثلث عدد المشركين في ذلك اليوم، ولكن الله نصر القلّة على الكثرة، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وذلك لأنّ الله تعالى كان من ورائهم يدير المعركة بيده، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَرُّعِبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

الأمر ليس أمر قلّة ولا كثرة، فقد كان الصحابة قلّة، وكان النصر في ركاibهم دائماً، ولكنّ الأمر إيمان وعدم إيمان، ولهذا قال ﷺ: «إِنَّكُمْ يَوْمئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غِثَاءٌ كَغِثَاءِ السَّيْلِ».

في الدُّنْيَا الآن ما يقرب من ثمانمائة مليون مسلم^(١)، موزَّعون في أقطار الأرض، ولكن ماذا يُغني هؤلاء الذين شَتَّتَتْهم العصبيات والمذاهب والأفكار، وأصبحوا لا يقفون عند حدود الله، وأصبحوا لا يؤمنون بما كان يؤمن به الصحابة؟

لهم أجسام كأجسام الأولين، ولكن ليست لهم قلوب كقلوبهم، ليست لهم رغبة في الموت كرجبتهم، فهم غثاء كالغثاء الذي يحمله السيل من هنا وهناك.

نزع المهابة وإلقاء الوهن في القلوب:

قال ﷺ: «ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن».

(١) اليوم يبلغ عدد المسلمين في العالم المليار وستمائة مليون نسمة.

الرعب الَّذي كان يُنصر به الأولون من الصحابة وتابعيهم بإحسان، المهابة الَّتِي كانت لهم في صدور أعدائهم تنزع؛ لأنَّهم لم يعودوا يستحقونها، كانت كرامة من الله لهم، ومكافأة وجائزة من الله لهم، على جهادهم وصبرهم ومصابرتهم ومرابطتهم في سبيل الله، ولكنَّ المسلمين اليوم لا يستحقون هذه الكرامة، فنزع الله هذه المهابة وهذا الرعب من صدور أعدائهم.

أسباب الوهن:

وأكثر من هذا أنَّهم هم أنفسهم قذف في قلوبهم الوهن، أي الضعف والخور، ومعنى الوهن معروف، ولكن الصحابة أرادوا أن يسألوا عن سرِّ هذا الوهن، وعن سبب هذا الضعف، ما هو! فقالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ أي ما سرُّه؟ وما علته؟ وما سببه؟ فقال: «حُبُّ الدُّنيا وكراهية الموت». هذا هو سبب الضعف في هذه الأمة.

كان تنافس المسلمين الأوائل في الآخرة لا الدُّنيا:

المسلمون الأول كانوا أقوياء؛ لأنَّهم لم يتسلَّل حُبُّ الدُّنيا إلى قلوبهم، بل كان الله ورسوله، ونصر الله والموت في سبيله أحبَّ إليهم من الدُّنيا وما فيها، كانوا يسألون الله الشهادة بصدق، وكان أحدهم إذا فاتته الشهادة يبكي بكاءً مرًّا! وكان منهم من ينافس ابنه أو أخاه على الخروج في سبيل الله، وقد ذكرنا في بعض دروسنا تنافس سعد بن خيثمة وأبيه خيثمة على الخروج في الغزوة، فأقرع النبي ﷺ بينهما، فكانت القرعة من نصيب الولد، فقال له أبوه: يا سعد، آثرني بها. فقال له: يا أبت، إنَّها الجنَّة، ولو كان شيء غيرها لآثرتك^(١).

(١) رواه سعيد بن منصور في الجهاد (٢٥٥٨)، والحاكم في معرفة الصحابة (١٨٩/٣) وسكت عنه، وقال الذهبي: مرسل وإسناده ضعيف. عن سليمان بن أبان.

إنَّها الجنَّة، لو كان الأمر أمر مال، أو أمر ذهب أو فضة، لتركته لك، ولكنَّها الجنَّة!

وعمر بن الجَمُوح الشيخ الكبير الأنصاري الأعرج، يريد من أبنائه أن يخرج في غزوة أحد، فقالوا له: نحن نكفيك، وقد أعذرك الله، فأنت أعرج، وليس على الأعرج حرج ولا على المريض حرج، ولكنَّه يشكو إلى النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: «لعلَّ الله يرزقه الشهادة». فخلوا عنه، وقال: اللهم لا تردني إلى أهلي خائبًا.

اعتبر رجوعه إلى أهله دون أن يُرزق الشهادة نوعًا من الخيبة والخسران، وحقَّق الله له ما أراد، وقتل شهيدًا في سبيل الله، وقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ»^(١).

وهكذا كان السلف الصالحون، وهكذا كان المسلمون في فترات قوتهم، يحرصون على الموت، ولا يبالون أوقعت المنية عليهم أو وقعوا عليها.

كان خالد بن الوليد يكتب للأكاسرة وللقياصرة ولقادة الأجناد من الفرس والروم: أسلموا تسلموا، وإلا جئكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة^(٢)، فلمَّا التقت جيوش الإسلام وهي أقل في العدد وأضعف في الاستعداد، انتصرت القلَّة على الكثرة، وانتصر الضعف المادي على القوَّة الماديَّة، وذلك لأنَّهم كانوا يحبُّون الموت في سبيل الله ولا يبالون بالدُّنيا.

(١) رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٢٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده جيد. عن جابر.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في التاريخ (٣٤٤١٧)، وأبو يعلى (٧١٩٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٨): رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وثق. عن الشعبي مرسلاً.



عاقبة الوهن الذي أصاب الأمة:

فلَمَّا جاء الَّذِينَ أَوْهَن حُبُّ الدُّنْيَا وكراهية الموت أنفسهم وقلوبهم، تَغَيَّرَ الموقف، فأصبحنا عالَةً على غيرنا، وطمع فينا من لا يدفع عن نفسه، حتَّى اليهود أحرص النَّاس على حياة، أشد النَّاس عداوة للذين آمنوا، الَّذِينَ ضربت عليهم الذَّلَّة والمسكنة، وضُرِبَ بهم المثل في الجبن والخسَّة، غلبنا أمامهم! وما ذلك إِلَّا لأنَّ حُبَّ الدُّنْيَا وكراهية الموت غلب على قلوبنا.

السبيل إلى عودة المهابة:

فإذا أردنا أن يُعيد الزمن الصحائف البيض إلينا من جديد، إذا أردنا أن نعود إلى ما كان عليه سلفنا الأولون، فعلينا أن نحَبَّ الموت وأن نرفض حُبَّ الدُّنْيَا، ليس معنى هذا أن نترك عمارة الحياة وعمارة الأرض، وأن ننقطع في الزوايا والتكايا والمساجد، لا، وإنَّما المطلوب منَّا أن نبيع دنيانا بآخرتنا، نطلب الموت في سبيل الله من أجل ديننا وكرامتنا، نطلب الجَنَّة، نقف مع الَّذِينَ وقفوا في سبيل الله، ونقول: يا ريح الجَنَّة هبِّي، يا خيل الله اركبي، يا كتائب الله سيري.

بهذه الروح نعيد من جديد عهد خالد وأبي عُبَيْدة وصلاح الدين، وهؤلاء الغُر الميامين، الَّذِينَ لم يكونوا يبالون بالدُّنْيَا وما عليها في سبيل الله.

الشهادة أفضل ما يتمناه المسلم:

هذا أيُّها الإخوة هو سرُّ القوة، وذلك هو سرُّ الضعف، حُبُّ الدُّنْيَا وكراهية الموت، المسلمون الأولون إنَّما انتصروا حينما كان الجهاد في سبيل الله سبيلهم، وكان الموت في سبيل الله أعظم ما يتمنون.

قال رجل: اللهم آتني أعظم ما تعطي عبادك الصالحين. فقال ﷺ: «إِذَنْ يُعْقِر جَوادُكَ، وَيُهْرَاق دَمُكَ»^(١). هذا أفضل ما يتمناه المسلم، وأفضل ما يؤتاه الصالحون، أن يُعْقِر جواده، وَيُهْرَاق دمه.

فلنعش أيُّها المؤمنون لهذه الغاية، للجهاد في سبيل الله، لنخرج حبِّ الدُّنيا والحرص عليها من قلوبنا، ولنجعل قطرة الدم رخيصة في سبيل الله، أمّا ما دامت قطرة الدم غالية، وما دام كلُّ منا يحرص على عمره وعلى حياته وعلى نعيم حياته، وعلى العيش في هذه الدُّنيا، وعلى التمتع بما هو فيه من رفاهية، فهيهات أن نتصر في معركة، وهيهات أن نتحرر مقدساتنا، لن نتحرر إلّا إذا تحرّرت أنفسنا من هذا الوهن.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا القوّة في النفوس والقلوب والصدور، إنّه سميع قريب.

(١) سبق تخريجه ص ٣٢٢.

الدرس التاسع والثلاثون

غنى النفس

روى الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١).

وروى الترمذي عن أبي هريرة أيضاً مرفوعاً: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»^(٢).

وروى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(٣).

مفاهيم عوجاء لمعنى الرضا والقناعة:

هذه الأحاديث وما في معناها فهمها الناس فهماً أعوج، لم يفهموها على وجهها الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه أحمد (٨٠٩٥)، وقال مخرجه: حديث جيد. والترمذي في الزهد (٢٣٠٥)، وقال: حديث غريب.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠٥٤)، وأحمد (٦٥٧٢)، والترمذي (٢٣٤٨)، وابن ماجه (٤١٣٨)، كلاهما في الزهد، عن عبد الله بن عمرو.

لم يُرد النبي ﷺ بأحاديثه التي حثت على القناعة والرضا بقسم الله أن يرضى الناس بالعيش الدون والحياة الهون، ولا أن يقعدوا عن السعي إلى الغنى الحلال والحياة الطيبة والعيش الرغيد، كلاً، فإن النبي ﷺ قال لعمر بن العاص رضي الله عنه: «يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(١).

والقرآن الكريم يمتنُّ على رسول الله ﷺ فيقول: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، أي وجدك فقيراً فأغناك، ويمتنُّ على المؤمنين أنه بعد الهجرة رزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون، يقول تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْأُنَاسُ فَأَوَدَّكُمْ بَنَصْرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ويحكي القرآن على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

والقرآن يجعل المعيشة الضنك عقوبة من الله ﷻ، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، ويجعل الجوع والخوف من العقوبات القدرية التي تنزل بكل من كفر بأنعم الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

والرسول ﷺ كان يسأل الله الغنى كما يسأله الهدى والتقى، يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع

(٢/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في تخريج مشكلة

الفقر (١٩)، عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢١)، وأحمد (٣٩٥٠)، عن ابن مسعود.

وحينما جاءت أم أنس تقول له: خويدمك أنس يا رسول الله، ادع الله له، فكان ممّا دعا له أن قال: «اللهم أكثر ماله»^(١).
وأثنى على صاحبه أبي بكر فقال: «ما نفعتني مالٌ كمالٍ أبي بكر»^(٢).
وقال لصحبه سعد بن أبي وقاص حينما أراد أن يوصي بماله كله: «الثالث، والثالث كثير، إنَّك أن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»^(٣).

مفهوم القناعة:

إذن، فما معنى القناعة والرضا بما قسم الله؟
إنَّها تعني أمرين على جانب كبير من الأهميَّة:

• الحد من سَوَرة الحرص والطمع:

الأمر الأول: أنَّ الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدُّنيا، لا يكاد يشبع منها أو يرتوي، وقد صوِّر ذلك الحديث النبوي: «لو كان لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولا يملأ عين ابن آدم إلَّا التراب»^(٤)، وهذا أمر مشاهد ملموس.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٣٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٧٤٤٦)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن ماجه في المقدمة (٩٤)، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٣)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الهبات (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٤) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٩)، ومسلم في الكسوف (١٠٤٨)، عن أنس.

وكان لا بدّ للدين أن يهديه إلى الاعتدال في السعي إلى الغنى، والإجمال في طلب الرزق، وبذلك يقيم التوازن في نفسه وفي حياته، ويمنحه السكينة التي هي سرُّ السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذي يرهق النفس والبدن معاً، ومن ثمّ قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١).

ولو ترك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه ونزغات طمعه، لأصبح خطراً على نفسه وعلى جماعته، فكان لا بدّ من توجيه طموحه إلى قيم أرفع، ومعانٍ أخلد، ورزق أبقي، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ * ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لَكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وظيفة الدين هنا أن يحذّر من سؤرة الحرص والطمع، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية، فلا تستبد بها، وتجعلها تحيا في قلق دائم، لا تكتفي بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يطفئ غلّة طمعها ما عندها، فتتمدّ عينها إلى ما عند غيرها، لا يشبعها الحلال، فيسيل

(١) رواه ابن أبي شيبه في الزهد (٣٥٤٧٣)، والحاكم في البيوع (٤/٢) شاهداً لحديث جابر، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٨٩)، وقال الحافظ في المطالب العالية (٩٢٧): فيه انقطاع، كذا قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٧٢٢)، عن ابن مسعود.

لعابها إلى الحرام، مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح، إنها كجهنم - أعاذنا الله منها - تلتهم الملايين في جوفها، ثم يقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وظيفة الدين أن يوجّه النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحي الذي لا يموت، وأن يُعلّم المؤمن أن الغنى - إن كان ينشد الغنى - ليس في وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى وكثرة عرض الدنيا، إنما الغنى الحقيقي في داخل النفس أولاً، وهذا معنى الحديث الذي ذكرناه: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»^(١).

قد تجد من الناس من يملك الملايين والقناطير المقنطرة، ولكنه مع ذلك يريد أكثر من هذا، لا يشبع أبداً، فهذا ليس بغني.

• رضا الإنسان بما وهب الله له ممّا لا يستطيع تغييره:

الأمر الثاني: أن تفاضل الناس في الأرزاق كتفاضلهم في المواهب والملكات، سُنّة مطّردة، تقتضيها طبيعة هذه الحياة، ووظيفة الإنسان فيها، وما منحه الله من إرادة واختيار، وما حَفّه به من ابتلاء واختبار، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠]. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فكما أن في الناس القصير والطويل، والدميم والجميل، والغني

(١) سبق تخريجه ص ٤٨١.

والذكي، والضعيف والقوي، فيهم الموسَّع له، والمضيق عليه، هذه طبيعة الحياة، وهذه سُنَّة الله التي لم يستطع الشيوعيون وغيرهم أن يغيروها رغم تشدقهم بالمساواة ومحو الفوارق الاقتصادية بين فئات الناس.

الإسلام يريد من المسلم أن يكون واقعيًا، يعترف بالحياة كما هي، ويأخذها كما هي، ولا يعيش حياته في همٍّ ناصب، وتعبٍ واصل، جريًا وراء وهم كاذب.

الإسلام يريد من المسلم ألا يكون أكبر همِّه النظر إلى ما أُوتيه الآخرون من نعمة نظرة العدو المتربِّص، الذي يأكل قلبه الحسد، ويغلي صدره بالبغضاء، وتموج نفسه بالطمع، فإنَّ نظرة الإنسان إلى ما أُوتيه الآخرون، وإلى ما حُرِّم منه لا يجلب عليه إلاَّ النكد والشقاء والتعاسة، وأولى من ذلك أن ينظر إلى ما أُوتي هو من نعم عظيمة، قد يغفل عنها، وينظر إلى من دونه ممَّن حُرِّم هذه النعم، وبذلك يسعد ويرضى ويطمئن قلبه.

فمعنى القناعة هنا: أن يرضى الإنسان بما وهب الله له ممَّا لا يستطيع تغييره، فالمرء تحكمه موارث جسمية وعقلية ونفسية، وتحده البيئة والخبرة والظروف القاهرة، وفي حدود ما قُدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنيًا ما لا يتيسَّر له، متطلِّعًا إلى ما وُهب لغيره ولم يُوهب له، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوَّة الشباب، وتطلُّع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرِ وحسد. ونظرة الإنسان القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهُّف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض مقفرة بطبيعتها إلى رفاة الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد النبي ﷺ حين تمنَّى النساء أن يكنَّ لهن

ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]^(١).

وفي حالة العسر وضيق الرزق التي تحل بالأفراد، ولا تخلو منها حياة الناس، وفي الأزمات الطارئة التي تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو نحوها.

وفي البلاد والدول التي تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها، ولا يهتدي كثير منهم سبيلاً لتنمية رزقه أو للهجرة من بلده، تكون القناعة هنا بما رزق الله هي الدواء الناجع، والبلسم الشافي، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا بعض أحوالهم ليس طموحاً، ولا علو همة، إنما هو طمع في غير مطمع، وتمنّ لما لا يكون، وحرص لا ثمرة له إلا الهم والحزن.

وهؤلاء في حاجة أن يُعلّموا، ويوقنوا أن السعادة ليست في وفرة أعراض الحياة، ولكنها في داخل النفس، وأول ما يقال لهم وأولى ما يسمعون: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»^(٢). «قد أفلح من هُدي للإسلام، وكان رزقه كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه»^(٣). «ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى»^(٤).

(١) رواه أحمد (٢٦٧٣٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في التفسير (٣٠٢٢) وقال:

هذا حديث مرسل (أي منقطع بين مجاهد وأم سلمة)، عن أم سلمة.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٨١.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٨١.

(٤) رواه أحمد (٢١٧٢١)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والطيالسي (١٠٧٢)، وابن حبان في الزكاة

(٣٣٢٩)، والحاكم في التفسير (٤٤٤/٢)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن أبي الدرداء.

إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ وَلَوْ أَنَّهُ عَارِيَ الْمَنَاقِبَ حَافٍ
 مَا كُلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا فَإِذَا قَنَعْتَ فَبَعْضُ شَيْءٍ كَافٍ^(١)
 الْقَنَاعَةُ - إِذَنْ - أَلَّا تَكُونَ جَشَعًا شَرِّهَا حَسُودًا مُتَطَلِّعًا إِلَى غَيْرِكَ،
 مَتَمْنِيًا مَا لَيْسَ فِي طَاقَتِكَ.

القناعة هي استرواح نسمات الحياة الطيبة التي جعلها الله جزاءً
 للمؤمنين العاملين في الدنيا حيث قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ
 أَنُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال علي بن أبي
 طالب عليه السلام: الحياة الطيبة هي القناعة^(٢).

فالقناعة هنا كنز لا يفنى، فارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.

* * *



(١) القائل: أبو فراس الحمداني. انظر: الحماسة المغربية (١٢٥٤/٢)، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

(٢) رواه الطبري في تفسير الآية (٢٩٠/١٧).

الدرس الأربعون

الأناة والعجلة

روى الترمذي عن سهل بن سعد الساعدي، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
«الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»^(١).

وروى ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن منيع والحرث بن أبي أسامة
في مسانيدهم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الحديث بلفظ: «التأني من الله
تعالى، والعجلة من الشيطان»^(٢).

قال المنذري: رواه أبي يعلى رواة الصحيح.

وفي الصحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما يشهد لهذا الحديث أَنَّ
النبي ﷺ قَالَ لِلأَشَجِّ أَشَجَّ عَبْدُ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ:
الحلم، والأناة»^(٣).

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٢)، وقال: هذا حديث غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم
في عبد المهيم بن عباس بن سهل وضعفه من قبل حفظه. والطبراني (١٢٢/٦)، وأبو نعيم
في معرفة الصحابة (٣٣٠٣).

(٢) رواه أبو يعلى (٤٢٥٦)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤١٩)، والهيثمي في مجمع
الزوائد (١٢٦٥٢): رجاله رجال الصحيح. وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٩٥).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠١١).

اتفاق البشر على مدح الأناة وذم العجلة:

مدح الأناة وذم العجلة ممَّا استقرت عليه فطر النَّاس، وأجمعوا عليه قديمًا وحديثًا، حتَّى قيل في الأمثال السائرة: من تأنَّى نال ما تمَنَّى. وقالوا: في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة.

وقال المرقش الأكبر:

يا صاحبيّ تلبّثا لا تعجلا وقفا برقع الدّار كيما تسألا
فلعلّ بظأكما يفرطُ سيئًا أو يسبقُ الإسراعُ خيرًا مُقبلاً^(١)

ومعنى يفرط سيئًا: ينحّيه ويبعده.

وقال الآخر^(٢):

قد يُدركُ المتأنّي بعضَ حاجتِهِ وقد يكونُ مع المستعجلِ الزَّلَلُ
وقال عمرو بن العاص: لا يزال المرء يجتني من ثمرة العجلة الندامة^(٣).

الشيطان مصدر العجلة:

ولهذا حذّر هذا الحديث من العجلة، ونسبها إلى الشيطان؛ لأنّ الشيطان مصدر كلّ شر، فلهذا يُنسب إليه كل فعل مذموم، وإنّما كانت

(١) ديوان المرقشين الأكبر والأصغر ص ٦٣ و٦٤، تحقيق كارين صادر، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.

(٢) هو القطامي عمير بن شُييم بن عمرو بن عبّاد، كما في ديوانه ص ٢٥، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، نشر دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٦٠م.

(٣) ذكره الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (٤١/١)، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.

العجلة من الشيطان كما قال الإمام ابن القيم؛ لأنها خفة وطيش وحدة في العبد، تمنعه من الثبوت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور، وتمنعه أنواعاً من الخير، وهي قرين الندامة، فقل من استعجل إلا ندم كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة^(١).

وفي حديث النبي ﷺ: «يستجاب للعبد ما لم يستعجل». قالوا وكيف يستعجل يا رسول الله؟ قال: «يقول: دعوت ودعوت فلم يُستجب لي. فيدع الدعاء»^(٢).

هذا من الثمرات السيئة للاستعجال، أن يدع الإنسان الدعاء واللجوء إلى الله ﷻ في الملمات.

بل يدفع الاستعجال الإنسان إلى ما هو شر من هذا، بأن يدعو على نفسه بالشر! وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، في حالة العجلة والغضب الإنسان يدعو على نفسه وعلى أهله وعلى ولده وعلى كل من يعزُّ عليه، يدعو ﴿بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

خير البر عاجله:

هذا ما جاء به هذا الحديث، دعا إلى الأناة، وحذر من العجلة، ولكن هل هذا التأنّي مطلوب في كل أمر؟ وهل العجلة مذمومة في كل أمر؟ ألم

(١) الروح لابن القيم ص ٥٨، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، عن أبي هريرة.

يقول النَّاس: خير البر عاجله؟ حتَّى ظنَّ بعض النَّاس أنَّ هذا حديث عن النبي ﷺ ولكن الصحيح أنَّه ليس بحديث، وإنَّما رُوِيَ معناه عن العباس عم النبي ﷺ قال: لا يتمُّ المعروف إلَّا بتعجيله، فإنَّه إذا عَجَّله هنَّا^(١).

وشاع على الألسنة واشتهر أنَّ الانتظار أشدُّ من الموت، على أنَّ البر أوسع من مجرد إسداء المعروف، فهو يشمل كلَّ عمل صالح ممَّن يُتقرب به إلى الله ﷻ، أو ينفع النَّاس، والتعجيل بالخير والبر وعمل الصالحات أمر محمود ندب إليه القرآن الكريم، وحثَّ عليه السُّنَّة الشريفة، ففي القرآن في معرض المدح والثناء يقول الله تبارك وتعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]. وقال في جماعة آخرين: ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

وأمر الله تعالى عباده باستباق الخيرات، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فهذا القول الأخير: خير البر عاجله، صحيح في معناه، وليس مناقضاً لحديث العجلة من الشيطان.

متى تمدح العجلة؟

وقد نبّه المحققون على أنَّ العجلة إنَّما تمدح في مواطن، منها: أن يكون الأمر المراد تنفيذه طاعة ظاهرة لله ﷻ، فإذا كان كذلك فمن الخير التعجيل به، استباقاً في الخيرات، ومسارة فيها، كما أمر الله تعالى.

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني (١٢٢٩)، تحقيق عبد الحميد أحمد هنداي، نشر المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

وقد روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ: «التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة»^(١).

كان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء، فدعا تلميذاً له، وقال له: انزع عني هذا القميص، وادفعه إلى فلان. ف قيل له: هلاً صبرت حتى تخرج من الخلاء؟ فقال: لم آمن على نفسي أن يتغير علي ما وقع لي من التخلف منه بذلك القميص^(٢).

وعن علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يا علي لا تؤخرهن: الصلاة إذا أتت، والجنابة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفواً»^(٣). هذه من الأمور التي لا تؤخر.

ولهذا الحديث قصة أخرجه ابن دريد والعسكري: أن معاوية قال يوماً وعنده الأحنف بن قيس: ما يعدل الأناة شيء. فقال الأحنف: إلا في ثلاث: تبادر بالعمل الصالح أجلك، وتعجل دفن ميتك، وتُنكح كفء أيمك. فقال رجل: نحن لا نفتقر في ذلك إلى الأحنف، فقال: لم؟ قال: لأنه عندنا عن رسول الله ﷺ حدثنا علي كرم الله وجهه فذكر الحديث^(٤).

وذكر الإمام الغزالي عن حاتم الأصم قال: العجلة من الشيطان إلا في خمسة مواضع فإنها من سنة النبي ﷺ: قرى الضيف إذا نزل، ودفن

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٠) والحاكم في الإيمان (٦٣/١) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٩٤)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) الرسالة القشيرية (٤٠٥/٢).

(٣) رواه أحمد (٨٢٨)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والترمذي في الجنائز (١٠٧٥) وقال: هذا حديث غريب، وما أرى إسناده بمتصل. وحسنه العراقي في تخريج الإحياء ص ٤٤٩، وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في الدراية (٦٣/٢).

(٤) فيض القدير (٣١٠/٣).

الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب،
والتوبة من الذنب إذا أذنب^(١).

فهنا تمدح العجلة، ويكره التأني في هذه الأمور.

وقيل لأبي العيْناء: لا تعجل، فالعجلة من الشيطان - وكان في أمر
خير - فقال: لو كان كذلك، ما قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]^(٢).

إذن لا يُمدح التأني ولا تذمُّ العجلة إذا كان الإنسان مقدماً على عمل
خير وعلى بر وعلى طاعة لله تعالى.

العجلة ممدوحة بعد التثبت والتحري والتبين:

وتذم العجلة إن لم تصحب بالتثبت والتحري والتبين، أمّا بعد أن
يتبين ويتحرى ويتثبت، ويقدم ما يلزم تقديمه قبل العمل من التفكير
والاستشارة والاستخارة، فلا وجه للترُّيث والإحجام عند ذلك، فقد
تنقلب فضيلة الأناة إلى رذيلة التواني والتباطؤ، وكل شيء زاد عن حدّه
انعكس إلى ضده، ولهذا قيل: لا تعجل عجلة الآخرق، ولا تحجم
إحجام الواني الفرق.

وقال الشاعر:

إذا كُنْتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عَزِيْمَةٍ فإنَّ فسادَ الرأيِ أن تَرَدَّدَا^(٣)

(١) إحياء علوم الدين (١٦/٢).

(٢) محاضرات الأدباء (٤٢/١).

(٣) ذكره من غير نسبة الزمخشري في ربيع الأبرار (٤٥٥/٣) نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١،
١٤١٢هـ. وعزاه ابن عساكر للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، كما في تاريخ دمشق
(٣٣٨/٣٢).

وفي القرآن الكريم ما يشير إلى ذلك، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ^ط فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

[آل عمران: ١٥٩].

لا تستحبُّ الأناة عند خوف فوات المطلوب:

والأناة غير مستحبة إذ خيف فوات المطلوب، فإذا كان هناك أمر موقوت بزمان محدود، فلا ينبغي للمرء أن يبالغ في التأني والتثبت حتى يمضي الزمن المحدود، وتفوته الفرصة المواتية، ثم بعد ذلك يعضُّ بنان الندم، ويقلُّب كفيه حسرة، حيث لا ينفع الندم، ولا يجدي التَّحسر.

وفي ذلك يقول الراجز^(١):

وَانْتَهَزِ الْفُرْصَةَ إِنَّ الْفُرْصَةَ تَصِيرُ إِنْ لَمْ تَنْتَهِزْهَا غُصَّةً

هذه هي توجيهات النبي ﷺ للمسلم أن يحذر من العجلة وأن يكون خلقه الأناة إلا في هذه المواضع: في مواضع الخيرات، وعند التثبت، وإذا لم يخف الإنسان فوت مطلوبه.

نسأل الله أن يفقهنا في ديننا، وأن يهدينا بهدي رسولنا الكريم، إنه سميع قريب.

(١) هو ابن حجة الحموي، انظر كتابه: خزانة الأدب وغاية الأرب (٢١١/١)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م.

الدرس الحادي والأربعون

الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه

روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يستر على معسر، يستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله ﻋَﺠَل فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»^(١).

خطر الفردية والأنانية:

شُرُّ ما يصيب النَّاس هو الفردية والأنانية، أن يقول كل امرئ فيهم: نفسي نفسي، أنا ولتخرب الدنيا بعدي، أنا وليفني العالم، مصلحتي فوق الجميع، وشهوتي فوق كلِّ مبدأ. هذا هو الخطر الذي ينذر بهلاك الحرث والنسل، وبخراب الدنيا ودمار المجتمعات.

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

ومن هنا جاء الإسلام يغرس في نفس كلِّ مسلم ألا يعيش وحده، ألا يكون لنفسه فقط، فما استحقَّ أن يولد من عاش لنفسه دون غيره. على الإنسان أن يذكر غيره، أن يذكر إخوانه، أن يذكر أمته، وصدق القائل^(١):

ولو أنِّي حُبِيتُ الخُلْدَ فردًا لما أَحْبِبْتُ بالخُلْدِ انفرادًا
فلا هَظَلْتُ عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تَنْتَظِمُ البلادًا

فالمسلم الحقُّ هو الَّذي يذكر غيره، يذكر مجتمعه، ولا يعيش لمجرد شهواته، ولمجرد مصالحه، ولا يعيش لنفسه، بل يذكر مصلحة النَّاسِ إذا ذكر نفسه، فقد علَّم الإسلامُ المسلمَ أن يقول في صلاته ولو كان يصلي منفردًا في خلوته: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] فهو لا يطلب الهداية لنفسه فحسب، وإنَّما يطلبها لنفسه ولإخوانه ولأُمته، ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

الحثُّ على تنفيس الكربات:

وعلى هذا المنهج جاء هذا الحديث النبوي الكريم، يقول فيه الرسول المعلم ﷺ: «من نَفَسَ عن مؤمن كربة من كرب الدُّنيا، نَفَسَ اللهُ عنه كربة من كرب يوم القيامة».

الكربة: هي الشدَّة التي تنزل بالإنسان، فتجعله في همٍّ وكربٍ وغمٍّ، كلُّ ما ينزل بالإنسان من خطوب ومصائب وأحوال يضيق عليه فيها الخناق، فيحتاج أن يتنَفَّسَ، ومن ينفس عنه هذه الكربة كأنَّما يُرْخي عن عنقه الخناق حتَّى يأخذ نفسه، وذلك بأن يخفِّف عنه ممَّا نزل به.

(١) القائل: أبو العلاء المعري، كما في سقط الزند ص ١٩٨، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٧م.

التنفيس أقل درجة من التفريج، ومعنى التفريج: أن يُزيل المرء عن أخيه الكربة برمتها، فمن فرّج عن أخيه كربةً من كرب الدنيا، أي أزالها وأزاح عبئها عن عنقه، وأراحه من همّه الثقيل، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة.

كيف تُنَفِّس الكربة؟

وتنفيس الكربة يكون بقضاء حاجة المكروب، وإزالة سبب يؤسه وهمّه وغمّه الذي يعانيه، فالذي لا يجد قوت يومه، ولا ما يشتري به طعامًا لأولاده، أو كسوة لأبنائه، يصيبه الهمُّ والغمُّ والكرب، والذي لم يجد ما يعالج به مريضه، أو أجره الطبيب أو ثمن الدواء، في همٍّ وغمٍّ وكرب.

فمن أعطى هؤلاء ما يواجهون به هذه المتاعب والمصاعب، فقد فرّج عنه الكربة، ومن ساعده وعاونه على بعض ما يحتاج إليه فقد نفّس عنه.

إنَّ الذي يفعل ذلك سواءً أكان ما أعطاه هبةً أم كان قرضًا وسلفة، نال عند الله الأجر العظيم، والجزاء من جنس العمل، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَزْوَاجًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فضل القرض على الصدقة:

ولقد فضّل بعض العلماء القرض على الصدقة، وقالوا في تعليل ذلك: إنَّ الذي تتصدّق عليه ربّما لا يكون محتاجًا إلى صدقتك، أمّا الذي جاء يستقرضك ويستسلفك فإنّه لا يستقرض إلّا عن حاجة ملحة، وضرورة قاهرة، فهذا أولى أن تعينه.

وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مَعْسَرًا، فَلَهُ كُلُّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةً». ثُمَّ سَمِعْتَهُ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مَعْسَرًا فَلَهُ كُلُّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةً». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مَعْسَرًا فَلَهُ كُلُّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةً»، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مَعْسَرًا فَلَهُ كُلُّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةً». قَالَ لَهُ: «كُلُّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الدِّينَ، فَإِذَا حُلَّ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةً»^(١).

فمن أقرض أخاه، أو وهب له، أو تصدق عليه، أو أعطاه بأي طريقة كانت حتى نفس عنه كربته، فإن الله يجازيه من جنس عمله، وينفس عنه كربته من كرب يوم القيامة.

عظم كربات يوم القيامة:

وما أعظم كربات ذلك اليوم العظيم، يوم الهول ويوم الكرب العظيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا». أي بلا ختان. قالت عائشة: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض! قال ﷺ: «يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»^(٢).

يكون الرجل عاريًا، وتكون المرأة عارية، ولا يلتفت أحدٌ إلى أحد،

(١) رواه أحمد (٢٣٠٤٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦٧٦): رجاله رجال الصحيح.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩).

كلُّ في همِّه، كلُّ مشغول بحاله، كلُّ في مصيبتِه، ينتظر حكم القضاء الأعلى، وليس الحكم في ذلك اليوم بسجن أو إعدام، إنما هو جنة أو نار، الأمر إذن أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض.

تدنو الشمس من الرؤوس، ويدخل الهلع على النفوس، ويشتدُّ الحرُّ، ويزيد العرق، حتَّى يبلغ عند بعض النَّاس صدرهم، وبعضهم يلجمهم العرق إلجاماً^(١).

وتشتدُّ وطأة هذا اليوم العصيب على النَّاس، لطوله وكربه وهوله الَّذي لا يحيط به وصف، وقد قال الله فيه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

كلُّ إنسان في هذا اليوم محتاج إلى ما ينفِّس عنه شيئاً من تلك الكرب الثقال، فمن أراد أن ينفِّس الله عنه كربة من كرب هذا اليوم الثقيل، فليبحث عن كرب النَّاس في الدُّنيا، ولينفِّس عنهم، فالجزاء من جنس العمل. اعملْ هنا تُجَزْ هناك، ازرع هنا تحصد هناك، اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

الحثُّ على ستر المسلم:

ثم قال النبي ﷺ: «ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدُّنيا والآخرة».

هذا هو المبدأ الثاني في هذا الحديث الكريم الَّذي يحتوي هذه المبادئ القيمة، وهذه التعليمات النبوية الصادقة، الَّتِي تنير للنَّاس سبيل

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٤)، وأحمد (٢٣٨١٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢١)، عن المقداد بن الأسود.

الحياة، وتهديهم إلى التي هي أقوم في أنفسهم، وفي علاقتهم بربهم، وفي علاقتهم بالآخرين: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة». المطلوب من المسلم أن يستر على أخيه ولا يفضحه، ولا يُشنع عليه، ولا يُشهر به، إذا زلت به قدمه، وأغراه الشيطان، فسقط في فخاخه.

فليس من الإسلام أن تُشنع على أخيك، وأن تطير بفعلته في الناس، في كلِّ مجلس تذكر خطيئته، وفي كلِّ مقابلة تُشهر به، وتقول: فلان فعل كذا وكذا، هذا لا يجوز؛ لأنَّ هذا من إشاعة الفاحشة التي يُبغضها الله ﷻ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ستر أهل الاستقامة:

والمسلم المستقيم الذي ليس معروفاً بالفساد، إذا زلت قدمه، ينبغي أن يُستر عليه، وفي الحديث الشريف: «أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم»^(١). والمراد بذوي الهيئات: ذوو الاستقامة، ذوو التقى، الذين عُرفوا بحسن السيرة وطيب الخلق.

وفي حديث آخر: «من أقال مسلماً أقال الله عثرته يوم القيامة»^(٢).

وهذا كما قلنا في الإنسان المستقيم، السائر على درب الحق والخير، فإنَّه لا يجوز لغيره أن يتعمد فضيخته، وأن يتعمد التشنيع عليه إذا رآه

(١) رواه أحمد (٢٥٤٧٤)، وقال مخرَّجوه: حديث جيد بطرقه وشواهده. وأبو داود في الحدود

(٤٣٧٥)، والنسائي في الكبرى في الرجم (٧٢٩٣)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٧٤٣١)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود (٣٤٦٠)،

وابن حبان (٥٠٣٠)، كلاهما في البيوع، عن أبي هريرة.

أخطأ يوماً من الدهر، وحاد مرة عن سواء السبيل، فأني امرئ معصوم؟
وأني الرجال المهذب؟

وفي الحديث الصحيح: «كلُّ ابنِ آدمِ خطّاء، وخيرُ الخطّائين التوابون»^(١).

النهي عن تتبّع العورات:

وقد خطب النبي ﷺ يوماً مرشداً أصحابه ومعلماً ومحدّراً ومنذراً ضعاف الإيمان ومرضى القلوب من المنافقين الذين قالوا: آمنا، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، قال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته حتّى يفضحه في بيته»^(٢).

كلُّ إنسان له عورات، وله خطايا، كما قال أبو العتاهية:
أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا أَنْ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
فَإِذَا الْمَشْتُورُ مِنَّا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ فَضُوحُ^(٣)

فلا ينبغي أن يفضح الآخرين وهو يُحِبُّ أن يستر نفسه.
إنَّ من أسوأ ما يتصف به المرء أن يتتبع عورات النَّاسِ وزلاتهم،
ويتصيّد أخطاءهم، ويقف لهم بالمرصاد؛ لينشرها في الآفاق، ويطير بها
في كلِّ مكان فرحاً، كما قال الشاعر يصف مثل هؤلاء:

(١) سبق تخريجه ص ١٢٧.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢) وقال: حسن غريب. وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٦٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي. عن ابن عمر.

(٣) ديوان أبي العتاهية ص ١١٦.

إِنْ يَسْمَعُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا!
صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(١)!
أي أنصتوا واستمعوا.

عند الخير صُمْ لا يسمعون، وبُكْمٌ لا يتكلمون، وعُمي لا ينظرون، ولكنهم في الشر والسوء والخطأ كلهم آذان مصغية! وأعين مفتوحة، يتحسسون الخطأ والقبیح، ويكتمون كل جميل صحيح، همهم إذاعة السوء في النَّاس، والله وَجَلَّ يكره هذا ويُبغضه.

إِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَغْضَّ طَرَفَهُ عَنْ عَوْرَاتِ الْآخَرِينَ، وَإِنْ رَأَى لِأَخِيهِ عَوْرَةَ سَتَرَهُ عَلَيْهِ؛ لِيَسْتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَسْتَرَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ.

جاء رجل فقال: يا رسولَ الله، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقَمَهُ عَلَيَّ! قال أنس بن مالك راوي الحديث: ولم يسأله عنه. قال: وحضرت الصلاة، فصلَّى مع النَّبِيِّ ﷺ، فلمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقَمَ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ. قال: «أَلَيْسَ قَدْ صَلَيْتَ مَعَنَا؟». قال نعم. قال: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ». أو قال: «حَدَّكَ»^(٢).
﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

كان النَّاسُ لَهُمْ ضَمَائِرٌ وَلَهُمْ قُلُوبٌ، يَأْتُونَ بِأَنْفُسِهِمْ لِيُطَهِّرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا أَصَابُوهُ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ وَاقْتَرَفُوا مِنْ مُحَارِمِهِ!

لَمَّا أَتَى مَا عَزَبَ بَنَ مَالِكِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ»^(٣).

(١) سبق عزوه ص ٣٦٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الحدود (٦٨٢٣)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٤)، عن أنس.

(٣) رواه البخاري في الحدود (٦٨٢٤)، عن ابن عباس.

وفي رواية عند مسلم قال: «وَيَحَاكُ أَرْجَعُ فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»^(١).
وقال لهزال الذي دفعه للاعتراف: «لَوْ كُنْتُ سَتَرْتُهُ بِثَوْبِكَ، كَانَ خَيْرًا مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ!»^(٢).

حكم الستر على من لم يشتهر بالفساد:

ولهذا قال العلماء: من اطلع على عيب أو ذنب أو فجور لمؤمن لم يعرف بالشَّر ولم يشتهر بالفساد أو الإفساد، غير متهتك ولا مجاهر، فيستحبُّ أن يستر عليه، ولا يفضحه، ولا يرفع أمره للحاكم، فإنَّها إذا وصلت إلى الإمام فلا شفاعاة ولا تهاون في حدود الله، أمَّا قبل ذلك فيمكن العفو ويمكن الشفاعاة.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَعَاَفَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ»^(٣).

وأمَّا من تاب من ذنبه وحسنت توبته فيجب على المجتمع أن يستر عليه، ولا تلوِّك الألسنة ماضيه وما كان عليه، ويعيره به المعيرون.
هذا هو أدب النبوة، وهذا هو أدب محمد ﷺ.

إشاعة المعصية يهون من شأنها ويجرئ عليها:

ومجتمع المسلمين لا ينبغي أن تُشاع الفاحشة فيه، إذا وقعت فاحشة

(١) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، عن بريدة.

(٢) رواه أحمد (٢١٨٩٠)، وقال مخرَّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الحدود (٤٣٧٧)، والنسائي في الكبرى في الرجم (٧٢٣٤)، عن هزال.

(٣) رواه أبو داود في الحدود (٤٣٧٦)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٨٦)، والحاكم في الحدود (٣٨٣/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في الفتح (٨٧/١٢): صحَّحه الحاكم، وسنده إلى عمرو بن شعيب صحيح. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٥٤).

ينبغي أن تُستر وتُكتم، ولا يُذاع أمرها؛ حتّى لا تجرّئ النَّاس على الحرام، وحتى لا يفشو الحرام، والكلام عن الحرام في المجتمع، فيسمع به مَنْ لا يسمع، ويخطر على بال مَنْ لا يخطر بباله. بمعنى آخر: ينبغي ألا تقع الفاحشة، فإذا وقعت حُصرت في أضيق نطاق، ولا يتحدث النَّاس بها، أمّا الَّذِينَ يحبون أن تشيع الفاحشة في الَّذِينَ آمنوا، ويتحدّثون بها، ويملؤون بها الآفاق، فهؤلاء لهم عذاب عظيم عند الله، هذا إذا وقعت الفاحشة بالفعل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فالمسلم ينبغي أن يستر على أخيه المسلم، ولا يحبُّ الإسلام أن تشيع المعاصي وتنتشر في النَّاس وتلوّكها الألسنة وتصبح مضغة الأفواه وحديث المجالس وفاكهة الأندية، فإنَّ هذا يهوّن من شأن المعصية، ويُغري بها، ويجرّئ عليها، لهذا يجب أن توأد المعاصي في مهدها، وأن تُطفأ شرارتها الأولى، ولا تُترك حتّى يتحدث بها هذا وذاك، ويتكلم عنها فلان وعلان، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

المسلم ينشغل بعيوب نفسه:

المسلم الحق هو الَّذي يشتغل بعيب نفسه ولا يتتبع عيوب غيره، وقد قال بعض السلف الصالحين: أدركنا قومًا لم تكن لهم عيوب، فذكروا عيوب النَّاس فذكر النَّاس لهم عيوبًا، وأدركنا أقوامًا كانت لهم عيوب فكفُّوا عن عيوب النَّاس فنُسيت عيوبهم.

فالذي يشغل نفسه بعيبه عن عيوب النَّاس، يكفُّ الله ألسنة النَّاس عنه، كما قال الشاعر:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى وحظُّك موفورٌ وعِرضُك صيَّنٌ
لسانك لا تذكُرْ به عورةَ امرئٍ فكلُّك عوراتٌ وللناسِ ألسُنٌ
وعَيْنُكَ إنْ أبَدْتَ إليك معايِباً يوماً فقل: يا عينُ للناسِ أَعْيُنُ
فصاحبٌ بمَعْرُوفٍ وسامحٌ مَن اعتَدَى وفارقٌ وَلَكِنْ بآلتي هي أَحْسَنُ^(١)

المجاهر بالمعاصي لا حرمة له:

هذا هو أدب الإسلام في الستر على الناس، وعدم إذاعة الفواحش والمعاصي، وهذا كما قلنا في الإنسان المستقيم، أمّا الفاجر المتبجح المجاهر المعالن بالفسق، الذي يفاخر به في المجالس، ولا يتورّع عن ذكر سوءاته وعوراته ومخازيه وفسوقه ومعاصيه، ويفتخر أنّه فعل بالأمس كذا، وأول من أمس كذا وكذا، وطالما شرب الخمر، واقترب الفجور، وهتك المستور. مثل هذا الفاسق المجاهر لا ينبغي أن تراعى له حرمة، لأنّه لم يرعَ حرمة نفسه، ولم يرعَ الله تعالى حرمة، فلا ينبغي أن يُستر عليه كما يُستر على الآخرين، هذا ينبغي أن يُعرّف للناس حتّى يحذروا منه، يُعرّف بما فيه لا زيادة ولا تشنيع بما فيه، وقد جاء في بعض الآثار: اذكروا الفاجر بما فيه ليحذره الناس^(٢). وبهذا تقف الأمة من هذا الفاجر المجاهر موقفاً إيجابياً.

(١) ذكره من غير نسبة: ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٢٥/٥)،

تحقيق محمود الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٣٧٢)، وفي الكبير (٤١٨/١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان

(٩٢١٩) وقال عقبه: هذا حديث يعد في أفراد الجارود بن يزيد، عن بهز، وقد روي عن غيره

وليس بشيء، وهو إن صحَّ فإنما أراد به فاجراً معلناً بفجوره، أو فاجراً يأتي بشهادة، أو

يعتمد عليه في أمانة فيحتاج إلى بيان حاله لئلا يقع الاعتماد عليه، وبالله التوفيق. وقال

الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦٢): رواه الطبراني في الثلاثة، وإسناد الأوسط والصغير حسن،

رجاله موثقون، واختلف في بعضهم اختلافاً لا يضر. عن معاوية بن حيدة.

وفي الحديث الصحيح: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»^(١).

هذا لا يستحق نعمة الستر عليه.

حَثُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى التَّيْسِيرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ:

ثم قال رسول الله ﷺ: «ومن يَسِّرْ على معسر، يَسِّرْ الله عليه في الدنيا والآخرة».

والمعسر: هو من ضاقت أحواله المالية عن أداء التزاماته وديونه وما عليه من حقوق، فأعسر وعجز.

هذا المعسر يحتاج إلى من ييسر عليه، والتيسير عليه إما أن يكون بإمهاله وإنظاره حتى يوسر، فيمهله الدائن إلى ميسرة، وهذا أمر واجب ولازم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وأفضل من ذلك وأمثل أن يضع عنه الدين، أو يضع عنه جزءاً من الدين، يحطه عنه صدقةً منه عليه: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ويقول النبي ﷺ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه - أي حط عنه بعض الدين - أظله الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزهد (٣٠٠٦)، وأحمد (١٥٥٢١)، عن أبي اليسر.

وليس هذا مطلوبًا من الدائن فقط، بل من كلِّ مؤمن، أن ييسر على أخيه المؤمن، فيعطيه ما يدفع به دينه إن استطاع، وأن يسدّد عنه ما ينوء به ظهره، وبذلك يكون قد يَسَّر على معسر.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس، وكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه، لعلَّ الله ﻋَجلَ يتجاوز عنا. فلقي الله، فتجاوز عنه»^(١).

ورواه مسلم، عن حذيفة قال: «أتني الله بعبد من عباده آتاه الله مالًا، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ولا يكتمون الله حديثًا. قال: يا رب، آتيتني مالك، فكنت أباع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيسر على المُوسر، وأنظرُ المعسر، فقال الله: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبيدي». فقال عقبه بن عامر الجهني وأبو مسعود الأنصاري: هكذا سمعناه من في رسول الله ﷺ^(٢).

كان يتجاوز عن عباد الله، فكان جديرًا أن يتجاوز الله عنه يوم القيامة، والله أحقُّ بالتجاوز والعفو من عباده.

الحثُّ على إعانة المسلم:

ثم يأتي توجيه آخر للنبي ﷺ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٢).
(٢) رواه مسلم في الطلاق (١٥٦٠). والبخاري في البيوع (٢٠٧٧) بلفظ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، قالوا: أعلمت من الخير شيئًا؟ قال: كنت أمر فتياي أن ينظروا ويتجاوزوا عن الموسر، قال: قال: فتجاوزوا عنه».
(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

وفي حديث آخر: «من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته»^(١).

وأي شيء أعظم من أن يكون الله في حاجتك أيها المسلم، وأن يكون الله في عونك؟

من كان الله معه، ومن كان الله في عونه، ومن كان الله في حاجته، فإنه لن يضيع أبداً، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. فعاونوا إخوانكم، واستروا عليهم، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

فعلى المسلم أن يكون معاوناً لإخواننا، باذلاً لهم ما يستطيع، وفي الحديث: «وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرُك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإمادتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لأن أمشي مع أخ في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٦)، وقال: حديث حسن غريب. والبخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٢٩)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح. عن أبي ذر الغفاري.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢)، والأوسط (٦٠٢٦)، والصغير (٨٦١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٠٨): رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٦)، عن ابن عمر.

الحضُّ على طلب العلم:

ثم قال ﷺ: «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة».

هذا هو المبدأ الأخير من المبادئ النبويَّة التي احتواها هذا الحديث الكريم: طلب العلم.

الإسلام دين العلم:

إنَّ الإسلام دين العلم، دين يحثُّ على طلب العلم، ويكرم أهله، ويجعل مداد العلماء كدماء الشهداء، هذه حقيقة لا ريب فيها، حتَّى إنَّ النبي ﷺ قال: «وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتَّى الحيتان في الماء! وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»^(١).

لم تعرف البشريَّة قبل الإسلام دينًا حثَّ النَّاس على طلب العلم والتزود منه والتبحر فيه كهذا الدين العظيم، الَّذي جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كما جاء في الحديث الشريف:

(١) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وابن حبان في العلم (٨٨)، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٠٣): وصحَّحه ابن حبان والحاكم وغيرهما وحسنه حمزة الكتاني، وضعَّفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٠): حسن لغيره. عن أبي الدرداء.

«طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١). أي على كل إنسان مسلم، ذكرًا كان أو أنثى.

ما يجب على كل مسلم تعلّمه:

ويجب على كل مسلم أن يتعلّم من أمور دينه ما يصحّح به عقيدته، وما يصلح به عبادته، وما يقوم به سلوكه، وما يهذب به خلقه، وما يوقفه عند حدود الله تعالى، عند أوامره ونواهيه، وحلاله وحرامه، ومساخطه ومراضيه، ولهذا يختلف قدر العلم المطلوب طلبه باختلاف كل إنسان وظروفه.

فعلى كل مسلم أن يعرف علم الصلاة وفقهها؛ لأنها فرض عين على كل مسلم، وأن يعرف علم الصيام وفقهه، فهو فرض عين على كل مسلم، وإذا ملك نصابًا من المال وجب عليه أن يعرف أحكام الزكاة وآدابها وأركانها ومصارفها. وكذلك إذا وجب عليه الحج وجب عليه أن يعرف علم الحج.. وهكذا.

وإذا كان تاجرًا يجب عليه أن يعرف من أحكام التجارات والمعاملات والبيع والشراء ما يصحّح به معاملته مع الناس، حتّى لا يقع في الحرام، ولا يأكل السحت، ولا يضيع حقّ أحدٍ من عباد الله.

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، وقال المناوي في فيض القدير (٥٢٦٥): قال ابن عبد البر: طرقها كلها معلولة. وقال النووي: ضعيف وإن كان معناه صحيحًا. وقال السيوطي: جمعت له خمسين طريقًا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن أبي شاهين، بسند رجاله ثقات، ورواه نحو عشرين تابعيًا. عن أنس.

وفوق ذلك كله هناك أمور عامة في الدين يجب على كل مسلم أن يعرفها حتى يسير على بينة، ويمشي على نور، وحتى يكون مع غيره على بصيرة، فلا يظلم، ولا يُظلم، ولا يضل ولا يُضل.

هذا هو المفروض على كل مسلم، أن يعلم من أمور دينه ما يوصله إلى الله، وما يبعده عن الشيطان، وما يجنبه الوقوع في المحرمات وهو لا يشعر أو لا يعلم، وجهله بالحرام في دار الإسلام ليس عذراً له، ما دام يستطيع أن يَعْلَم وأن يتَعَلَّمَ، إن كان يقرأ فعليه أن يقرأ، وإلا فعليه أن يسأل، كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال ﷺ: «إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ». قال ذلك في قوم أفتوا رجلاً.. أفتوه أن يغسل جراحته وكان مجروحاً وعليه غسل، فاغتسل فضره الغسل فمات من هذه الجراحة، فقال ﷺ: «قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَّمَمَ وَيَعَصِرَ - أَوْ يَعِصِبَ - عَلَى جِرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»^(١).

فعلى المسلمين إذا كانوا في قلب دار الإسلام أن يتعلموا وأن يتفقهوا، بل عليهم أن يهيئوا من حملة العلم ومن العارفين بالدين من يفقههم في دينهم، ويقفوههم على أوامر الله تعالى ونواهيه، فهذا فرض كفاية عليهم، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا

(١) رواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (٧٢٩)، كلاهما في الطهارة، ونقل عن شيخه فيه أبي بكر ابن أبي داود قوله: هذه سنة تفرد بها أهل مكة، وحملها أهل الجزيرة. لم يروه عن عطاء عن جابر غير الزبير بن خريق، وليس بالقوي. وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء عن ابن عباس، وهو الصواب. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، دون قوله: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ...». عن جابر.

رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢]، لا يجوز أن ينفر الجميع للجهاد، ويترك العلم والفقه، وإنما الواجب هو التنظيم وحسن التوزيع، فقوم في الجهاد يقفون على الثغور ويواجهون الأعداء، وقوم يطلبون العلم ويعلمون المسلمين، وهذا نوع من الجهاد أيضًا، هذا هو التنظيم الحق الذي به تنتظم الأمة، ويوضع كلُّ إنسان في مكانه، وتسدُّ كلُّ ثغرة.

فرض على المسلمين أن يتقنوا كل علم يحتاجونه:

وأكثر من ذلك أن كلَّ علم نافع سواءً أكان دينيًا أم كان دنيويًا، مدنيًا أو عسكريًا، به قوام حياة المسلمين فتعلّمه وإتقانه فرض كفاية على المسلمين، حتّى لا يحتاج المسلمون إلى غيرهم من الكفار، وهو ما قاله المحققون من علماء المسلمين.

فإذا كان علم الطب أو علم الجبر أو علم الكيمياء أو علم التشريح أو علم النبات، أو أي علم من هذه العلوم لا يستغني عنه المسلمون، فإنّه فرض عليهم أن يهيئوا ويعدّوا من أبنائهم من يتعلّم هذا العلم ويتقنه، حتّى لا يفتقروا إلى غيرهم ويصبحوا عالةً على سواهم.

هذا ما قاله الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، والشاطبي، وابن تيمية، وابن القيم، وقبلهم وبعدهم كثير من العلماء: أنّ على المسلمين أن يقوموا بأمورهم بأنفسهم، ويكتفوا اكتفاءً ذاتيًا في كلِّ علم من العلوم، وفي كلِّ صناعة من الصناعات، وفي كل حرفة من الحرف، فإذا لم يقدروا على كافٍ بهذا الأمر أثمت جميع الأمّة، وإذا قام البعض بسقط الإثم عن الباقيين، والمسؤول الأول عن هذا أولو الأمر، فعليهم أن يضعوا الخطط ويرصدوا الأموال لتعليم هذه العلوم.

وقد كان الإمام الغزالي يعجب في زمنه أنه ربَّما لا يوجد طبيب في القرية من أهل الإسلام، بينما فيها عدة فقهاء، وطبيب القرية يهودي أو مجوسي أو نصراني! قال: «فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلَّا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلَّق بالأطباء من أحكام الفقه، ثمَّ لا نرى أحدًا يشتغل به، ويتهاترون على الفقه، لا سيَّما الخلافات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء.. فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟!»^(١).

أجر طلب العلم:

وكلُّ علم نافع، إذا سلك المسلم سبيله قاصدًا به وجه الله تعالى ومصلحة الإسلام ونفع الأمة، فهو عبادة، ويؤدي بسالكه إلى الجنة، ويدخل تحت هذه البشارة النبوية: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة»^(٢).

وكل الطريق الذي يسلكه الإنسان ليتعلَّم له فيه هذا الأجر، قد يسلك الطريق بأن يمشي إلى المسجد، أو إلى الجامعة، أو إلى بيت العلم؛ إلى المعهد، إلى المدرسة، أو يرحل إلى بلد آخر يطلب فيه العلم، كما كان علماؤنا يصنعون، كلُّ هذا من سلوك الطريق المؤدي إلى العلم والمؤدي إلى الجنة.

(١) إحياء علوم الدين (٢١/١).

(٢) سبق تخريجه ص ٤٩٦.

رحلة السابقين في طلب العلم:

كان علماؤنا يرحلون ويجوبون الآفاق ويضربون أكباد الإبل، وينتقلون من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، لا بالسيارات ولا في الطائرات، بل على رواحل وزوامل لم يكونوا بالغين عليها وجهتهم إلا بشق الأنفس، بل كثيرًا ما كانوا يمشون على أقدامهم، كما فعل الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله وغيره من الأئمة طلبًا للعلم وبخاصة علم الحديث، بل ذهب بعض الصحابة من المدينة إلى الشام لسمع حديثًا واحدًا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عاد وما حلَّ رحله وما قبل ضيافة ولا إقامة^(١)!

ويقول سيّد التابعين سعيد بن المسيّب: إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد^(٢).

ونحن اليوم نرى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أمامنا مدونة مكتوبة في الكتب، ولا نحتاج إلى قطع الفيافي وطول الأسفار لطلبها، وقلّ من

(١) إشارة إلى حديث جابر بن عبد الله: أنّه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فابتعت بعيدًا فشددت إليه رحلي شهرًا، حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أن جابرًا بالباب، فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج فاعتقني. قلت: حديث بلغني لم أسمع، خشيت أن أموت أو تموت، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يحشر الله العباد - أو الناس - عراةً غُرلاً بُهْمًا». قلت: ما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد - أحسبه قال: كما يسمعه من قرب - أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة». قلت: وكيف؟ وإنما تأتي الله عراةً بُهْمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات». رواه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٧٠).

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٦٩)، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

يطلبها، يقول الشعبي لرجل استفتاه في مسألة فأفتاه: خذها بغير شيء، وإن كنّا نسير فيما دونها من الكوفة إلى المدينة^(١).

هكذا كانوا يرحلون في طلب العلم، وهكذا كانت الأُمَّة، ولهذا كانت مثلاً أعلى، كانت مثلاً أعلى للأمم في طلب العلم وإتقان العلم، كلٌّ في مجال اختصاصه، كان من هذه الأُمَّة الأطباء والفلكيون والهندسيون والرياضيون، ومن فاق في العلوم سائر كل البشر في كل مكان، لهذا تتلمذت أوربا وتتلّمذ الغرب على علماء المسلمين في الأندلس وفي المشرق، وانتقلت كتب المسلمين إلى جامعات أوربا، وتُرجمت إلى عدة لغات قرونًا من الزمن، وما ذلك إلاّ دفعة من الدفعات التي دفعهم إليها الإسلام حين علّمهم أنّ كلّ علم نافع إنّما هو عبادة، وأنّ من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، والقائل الشعبي.

الدرس الثاني والأربعون

الكَيْسُ من دان نفسه

روى الإمام أحمد في مسنده عن شَدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الكَيْسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله»^(١).

صنفان متقابلان:

يبين لنا هذا الحديث صنفين متقابلين من أصناف الناس:

الصنف الأول: الكيس:

الصنف الأول: هو الكَيْسُ الذكيُّ الفطن، المتبصّر في العواقب، القادر على حسن تصريف الأمور.

صفة الصنف الأول:

إنَّه الَّذي يدين نفسه، ويعمل لما بعد الموت، الَّذي يحاكم نفسه، ويحاسبها، ويقهرها على طاعة الله، وعلى طريق الحق، ولا يستسلم لها، ولا لأهوائها وشهواتها، القادر على تصريف نفسه في الخير، المسيطر على نزواته وغرائزه وشهواته.

(١) رواه أحمد (١٧١٢٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة والرفائق (٢٤٥٩)، وقال: حسن. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠)، والحاكم في التوبة (٢٨٠/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي.

هذا هو الكيِّس، الَّذِي لَا تستغرقه اللحظة الحاضرة عن العمل
لآخرته، الَّذِي لَا تستغرقه الشهوة العاجلة عن العمل لآجله.

دان نفسه:

«الكيِّس من دان نفسه»، من حاسب نفسه وحاكمها وقهرها عند
اللزوم، هذا هو الكيس، هذا هو الذكي، هذا هو العاقل، هذا هو
الحكيم.

إِنَّ النفس إذا تركتها وهواها واسترسالها في شهواتها، فإنَّها تتفرعن،
ولا تستطيع بعد ذلك أن تدلِّلها، وأن تقودها إلى الخير، لا بدَّ للإنسان
أن يجاهد نفسه، وأن يجاهد هواه، وهذا هو الجهاد الدائم: «المجاهد من
جاهد نفسه لله»، أو قال: «في الله»^(١).

النفس أعدى أعداء الإنسان:

إِنَّ أعدى أعدائك نفسك الَّتِي بين جنبيك، والمراد شهواتها وأهوائها
وغرائزها الدُّنيا، إذا استسلمت لها أدَّت بك إلى الهُوءة السحيقة، أدَّت بك
إلى النَّار، وبئس القرار، إلى خسارة الدُّنيا والآخرة، فعليك إذن أن تحذر
منها، فإنَّها عدو خَطِر. وخطرُها لأمرين:

الأول: أنَّها عدو محبوب، والعدو إذا كان محبوبًا كانت مجاهدته
شيئًا عسيرًا وأمرًا صعبًا.

الثاني: أنَّها عدو من الداخل، العدو إذا كان من الخارج، أمكنك أن
تحترس منه. اللص إذا كان خارج البيت يمكنك أن تغلق الأبواب

(١) رواه أحمد (٢٣٩٥١)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢١)،
وقال: حسن صحيح. وابن حبان في السير (٤٧٠٦)، عن فضالة بن عبيد.

وتحكم إغلاقها، ولكنَّ اللصَّ إذا كان من داخل الدَّار، ماذا تفعل معه؟ وهذا هو شأن النفس، ومن هنا قال الشاعر قديماً:

نَفْسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي تُكْثِرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ اخْتَرَسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي^(١)؟

هذا هو العدو الذي بين جنبيك، بين أضلاعك، فعليك أن تحترس منه.

ضرورة محاسبة النفس:

لا بدَّ أن تدين نفسك، وأن تحاسبها، وأن تحاكمها، لا تدع لها الحبل على غاربها.

هل جرَّبت محاسبة نفسك أيُّها المسلم؟ هل جرَّبت أن تقف من نفسك يوماً موقف المحاسب؟ تقول لها: يا نفس لم فعلتِ هذا؟ ولم تركتِ ذاك؟ يا نفس كيف تجتهدين في إرضاء الخلق، ولا تبالين بإسقاط الخالق؟ يا نفس لم تستكثرين من السيئات، ورصيدك من الحسنات والصالحات في انحطاط مستمر؟ يا نفس، أما تعلمين أنَّ الحياة ظلٌّ سيزول، وعَلَمٌ سيُطوى، وأنَّ الموت آتٍ لا ريب فيه، وأنَّ بعد الموت بعثاً، وبعد الموت حساباً، وبعد الحساب جنةٌ أو ناراً؟

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلِّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ^(٢)

(١) من شعر الأحنف بن القيس، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (٢/٢٨٠)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

(٢) البيتان لدلف بن أبي دلف في رؤيا رآها، رواهما الخطيب في تاريخ بغداد (٤١٥/١٤، ٤١٦).

هل جرّبت أيُّها المسلم أن تقف من نفسك هذا الموقف موقف المحاسب المراقب المعاتب، بل المعاقب في بعض الأحيان؟

ما أحوجنا أيُّها الإخوة إلى أن نقف من أنفسنا هذا الموقف، ولا نرخي لها العنان، ولا ندع لها الحبل على غاربها، تصنع ما تهوى، وتسرح أنى تشاء، دون أن نقول لها: لم ولا وكيف؟! فلا يمضي زمن قليل حتّى تستمرى طريق الشر، وتستثقل طريق الخير، وتستسلم للشيطان استسلام الفريسة لآكلها، وتصير الطاعة حينئذٍ أشقّ شيء عليها، وتصبح المعصية أيسر شيء لديها، بل ربّما أحب شيء إليها، كالذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]. كيف وقد كانت لهم أسماع وقد كانت لهم أبصار وقلوب؟!!

إنّهم قد عطّلوها بالغفلة والإعراض عن الله وعياله، كما قال الله سبحانه في شأن قوم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لقد أصبح هؤلاء حطب جهنم ووقود النار، كالأغصان الخضر حين تذبل وتجف، ولا يرجى منها زهر ولا ثمر، لا تصلح إلّا للنار.

لقد جاء في الأثر عن عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]^(١).

(١) ذكره الترمذي في صفة القيامة عقب حديث (٢٤٥٩) فقال: ويروى عن عمر قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٠٠). وفيه راوٍ لم يسم.

وهكذا كان السلف الصالح، كان سلف الأمة يشددون الحساب على أنفسهم كما قال مَيِّمُون بن مِهْرَان: المؤمن أشدُّ حسابًا لنفسه من سلطانٍ غاشمٍ، ومن شريكٍ شحيح^(١).

ضرورة معاقبة النفس:

ولم يكونوا يكتفون بمجرد الحساب حتَّى يتبعوا الحساب بالعقاب، خلا عمر رضي الله عنه يومًا بنفسه، فرُئي يضرب رجل نفسه بالدرّة ويقول: ابن الخطّاب أمير المؤمنين، بخٍ بخٍ، والله لتتقين الله أو ليُعذّبَنَّك^(٢).

وحَسَبَ توبة بن الصّمّة أيام عمره، فإذا هو ابن ستّين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خر مغشيًا عليه فإذا هو ميت^(٣).

بمثل هذا أيُّها المسلم كانوا يربُّون أنفسهم ويوقظون قلوبهم وضمائرهم حتَّى لا يكونوا من الغافلين.

وعمل لما بعد الموت:

«الكَيِّس من دان نفسه»، أي حاسبها، «وعمل لما بعد الموت».

إنَّ الإيمان في الإسلام ليس قولًا يقال، ولا دعوى تُدعى، إنّما هو حقيقة يمتدُّ شعاعها إلى العقل فيقتنع، وإلى العاطفة فتجيش، وإلى

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩).

(٢) رواه مالك في الكلام (٣٦٣٨) تحقيق الأعظمي.

(٣) إحياء علوم الدين (٤٠٦/٤).

الإرادة فتتحرك وتحرك، إنه كما جاء عن السلف: ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الإيمان ليس مجرد معرفة ذهنية محضه كمعرفة المتكلمين والفلاسفة، ولا مجرد تذوق روعي مُجَنِّح كتذوق المتصوفة، ولا مجرد سلوك تعبدي كسلوك النُّسَّاك والمرتبهدين.

وحسبنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤]. المدار إذن على العمل لا على الدعاوي والأمانى.

وهذه كلمة قرآنية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قد تكررت في القرآن بضعا وخمسين مرة.

وقد رتب القرآن جزاء الآخرة على عمل الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى

إِلَّا مَا قَدَّمَ، فَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، فَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١).

وكان أبو ذرٍّ رضي الله عنه يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، إِنِّي عَلَيْكُمْ شَفِيقٌ، صَلُّوا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ لَوْحِشَةِ الْقُبُورِ، وَصُومُوا فِي الدُّنْيَا لِحَرِّ يَوْمِ النُّشُورِ، وَتَصَدَّقُوا لِمَخَافَةِ يَوْمِ عَسِيرٍ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، إِنِّي عَلَيْكُمْ شَفِيقٌ^(٢).

الصف الثاني: العاجز:

ثُمَّ تَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الصَّفِّ الثَّانِي الْمَقَابِلِ لَهُؤُلَاءِ الْأَكْيَاسِ الَّذِينَ يَحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْقَاءِ رَبِّهِمْ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، فَقَالَ: «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(٣).

صفة الصف الثاني:

تَرَكَ نَفْسَهُ تَسْرَحُ فِي بَحَارِ الشَّهَوَاتِ، أَطْلَقَ لَهَا الْعِنَانَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي، كَمَا كَانَ الْيَهُودُ يَفْعَلُونَ، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]. يَقُولُونَ: اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ! وَنَسُوا أَنَّ عَذَابَهُ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ، هَذِهِ هِيَ الْأَمَانِي الْفَارِغَةُ، أَمَانِي الْمَفْلِسِينَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه مُحَذِّراً ابْنَهُ فِي وَصِيَّتِهِ: إِيَّاكَ وَالْاِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النُّوْكَى^(٤). أَيُّ بَضَائِعِ الْحَمَقَى.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦).

(٢) حلية الأولياء (١٦٥/١).

(٣) سبق تخريجه ص ٥١٧.

(٤) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٠٢/٣).

وقال الشاعر:

وَلَا تَكُنْ عَبْدَ الْمُنَى فَالْمُنَى رُؤُوسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ^(١)

المنى: الأمانى الفارغة بلا عمل هي رأس مال المفلس، المؤمن يرجو الله بعد أن يعمل، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنْتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

يقول أبو العتاهية:

أَرَاكَ لَسْتَ بَوَقَّافٍ وَلَا حَذِرٍ كَحَاطِبِ خَاطِبِ الْأَعْوَادِ فِي غَلَسِ
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلِكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ^(٢)

الكيس العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى.

(١) من شعر أبي بكر الخالدي، كما في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ١١٣، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، نشر الدار العربية للكتاب.

(٢) ديوانه ص ٢٣٠.

الدرس الثالث والأربعون

التوازن بين الدين والدُّنيا

كان من دعاء النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(١).

النزعة الماديّة لدى بعض الناس:

في هذا الدعاء النبوي الكريم تتجلى لنا وجهة الإسلام وموقفه من الحياة، فهو دين الاعتدال، ودين التوازن بين الدّين والدُّنيا، وبين الروحيّة والماديّة. لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد كلُّ همهم إشباع الجانب المادي في الحياة، وعمارة الجانب المادي في هذه الدُّنيا، دون التفاتٍ للجوانب الأخرى وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

أثر النزعة الماديّة على الإنسان:

هذه النزعة المغالية في الماديّة وفي قيمة الدُّنيا جديرة أن تولّد الترف والطغيان، والتكالب على متاع الحياة، والغرور والاستكبار عند النعمة، واليأس والقنوط عند البلاء والشدة.

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠).

نرى ذلك واضحاً فيما قصَّ الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالاً، ولا للآخرة التفاتاً، ولا للروح مكانة، فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه بثروته، مختالاً بجنته قائلاً: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن يبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولين رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً * [الكهف: ٣٤ - ٣٦]. فأرسل الله على جنته حُسباناً من السماء، فأصبحت صعيداً زلقاً، وأصبح ماؤها غوراً.

وهذا قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، يبغي على قومه، ويغتر بماله، ويعزو الفضل فيه إلى نفسه، ناسياً وجاهلاً نعمة ربه، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ * [القصص: ٧٨]، فخسف الله به وبداره الأرض.

وهذا فرعون الذي قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ * [الزخرف: ٥١]. فأغرقه الله وجنده.

وغير هؤلاء من الذين أترفوا في الحياة الدنيا وقتلهم الترف ودمرهم التحلل، وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وحُرموا نصر الله وعونه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ﴾ * لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰٓ أَعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٦].

وآخرون قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ﴾ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ * [الأنبياء: ١٢، ١٣].



احتقار الدُّنيا:

هذه النزعة الماديّة، يقابلها في الطرف الآخر نزعة متطرفة أخرى، ينظر أصحابها أفرادًا وجماعات إلى الدُّنيا نظرة احتقار وازدراء وعداوة، فحرموا أنفسهم من طيبات الحياة وزينتها، وعطلوا قواهم من عمارتها، والإسهام في تنميتها وترقيتها، واكتشاف ما أودع الله فيها.

عرف ذلك في برهمية الهند، ومانوية فارس، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى، فعزلوا به جماهير غفيرة عن الحياة والتمتع بها والإنتاج لها، وأصبح الشائع في مفهوم الناس عن الدين والتدين الحق أنّه الانقطاع عن العالم، والتفرغ للعبادة، وأنّ المتدين الحق هو الذي يتبطل فلا يعمل، ويتقشّف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم، ونهاره صائم، يده من الدُّنيا صفر، وحظه من الحياة أكل خبز الشعير، ولبس المرقع، واتخاذ الفلوات دارًا.

الإسلام دين التوازن والاعتدال:

وبين هاتين النزعتين جاء الإسلام يدعو إلى التوازن والاعتدال، وصحّ للناس مفهوم حقيقة الإنسان، ومفهوم حقيقة الحياة، فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض، ونفخة من رُوح الله، كما قال الله تعالى في شأن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وذلك بعد أن خلقه من الصلصال والحمأ المسنون.

والحياة ليست سجنًا عوقب به الإنسان، ولا عبثًا فُرض عليه حملة، إنّما هي نعمة يجب أن تشكر، ورسالة يجب أن تؤدّى، ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى، يجب ألا يُشغل عنها، ولا يحيف عليها.

والقرآن الكريم يدعو إلى العمل للحياة، والضرب في الأرض، والمشي في مناكبها، والاستمتاع بطيباتها، بجوار الحث على الاستعداد للآخرة، والتزود لها بالإيمان والعبادة، وحسن الصلة بالله ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨]، ويقول ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويقول في يوم الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

ويقول في قصة نصيحة قوم قارون لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

الاعتدال منهج النبي ﷺ:

الرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها على نفسه، ولكنه لم يرض أن يجعلها شغل نفسه، ولا محور تفكيره، ولا أكبر همه، ولا مبلغ علمه، وكان من دعائه الذي كان يقوله ويعلمه لأمته: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همًّا، ولا مبلغ علمنا»^(١). إنَّما كان يعطيها حقَّها ويعطي الآخرة حقَّها بالقسطاس المستقيم، ولهذا جاء هذا الدعاء الجامع: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي».

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٦١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣)، عن ابن عمر.

فهذا الدعاء النبوي المأثور يبين موقف المسلم من الدُّنيا والدُّنيا والآخرة، إنَّه يطلبها جميعاً، ويسأل الله أن يصلحها له جميعاً، الدِّين والدُّنيا والآخرة، إذ لا غنى له عن واحد منها؛ فالدين عصمة أمره، وملاك حياته، وحافظ قواه، والدُّنيا فيها معاشه ومتاعه إلى حين، والآخرة إليه معاده ومصيره ومرجعه، وهذا مثل الدعاء القرآني الموجز الذي كان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو به: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

النبي ﷺ يقاوم نزعة الغلو عند أصحابه:

وكان ﷺ يحرص على توجيه أصحابه إلى التوازن المُقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الرُّوح، إذا رأى في بعضهم غلوًّا في جانب قومه بالحكمة، وردَّ صاحبه إلى سواء الصراط.

لَمَّا رأى في بعض أصحابه إفراطاً في التعبد والصلاة والصيام والقيام على حساب جسمه وأهله، قال له: «إِنَّ لَبَدَنكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَزَوْرِكَ (لزوارك وضيوفك) عَلَيْكَ حَقًّا»^(١).

وقال للجماعة التي التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم ثانيهم أن يقوم فلا ينام، والتزم ثالثهم أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً. قال لهم: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصْلِي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٩.

المسلم يعمل للحياة ويرقيها:

الإسلام لم يطلب من المسلم المثالي أن يكون راهبًا في دير، أو عابدًا في خلوة، كل صمته فكر، وكلُّ كلامه ذكر، وكلُّ نظره تأملات، لا حظَّ له في الحياة، ولا حظ للحياة فيه، وإنما طلب من المسلم أن يكون إنسانًا عاملاً في الحياة، يعمرها ويرقيها، ويدفع عجلتها إلى الأمام، طلب منه أن يسعى في مناكب الأرض، وأن يلتمس الرزق في خباياها زارعًا أم صانعًا، أو تاجرًا أو عالمًا، أو عاملاً أو محترفًا لأي حرفة نافعة، بشرط ألا تذهله مطالب الحياة عن واهب الحياة، عليه ألا يشغله حق الجسد عن حق الروح، عليه ألا تشغله رغائب دنياه العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية، عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه وماهية ذاته ووجوده، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

هكذا علّم الرسول ﷺ أصحابه، وهكذا علّمنا، وهكذا عرف الصحابة منه أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة لها، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: احرز لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا^(١).

وليس هذا بحديث مرفوع إلى النبي ﷺ كما يظن الكثيرون، ولكنه من كلام عبد الله بن عمرو، وهو يعبر عن رُوح الإسلام التي تعلّمها من رسول الله ﷺ، وعن فهم الصحابة لحقيقة الدين، فالصحابة لم يشعروا قط بتعارض بين عملهم لدينهم وعملهم لدنياهم، بل شعروا بالوحدة

(١) رواه الحارث في مسنده (١٠٩٣) كما في البغية.

والانسجام والامتزاج بين الأمرين، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية تعطيهم زادًا يواصلون به الكفاح لدنياهم، وكانت أعمالهم الدنيوية عونًا لهم على أداء فرائضهم الدينية، كانوا يعتقدون أنهم في عبادتهم وفي مساجدهم ليسوا منقطعين عن الدنيا، كما أنهم في مزارعهم ومتاجرهم وحرثهم غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله.

هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، توازن واعتدال، يطلب حسنة الدنيا وحسنة الآخرة معًا، ولا يطلب الغلو ولا الإفراط في واحدة منهما على حساب الأخرى، هذا هو دين الله، هذا هو الإسلام، دين لا ينزل عن الدنيا، ودنيا لا تحيف على الدين، ورسالة تتطلب صلاح المعاش والمعاد، والدنيا والآخرة جميعًا.

* * *



الدرس الرابع والأربعون

قيام الليل

روى الإمام الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم»^(١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة...، وصلاة الرجل في جوف الليل». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [السجدة: ١٦، ١٧]^(٢).

الحثُّ على قيام الليل:

يحثُّنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ألا نكتفي بالفرائض، وإنَّما يكون لنا حظُّ من النوافل، وأن يكون لنا رصيد من التطوع نجبر به أي نقص في أداء ما افترض علينا، فقد تنقص الفرائض، قد لا تنال حقها من

(١) رواه الترمذي في الدعوات وعقب حديث بلال (٣٥٤٩)، وقال: هذا أصح من حديث أبي إدريس عن بلال. وابن خزيمة في الصلاة (١١٣٥)، والطبراني (٩٢/٨)، والحاكم في الوتر (٣٠٨/١)، وصحَّحه على شرط البخاري.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٨.

الخشوع ومن الإتمام، فيحتاج المسلم حين يرخي الليل سدوله، وحين تنام العيون، ويأوي كلُّ حبيب إلى حبيبه، ويلوذ النَّاسُ بفُرْشهم ولُحْفهم، حين ذلك يثور عبد الله تعالى في جوف الليل، من بين فراش وثير، وغطاء ممهد، ودفع وحنان، يدع هذا كله وينتصب لله قائماً يصلي راکعاً ساجداً، قانتاً لله، يتلو آيات الله، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه.

صلاة الرجل في جوف الليل، هي تلك التي تفتح قلبه لله، وتصله بمدد السماء، فـ «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»^(١).

وأقرب ما يكون ذلك في الثلث الأخير من الليل، حيث ينزل ربنا **وَجَلَّ**، ويتجلى على عباده، فيناديهم كلَّ ليلة في السحر: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتَّى يطلع الفجر^(٢).

هذه الساعة المباركة التي يكون فيها الليل مظلمًا، يكون القلب فيها مستنيرًا، موصولًا برب السماء والأرض، هذه الساعات هي التي يقترب فيها الله من عباده، وفي الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»^(٣).

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٥٧)، وأحمد (١٤٣٥٥)، عن جابر.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٩)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن خزيمة في الصلاة (١١٤٧)، والحاكم في الوتر (٣٠٩/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٤٨)، عن عمرو بن عبسة.

أي احرص وحاول أن تكون ممّن يذكر الله في تلك اللحظات، وأن يكون لك حظ في ذلك الوقت الكريم، وأن تكون لك ركعات في هذه الأوقات، كما قال أبو ذر: وصلّوا ركعتين في جوف الليل لوحشة القبور^(١). حتّى تؤنسك صلاتك وأنت وحدك في قبرك.

قيام الليل مكفّرة للسيئات:

رُئي الجنيد في المنام، فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلّا رُكّيعات كنّا نركعها في الأسحار^(٢).

تلك الركعات في جوف الليل هي التي نفعته، جبرت ما في فرائضه من قصور، وما في حياته من لغو، فكفّرت عنه السيئات، وغسلته من أدران الذنوب.

قيام الليل زاد المتّقين:

قيام الليل مطردة للشيطان، ومنهأة عن الإثم، ومطرودة للداء من الجسد، ولهذا حرص عليه المتّقون المحسنون الذين قال الله تعالى في وصفهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿[الذاريات: ١٧، ١٨]، مع قيامهم واجتهادهم في عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ، يشعرون بالقصور والتقصير، ويتهمون أنفسهم ويطلبون المغفرة دائماً.

وصف الله عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٥/١).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٥٧/١٠).

غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * [الفرقان: ٦٤ - ٦٦]، فخوف جهنم وخوف العذاب وخوف الحجاب عن الله ﷻ هو الذي أطار النوم من أعين هؤلاء، وجعلهم يبيتون لربهم سَجْدًا وقيامًا، مناجين داعين متضرعين قائلين ما قال الصالحون:

سَهْرُ الْعُيُونِ لَغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ وَبَكَاءُ هُنَّ لَغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعٌ^(١)

هذه المعاني هي التي جعلت رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان يجعلون لأنفسهم كل ليلة حظًا من قيام، حتَّى إِنَّ رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتَّى تتورَّم قدماه، وفي رواية: «حتى تتفطر قدماه». أي تشقق قدماه ويسيل منها الدَّم. فقالت له عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟»^(٢). أي إِنَّ الله غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، ولكنَّه يعمل للشكر لله، ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وجوب قيام الليل في أوَّل البعثة:

وكان أصحابه رضوان الله عليهم يتأسَّون به في قيام الليل، حتَّى إِنَّه كان واجبًا عليهم في أوَّل البعثة، كما خاطب الله رسوله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ * قُمْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا * نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٥]، كأنَّ الله تعالى يُعِدُّه في مدرسة الليل، ومدرسة القرآن هذا الإعداد الإيماني القلبي، ليتلقى العبء الكثير عبء الرسالة، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

(١) البيت لخالد الكاتب، انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (١٣٦/٢).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠).

تخفيف الله على الأمة:

ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْ الْأُمَّةِ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَعَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَعَاخِرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].

فنسخ وجوب قيام الليل، وتركه نافلة لهم، رحمة منه وتيسيرًا عليهم؛ لأنَّه سيكون منهم مرضى، وضاربون في الأرض يبتغون الرزق، ومقاتلون في سبيل الله.. وغير ذلك، ولكن خصَّ الرسول ﷺ بوجوب القيام عليه عسى أن يبعثه ربُّه مقامًا محمودًا: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

إيقاظ الرجل أهله لقيام الليل:

وقد حثَّ النبي ﷺ أن يكون لنا حُظٌّ من قيام الليل، وحثَّ الرجل إذا قام من الليل أن يوقظ زوجته، والزوجة أن توقظ زوجها وقال: «من استيقظ من الليل، وأيقظ أهله فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»^(١).

وقال: «رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلَّى، وأيقظ امرأته فصلَّت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل، فصلَّت،

(١) رواه أبو داود في الصلاة (١٤٥١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٥)، والنسائي في الكبرى في قيام الليل (١٣١٢)، وابن حبان في الصلاة (٢٥٦٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة.

وأيقظت زوجها، فصلّى، فإن أبي، نضحت في وجهه الماء»^(١). أي على سبيل المداعبة والممازح والملاطفة.

أفضل أوقات صلاة الليل وأفضل أماكنها:

وأفضل أوقات الصلاة ما كان في الثلث الأخير، وأفضلها ما كان في البيت، فإنه أبعد عن مراعاة النَّاس، قال ﷺ: «أفضل الصلاة صلاة المراء في بيته، إلّا المكتوبة»^(٢). أي المفروضة، فإنّ المجاهرة بها مطلوبة من المسلم؛ لأنها شعار من شعائر الإسلام.

صلاة الليل مثنى مثنى:

وصلاة الليل ركعتين ركعتين ويختمها المسلم بصلاة الوتر، كما قال النبي ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح، صلّى ركعةً واحدة، توتر له ما قد صلّى»^(٣). وقد فسّر ابن عمر راوي الحديث «مثنى مثنى»، فقال: يُسلم بعد كل ركعتين.

الجماعة في قيام الليل:

ويجوز أداء صلاة القيام منفردًا، كما يجوز أدائها في جماعة، فإنّ النبي ﷺ صلّى صلاة النفل في أكثر الأحوال منفردًا، وفي أحيانٍ أخرى أمّ ابن عباس^(٤)، ومرة أخرى أمّ حذيفة^(٥)، ومرة أمّ أنسًا وجدته مَلِيكة

(١) رواه أحمد (٧٤٠٩)، وقال مخرّجوه: إسناده قوي. وأبو داود في الصلاة (١٣٠٨)، وابن ماجه

في إقامة الصلاة (١٣٣٦)، وابن حبان في قيام الليل (٢٥٦٧)، عن أبي هريرة.

(٢) متّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٣١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨١)، عن زيد بن ثابت.

(٣) متّفق عليه: رواه البخاري في الوتر (٩٩٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٤٩)، عن ابن عمر.

(٤) متّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٩٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، عن ابن عباس.

(٥) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٢)، والنسائي في قيام الليل (١٦٦٤)، عن حذيفة.

واليتيم^(١)، وفي رمضان أمّ المسلمين ثلاث ليال^(٢)، وذلك دالٌّ على جواز صلاة القيام في جماعة أو صلاتها منفردًا، يعني يصلي الرجل بزوجه وأهل بيته، أو يصلي الرجلان والثلاثة في المسجد، لكن لا يتداعى الناس لها وتصبح شعيرة مثل التراويح في رمضان.

قيام الليل في رمضان:

وإذا كان المسلم حريصًا على القيام في كل وقت، فينبغي أن يزداد حرصه عليه في رمضان، لقول النبي ﷺ: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»^(٣).

أجر صلاة العشاء والفجر في جماعة:

ومن أعجزه قيام الليل، فليحرص على صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الفجر في جماعة، فقد قال ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة، فكأنما صلى الليل كله»^(٤).

* * *

(١) رواه مسلم في المساجد (٦٥٨)، وأحمد (١٢٦٨٠)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٢٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦١)، عن عائشة.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٠١.

(٤) رواه مسلم في المساجد (٦٥٦)، وأحمد (٤٠٩)، عن عثمان بن عفان.

الدرس الخامس والأربعون

الحجُّ

روى الشيخان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ لله فلم يرفثْ، ولم يفسقْ، رجَعَ كيوم ولدته أمُّهُ»^(١).

حديثنا اليوم عن الركن الخامس من أركان الإسلام، هذه المباني التي أعلن النبي ﷺ أنها أركان الإسلام العظام، التي قام عليها صرح هذا الدين، حديثنا عن الحج، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وقد جاء في حديث ابن عمر الذي نحفظه جميعاً: «بني الإسلام على خمس...» وفيه: «وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

معنى الحجِّ:

الحجُّ: هو قصد البيت العتيق أول بيت وُضِعَ للنَّاسِ لعبادة الله في الأرض، للطواف به، وقصد الأماكن المقدسة حوله لأداء المناسك، وأداء الشعائر العظيمة التي جاء بها هذا الإسلام، مجدداً عهد إبراهيم، ومطهراً هذه الشعيرة ممَّا علق بها من وثنية الجاهلية، يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، ومن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

كفر: أي من أعرض عن نداء الله، ولم يستجب لأمره، ولم يحج بيته، فكأنه معدود من الكفار^(١)، والله غني عنه وعن سائر خلقه.

الله غير محتاج لحجنا:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حين يدعو عباده إلى حج بيته، ليس به حاجة إليهم، ولا ينفعه حج من حج، ولا يضره امتناع من امتنع عن الحج، فالله لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين، لا يغنيه شكر من شكر، ولا يفقره كفر من كفر، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه»^(٢).

(١) الكفر المقصود هنا الكفر الأصغر أو كفر النعمة أو الكفر دون كفر، إلا أن يجحد فريضة الحج أو يستهزئ بها، هنالك يكون كفره كفراً أكبر يخرج من ملة الإسلام. المؤلف.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٢٠)، عن أبي ذر.

فالذي يحج فإنما يُحسن إلى نفسه، والذي يُعرض ويكفر بأنعم الله فإن الله غني عن طاعته، غني عن العالمين.

منافع الحج:

والحج منفعة للمسلم، منفعة للفرد، منفعة للمجتمع، منفعة للأمة، ولا نفع فيه لله وَعَلَى، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

من منافع الحج:

فالمسلمون بالحج يشهدون منافع لهم، الفرد يشهد منافع لنفسه، حيث يتعود فراق الأوطان، ويتعود ركوب الصعاب، ويتعود احتمال المشاق، ويتعرف على ما حوله، بدل أن يظل قابلاً في قعر بيته وبين أهله ومسقط رأسه، لا يعرف الدنيا ولا يعرف الناس. لقد قالوا: إن الذي يعيش يعرف كثيراً، ولكن الذي يسير ويسافر يعرف أكثر.

يتيح الله للحاج المسلم أن يتعرف على الناس من كل جنس، ومن كل لون، فالله سبحانه يُعلم بهذا الحج كل مسلم مهما كان أمياً، مهما كان من عامة الناس ودهمائهم أن يعرف الحياة على طبيعتها، ويعرف العالم على سعته، ويعرف الناس على أصنافهم، والسفر نصف العلم كما يقولون.

الحج ثقافة عقلية وشحنة روحية:

فالمسلم يستفيد معرفة بالحياة وبالعالم وبالناس من هذا الحج، ثم يستفيد شحنة روحية وتعبئة إيمانية، تملأ أقطار نفسه، وتغمر أرجاء قلبه،

حين يطوف بيت الله الحرام، ويرى تلك المشاهد، ويسمع أصوات الملبين المنادين: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لَا شَرِيكَ لَكَ». حين تطوف عليه الذكريات الإبراهيمية من بعيد، والذكريات المحمدية من قريب، في أرض الدعوة، ومهد الإسلام، ومهبط الوحي، حيث وقف نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل يرفعان القواعد من البيت، ويقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وحيث نشأ محمد ﷺ وبدأت دعوته.

هذا المكان الذي فيه الطائفون والعاكفون والركع السجود، كلُّ هذا جديرٌ أن يملأ قلب المسلم بتلك الشحنة الروحية التي تعيده إلى بلده بعد أن يؤدي الفريضة أصفى نفساً، وأطهر قلباً، وأزكى فؤاداً، وأكثر إقبالاً على الله، وأشدَّ بعداً عن المعاصي والذنوب والفسوق، كلُّ مسلم يشعر بذلك، مهما رأينا في الحُجَّاج من عصي ومن انحرف، ومن سقط وظلم، فإنَّ الغالبية العظمى ممَّن يطوف بهذا البيت، وممَّن يلبي لله ﷻ، وممَّن يلبس ملابس الإحرام، تذكِّره بأكفان الموتى، وبالناس يوم النشور، ويوم العرض على الله ﷻ، الغالبية العظمى من هؤلاء يعودون ولا شك أحسن حالاً، وأطهر قلوباً وأذياًلاً ممَّا كانوا من قبل.

فالحج ثقافة لعقل الحاج، وشحنة إيمانية لقلبه.

الحج مغفرة للذنوب:

وقد جعل هذه الفريضة التي فرضها الله على كل مسلم قادر عليه في العمر مرة واحدة، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، مغتسلاً من الذنوب، ومطهرة من المعاصي، بل هو تطهير كامل من الذنوب والآثام، لذا فقد قال النبي ﷺ في الحديث

الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

الشروط التي من حققها في الحج غفرت ذنوبه:

من حقق هذه الشروط رجع طاهرًا نقيًا مثل الوليد أول ما يولد، ليس عليه ذنب ولا خطيئة: حج لله، ولم يرفث، ولم يفسق؛ رجع من ذنوبه طاهرًا مطهرًا نقيًا من الخطايا كيوم ولدته أمه، ولد من جديد، خلق من جديد، عاد إنسانًا آخر وخلقًا آخر.

والرفث: هو ذكر أمور النساء والفحش من القول، أو كما قال بعض أهل اللغة: كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة^(١). وأمّا الفسق فهو المعاصي كلها.

وقد قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فأضاف الآية شرطًا جديدًا هو عدم الجدال.

الحج لا يكفر التبعات:

لكن نريد أن ننبه إلى أن التبعات التي بين العبد وبين عباد الله، حقوق الأدميين لا يكفرها صلاة ولا صيام ولا حج، بل لا بد أن تعود الأمانات إلى أصحابها، وترد الحقوق والديون إلى أربابها، فإن الشهادة في سبيل الله وهي أفضل ما يتمناه المرء المسلم تكفر كل الخطايا إلا ديون العباد، فعن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله، تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ:

(١) انظر: اللسان (رفث).

«نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر». ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟». قال: أرايت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلَّا الدين، فإنَّ جبريل عليه السلام قال لي ذلك»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ للشَّهيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ»^(٢).

وما عدا ذلك فهو جدير أن يدخل في دائرة المغفرة وتكفير السيئات، يقول النبي ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلَّا الجنة»^(٣).

ويقول في حديث آخر: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنَّهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة»^(٤).

معنى الحجة المبرورة:

الحجة المبرورة: هي المملوءة بالبر والخير، البعيدة عن الإثم والعدوان، ليس فيها رقت ولا فسوق، ولا جدال ولا مشاحنة ولا مشاحنة. الحجة المبرورة: هي التي تكون بمال طيب حلال، فإنَّ الذي يحج من مال حرام هيهات أن يقبل منه، وفي بعض الأحاديث:

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٥)، وأحمد (٢٢٥٨٥).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٦)، وأحمد (٧٠٥١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٤) سبق تخريجه ص ٢٧٢.

«إذا خرج الرجل حاجًّا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز، فنادى: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجُّك مبرور غير مأزور. وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لا لَبَّيْكَ ولا سَعْدَيْكَ، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجُّك غير مبرور»^(١).

وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً تؤيده الأحاديث الصحيحة الأخرى، كقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(٢).

الحجُّ ركن إسلامي عظيم، ومؤتمر للمسلمين جميعاً، يشهدون فيه منافعهم، ويلتقون فيه على مصالحهم، وعلى أن يتدارسوا ما فيه الخير لهم، ويتعاونوا على البر والتقوى، ويتواصوا بالحق والصبر.

الحج مرة واحدة على المستطيع:

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل فريضة الحجّ مرة واحدة في العمر إذا استطاع المسلم إليها سبيلاً، فعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا». فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتّى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم؛ لوجب، ولما استطعتم». ثمّ قال: «ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٥٣.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

بِمَ تَتَحَقَّقُ الاستِطَاعَةُ؟

روى الترمذي أَنَّ رجلاً جاء النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة»^(١). وقد استخلص العلماء من ذلك شروط وجوب الحج، أو عناصر الاستِطاعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهي:

أولاً: القدرة البدنية:

والاستِطاعة تتحقق بالقوَّة البدنيَّة، بأن تكون عنده طاقة جسمانية على الحج، فأما من ليست عنده هذه الطاقة فليرجى الحجَّ حتَّى يقدر، فإن كان شيخاً كبيراً أو مريضاً مرضاً لا يرجى برؤه منه، فيُنب عنه من يحج، عليه أن يبذل ثمن الحجِّ؛ لأنَّ الحجَّ عبادة بدنية ومالية معاً، فإذا كان قد سقط عنه الجانب البدني، فلن يسقط عنه الجانب المالي، ولذا عليه أن يكلف غيره من ماله هو ليحجَّ عنه، ولا بدَّ حينئذٍ من القدرة الماليَّة لتحقيق ذلك.

ثانياً: القدرة الماليَّة:

ثمَّ تتحقَّق الاستِطاعة بالقدرة على النفقة: نفقة الذهاب والإياب بالطائرة أو بالباخرة أو بالسيَّارة، فإنَّ لكل عصر وسائله النقليَّة، لقد كانوا يقولون في القديم: من وجد الزاد والراحلة وجب عليه الحج.

وكان الرجل فيما مضى يمشي الشهور الطوال حتَّى يصل إلى بيت الله الحرام، وقد ذكر الإمام النسفي في تفسيره، عن محمَّد بن ياسين قال:

(١) رواه الترمذي في الحج (٨١٣)، وقال: حديث حسن، والعمل عليه عند أهل العلم. وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٦)، عن ابن عمر.

قال لي شيخ في الطواف: من أين أنت؟ فقلت من خراسان. قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شابٌ فاكتهلت. قلت: والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة. فقال:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حُجْبٌ وَأَسْتَارُ
لَا يَمْنَعُكَ بُعْدٌ عَنْ زِيَارَتِهِ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارٌ^(١)

إن كنت مستطيعاً للحج فلا تسوّف:

كان أحدهم يأتي من أقاصي الدنيا ماشياً على أقدامه، وما زال بعضهم يفعل هذا إلى اليوم، يأتون مشاةً إلى بيت الله الحرام، واليوم قد يسّر الله السبيل إلى الحج والعمرة، وسهّل على الناس بالطائرات وبالباخرة وبالسيارات وبغيرها من الوسائل التي ينتقل الناس بها، وأصبح الحج سهلاً ميسوراً، فلا ينبغي لمسلم أن يسوّف ويؤخر هذه الفريضة وهو قادر عليها، فإنّ أحداً لا يضمن عمره، ولا يعرف ماذا يحدث له.

تزوّد من التّقوى فإنّك لا تدري إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر

وفي الحديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تعبّجوا إلى الحجّ - يعني: الفريضة - فإنّ أحدكم لا يدري ما يعرض له»^(٢). وفي

(١) تفسير النسفي (٤٣٦/٢)، تحقيق يوسف علي بديوي، نشر دار الكلم الطيب، بيروت، ط ١،

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٢) رواه أحمد (٢٨٦٧)، وقال مخرّجوه: حديث حسن. عن ابن عباس.

رواية: «من أراد الحجَّ فليتعَجَّلْ، فإنَّه قد يمرض المريض، وتضلُّ الراحلة، وتعرض الحاجة»^(١).

الإنسان لا يضمن عمره، والله تعالى يقول: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فعلى كلِّ مسلمٍ لم يؤدِّ هذه الفريضة أن ينوي الحجَّ، وأن يصمَّ عليه، وأن يجعله حجًّا مبرورًا، ليكون جزاؤه الجنة، وليعود منه كيوم ولدته أمه.



(١) رواه أحمد (١٨٣٤)، وقال مخرَّجوه: حديث حسن. وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٣)، عن ابن عباس.

الدرس السادس والأربعون

تنافس الصحابة

روى الإمام مسلم عن أبي ذر، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، يَصُلُّونَ كَمَا نَصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بَكلَ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بَضْعٍ أَحَدُكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(١).

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرجاتِ الْعِلَا، وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ. فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟». قَالُوا: يَصُلُّونَ كَمَا نَصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيَعْتَقُونَ وَلَا نَعْتَقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُمْ شَيْئًا تَدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مِنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ». قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «تَسَبِّحُونَ وَتَكْبُرُونَ وَتَحْمَدُونَ، دَبَّرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣).

وثلاثين مرة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١).

من صفات الجيل الرباني:

هذا الحديث بروايته عن أبي ذر وعن أبي هريرة رضي الله عنهما يعرض لنا صورة رائعة من صور المجتمع الإسلامي الأول، صورة ذلك المجتمع الرباني الفاضل الذي رباه رسول الله ﷺ وأقامه في المدينة في ظل القرآن وفي حضانة النبوة، وتحت راية التوحيد، يعرض لنا هذا الحديث صورة ذلك الجيل المثالي الذي كان أحرص ما يكون على الخير، وأرغب ما يكون فيما عند الله تعالى، يتسابق أهله في الطاعات، ويتنافسون في الخيرات، اتباعاً لما أمر الله به عباده: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، فهم يسارعون، وهم يتسابقون، وهم يتنافسون، ولكن على الجنة وعلى المغفرة وعلى نيل ما عند الله من الدرجات العلا والنعيم المقيم، ف﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

شكوى الفقراء:

لننظر إلى هذه الصورة: وفد من الفقراء ذهب إلى رسول الله ﷺ يشتكي ويطلب، فممّ اشتكى؟ وبماذا طالب؟ لم يقل الفقراء:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٤٣)، ومسلم في المساجد (٥٩٥).

يا رسول الله إنَّ هؤلاء الأغنياء يأكلون ما لا نأكل، ويشربون ما لا نشرب، ويلبسون ما لا نلبس، ويستمتعون من أطيب الحياة بما لا نستمتع، كان هذا هو المظنون بوفد من الفقراء يتحدث عن الأغنياء.

ولكن أيُّ مجتمع هذا؟ إنَّه ليس المجتمع الذي تصوّره كارل ماركس، إنَّه مجتمع محمّد ﷺ، إنَّه مجتمع القرآن، مجتمع تعلّقت فيه الهمم بأمور أخرى، وتطلّعت الأعين إلى أشياء أخرى، وارتبطت القلوب فيه بمعانٍ كبيرة، هي أكبر من الطعام والشراب واللباس والمسكن وطيبات الحياة كلّها. إنَّه مجتمع ينظر إلى ما عند الله، ويتطلّع إلى مثوبة الله، ولهذا لا نعجب أن يطلب الفقراء وهم يتحدثون عن الأغنياء أمراً غير الطيبات والملذّات والمآكل والمشارب، وأن يتنافسوا معهم في أمر آخر.

مجالات الغبطة والتنافس:

هكذا علّمهم النبي ﷺ أن يتنافسوا في مال سلّط صاحبه على هلكته في الحق، أو علم قضى به صاحبه وعمل به وعلمه الناس، وقرآن يتلوه صاحبه آناء الليل وآناء النهار.

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(١).

وعن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٦)، وأحمد (١٠٢١٤)، عن أبي هريرة.

لقد كان هذا المجتمع أحرص ما يكون على تحقيق المثل الأعلى، وعلى إدراك أكبر ما يستطيع من الصالحات، كان هذا هو المجتمع الإسلامي الأول.

شكوى النساء من تفضيل الرجال ببعض الطاعات:

تأتي النساء إلى النبي ﷺ، فيشتكين إليه من الرجال، تقول وافدتهن: إِنَّ الرجال فَضَّلُوا علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المريض، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله ﷻ، وَإِنَّ الرجل منكم إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا، أو مرابطًا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، فما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن في مسألتها عن أمر دينها من هذه؟». فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أَنَّ امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها، فقال: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء: أَنَّ حُسْنَ تَبْعُلِ إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته تعدل ذلك كله». فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشارًا^(١).

حسن تبعلها: أي حسن قيامها بحقوق الزوجية وبوظائف البيت وبتربية أولادها. حسن قيامها بذلك يعدل ذلك كله في الأجر والثواب.

شكاية من لم يجد مركبًا في غزوة تبوك:

ويأتي بعض الرجال تفيض أعينهم من الدمع حزنًا، لماذا؟ لأنهم

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٥١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٣٦٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٢٤٢)، عن أسماء بنت يزيد الأنصارية.

لا يستطيعون الجهاد، أناس لا يجدون ركوبة، لا يجدون مطية يركبون عليها، فيذهبون ويعودون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، وخلد الله لهم هذا الموقف في كتابه، في سورة براءة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿[التوبة: ٩١، ٩٢].

هذا هو مجتمع الصحابة، يحزن أفرادهم، وتدمع أعينهم، وتأسى قلوبهم لا لما فاتهم من عرض الدنيا الزائل ومتاعها الفاني الذي تكالب عليه الناس وتقاتلوا في أعصر آخر، وإنما يكون وتفيض أعينهم من الدمع حزناً، وتنفطر أفئدتهم أسى وغماً؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يغزوا مع رسول الله ﷺ، لم يستطيعوا أن يقدموا من الخير والبذل ما يقدم إخوانهم.

فلا عجب إذا رأينا وفد الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، يذهب هذا الوفد إلى النبي ﷺ شاكين الأغنياء؛ لأن الأغنياء يفعلون مثل فعلهم من الصلاة والصيام، ولكنهم يزيدون عليهم بالصدقة والعق وغير ذلك ممّا لا يقدر عليه إلا صاحب المال.

كثرة أبواب الخير:

فيدلّهم النبي ﷺ على أبواب عديدة من الخير، وعلى أعمال جمّة تعدّ صدقات وقربات، ووسّع أمام أعينهم مفهوم الصدقة، فلم تعد هي بذل المال فحسب، فيختص به الأغنياء أو الأثرياء، بل جعل كل طاعة صدقة، وكل عمل خير صدقة، وكل أمر ينفع الناس صدقة.

هكذا يستطيعون إذن أن يسجلوا في صحائف حسناتهم وأن يثقلوا موازينهم بكثير من الصدقات وكثير من الحسنات.

دلَّهم على أنَّ كلَّ تسبيحة صدقة، وكلَّ تكبيرة صدقة، وكلَّ تهليلة صدقة، وكما جاء في أحاديث آخر، «وتبسُّمك في وجه أخيك صدقة»^(١)، «وإمالة الأذى عن الطريق صدقة»^(٢).. إلى غير ما جاءت به الأحاديث الكثيرة الوفيرة.

من كان عنده مال فليصدق من ماله يواسي به الفقراء، ومن كان عنده قوَّة فليصدق من قوته يعين بها الضعفاء، ومن كان عنده علم فليصدق من علمه يعلم به الجهلاء، ومن كان عنده جاه فليصدق من جاهه بأن يشفع لإنسان بريء، أو يتوسط في أمر فيه خير، أو حقن دم، أو دفع مظلمة.

بل أكثر من ذلك أنَّ النبي ﷺ جعل سعي الإنسان على معاشه صدقة^(٣)، وجعل نفقته على أهله صدقة^(٤)، بل أكثر من ذلك أنَّه جعل قضاء الإنسان شهوته في الحلال صدقة؛ لأنَّه إذا وضعها في حرام كان عليه وزر، فإذا وضعها في الحلال كان له أجر، قائلاً لهم:

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٦)، وقال: حديث حسن غريب. والبخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٧٤)، عن أبي ذر الغفاري.

(٢) رواه البخاري في الهبة (٢٦٣١)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلَّا كان له به صدقة». رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

(٤) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك». رواه البخاري في الإيمان (٥٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

«أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(١).

هذا كله من رحمة الله ومن فضل الله وَعَلَيْهِ.

لقد وسَّع النبي ﷺ مفهوم الصدقة أمام الفقراء ليعوّضوا بها ما فاتهم من صدقات المال، ولكن الأغنياء سرعان ما سمعوا ذلك، والقوم عطاش إلى الطّاعة، وظمأى إلى فعل الخير، وحِراضٌ على كلّ ما يدينهم إلى الله؛ لهذا ما كادوا يسمعون وصيّة النبي ﷺ للفقراء حتّى فعلوا مثل ما فعلوا، سَبَّحُوا وحمدوا وكَبَّرُوا وهَلَّلُوا، وهكذا سارعوا إلى كل خير، حين ذاك عاد الفقراء إلى النبي ﷺ مرةً أخرى وقالوا: يا رسول الله، إخواننا أهل الأموال سمعوا بما قلت لنا ففعلوا مثله، فقال النبي ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

الإسلام لا يكره الغنى:

ومن هذا الحديث أخذ بعض العلماء أنّ الغنيّ الشاكر أفضل من الفقير الصابر، وفي هذا جاء الحديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(٢).

الإسلام إذن لا يكره الغنى كما كرهته أديان آخر، ولا يقول ما جاء في الإنجيل: إنّ الغني لا يدخل ملكوت السماوات حتّى يدخل الجمل في سمّ الخياط^(٣). بل يحبُّ الغنى ما دام أصله من حلال، وما دام يُنفق في حلال، وما دام لا يشغل عن واجب نحو ربه ونحو النَّاس، ومن هنا

(١) سبق تخريجه ص ٣١.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٨٢.

(٣) إنجيل متّى (١٩: ٢٤).

كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى»^(١).

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي»^(٢).

هذه صورة مشرقة من صور المجتمع النبوي، المجتمع المدني، المجتمع القرآني، المجتمع الإسلامي الأول، الذي لا نرى فيه إلا المثل العليا تتطلع إليها الأعين، وتهفو إليها النفوس، وتصبو إليها القلوب، عسانا أن ندرك شيئاً من شعاع هذا المجتمع، وعسى أن يكون هؤلاء قدوة لنا وأسوة في حياتنا. نسأل الله ﷻ أن يجعلنا على إثر هؤلاء مهتدين مقتدين.

فضل التسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلوات:

بقي أن نذكر الإخوة المستمعين بهذه الفضيلة التي يغفل عنها كثير من الناس، وهي قول رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة».

وفي صحيح مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبح في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، ثم قال تمام المائة؛ لا إله إلا الله وحده لا شريك

(١) سبق تخريجه ص ٤٨٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٢٥.



له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير؛ غفرت له خطاياه
وإن كانت مثل زبد البحر»^(١).

فاحرص أخي على اغتنام هذه الفضيلة التي لا تأخذ دقيقة أو
دقيقتين، والتي لا يخيب قائلهن.



(١) رواه مسلم في المساجد (٥٩٧)، عن أبي هريرة.

الدرس السابع والأربعون

القلوب أوعية

روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتُم الله عجل، أيُّهَا النَّاسُ، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ»^(١).

محبة الله لدعائه:

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَحِبُّ مَنْ عَبَادَهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ وَأَنْ يَدْعُوهُ دَائِمًا، وَأَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُ حَاجَاتِهِمُ الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ، الرُّوحِيَّةَ وَالْمَادِيَّةَ، وَهُوَ لَا يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ أَحَدٍ، وَلَيْسَ عَلَى بَابِهِ حَاجِبٌ وَلَا بَوَّابٌ.

شروط استجابة الدعاء:

ولكن إذا أردنا أَنْ يُسْتَجَابَ دَعَاؤُنَا فَعَلَيْنَا أَنْ نَطَهِّرَ قُلُوبَنَا، عَلَيْنَا أَنْ نَدْعُو بِقُلُوبٍ حَاضِرَةٍ مَفْتُوحَةٍ عَلَى حُبِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، عَلَيْنَا أَنْ نَصِلَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِينَما نَدْعُوهُ، نَدْعُوهُ وَنَحْنُ مَوْقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاثْقُونَ بِهِ

(١) رواه أحمد (٦٦٥٤)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف، من أجل ابن لهيعة. وصحّح شاكر إسناده، تبعًا لرأيه في توثيق ابن لهيعة بإطلاق. وحسّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٥٤)، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٢٠٣).

وبعطائه، واصلون قلوبنا بحبله المتين وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، وقد ورد في بعض الآثار: لو عرفتُم الله تعالى حق معرفته لزالَت بدعائكم الجبال^(١).

ولهذا رأينا الأنبياء والصالحين يدعون الله ﷻ، فيستجيب الله لهم، كان لهم هذه المنزلة مع الله لقوة صلتهم به، وقربهم منه، وحسن توكلهم عليه، حتَّى إنَّهم ليقسمون أحياناً فيبر الله تعالى قسمهم، كما في الحديث: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ»^(٢).

وفي حديث آخر: «رُبَّ أَشْعَثٍ، مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأَبْرِهِ»^(٣).

العيب في قلوبنا:

إنَّ السماء قبلة الدعاء، وهي جهاز استقبال دائم الصلاحية لتلقي أدعية المؤمنين وإجابتها، ولكن العيب ليس في جهاز الاستقبال، إنَّما العيب دائماً في أجهزة الإرسال، العيب في قلوبنا نحن، فلنصلح من فساد قلوبنا، علينا أن نجلو ما فيها من صدأ، ونغسل ما يغشاها من دنس، حتَّى تصبح قريبة من الله، صالحة لأن تقول: يا رب! فيقول الله تعالى: لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ. علينا أن نصحَّح هذه القلوب، وأن نحافظ دائماً على سلامتها ونظافتها ونقاها حتَّى تؤدي مهمتها في الإرسال.

(١) رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٨٠٢)، وقال العراقي في تخريج الإحياء ص ١٦٢٧: إسناده فيه لين. عن معاذ بن جبل.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٥)، عن أنس بن مالك.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٩٧.

ذهب العابد الزاهد المعروف إبراهيم بن أدهم إلى سوق البصرة يوماً، فاجتمع حوله النَّاس وقالوا: يا أبا إسحاق، ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟! قال: لأنَّ قلوبكم ماتت بعشرة أشياء:

١ - عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقه.

٢ - وزعمتم أنَّكم تحبون رسول الله ثمَّ تركتم سُنَّته.

٣ - وقرأتم القرآن ولم تعملوا به.

٤ - وأكلتم نعمة الله ولم تؤدُّوا شكرها.

٥ - وقلتم: إنَّ الشيطان عدوكم؛ ووافقتموه.

٦ - وقلتم: إنَّ الجنَّة حق؛ فلم تعملوا لها.

٧ - وقلتم: إنَّ النَّار حق؛ ولم تهربوا منها.

٨ - وقلتم: إنَّ الموت حق؛ ولم تستعدُّوا له.

٩ - واشتغلتم بعيوب النَّاس وتركتم عيوبكم.

١٠ - ودفتتم موتاكم ولم تعتبروا بهم^(١).

هذه الأفعال أَمَاتت القلوب، والله تعالى لا يستجيب الدعاء من قلب ميت، لا يستجيب من قلبٍ لاهٍ مشغولٍ عن الله، إنَّما يستجيب الله من القلب الحي.

عن بقية قال: كنا مع إبراهيم في البحر، فهاجت ريح، واضطربت السفينة، وبكوا، فقلنا: يا أبا إسحاق! ما ترى؟ فقال: يا حي حين لا حي،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٥/٨).

ويا حي قبل كل حي، ويا حي بعد كل حي، يا حي، يا قيوم، يا محسن،
يا مُجْمِل! قد أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك. فهدأت السفينة من ساعته^(١).
لم يكد يُكمل دعاءه، حتّى هدأت السفينة، وهدأت الأمواج، وهدأ
البحر، وسار النَّاس في سلام.

شروط استجابة الدعاء:

لذا، فعلى من يحبُّ أن يستجيب الله دعاءه أن يُحقّق الشروط التي
بها يستجاب الدعاء:

أولاً: الإخلاص:

أول هذه الشروط هو الإخلاص، فالإنسان إذا دعا مخلصاً فإنَّ الله
يستجيب له، حتّى إنّ الله سبحانه يستجيب للمشرّكين إذا دعوه مخلصين
له الدين، حكى ذلك القرآن عن المشرّكين عندما يكونون في البحر،
وتضطرب بهم الأمواج، هنالك يدعون الله مخلصين له الدين، يقول
تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ مَّيِّتٍ
طَبَقَتْ فَجْرُهُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

دعوا الله مخلصين له الدين وهم مشركون، ولكن في هذه الحالة
يذهب الشرك، وتذهب الآلهة المدّعاة، والأرباب المزيفة، هناك لا يبقى
مناة ولا اللات ولا العزى ولا هبل ولا أي صنم من الأصنام، لا تتجه

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٤٥)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر
دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

القلوب في هذه الحالة إلا إلى ربها وحده، فيدعون مخلصين له الدين، ومن دعا الله مخلصاً له الدين أجاب الله دعاءه، وهذا هو الشرط الأول في إجابة الدعاء.

ثانيًا: الالتزام بحدود الله:

والشرط الثاني: أن يكون الداعي ملتزمًا بحدود الله تعالى في حلاله وحرامه، فلا يتردّى في المحرّمات من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن وغيرها، ثمّ ينتظر أن ينتشله الدعاء، إنّ عليه أن يصحّح مسلكه قبل أن يتوجه إلى الله بالدعاء، فإنّ الذي يخالف تعليمات ولي الأمر، ويهدر قراراته وأوامره، ثمّ يدخل عليه طالبًا حاجة من الحاجات، أو مستشفعًا لإنسان، جدير بأن يُرفض طلبه، وأن تُردّ شفاعته، حتّى يغيّر طبيعته، ويعدّل سلوكه، وهذا مثل الذين يغرقون في الحرام إلى آذانهم ثمّ يرفعون أيديهم داعين مبتهلين غافلين عما هم فيه من مساخط الله ورسوله، ولن تجد أبلغ ولا أجود من تصوير النبي ﷺ لهذا الصنف من الناس حين قال: «أيها الناس، إنّ الله طيّب لا يقبل إلا طيبًا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثمّ ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»^(١).

لا بدّ للإنسان أن يصحّح مسلكه، وأن يطيب مأكله ومشربه، وأن يتعد عن الحرام، حتّى يستجيب الله تعالى له دعاءه، ويُجيب له سُؤله.

(١) سبق تخريجه ص ٤٨.

ثالثاً: المداومة على الدعاء:

الشرط الثالث: أن يظلّ ملازماً للدعاء، مداوماً عليه، لا يملُّ ولا يقنط، ولا يئس ف ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول قد دعوتُ وقد دعوت فلم أر يستجيب لي. فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»^(١).

قال مورّق العجلي: ولقد سألت ربي مسألة عشر سنين، فما أعطانيها، وما أيست منها، وما تركت الدعاء بها... فسئل: ما الذي دعا به ربه؟ فقال: ترك ما لا يعنيني^(٢).

عشر سنين يدعو الله سبحانه، ولكنه لم يملّ من الدعاء، إنه يتعبّد لله فكيف يملّ من العبادة؟!

رابعاً: الأخذ بالأسباب:

الشرط الرابع: ألا يهمل ما شرع الله من الأسباب، ولا يغفل عما أقام الله عليه هذا الوجود من سنن، فكما لا يجوز في العقل أن يدع الزواج ويسأل الله الذرية، أو يُعرض عن الطعام والشراب ويسأل الله تعالى الشبع والرّي، كذلك لا يجوز أن يدع ما أمر الله به من إعداد القوّة المستطاعة ثمّ يطلب من الله النصر، أو يدع السعي والمشّي في مناكب الأرض الذلول ثمّ يسأل الله أن يغنيه ويوسّع رزقه.

(١) سبق تخريجه ص ٤٩١.

(٢) الزهد لابن المبارك (١١/٢).

وقد رأى الخليفة الفقيه عمر بن الخطّاب جماعة يفعلون ذلك في المسجد، فعلاهم بدرّته، وقال كلمته الشهيرة: لا يقعدنّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهمّ ارزقني، وقد علم أنّ السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة، إنّما يرزق الله النّاس بعضهم من بعض^(١).

وجاء رجل يطلب من النبي ﷺ أن يدعو له بالجنّة، بمرافقته في الجنّة، فقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود»^(٢).

هكذا ينبغي أن يكون المسلم، ينبغي أن يدعو الله ﷻ بعد أن يأخذ بالأسباب التي شرعها الله، والتي أمر الله تعالى بها حتّى يكون جديرًا بالدعاء.

خامسًا: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ألا يكون هناك موانع تحجب الإجابة أو تعوقها، فإنّ الأمور إنّما تتمّ إذا تهيّأت لها الأسباب، وزالت الموانع، ومن الموانع التي تعطل أثر الدعاء ظهور المنكرات في المجتمع، بالألّا يوجد من يغيّر المنكر، وضياع المعروف بالألّا يوجد من يأمر به، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، ثمّ يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم»^(٣).

اللهمّ إنّنا نسألك أن تتقبل دعاءنا، وأن تجعلنا من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

(١) انظر: الإحياء (٦٢/٢).

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبو داود في قيام الليل (١٣٢٠)، عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٨.

الدرس الثامن والأربعون

الصلوات المكتوبات

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهن، وصلأهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن؛ كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»^(١).

الحث على إقامة الصلاة والتحذير من تركها:

هذا الحديث من جملة أحاديث جمّة كثيرة، صحّت عن رسول الله ﷺ تحث على إقامة الصلاة، وتحذّر من تركها، حتّى إنّ النبي ﷺ ليجعل ترك الصلاة كأنّه كفّر، أو هو الكفر بعينه، روى الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «بين العبد وبين الكفر - أو الشرك - ترك الصلاة»^(٢).

وجاء في حديث آخر عن بريدة، عن النبي ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٢٧٠٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٤٢٥)، والنسائي (٤٦١)، وابن ماجه (١٤٠١)، ثلاثهم في الصلاة، عن عبادة بن الصامت.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأحمد (١٤٩٧٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٩).

(٣) رواه أحمد (٢٢٩٣٧)، وقال مخرّجوه: إسناده قوي. والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، كلاهما في الصلاة عن بريدة.

وعن عبد الله بن شقيق العُقيلي قال: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة^(١).

منزلة الصلاة في الإسلام:

الصلوات الخمس فرضهن الله في اليوم واللييلة، وجعلهن أحد مباني هذا الدين وأركانه العظام، وجعل الصلاة هي الفريضة الأولى بعد الشهادتين، فبعد أن يدخل الإنسان في الإسلام، ويقر بشهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، أوّل ما يفترض عليه بعد ذلك هو إقامة الصلاة.

لهذا غني القرآن والسُّنة بأمر الصلاة، وشدّدا كلّ التشديد في طلبها، وحذّرا أعظم التحذير من التهاون فيها، فهي عمود الدين، ومفتاح الخير، وخير الأعمال، وأول ما يحاسب عليه المؤمن يوم القيامة، يذكرها القرآن الكريم في دعاء الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. ويمدح بها الذبيح إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]. ويأمر كليمة موسى بإقامتها أوّل ما يؤمر به في ساعات الوحي الأولى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۖ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣، ١٤]. ويوحى إليه وإلى أخيه هارون: ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]. وفي وصية لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. وينطق المسيح

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٢)، وابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣١٠٨٦)، وصحّح النووي إسناده في رياض الصالحين (١٠٨٠).

عيسى في مهده: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويأمر بها خاتم رسله: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْتَغِ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ويجعلها صفة جوهرية من صفات المتقين تتلو الإيمان بالغيب: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣]. ويبدأ ويختتم بها أوصاف المؤمنين المفلحين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٩].

كان أول أوصاف المؤمنين المفلحين أنهم في صلاتهم خاشعين، وكان آخر أوصافهم أنهم على صلواتهم يحافظون، فالصلاة هي البدء، والصلاة هي الختام.

الصلاة مطلوبة في كل الأحوال:

ويؤكد القرآن المحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب، يقول سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]. أي: فصلُّوا في حال الخوف والحرب مشاةً راجلين أو راكبين كيفما استطعتم، ولو بغير ركوع ولا سجود، بل بالإشارة والإيماء، ودون اشتراط استقبال القبلة.

إنذار القرآن من يضيع الصلاة:

وينذر بالويل والهلاك من يسهو عنها حتَّى يفوت وقتها: ﴿فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. ويدمغ بالذم
واستحقاق الغي خلف سوء ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ
غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ويعرض لنا القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الجحيم يوم القيامة،
حيث يتساءل أصحاب اليمين عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾
[المدثر: ٤٢] ما أدخلكم النار؟ ما أرداكم في هذا القرار؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ
الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤].

ترك الصلاة والكسل عنها من صفات المشركين والمنافقين:

ويجعل القرآن الكريم ترك الصلاة من خصال المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۖ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨، ٤٩]. ويجعل
الكسل عنها من صفات المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

المنافقون يصلُّون ولكن بكسلٍ وتراخٍ وفتورٍ وعدم نشاط، فكيف
يكون الحكم فيمن لا يركع لله ركعة، ولا يحني ظهره لله، ولا يعفّر جبهته
لله بالسجود يوماً؟!!

تعظيم قدر الصلاة في السُّنَّة النبوية:

والرسول ﷺ يجعل الدليل الأول على التزام عقد الإيمان والشعار
الفارق بين المسلم والكافر ترك الصلاة، كما ذكرنا.

وذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»^(١).

قال العلماء في توجيه هذا الحديث: وإنما خص هؤلاء الأربعة بالذكر؛ لأنهم من رؤوس الكفر. وفي الحديث نكتة بديعة: أن تارك الصلاة إما أن يشغله ماله، أو ملكه، أو رئاسته، أو تجارته، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها وزارته ومنصبه فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف^(٢).

ويقول ﷺ: «من فاتته العصر، فكأنما وتّر أهله وماله»^(٣). أي أصيب في أهله وماله، وأصبح من بعدهم وتراً فرداً، فإذا كانت هذه كارثة من فاتته صلاة واحدة، فكيف بمن فاتته الصلوات كلها؟!

حكم تارك الصلاة:

فلا عجب بعد هذه التأكيدات والتشديدات من نصوص القرآن والسُّنة أن ذهب جماعة من أئمة الإسلام إلى أن تارك الصلاة كافر خارج عن ملة الإسلام، وتساهل آخرون فقالوا: إنه عاصٍ فاسق، يُخشى عليه فقدان الإيمان والعياذ بالله. وهذا فيمن ترك الصلاة كسلاً، أمّا من تركها

(١) رواه أحمد (٦٥٧٦)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وابن حبان في الصلاة (١٤٦٧)، والطبراني

في الأوسط (١٧٦٧) وفي الكبير (٦٧/١٣)، وجوّد إسناده أحمد الذهبي في تنقيح التحقيق

(٣٠٠/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦١١): رجال أحمد ثقات. عن عبد الله بن عمرو.

(٢) الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم ص ٥١، نشر مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٢)، ومسلم في المساجد (٦٢٦)، عن ابن عمر.

استخفافاً بحقّها، واستهزاءً بحرمتها، وإنكاراً لمكانتها وفرضيتها، فهو كافرٌ بالإجماع والعياذ بالله.

الصلاة المطلوبة:

هذه هي الصلاة، ولكن ما الصلاة المطلوبة التي يريدّها الإسلام؟ إنّها ليست مجرد أقوال يلوّكها اللسان، وحركات تؤدّيها الجوارح، بلا تدبّر من عقل، ولا خشوع من قلب، ليست تلك التي ينقرها صاحبها نقر الدّيكّة، ويخطفها خطف الغراب، ويلتفت فيها التفات الثعلب. كلّاً، الصلوات المقبولة التي «على الله عهد أن يغفر لصاحبها»، كما جاء في حديث عبادة الذي معنا، هي التي يصليها صاحبها لوقتها، ويسبغ وضوءها، ويتم ركوعها وسجودها وخشوعها، هي التي تأخذ حقها من التأمل والخشية، واستحضار عظمة المعبود جلّالاً.

ذلك أنّ القصد الأول للصلاة - بل للعبادات كلّها - هو تذكير الإنسان برّبّه الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى، قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وفي الحديث: «إنّما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطّواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله»^(١).

وأشار النبي ﷺ إلى روح الصلاة فقال: «إنّما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم، وتضع يديك فتقول: اللهمّ اللهم، فمن لم يفعل، فهي خداج»^(٢). أي: هي ناقصة.

(١) رواه أحمد (٢٤٣٥١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في المناسك (١٨٨٨)، والترمذي في الحج (٩٠٢)، وقال: حسن صحيح. كلهم بدون ذكر الصلاة، وضعّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٢٨)، ورجّح الموقوف، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (١٧٥٢٥)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الصلاة (٣٨٥)، وذكر الخطأ الواقع في راويه وقطع أنّه عن الفضل بن العباس.



فكل هذا تنبيه على أهميّة حضور القلب في الصلاة.

وأما حضور العقل، فحسبنا قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. فنبه بهذا التعليل على وجوب حضور العقل في الصلاة، فكم من مصلٍّ لا يعلم ما يقول في صلاته، وهو لم يشرب خمرًا، وإنما أسكره الجهل والغفلة وحب الدُّنيا واتباع الهوى.

ويقول ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكيرٍ خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساهٍ غافل^(١).

هذه هي الصلاة التي كانت قرّة عينه ﷺ، والتي كان يحن إليها، ويتلهف إليها، ويقول لبلال: «أرحنا بها»^(٢)! هذه هي صلاة الأنس والحب والشوق، لا صلاة النقر والخطف، التي يؤديها كثير من المسلمين. وما أعظم الفرق بين من يقوم إلى صلاته وهو يقول: أرحنا بها»، وبين من يقوم إليها وهو يقول: أرحنا منها!

الصلاة تجديد لصلة الإنسان بربه:

الصلوات الخمس فرصة يوميّة يثوب فيها المخطئ إلى رشده، ويفيق الغافل من غفلته، ويرجع الإنسان فيها إلى ربّه، ويطفىء هذا السعار المادي الذي أججته المطامع والشهوات، ونسيان الله والدار الآخرة.

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٢٨٨).

(٢) رواه أحمد (٢٣١٥٤)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات، لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد في إسناده. وأبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وصحّحه الألباني في المشكاة (١٢٥٣)، عن رجل من الأنصار.

وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يَنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ: يَا بَنِي آدَمَ، قُومُوا إِلَىٰ نيرانكم الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَأُطْفِئُوهَا بِالصَّلَاةِ»^(١).

إنَّها نار موقدة، تُلْفَحُ القلوب والعقول، والصَّلَاة هي مضخة الإطفاء الَّتِي تَخمد هذه النَّار، وتغسل أثرها من بين جوانح الإنسان.

ويوضح هذا ابن مسعود في حديثه الَّذِي يقول: «تَحترقون تَحترقون، فإذا صَلَّيْتُمُ الفجر غَسَلْتُمُها، ثُمَّ تَحترقون تَحترقون، فإذا صَلَّيْتُمُ الظهر غَسَلْتُمُها، ثُمَّ تَحترقون تَحترقون، فإذا صَلَّيْتُمُ العصر غَسَلْتُمُها، ثُمَّ تَحترقون تَحترقون، فإذا صَلَّيْتُمُ المغرب غَسَلْتُمُها، ثُمَّ تَحترقون تَحترقون، فإذا صَلَّيْتُمُ العشاء غَسَلْتُمُها، ثُمَّ تَنامون، فلا يَكُتب عليكم شيءٌ حَتَّىٰ تَسْتَيْقِظُوا»^(٢).

الصَّلَاة مَضَخَّة إطفاء، ومغسلة تغسل المسلم وتطهره من أوزاره ومن أوضاره، هذا هو أثر الصَّلَاة، تكفير الخطايا، ومطاردة السيئات.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤٥٢)، وفي الصغير (١١٣٥)، وقال: لم يروه عن ابن عون إلاَّ أزهري تفرد به يحيى بن زهير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥٩): لم أجد من ذكره إلاَّ أَنَّهُ رَوَىٰ عَنْ أَزْهَرِ بْنِ سَعْدِ السَّمَانِ، وَرَوَىٰ عَنْهُ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَخْرَمِيِّ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ. وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ لغيره في صحيح الترغيب (٣٥٨)، عن أنس.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٢٢٢٤)، وفي الصغير (١٢١) مرفوعًا، ورواه في الكبير (١٤٨/٩) موقوفًا. وقال المنذري في الترغيب (٥٢٧): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن، ورواه في الكبير موقوفًا عليه وهو أشبه برواته محتج بهم في الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥٨): رواه الطبراني في الثلاثة إلاَّ أَنَّهُ موقوف في الكبير، ورجال الموقوف رجال الصحيح، ورجال المرفوع فيهم عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن. عن ابن مسعود.



الصلاة شحنة رُوحية:

وهي مع ذلك تقوم بمهمّة إيجابية أخرى، فإنّها لحظات خصيبة مباركة، تلك التي ينتزع الإنسان فيها نفسه كل يوم من دنياه، دنيا الطين والحمأ المسنون، دنيا الأحقاد والصراع وتنافس البقاء أو تنازع الفناء، ليقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفف بها من غلواء الحياة وضغط الطين والمادة الكثيفة على القلوب والأرواح، إنّها تقوم بتغذية ذلك الجزء العلوي الإلهي في كيان الإنسان المشار إليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

هذه هي الصلاة، تعرج بالمسلم إلى الله تبارك تعالي، يرقى بها المسلم كلّ يوم إلى ربّه، فأحسنوا صلاتكم أيّها المؤمنون، وأتموا ركوعها وسجودها وخشوعها لتعرج إلى السماء بيضاء مسفرة وتقول: حفظك الله أيّها المصلي كما حفظتني. ولئلا ترد عليك وتقول: ضيّعك الله كما ضيّعني.

ففي الحديث عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد فأحسن الوضوء، ثمّ قام إلى الصلاة فأتّم ركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت: حفظك الله كما حفظتني. ثمّ أّصعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور، وفتحت لها أبواب السماء. وإذا لم يحسن العبد الوضوء، ولم يتم الركوع والسجود والقراءة، قالت: ضيّعك الله كما ضيّعني. ثمّ أّصعد بها إلى السماء وعليها ظلمة، وغلقت أبواب السماء، ثمّ تُلف كما يلف الثوب الخلق، ثمّ ضرب بها وجه صاحبها»^(١).

(١) رواه أبو داود الطيالسي (٥٨٦)، والبخاري (٢٦٩١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٣٤): فيه الأحوص بن حكيم وثقه ابن المديني والعجلي وضعفه جماعة وبقيّة رجاله موثقون. عن عبادة بن الصامت.

الدرس التاسع والأربعون

من صفات الله

روى الإمام مسلم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُم، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسَوْنِي أَكْسَكُم، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلِيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥).

العلاقة بين الله وعباده علاقة رحمة وود:

هذا الحديث الإلهي الكريم يحدد العلاقة بين العبد وربّه، بين الله وخلقه، يخاطب الله خلقه في هذا الحديث، ويعرض عليهم نماذج من أوصافه التي على أساسها يجب أن يُعامل معه سبحانه، ويُعرف أيّ ربّ يعاملون، يخاطبهم الله بهذا العنوان الحبيب الكريم الرقيق عنوان العبوديّة له:

«يا عبادي». أي إنّكم لستم غرباء عني، ولست أنا بعيداً عنكم، ولا أجنبياً منكم، إنّما أنا ربُّكم وأنتم عبادي، كلّ إنسان هو عبد لله، من تمرّد على هذه الحقيقة اليوم، فسوف يعرفها غداً، يوم تنكشف الحقائق عارية، يوم ينكشف الزيف عن الأعين والبصائر، يوم يرى النّاس كلّ شيء على ما هو عليه، حينذاك يعرف كلّ مخلوق أنّه عبد لله حقّاً: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

يخاطبنا الله سبحانه ويكرر هذه اللفظة: «يا عبادي»، ليلفت الأنظار، ويستثير القلوب، ويوقظ الأنفس الغافلة أن تتجه إلى ربّها، كما قال سبحانه في آية الدعاء في القرآن: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

أوصاف الله التي يعرضها لعباده:

فيا عباد الله، انظروا إلى ما يقوله ربُّكم، إنّهُ يبيّن لنا مجموعة من أوصافه لنعرف من هو ربنا الذي نحن عباده.

الصفة الأولى: العدل:

الله تعالى لا يظلم أحداً ولا يحابي أحداً، إنّما يقع الظلم بأن يُعاقب

الإنسان على غير ما عمل، أو يُعاقب على عمل صغير بعقاب كبير، أو يعمل الإنسان عملاً ولا يوفى أجره، أو يوفى من الأجر دون ما يستحقه على عمله، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يظلم أي نوع من هذا الظلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] أي هناك مع العدل الفضل والإحسان.

الله سبحانه لا يظلم أحداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، في الدنيا إنما يُعاقب الناس على ما ظلموا. كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]. ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

فإذا رأيت البلاء قد حلَّ بالناس، والمصائب أهدت بهم، إذا رأيتهم يشكون الضراء والبأساء، فاعلم أنهم أصابهم ذلك بسوء ما عملوا، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وفي الآخرة إنما هو العمل، يُجزى به الإنسان خيراً كان أو شراً، مثقال الذرة ومثقال حبة الخردل لا يضيع عند الله، اقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]. ولهذا يقول الله لأهل الجنة: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. ويقول لأهل النار: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٣٥]، فهم إنما يلاقون جزاء أعمالهم.



إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ، «يا عبادي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي».

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَظْلِمَ النَّاسَ فَضْلاً مِنْهُ وَكَرْماً؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ نَقْصٌ، وَهُوَ ﷻ مُتَصِفٌ بِكُلِّ كَمَالٍ، وَمَنْزَعٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئاً لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ كَمَا ذَكَرْنَا، إِنَّمَا يَجْزِي الْإِنْسَانَ عَلَى عَمَلِهِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي آخِرِ هَذَا الْحَدِيثِ: «يا عبادي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلِيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

أَعْمَالُكَ هِيَ الَّتِي تَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَتَحْكُمُ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ، وَتَشْهَدُ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَادِلٌ لَا يَظْلِمُ، وَيُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَتَخَلَّقَ بِخَلْقِهِ هَذَا فَلَا يَظْلِمُ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَلَا تَظَالَمُوا.

الصفة الثانية: الإحسان:

ثُمَّ هُنَاكَ صِفَةٌ أُخْرَى لِلَّهِ ﷻ فَوْقَ الْعَدْلِ وَهِيَ الْإِحْسَانُ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَعَامِلُنَا بِالْعَدْلِ وَحْدَهُ، بَلْ يَعَامِلُنَا بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْعَدْلِ، يَعَامِلُنَا بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ وَجُودِهِ، وَلَوْ عَامَلُنَا بِفَضْلِهِ وَحْدَهُ لَهَلَكْنَا، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]. اللَّهُ يَجْزِي بِالْفَضْلِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. يَذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا، لَا كُلَّ الَّذِي عَمِلُوا، وَذَلِكَ لِيَسْ أُنْتِقَامًا وَإِنَّمَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. عَسَى أَنْ تَعْرِفَهُمُ الشَّدَّةُ رَبَّهُمْ، فَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ فِي الشَّدَّةِ وَلَا فِي الرِّخَاءِ فَهِيَ هَاتَانِ أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ أَبَدًا.

يعرض الله لنا سبحانه صوراً من فضله وإحسانه في هذا الحديث فيقول: «يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلَّا من هديته، فاستهدوني - أي اطلبوا منِّي الهداية - أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلَّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم - أي: اطلبوا منِّي الرزق أرزقكم - يا عبادي كلكم عارٍ إلَّا من كسوته، فاستكسوني أكسبكم».

أنت أيُّها الإنسان من غير الله لا تملك طعاماً ولا كسوة، ولا تملك هداية، أنت من غير الله ضالٌّ جائعٌ عارٍ.

هو سبحانه الَّذي هداك لأمر دينك ويهديك لأمر دينك: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣]. ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. من الَّذي هداك وهدى كل الخلق؟ من الَّذي علَّمَك بعد أن خرجت من بطن أمك لا تعلم شيئاً وهدى كل الخلق؟ هو الله وحده.

قيل لحكيم: متى عقلت؟ قال: حين ولدت، فلمَّا رأى إنكارهم قال: أمَّا أنا فقد بكيت حين جعت، وطلبت الثدي حين احتجت، وسكتُ حين أعطيت.

من علَّم الطفل التقام الثدي، من الَّذي هداه؟ إنَّه الله الَّذي قدَّر فهدى. فكلُّنا ضالٌ إلَّا مَنْ هداه الله، فاطلبوا من الله الهداية، ولهذا علَّمنا الله أن نقول في صلواتنا في الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] في كلِّ يوم سبع عشرة مرَّة أو أكثر، أرايتم أكرم من الله؟ كلُّ كريم في الدُّنيا يضيق بالسؤال إذا كثر السائلون وألحوا، ولكن الله سبحانه يحبُّ أن يُسأل، ويغضب على عبده إذا لم يسأل، ولهذا يقول: ﴿لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ

مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴿ [النساء: ٣٢] ، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال الشاعر:

لَا تَسْأَلَنَّ مِنْ ابْنِ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِّ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْبَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ^(١)

مَنْ الَّذِي يَطْعَمُنَا؟ مَنْ الَّذِي يَسْقِينَا؟ مَنْ الَّذِي يَرْزُقُنَا؟ إِنَّهُ اللَّهُ. كما
قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿ وَإِذَا
مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠].

الله هو الذي نزل الماء من السحاب، وفجر العيون من الأرض،
وأنتب النبات من التراب، هو صانع هذا كله، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾
﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ وَعَنَبًا وَقَضْبًا
﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ﴾ مِّنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ ﴿
[عبس: ٢٤ - ٣٢]. لا تظنَّ أَنَّ يدك هي التي صنعت هذا كله، الله هو الذي
صنع هذا، ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ ﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ
﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].
وما عملته أيديهم إنما عملته يد الله سبحانه، ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ءَأَنْتُمْ
تَرْزَعُونَهُ؟ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿
بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧]. أنت تدعي أنك تزرع، ولكن من الذي
يهيئ للحببة غذاءها في باطن الأرض؟ يوفر لها عناصر الغذاء تمتصها

(١) ذكرهما ابن كثير في تفسيره (١٢٥/١) دون عزو.

من هذا التراب، من الذي وفّر لها العناصر الغازية في الجو؟ من الذي هيأ لها الهواء والضياء؟ إنه الله، من الذي علّم الحبة أن تمدّ جذورها هنا وهناك؟ إنه الله، من ذا الذي يُنزل الماء من السحاب مطراً، أو يجريه في الأرض نهراً، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

هذه صور من فضل الله وإحسانه، يسوق الرزق إلى الناس جميعاً، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كُلُّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

الله يطلب منا أن نسأله، فإنّ خزائنه لا تنفد، وفي الحديث: «يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة سحّا الليل والنهار». وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يده»^(١). يد الله ملأى، لا تغيض من كثرة الإنفاق أبداً.

الشَّحُّ من صفات الإنسان:

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]. الإنسان شحيح، أحضرت نفسه الشح، فهو يسأم من السؤال، ويضيق بالطلب الكثير، وبمن يطرق بابه، ويمدّ يده إليه، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الكسوف (٩٣٣)، عن أبي هريرة.



غنى الله تعالى:

وَأَمَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْغَنِيِّ، فَيُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ دَائِمًا أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِنَفْحَاتِهِ، وَيَبْسُطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَنَادِيهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ: «هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ»^(١). فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهُ غَنِيٌّ كَرِيمٌ.

وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَصَوِّرُ لَنَا غِنَاهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَيَقُولُ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ - آلَةُ الْخِيَاطَةِ - إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ».

الصفة الثالثة: المغفرة:

ثُمَّ يَقُولُ ﷺ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ». آثَامُ الْعِبَادِ وَذُنُوبُهُمْ كَثِيرَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، لَا تَنْقُطُ لَيْلٌ نَهَارٌ، وَلَكِنَّ عَفْوَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتَهُ أَعْظَمُ وَأَوْسَعُ، وَلِذَلِكَ تَمْدَحُ اللَّهُ ﷻ بِقَوْلِهِ عَقِبَهُ: «وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

نَحْنُ نَذْنِبُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكُلُّنَا خَطَّاءُونَ، فَإِنَّ أَصْلَنَا مِنَ الطِّينِ، وَالطِّينُ يَنْزِعُ إِلَى الطِّينِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ لَنَا بَابَ مَغْفِرَتِهِ، يَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نَسْتَغْفِرَهُ، وَبَابُ اللَّهِ مَفْتُوحٌ عَلَى مُصْرَاعِيهِ، لِكُلِّ مَنْ وَقَفَ عَلَى عَتَبَتِهِ ضَارِعًا مُسْتَغْفِرًا، وَإِنْ اقْتَرَفَ قَبْلَ ذَلِكَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَفَوَاحِشَ الذُّنُوبِ. يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْجُمُعَةِ (١١٤٥)، وَمُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ (٧٥٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وما أجمل وأرق هذا النداء: «يا عبادي»، فرغم خطاياهم وإسرافهم على أنفسهم، لم يطردهم من ساحته ولم يحرمهم شرف عبوديته، وأضافهم إلى ذاته القدسية، إيناساً لهم، وتحبباً إليهم.

ثم أخبرهم أنه يغفر الذنوب جميعاً، أي: يغفرها بالتوبة النصوح، فكل الذنوب قابلة للمغفرة والستر والتغطية من الله سبحانه، إلا الشرك الأكبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. وفي آية أخرى في السورة نفسها قال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

فهو سبحانه يغفر الذنوب كلها، ما عدا الشرك، كبيرها وصغيرها، وظاهرها وخافئها، وخصوصاً بعد الاستغفار. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وهذا من عهد آدم عليه السلام، حين استغفر ربه فغفر له وتاب عليه وهدى. نوح قال لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

فاستغفروا الله أيها المؤمنون، وتوبوا إلى الله جميعاً لعلكم تفلحون.

الدرس الخمسون

مفهوم التوكل

روى ابن حبان في صحيحه، عن عمرو بن أمية، عن أبيه قال: قال رجل للنبي ﷺ: أُرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»^(١). وفي رواية: «قَيِّدها وتوكل»^(٢).

التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب:

هذا الحديث الجليل قد صَحَّ مفهومًا خاطئًا عند المتدينين من قديم الزمان، وهو أنَّ التوكل على الله تعالى ينافي الحذر والاحتياط والاجتهاد في اتخاذ الأسباب، ولكنَّ النبي ﷺ صَحَّح هذا المفهوم، لهذا الرجل السائل، فقد أراد الرجل أن يدع ناقتَه أمام المسجد سائبة، بدعوى أنَّه متوكل على الله تعالى، فأرشدَه النبي ﷺ إلى أنَّ التوكل والاعتماد على الله سبحانه لا ينافي مراعاة الأسباب، والأخذ بالحزم والاحتياط، فقال له: «اعقلها وتوكل».

(١) رواه ابن حبان في الرقائق (٧٣١)، وقال الأرناؤوط: حديث حسن. والبيهقي في شعب الإيمان (١١٥٩).

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٧٢٢/٣)، وسكت عنه، وقال الذهبي: إسناده جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠٩٧): رواه الطبراني بإسنادين، وفي أحدهما عمرو بن عبد الله بن أمية الضمري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

شعار الإسلام: اعقلها وتوكل:

هذه الكلمة أصبحت شعارًا إسلاميًا عامًا: «اعقلها وتوكل». أي خذ بالأسباب ودع النتيجة بعد ذلك لربِّ الأرباب، اعمل بالاحتياط، خذ الحذر، لا تهمل في مراعاة السنن، وبعد ذلك الأمور كُلُّها بيد الله وَجَلَّ يَدُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

لا تحمل همًّا للرزق، ولا تحمل همًّا للأجل، فالرزق مضمون، والأجل محدود، ولكن لا تنسى الاحتياط، ولا تنسى الأخذ بالسنن والأسباب، هكذا نصح النبي ﷺ للرجل.

الرسول ﷺ ومراعاة الأسباب:

وهكذا كان ﷺ في حياته العملية، فقد كان ﷺ سيّد المتوكلين، ومع هذا لم يكن يفرط في سبب من الأسباب، كان يُعدُّ العُدَّة للحروب كما أمر الله، كان يلبس الدرع، وكان يتخذ الحِرَّاس حتَّى نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد دخل الغار في الهجرة وغير الطريق، وعمل كلَّ التدابير لإخفاء سيره وطريقه عن المشركين.

وقد تداوى ﷺ، وأمر بالتداوي، وقال: «إِنَّ اللَّهَ حَيْثُ خَلَقَ الدَّاءَ، خَلَقَ الدَّوَاءَ، فَتَدَاوُوا»^(١). وسعى وأمر بالسعي، ولم يكن ذلك نقصًا في توكله ﷺ.

ترك السعي بدعوى التوكل:

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَدْعُ الْعَمَلَ وَالسَّعْيَ بِدَعْوَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَانْتِظَارِ الرِّزْقِ مِنَ السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ خَطَّاهُمُ الْإِسْلَامُ، إِنَّ شِعَارَ الْمُسْلِمِ: ابْذَرِ الْحَبَّ وَارْجِ الثَّمَرَ مِنَ الرَّبِّ، اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ.

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٥.

وقد حكوا عن شقيق البلخي - وهو من أهل العبادة والزهد - أنه ودَّع صديقه إبراهيم بن أدهم، لسفره في تجارة عزم عليها، ولم يلبث إلا مدة يسيرة، ثم عاد، ولقيه إبراهيم، فعجب لسرعة إيابه من رحلته، فسأله عما رجع به قبل أن يُتمَّ غرضه، فقصَّ عليه قصة شهداها، جعلته يغيّر وجهته ويُلغي رحلته، ويعود قافلاً.

ذلك أنه نزل للراحة في الطريق، فدخل خربة يقضي فيها حاجته، فوجد فيها طائرًا أعمى كسيحًا، لا يقدر على حركة، فرقَّ لحاله، وقال: من أين يأكل هذا الطائر الأعمى الكسيح في هذه الخربة؟ ولم يلبث أن جاء طائر آخر يحمل إليه الطعام ويمده به، حتَّى يأكل ويشبع، وظل يراقبه عدة أيام وهو يفعل ذلك، فقال شقيق: إنَّ الَّذي رزق هذا الطائر الأعمى الكسيح في هذه الخربة لقادر على أن يرزقني! وقرر العودة.

وهنا قال له ابن أدهم: سبحان الله يا شقيق! ولماذا رضيتَ لنفسك أن تكون الطائر الأعمى العاجز الَّذي ينتظر عون غيره، ولا تكون أنت الطائر الآخر الَّذي يسعى ويكدح ويعود بثمرة ذلك على من حوله من العمي والمقعدين؟! أما علمتَ أنَّ النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١)؟

فقام إليه شقيق وقبَّل يده وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق! وعاد من فوره إلى تجارته^(٢).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٧)، ومسلم في الكسوف (١٠٣٤)، عن حكيم بن خزام.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة (٣٣٥٠)، تحقيق مشهور بن حسن، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

وقد استدللَّ بعض القاعدين عن طلب الرزق بحديث النبي ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(١). في الصباح تغدو خماصًا: خالية البطون، وتروح في العودة مليئة البطون شباعًا، والحديث نفسه يرد عليهم: فإنه لم يضمن لها الرواح ملأى البطون إلا بعد غدوها، ومعنى الغدو: الخروج والسعي في طلب الرزق، ففيه تنبيه على السعي، وعلى الأخذ بالأسباب.

وقد سُئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئًا حتَّى يأتيني رزقي، فقال: هذا رجل جهل العلم. فقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلال رمحي»^(٢). وقال: «لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(٣). فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق. قال: وكان الصحابة يتَّجرون ويعملون في نخيلهم، والقذوة بهم^(٤).

إنَّ الله جلَّ شأنه حين خلق الأرض بارك فيها، وقدَّر فيها أقواتها، وأودع في بطنها وعلى ظهرها من البركات المذخورة، والبركات المنشورة، ما يعيش به عباد الله تعالى في رغد من العيش، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. كما

(١) رواه أحمد (٢٠٥)، وقال مخرَّجوه: إسناده قوي. والترمذي (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٦٤)، كلاهما في الزهد، عن عمر.

(٢) علقه البخاري بصيغة التمريض قبل الحديث (٢٩١٤)، ووصله أحمد (٥١١٥)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وصحَّحه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٤)، عن ابن عمر. انظر كلامنا على الحديث سندًا ومتنًا في كتابنا: فقه الجهاد (٣٣٥/١ - ٣٤٦) الفصل الخامس من الباب الثالث، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

(٣) الحديث قبل السابق.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٦٢/٢ - ٦٣).

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

الأرزاق لا تنال إلا بالسعي:

ضمن الله تعالى الرزق لجميع عباده، بل لكل كائن حي يدب على هذه الأرض. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

ولكن اقتضت سنة الله في الخلق أن هذه الأرزاق التي ضمنها، والأقوات التي قدرها، والمعاش التي يسرها، لا تُنال إلا بجهد يُبذل، وعمل يُؤدى، ولهذا رتب الله ﷻ الأكل من رزقه على المشي في مناكب أرضه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. فمن مشى أكل، ومن كان قادراً على المشي، ولم يمش كان جديراً أن يُحرم ولا يأكل.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. فمن سعى وانتشر في الأرض مبتغياً فضل الله ورزقه كان أهلاً لأن ينال منه، ومن قعد وتكاسل كان جديراً بأن يُحرم.

وقد روي أن عمر رضي الله عنه رأى بعد صلاة الجمعة قوماً قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله، فعلاهم بدرته، وقال كلمته الشهيرة: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وهو يعلم أن

السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، إنّما يرزق الله النَّاس بعضهم من بعض^(١).

إنَّ دَرَّةَ عمر إنّما هي رمز لسلطة القانون الإسلامي، ورقابة الحكومة المسلمة وإشرافها على تنفيذ أحكام الإسلام وتوجيهاته، فمن لم يردعه توجيه القرآن ردعته عقوبة السلطان.

هذا هو معنى التوكل: أن تسعى وتحرص وتجتهد وتأخذ الحذر، وتأخذ بالاحتياط، وتأخذ بالحزم، وتراعي الأسباب، ثمَّ بعد ذلك تدع النتيجة لله تعالى، وهو لن يضيعك أبدًا، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

(١) إحياء علوم الدين (٦٢/٢).

الدرس الحادي والخمسون

الحسد

روى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةَ الشَّعْرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَوْمَنُوا^(١) حَتَّى تَحَابُّوْا، أَفَلَا أَنْبَأَكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشَوْا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٢).

التحذير من داء الأمم:

في هذا الحديث يحذّرنا رسول الله ﷺ من أمرين: الحسد والبغضاء، وقد سمّاهما النبي ﷺ داء الأمم من قبلنا، المرض والوباء الذي يفتك بالجماعات: الحسد والبغضاء. والبغضاء هي: الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، تستأصله من جذوره كما تستأصل موسى الشعر.

حذر النبي ﷺ من الحسد والبغضاء، فالدُّنيا أقل وأهون من أن يتحاسد الناس عليها، ويتباغضوا من أجلها، ودلّنا على طريق الجنة،

(١) كذا الرواية: (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره، على لغة من يحذف نون الأفعال الخمسة من غير ناصب ولا جازم، وهي لغة معروفة صحيحة. ومثله ما سيأتي في الشرح من الرواية الأخرى: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا).

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره.

وطريق الجنة هو الإيمان، ودليل الإيمان هو الحب، ودليل الحب بين الناس هو إفشاء السلام، كما جاء في بعض روايات الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»^(١).

الإسلام لا يريد من الناس أن يجعلوا حياتهم غابة، يفترس فيها القوي الضعيف، ولا يريد لهم أن يكونوا كالأسماك في البحار، يأكل كبيرها الصغير، إنما يريد أن تكون الحياة جنة، وأفضل ما في الجنة صفاء القلوب والمحبة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

سلامة القلب أقل درجات المحبة:

وأقل درجات المحبة التي يغرسها الإيمان في قلب المؤمن هو سلامته من الغل والحسد والبغضاء، فإن أنوار الإيمان كفيلة أن تبدد دياجير الحسد والغل من قلبه، وبذلك يُمسي ويُصبح ويبيت سليم الصدر، نقي الفؤاد، يدعو ربه بما دعا به الصالحون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

المؤمن لا يحسد ولا يحقد ولا يُبغض؛ لأن هذه الآفات - كما سمّاها رسول الله ﷺ - داءٌ من أدواء الأمم.

معنى الحسد:

الحسد داءٌ نفسي يصنع بالروح ما تصنع الأوبئة بالأجسام، لأن الحسد هو: تمني زوال نعمة الغير، بمعنى أن كل نعمة تنزل بإنسان ما، فأنت تكره بقاءها، وتتمنى زوالها؛ فالحسد - إذن - داءٌ وغمٌ على

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (٩٧٠٩)، عن أبي هريرة.

صاحبه، ونكد دائم له، وغيظ لقلبه لا ينتهي أمدّه، بل هو داء للجسم أيضاً، ينهك القوى، ويؤذي البدن، ويكدر الوجه ويسوّدّه، وقد قال حكيم: لله درّ الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله!

وقال الشاعر:

اضْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُو دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
النَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ^(١)

المؤمن لا يحسد:

المؤمن لا يحسد؛ لأنه يحبّ الخير لعباد الله جميعاً، وهو لا يعارض ربّه في رعاية خلقه، أو تقسيم رزقه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠]. هو لا يعدّل على الله، بل يؤمن بعدل ربّه فيما قسم من حظوظ، وما وزّع من مواهب، ويعتقد أنّ قضاءه تعالى في خلقه صادر عن حكمة بالغة، يعرف منها ما يعرف، ويجهل منها ما يجهل، وقد قيل: الحاسد جاحد؛ لأنّه لم يرض بقضاء الواحد. وقال الله في شأن اليهود: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

ومن هنا نرى المؤمن لا يفرح بالمصيبة تنزل بغيره، ولا يحزن للنعمة يسوقها الله إلى عبد من عباده، بل يقول ما علّمه النبي الكريم ﷺ: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر». وكذلك يقول عند المساء^(٢).

(١) سبق عزوه ص ٣٦٤.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٧٣)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٧٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠٥٩)، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٣٨٠/٢)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٣٠)، عن عبد الله بن غنّام.

والمؤمن لا يحسد أيضًا؛ لأنَّ همَّته منوطة بما هو أرفع وأبقى من الدُّنيا التي يتنافس النَّاس عليها ويتحاسدون، إنَّما يوجه همَّته إلى معالي الأمور، إلى المعاني الباقية، إلى الحياة الخالدة، إلى الآخرة، إلى الجنَّة. روى البخاري عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلَّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويُعلِّمها»^(١).

والمراد بالحسد هنا الغبطة، ليس المراد منه تمنِّي زوال النعمة، وإنَّما معناه أن يتمنَّى أن يكون له مثل صاحبه، فهذه هي الغبطة، وهي محمودة، أن تتمنَّى أن يكون لك ما لغيرك من الخير: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، لِمَ تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه، فلماذا تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك، فلم تحسد مَنْ مصيره إلى النار^(٢).

إذا كان إنسان مصيره إلى النَّار، فإنَّه لا يستحقُّ أن يُحسد، وإن كان الذهب والفضة يكال تحت يديه كيلاً.

وقال ابن سيرين: ما حسدتُ أحدًا على شيء من أمر الدُّنيا، إن كان من أهل الجنَّة، فكيف أحسده على الدُّنيا وهي حقيرة في جنب الجنَّة، وإن كان من أهل النَّار فكيف أحسده على الدُّنيا وهو يصير إلى النار^(٣)؟

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، عن ابن مسعود.

(٢) إحياء علوم الدين (١٨٩/٣).

(٣) سبق تخريجه ص ٣٦٧.

وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمةً وذلاً، ولا ينال من الملائكة إلا لعنةً وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلا شدةً وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحةً وهواناً ونكالاً.

المؤمن لا يحسد، والمؤمن لا يحقد؛ لأنه عفو كريم، يكظم غيظه وهو يستطيع أن يمضيه، ويعفو وهو يقدر على الانتقام، ويتسامح وهو صاحب الحق، لا يشغل نفسه بالخصام والعداوات، فالعمر لا يتسع بمثل هذا العدا، والدنيا لا تستحق مثل هذا العناء، فكيف يُسلم قلبه للعداوة والأحقاد، فتنهشها أفاعيها السامة؟ وكيف يبيت وفي قلبه لأخيه شحناء العدا؟ فيبست بعيداً عن رحمة الله وعِزِّه.

وقد جاء في الحديث: «تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبدٍ لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»^(١).

المؤمن لا يُبغض:

المؤمن لا يحسد ولا يُبغض؛ لأنَّ الحسد والبغضاء من بذور الشيطان، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١]. أمَّا الله تعالى فيقول: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ٧]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

(١) سبق تخريجه ص ٣٧٢.

وسلامة القلب من الضغن والحسد، أوّل ما يتصف به المؤمن، بل أدنى ما يتصف به، ولا يكمل إيمان المؤمن حتّى يحبّ لأخيه ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فأين هذه المعاني الرفيعة التي جاء بها الإسلام، وأكدها محمّد ﷺ، أين هذه المعاني والقيم ممّا تنادي به اليوم دعوات هدامة، ومذاهب مخربة، كلّ همّها زرع الأحقاد، وبثّ الضغائن والبغضاء والكراهية والعداوات بين الأفراد، وبين الطوائف والطبقات، حتّى يعيش النّاس في تنازع وصراع دائم، يتسلّلون من ورائه إلى الحكم والسلطان؟

الإسلام يدعو إلى الإخاء الإنساني:

الإسلام جاء يدعو إلى الإخاء وإلى المحبة، حتّى إنّ النبي ﷺ كان يقول دبر كلّ صلاة: «اللهمّ ربنا وربّ كلّ شيء ومليكه، أنا شهيد أنّك وحدك لا شريك لك، اللهمّ ربنا وربّ كلّ شيء ومليكه، أنا شهيد أنّ محمداً عبدك ورسولك، اللهمّ ربنا وربّ كلّ شيء ومليكه، أنا شهيد أنّ العباد كلّهم إخوة»^(١).

وبهذا يضع الإخاء في المرتبة الثالثة بعد الشهادة لله بالوحدانيّة، وبعد الشهادة لمحمد ﷺ بالعبوديّة والرسالة، ثمّ يشهد أنّ العباد كلّهم إخوة.

هذا ما جاء به الإسلام، يريد أن تشيع المحبة ويشيع الإخاء بين النّاس، فهذا هو دليل الإيمان، وهذا هو طريق الجنّة: «لن تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أولاً أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٢١٧.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٨٩.

إفشاء السلام، «اقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(١)، أشع السلام تشع المحبة بين الناس.

هذا هو الإسلام دين الإخاء، لا يريد أن تكون الحياة مليئة بالعداوات والخصومات، فوراء هذه المنكرات منكرات أخرى كالغيبة والنميمة والتقاتل والتشاحن وسوء الظن والتجسس، وحياة لا تطاق، جحيم يصلاه النَّاس ليل نهار.

فاحرصوا أيُّها المؤمنون على دينكم، وافهموا ما جاء به نبيكم محمد ﷺ تعيشوا في سلام وفي وئام، وفي جنّة الدُّنيا قبل جنّة الآخرة.

* * *

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩) كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

الدرس الثاني والخمسون

تعس عبد الدينار وعبد الدرهم

روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»^(١). صدق رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة المستمعون:

هذان صنفان من الناس حدثنا عنهما رسول الله ﷺ، وهما صنفان متقابلان متضادان، نشاهدتهما في الحياة، صنف ذمه رسول الله ﷺ، وأخبر بتعاسته وانتكاسه، ودعا عليه بالخيبة والخسران، «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» أي إذا أصابته شوكة فلا خرجت منه، ونعته ﷺ بأقبح النعوت، وصنف أثنى عليه رسول الله ﷺ ونوّه بشأنه، ووصفه بأفضل الخصال.

أما الصنف المذموم التعس المنتكس فوصفه النبي ﷺ بثلاث صفات رئيسية تبرز شخصيته وتوضح معالمه، فهو أولا عبد الدينار وعبد

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

الدرهم، وهذا كناية عن عبوديته للمال بكل صنوفه وألوانه، يذل نفسه له، ويحني رأسه من أجله، ويرهق جسده، ويغضب ربه في جلبه وجمعه، وفي تكثيره وتنميته، وفي حراسته وحفظه، وفي التكاثر والمباهاة به، اتخذ المال ربًّا فاتخذ المال عبدًا، كان الواجب أن يكون المال وسيلة عنده لغايات شريفة، فصارت الغايات عنده وسيلة لجلب المال.

إنه لا حرج على الإنسان أن يطلب المال، في الحديث الآخر: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»^(١)، ولكن الحرج أن يصبح المال هو الغاية، وهو المطلوب وهو المألَّه، هذا الإنسان عبد حجر وعابد صنم وإن ادعى التحرر والانطلاق، وهل الدرهم والدينار، أو الجنيه والدولار، أو غيرها من النقود إلا حجارة أو معادن اصطلاح الناس على التعامل بها! ثم استبدلوا بها في عصرنا أوراقًا وقراطيس، هذه هي الصفة الأولى لهذا الصنف.

والصفة الثانية لهذا الصنف: أنه عبد القطيفة، وعبد الخميصة، وهذا تمثيل لحرصه على المظهر، وخضوعه للأناقة، وانهماكه في الزينة، وعبوديته لما يرضي الناس، والإسلام لا ينكر على المسلم أن يُعنى بمظهره، ويهتم بنظافة بدنه وجمال ثوبه ونعله، بل دعا إلى هذا وأمر به، حتى قال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، حتى قال بعض السلف وقد قام إلى الصلاة متجملاً: أتزين لربي.

قال رجل للنبي ﷺ: إني أحبُّ أن يكون ثوبي حسنًا، ونعلي حسنًا، فهل هذا من الكبر؟ قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطَرٌ

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع (٢/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عمرو بن العاص.

الحق، وغمط الناس»^(١)، أي رد الحق واحتقار الناس، ودخل على النبي ﷺ رجل شعث الرأس، فقال: «أما وجد هذا ما يُسْكَن به شعره؟»^(٢)، ودخل عليه آخر وسخ الثوب، فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟»^(٣).

إذن فالذي ينكره الإسلام أن يجعل الإنسان المظهر والزينة والتجمل أكبر همه في الحياة، أن يجعل ذلك شغله الشاغل، لا يخرج إلا إذا وقف أمام المرأة يتأنق ويهندم في نفسه حتى يظهر كالعروس المجلّوة، ولا يشتغل بغير ذلك، لا بإرضاء رب، ولا أداء حق، وما أتعس الأمة إذا كان رجالها وشبابها من هذا النوع التافه الذي لا يصلح إلا للمعارض والفاترينات في مواسم الأزياء.

ما أتعس الزمن الجديد بفتية قتلوه في التصفيف والتدليك رحم الله الشاعر الذي قال عن مثل هؤلاء الشباب:

تفنن في محاكاة العذارى وخالفهن في لبس النقاب
ولا يخشى على شيء ويخشى إذا ثار الغبار على الثياب^(٤)

كان العذارى في أيامه يضعن النقاب على وجوههن، فهذا تفنن في محاكاتهن وإن كان لا يلبس النقاب، والآن استوى الفتى والفتاة في خلع النقاب.

- (١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، عن ابن مسعود.
- (٢) رواه أحمد (١٤٨٥٠)، وقال مخرجه: إسناده جيد. وأبو داود في اللباس (٤٠٦٢)، والنسائي في الزينة (٥٢٣٦) الشطر الأول منه، وأبو يعلى (٢٠٢٦)، والحاكم في اللباس (١٨٥/٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في غاية المرام (٧٤).
- (٣) جزء من الحديث السابق.
- (٤) من ديوان صرخة في واد لمحمود غنيم. انظر: الأعمال الكاملة ص ٩٠، نشر دار الغد العربي.

والصفة الثالثة للصنف المذموم: أنه إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، ليس له مبدأ إذن يرجع إليه، ولا مقياس يقيس الناس والأمور به، وإنما مبدؤه شخصه، ومقياسه منفعته الخاصة، ودينه أنانيته، هو فردي أناني، نفعي وصولي، إن أصابه حظ من الدنيا رضي وأطلق لسانه بالثناء والإطراء، وإن أخطاه النفع لم يلتمس عذراً، ولم ينتظر غداً، بل سخط وجرح، من أعطاه ولو بالباطل فهو الصديق الحبيب، وهو المحسن البار ولو كان فاجراً كفاراً، ومن منعه ولو بحق فهو العدو اللدود، وهو الظلوم المسيء، ولو كان من ذؤابة المؤمنين المحسنين، بهذا المبدأ يعامل الأفراد والحكومات والقريب والبعيد، حتى مع الله، يعبد على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، خصلة من خصال المنافقين، وسمة من سماتهم سجلها الله عليهم في القرآن، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقد جعل النبي ﷺ أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم: رجلا بايع إمامه لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعط سخط^(١).

هذا هو الصنف المذموم، هذا هو الإنسان الأناني الفردي النفعي المظهري، لا ينفع دينه؛ لأنه يبيع دينه بعرض يسير من الدنيا، ولا ينفع أمته؛ لأنه مشغول عنها بماله إن كان له مال، أو بالإغراق في طلب المال والحرص عليه إن لم يكن له مال، ولا ينفع دولته التي يحيا في ظلها؛ لأنه لا يعطي ولاءه إلا بمقدار ما يناله من نصيب مادي ومنصب ومال،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٠٨)، عن أبي هريرة.

ولا ينفع الحياة؛ لأنه فيها آخذ لا معطي، ومستهلك لا منتج، ولا ينفع نفسه بوصفه إنساناً؛ لأنه جعل نفسه عبداً وقد ولدته أمه حرّاً، وأراده الله في الكون سيّداً، فأبى إلا أن يسخر نفسه، ومن كان مثله فبطن الأرض خير له من ظهرها، ذلك هو الصنف المذموم.

أما الصنف المحمود الممدوح الذي ﷺ ورسوله، الذي جعل له النبي ﷺ الطوبى وحسن العاقبة، طوبى له، فرحة وغبطة وقرة عين لهذا الصنف، هذا الصنف رسم رسول الله ﷺ لنا صورته واضحة المعالم والملامح والتقاسيم، فوصفه بأربع صفات:

أولى صفات هذا الصنف: أنه آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، فهو رجل جهاد، وجندي كفاح، صابر مصابر، مرابط متأهب، لا يهمه مفارقة الأهل ومغادرة الوطن ما دام ذلك في سبيل الله، تلك هي غايته، غايته الله، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، لا الدرهم ولا الدينار، غايته الجهاد في سبيل الله، لا الترف ولا القعود مع القاعدين، هبت عليه ريح الجنة فأسرع يطلبها من بابها مجاهداً مريداً الخير عند ربه، ذائداً عن دينه وعرضه ووطنه، لم يضعفه حب الدنيا ولا كراهية الموت، لا يخشى أحداً؛ لأن الله هو مولاه، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له، وإنما هي إحدى الحسينين، إما النصر، وإما الشهادة، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، وما أحسن المقابلة بين هذين الوصفين: عبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، وبين عبد الدينار وعبد الدرهم.

وثاني صفات هذا الصنف: أنه أشعث رأسه، مغبرة قدماء، لقد شغله الجهاد عن حظ نفسه، وعن الاهتمام بجسده وترجيل شعره وتنظيف

قدمه، لا كُرْهًا للزينة والتجمل، ولا حُبًّا في الشعث والغبرة، ولكنه يلبس لكل حالة لبوسها، ويعرف لكل ساعة طابعها وواجباتها، وفي ساعات الخطر والشدة، وفي ميادين البأس والنضال لا مكان لتصفيف الشعر والتطيب بالعطور.

إن الرجال الأصلاء لا بد أن يدفعوا ضريبة الجهاد في سبيل الحق من حظوظ أنفسهم، ومتع أجسادهم، ونعيم دنياهم، وأشباه الرجال هم الذين يحرصون على المظهر والزينة والمتعة، وإن خربت الدنيا وضاع الدين، وما أبعد الفرق بين رجل لا يرى إلا عبدًا للخميسة والقטיפه والثياب، وبين مجاهد لا يهتم في سبيل الله أن يرى أشعث رأسه مُعْبَرَةً قدماء.

وثالث الصفات لهذا الصنف المحمود: أنه إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إنه جندي عقيدة وصاحب رسالة ورجل مبدأ، لا يهتم شخصه، ولا يدور حول ذاته، وإنما يهتم أن يؤدي واجبه، وأ يقوم بدوره، فأى موضع اتفق له أو وُضع فيه عمل ورضي، وأى عمل قام به أحسن أو اجتهد أن يحسن، لا يسعى وراء المنصب والمركز أو السمعة والرتبة، إن همه أن يعمل لا أن يقال أنه عمل، إنه عبد لله لا لمنصب ولا لجاه، إنه جندي رسالة وإخلاص لا جندي منفعة ورياء، كيف لا وقد سمع عن نبيه ﷺ أن «اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفاء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة»^(١).

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩)، والحاكم في الإيمان (٤/١)، وقال: صحيح لا علة له. وفي الرقاق (٣٢٨/٤)، وصحَّحه، وضعَّفه البوصيري في زوائد ابن ماجه بابن لهيعة (١٤١٠)، مع أن الراوي عنه هو عبد الله بن وهب. والتحقيق: أنه إذا روى عنه أحد العبادلة - ومنهم ابن وهب =

ورضي الله عن خالد بن الوليد الذي عمل قائداً لجيوش الإسلام فكان الظهر في ركابه، وعمل جندياً تحت قيادة أبي عبيدة فكان خير ناصح أمين، أين هذا الطراز العالي من الذي إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط.

والصفة الرابعة لهذا الصنف الكريم: أنه إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع، تلك تتمة صفاته وسماته، فهو جندي مجهول، هو الأساس الذي يقوم به البناء ولا تراه العيون، دفن نفسه في أرض الخمول ولم يطلب الشهرة ولا السمعة، ليس من هواة الدعاية، ولا من عشاق الإعلان عن أنفسهم الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، وأن يعرفوا في ندوة ومجلس، بل يعملون وينتجون، ولا يعرف الناس أنهم يعملون، فهم مغمورون في المجتمع لا جاء لهم ولا نفوذ ولا سلطان، حتى لو استأذنوا على كبير لم يأذن لهم، ولو شفعوا عند عظيم لم يقبل شفاعتهم؛ لأنهم مجهولون في الأرض، ولكنهم معروفون في السماء، هم منسيون عند الناس مذكورون عند الله، وفي الحديث الشريف: «رُبَّ أشعث أغبر، ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»^(١).

بهذا الطراز تنجح الرسالات، وتنتصر العقائد والمبادئ، وتنهض الأمم والشعوب، وبغير هذا الطراز لا ينتصر دين، ولا تنهض دنيا، ولا

= - فحديثه مقبول، ويصححه كثير من المحققين. وكان الأولى أن يُضعف في سند ابن ماجه يعيسى بن عبد الرحمن؛ فهو متروك. وسند الحاكم في الموضع الأول ليس فيه ابن لهيعة ولا عيسى، فهو العُمدة. عن معاذ بن جبل.

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) وقال: حسن. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٨)، عن أنس بن مالك.



تقوم دولة، ولا تتحرر أمة وتأخذ مكانها في التاريخ، أما لا سبيل لتكوين هذا الطراز إلا في ظل تربية سليمة تتخذ الإسلام مصدرها، وتجعل من رسول الله ﷺ مثله الأعلى، أقول قولي هذا - أيها الإخوة - وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

* * *



الدرس الثالث والخمسون

على كل مسلم صدقة

روى البخاري ومسلم، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «على كل مسلم صدقة» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيأمر بالخير» أو قال: «بالمعروف» قال: فإن لم يفعل؟ قال: «فيمسك عن الشر فإنه له صدقة»^(١).

وخرج ابن خزيمة في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «على كل من الإنسان صلاة كل يوم»، فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أتيتنا به قال: «أمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك القذر عن الطريق صلاة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة»^(٢).

وفي رواية: «تبشُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٢)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٨)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه ابن خزيمة في الصلاة (١٤٩٧).

والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»^(١).

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتميط الأذى عن الطريق، وتسمع الأصم، وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللفهان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك»^(٢). صدق رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة المستمعون:

هذه أحاديث عن رسول الله ﷺ تطلب من المسلم في كل يوم أن يتصدق على نفسه، بل على كل مفصل من مفاصل جسده، بل على كل عظم من عظامه، وكل ميسم من مياسمه، الإسلام وسع في معنى الصدقة، ووسع في معنى العبادة، وفسح مجالها، ووسع دائرتها بحيث شملت أعمالاً كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة وقرابة إلى الله تعالى.

إن كل عمل اجتماعي نافع يعده الإسلام صدقة من الصدقات، وعبادة من أفضل العبادات، ما دام قصد فاعله الخير، لا تصيد الثناء، ولا اكتساب السمعة الزائفة عند الناس، كل عمل يمسح به الإنسان دمة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمم به جراح منكوب، أو

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٦)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في البر والإحسان (٥٢٩)،

وقال الأرنؤوط: حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٠٨)، عن أبي ذر.

(٢) رواه ابن حبان في الزكاة (٣٣٧٧) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. عن أبي ذر.

يقل به عشرة مغلوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يهدي حائراً، أو يعلم جاهلاً، أو يؤوي غارباً، أو يدل مستدلاً على حاجته، أو يدفع شراً عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعاً أي نفع إلى ذي كبد رطبة، فهو عبادة وقربة إلى الله تعالى إذا صحت فيه النية.

أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمن، وشعب الإيمان، وموجبات المثوبة عند الله، فليست الصلاة أو الصيام هي التي تكتب لك عبادة في يومك تستوجب بها الأجر عند ربك، كلا، إنك تستطيع في اليوم الواحد أن تضيف إلى ميزان عبادتك وحسناتك أشياء كثيرة وكثيرة، لها ثقلها وقيمتها في ميزان الحق نبارك وتعالى، وإن بدت عندك هينة خفيفة في الميزان.

فالتحميد والتكبير والتهليل والتسبيح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وعيادة المريض وتشجيع الجنابة، وغير ذلك كلها لك «عبادة»، أو «صلاة» أو «صدقة»، روى الشيخان عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره، فشكر الله له فغفر له»^(١).

وفي رواية لمسلم: «مرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق، فقال: والله، لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم. فأدخل الجنة»^(٢).

شكر الله لهذا الرجل وغفر له وأدخله الجنة من أجل أنه نحى غصن شوك عن طريق المسلمين حتى لا يؤذيهم، العبرة ليست بحجم العمل، ولكن بالنية التي دفعت إليه، والباعث الذي حفز عليه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٥٢)، ومسلم في الإمارة (١٩١٤) (١٦٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (١٩١٤) (١٢٨)

وعن أبي ذر رضي عنه قال: قال النبي ﷺ: «عرضت عليّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها: الأذى يُمَاط عن الطريق»^(١).

هذا هو الإسلام لا يستحب هذه الأعمال النافعة، وهذه الخدمات الاجتماعية ويحمدّها فحسب، بل هو يدعو إليها ويحث عليها ويأمر بها، ويجعلها من الواجبات اليومية على المسلم التي تقربه إلى الجنة وتبعده عن النار، وهو تارة يسميها «صدقة»، وطورًا يسميها «صلاة»، وهي على كل حال عبادة وقربة إلى الله تبارك وتعالى.

عن أبي ذر رضي عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل؟ قال: «أن ترضخ مما خَوَّلَكَ الله». أي تعطي مما أعطاك الله. قلت: يا نبي الله، فإن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ؟ قال: «يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر». قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: «فليعن الأخرق» وهو الجاهل الذي لا يعرف صنعة، يعينه على تعلم صنعة وحرفة. قلت: يا رسول الله، أرايت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: «فليعن مظلومًا». قلت: يا نبي الله، أرايت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مظلومًا؟! قال: «ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟! ليمسك أذاه عن الناس». قلت: يا رسول الله، أرايت إن فعل هذا يدخل الجنة؟ قال: «ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»^(٢).

بمثل هذه الروح يستحث نبي الإسلام كل مسلم وإن يكن محدود القدرة والاستطاعة أن يؤدي هذه العبادة أو هذه الضريبة الاجتماعية، ولم

(١) رواه مسلم في المساجد (٥٥٣)، وأحمد (٢١٥٤٩)، عن أبي ذر.

(٢) رواه الطبراني (١٥٦/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد

(٤٧٤٤): رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

يجعل الإسلام هذه العبادة موقوتة بزمان أو مرهونة بمكان، كما لم يجعلها عبادة مالية فينفرد بها الأغنياء، ولا بدنية فيختص بها الأقوياء، ولا ثقافية فيتميز بها المتعلمون، ولكنه جعلها ضريبة إنسانية عامة، يؤديها كل إنسان على قدر طاقته، يشترك فيها الفقير والغني، والضعيف والقوي، والمتعلم والأمي.

إننا نقرأ أحاديث النبي الكريم في هذا الباب فنرى أنه لم يكتف بفرض هذه العبادة على الإنسان من حيث هو إنسان فحسب، بل يشتد في طلبها فيفرضها على ميسم من مياسمه، أو كل مفصل من مفاصله، فيروي أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكلُّ خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

وهكذا جاءت أحاديث أخرى مثل: ما رواه بريدة، عن النبي ﷺ قال: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة»^(١). وهكذا وردت الأحاديث مشجعة ومرغبة، بل ومطالبة أمرة المسلم أن يكون هكذا، إنساناً اجتماعياً نافعاً، ولا يكون عضواً أشل في مجتمعه، وبهذا يعيش المسلم في أمته ينبوعاً يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يفعل الخير ويدعو إليه، ويبذل المعروف ويدل عليه، فهو مفتاح للخير مغلاق للشر كما حثه النبي الكريم ﷺ.

(١) رواه أحمد (٢٢٩٩٨)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٥٢٤٢)، وابن خزيمة (١٢٢٦)، وابن حبان (١٦٤٢)، كلاهما في الصلاة.

وأفق الخير والنفع الذي يعيش المؤمن في دائرته ليس خاصًا بالإنسان وحده، وإنما يشمل فيما يشمل كل كائن حي في الوجود، حتى الطير والحيوان، فكل إحسان يسديه إليه، أو كل أذى يبعده عنه عبادة تقربه إلى الله تعالى، وتوجب له رضاه.

وقد حدث النبي ﷺ أصحابه عن رجل وجد كلبًا يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فنبضت عروق الرحمة في قلبه، وعَزَّ عليه أن يدع هذا المخلوق، هذا الكلب في حَرِّه وشدة ظمئه، فذهب به إلى بئر، فنزع خَفَّهُ، وملاه منها، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، سمع الصحابة هذه القصة، فقالوا في عجب ودهش: أئنَّ لنا في البهائم لأجرًا يا رسول الله؟ قال: «في كلِّ كبد رطبة أجر»^(١)، في كل ذي حياة أجر.

وفي هذه الدائرة الرحبة من أعمال البرِّ وأعمال الخير التي شملت الإنسان وغير الإنسان يجد المهتمون بالعبادة، الراغبون في الإكثار منها، المهتمون بخدمة المجتمع والإحسان إلى الخلق، يجد الجميع ما يشبع نهمهم، ويتجاوب مع أشواقهم، بدل أن يُحصَرُوا في عبادات في «الصوامع» وحدها وينقطعوا عن ركب الحياة، هذا هو الإسلام، هذا هو دين الإنسان، هذا هو دين الحياة.

نسأل الله تعالى أن يحيينا على الإسلام، وأن يميّتنا على الإسلام، وأن يحشرنا في زمرة المسلمين، إنه سميع قريب.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

الدرس الرابع والخمسون

مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا

روى البخاري ومسلم، وأبو داود والترمذي والنسائي عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(١).

وفي رواية ابن ماجه لهذا الحديث: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْغَازِي شَيْئًا»^(٢).

وروى ابن ماجه أيضًا وأحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَسْتَقِلَّ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرْجِعَ»^(٣). أي حتى يموت الغَازي شهيدًا أو يرجع سالمًا. صدق رسول الله ﷺ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْتَمْعُونَ:

الإسلام دين واقعي، شرعه من يعلم طبيعة الحياة وطبيعة البشر، وقيام هذا المجتمع الإنساني على سنة التدافع، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. من هنا فرض الله الجهاد؛ ذودًا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٩٥)، عن زيد بن خالد.

(٢) رواه ابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٩).

(٣) رواه أحمد (١٢٦) وقال مخرجه: حديث صحيح. وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٨).

عن الدين وعن الحرمات، وإعلاءً لكلمة الله في الأرض، وردًا للعدوان، وحفاظًا على دار الإسلام وأمة الإسلام، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

أمر الله بالجهاد هذه الأمة كما أمرها بالصلاة والصيام والعبادة والركوع والسجود، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴿[الحج: ٧٧، ٧٨]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، لم يرض منهم بقليل الجهاد ولا ببعض الجهاد ولكن طلب منهم الجهاد حق الجهاد، ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * [المائدة: ٣٥].

ويرفض القرآن الكريم دعوى الإيمان إذا لم تصدق هذه الدعوى حقيقة عملية من بذل الأنفس والأموال أي من الجهاد في سبيل الله، فالأعراب الذين قالوا آمنا بأفواههم كذبهم القرآن وقال: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ثم بين القرآن حقيقة الإيمان الذي يرضى عنه الله ورسوله فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

الجهاد في سبيل الله فريضة ماضية منذ بعث الله محمدًا ﷺ إلى يوم القيامة، حتى إن عصابة مؤمنة في آخر هذه الأمة لتقاتل المسيح الدجال، الجهاد فريضة أمر الله بها هذه الأمة وأعد به أنفسها لتذود عن نفسها وعن حياضها ولا تستسلم لأحد مهما كان، ومن هنا هدد النبي ﷺ وأنذر

كل من قعد عن الجهاد بالذل كل قوم رضوا بالزرع، وتبعوا أذئاب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، هددهم بأن الله سبحانه وتعالى سيسلط عليهم ذلاً لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم، كما قال ﷺ «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ»^(١)، أي: من ترك الجهاد في سبيل الله لقي الله وفي دينه خدش وكسر.

على كل مسلم إذن أن يأخذ حظه من الجهاد بقدر طاقته وبحسب استطاعته، فإن لم يغز بنفسه، إن لم يجاهد ببدنه، إن لم يحمل سلاحاً فعليه أن يفكر في هذا، أن يكون ذلك في باله وفي نفسه، أن يعيش مقاتلاً إن لم يكن بالفعل فالبنية والإرادة والتصميم والعزم، وإلا كان من المنافقين ومات على شعبة من النفاق، يروي مسلم عنه ﷺ أنه يقول: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَحْدُثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^(٢)، وأي شيء أسوء من النفاق، ومن ذا الذي يرضى لنفسه أن يموت منافقاً أو على شعبة من النفاق؟

ولكن في الناس من لا يستطيع أن يشهد الميدان بنفسه، من لا تتيح له الظروف أن يشهد الحرب، وأن يمسك بالسيف أو المدفع ويقاتل، فما نصيب هؤلاء؟ هؤلاء لهم نصيب في الجهاد، فتح رسول الله ﷺ لهم الباب ليجاهدوا، ليكون لهم حظ الغزاة المجاهدين المقاتلين، وذلك حين قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا»، وله مثل أجر الغازي من غير أن ينقص شيء من أجر الغازي، له مثل أجره حتى يرجع الغازي إلى بلده أو يُستشهد في سبيل الله.

(١) رواه الترمذي (١٦٦٦)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه (٢٧٦٣) كلاهما في الجهاد، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٦٠٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإمامة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، عن أبي هريرة.

هكذا فتح النبي ﷺ الباب لمن أراد أن يأخذ بحظه من الجهاد، وأي شيء أعظم من الجهاد، إن المجاهد له مثل أجر الصائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر، إنه في عبادة دائمة؛ لأن كل شيء يكتب له، كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيًّا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

الجهاد إذن ليس بالنفس والبدن فقط، بل هناك جهاد بالمال، بل إن القرآن الكريم يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالأنفس في سائر الآيات القرآنية حيث يقول الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

الجهاد بالأموال والأنفس هو أربح تجارة في الدنيا والآخرة، يدلنا الله عليها ويدعونا إليها بهذا الأسلوب المشوق حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَى تَحَرِّقِ نُجُجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، دلنا يا رب ما هذه التجارة الرباحة المنجية، التجارة التي لن تبور؟ يقول: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١]، وأي خير أعظم من أن يكسب الإنسان المغفرة كما جاءت بذلك الآيات، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

الجهاد بالأموال كالجهد بالأنفس مطلوب من كل مسلم، فالجهاد والحرب لا بد لها من مال، لا بد لها من وقود، ووقودها كثير من المال،

المال لازم للجهاد قبل قيام الحرب، وأثناء نشوب الحرب، وبعد انتهاء الحرب، لا بد من الجهاد بالمال للتسليح، ولا بد من الجهاد بالمال للتدريب، ولا بد من الجهاد بالمال للتمويل والخدمات، ولا بد من الجهاد بالمال لرعاية أسر المجاهدين، وذريات الشهداء من بعدهم، فلا بد من الجهاد بالمال، ولا يجوز لأحد أن يتخلف عن هذا الجهاد، لا بد أن يبذل بقدر طاقته، بقدر ما يستطيع كما كان الصحابة يفعلون، ولنا فيهم أسوة حسنة.

حينما دعا النبي ﷺ الصحابة لتجهيز جيش العسرة، جيش تبوك، الجيش الذي ذهب ليقاتل الإمبراطورية العريقة العاتية، الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، حينما أراد النبي ﷺ أن يقاتل الرومان وأن يقابلهم وجهًا لوجه دعا الصحابة إلى البذل، إلى تجهيز الجيش في ساعة العسرة، فتسابقوا إلى بذل أموالهم، فكم من رجل منهم بذل شطر ماله كما فعل عمر بن الخطاب، وكما فعل عبد الرحمن بن عوف، وكم منهم بذل الكثير الكثير، مثل عثمان بن عفان، الذي سمع النبي ﷺ يدعو إلى البذل فقال: يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم سمعه مرة أخرى قال: علي مائة أخرى، ثم مرة ثالثة فقال علي مائة ثالثة، وجاء بصرة فيها ألف دينار فوضعها في حجر النبي ﷺ، صبها في حجره، فقال ﷺ: «ما ضر عثمانَ ما عمل بعد اليوم»^(١).

وجاءت عثمان بن عفان قافلة تجارية ارتجت لها المدينة فقال: جعلتها في سبيل الله، وكذلك الكثيرون، حتى الفقراء الضعفاء الذين

(١) رواه أحمد (٢٠٦٣٠) وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي (٣٧٠١) وقال: حسن غريب. عن عبد الرحمن بن سمرة.

لا يجدون جهدهم، من كان عنده صاعان من شعير أو من تمر أبقى صاعاً لعياله وجاء بالصاع الآخر لرسول الله ﷺ يدفعه إليه. أما أبو بكر فجاء بكل ما يملك إلى رسول الله ﷺ ووضع بين يديه، فقال له: «ماذا أبقيت لأهلك وعيالك يا أبا بكر؟» قال: أبقيت لهم الله ورسله^(١).

لقد كانوا يعلمون أن ثمن الجنة هو بذل الأنفس والأموال فلم يبخلوا بها ولم يضمنوا، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثِ لَهُمُ الْجَنَّةِ﴾ [التوبة: ١١١]، «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(٢). فمن أراد هذه السلعة فلي بذل نفسه ولي بذل ماله، والله اشترى منا أنفساً هو الذي خلقها، وأموالاً هو الذي رزقها، ثم أغلى في الثمن وأعطانا جنة عرضها السماوات والأرض.

يا معاشر المسلمين ابذلوا من أنفسكم ومن أموالكم، ساعدوا المقاتلين الذين يقاتلون أعتى الأعداء، الذين يقاتلون أشد الناس عداوة للذين آمنوا، الذين يقاتلون من غضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، الذين يقاتلون من كذب رسل الله وقتل أنبياءه بغير حق، ابذلوا لهؤلاء الجنود المقاتلين، إن اليهود وهم معروفون في التاريخ بشحهم وحرصهم على المال وعبادة الذهب يتنادون لمساعدة أبناء ملتهم، وتثبت دويلتهم الفاجرة المعتدية، يتنادون للبذل فيبذلون عشرات الملايين في ساعات قلائل، أفلسنا نحن أتباع محمد ﷺ، وأمة

(١) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في الزكاة (٤١٤/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٢٧٠) وقواه. عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠)، وقال: حسن غريب. والحاكم في الرقائق (٣٠٧/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣٣٥)، عن أبي هريرة.

القرآن أحق بالبذل والعطاء والجود من اليهود؟ إن إخواننا يسخون بالدم، ويجودون بالروح، أفلا نجود نحن بالدرهم والدينار؟ إن كل ريال ندفعه أو دينار أو جنيه إنما هو جندي يقاتل عنا في سبيل الله، وهو محام يدافع عنا أمام الله يوم القيامة.

إن علينا أن نبذل ولا نبخل، علينا أن نقتصد بعض الاقتصاد في معيشتنا، كم نسرف في الكماليات، كم ننفق في غير حاجة، كم نبذل في غير ضرورة، علينا أن نقتصد في هذا كله وندخره لإخواننا المقاتلين لنمدهم بوقود لا ينفد ما داموا مستمرين في معركتهم الشريفة في سبيل الله.

يا أيها الإخوة، يا أمة القرآن ابذلوا ولا تبخلوا، ابذلوا من زكاة أموالكم، من كان عليه زكاة وحال عليها الحول فيستطيع أن يبذل من زكاته أو جزءاً من زكاته، ابذلوا بعد الزكاة، فالجهاد بالمال فريضة، ابذلوا من أقواتكم بكل ما تستطيعون حتى يأتي النصر، إذا كان اليهود يقولون: ادفع دولاراً تقتل عربيًّا! فأنت ادفع ريالاً أو ديناراً تحيي عربيًّا مسلماً، وتقتل يهوديًّا مجرمًا، وثقوا أن الجنة لكم، وأن النصر لأمتكم، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

الدرس الخامس والخمسون

إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مِنْهَا، يَزُلُّ بِهَا فِي النَّارِ

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزُلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»^(١). صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة:

من نعم الله على الإنسان أنه وهبه عقلاً به يتأمل ويفكر، ولساناً به يُبين ويعبر، وبهذا يستطيع أن يفهم غير ما يجول في نفسه وفكره، وأن يفهم غيره عنه كذلك، ولهذا امتن الله تعالى على الإنسان بنعمة البيان فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، كما امتن عليه بأدوات البيان من الشفتين واللسان فقال جلّ من قائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨-٩]، ولما كان النطق أبرز الدلائل على العقل والتفكير عرف القدماء الإنسان بأنه «حيوان ناطق»، يعنون أنه مفكر، وأطلقوا على العلم الخاص بالتفكير اسم «علم المنطق»، ويقول العرب في حكمهم: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. وإنما سموهما الأصغرين بالنظر إلى الحجم الحسي لكل منهما، أما أثرهما فكبير وخطير، يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٨).

وَكَايْنُ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
 لِسَانُ الْفَتَى نَضْفَ وَنَضْفَ فَوَادَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ^(١)
 أَيُّهَا الْإِخْوَةُ:

إن نعمة التكلم والتعبير باللسان تنقلب نقمة على الإنسان إذا هو لم يرع حقها، ولم يقف عند حدود الله فيها، فأطلق لسانه العنان يتكلم بالحق وبالباطل، ونطق بالصدق والكذب، ويخوض في الجد وفي اللغو، وبهذا يجلب على نفسه البلاء في الدنيا، والعذاب في الآخرة، إن لبعض الناس شهوة في الكلام، ونهماً في الحديث، ورغبة في التشدق والثرثرة، تجعله يتكلم قبل أن يفكر، ويدخل في ما لا يعلم، ويخوض في ما لا ينبغي، أو على الأقل ينساق إلى ما لا يعنيه، فيقع فيما لا يرضيه، ولهذا قال عمر بن الخطاب: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل روعه، ومن قل روعه مات قلبه^(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تُوفِّي رجل، فقال رجل آخر ورسول الله ﷺ يسمع: أبشُرُ بالجنة. فقال رسول الله: «أَوَلَا تَدْرِي؟ فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخِلَ بِمَا لَا يُنْقِصُهُ»^(٣).

ولا غرو أن ذم النبي ﷺ الثرثارين المتفيهقين المتشدقين، واعتبرهم من شرار الناس كما جاء ذلك في الحديث^(٤)، وكان ﷺ كثيراً ما يحذر

(١) انظر ديوانه ص ١١٢، شرح أ. علي حسن فاعور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٦٤).

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٦)، وقال مخرجه: حديث غريب. والبزار (٧٥٥٧)، وأبو يعلى

(٤٠١٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٧١): رواه ثقات. وقال الألباني في

صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨٢): صحيح لغيره.

(٤) رواه أحمد (٨٨٢٢)، وقال مخرجه: حسن لغيره. عن أبي هريرة.

أصحابه من شهوتين غلابتين؛ شهوة الكلام، والشهوة الجنسية، شهوة اللسان وشهوة الفرج، ويقول ﷺ فيما رواه البخاري والترمذي عن سهل بن سعد رضي الله عنه: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة»^(١).

وأوصى أكثر من واحد من أصحابه بحفظ اللسان، إذا أرادوا السلامة والنجاة، ورغبوا في القرب من الجنة والزحزحة عن النار، سألته عقبه بن عامر رضي الله عنه: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»^(٢).

وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(٣)، وأشار إلى اللسان.

وقال له الحارث بن هشام رضي الله عنه: أخبرني بأمر أعتصم به؟ فقال رسول الله ﷺ: «أملك هذا» وأشار إلى لسانه^(٤). إنما يملك المرء لسانه إذا كان يفكر قبل أن يتكلم، فالأحمق يتكلم قبل أن يفكر، ولا يحاسب نفسه على ما قال، أما العاقل فإنه يحاسب نفسه قبل أن ينطق بالكلمة تخرج من شفتيه، ويقدر نتائج ما يقول قبل أن يبدأ القول، وبذلك يظل مالكاً للكلمة ما لم يتفوه بها، فإذا تفوه بها ملكته الكلمة وتحمل تبعاتها.

- (١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤)، عن سهل بن سعد.
- (٢) رواه أحمد (١٧٣٣٤)، وقال مخرجه: حديث حسن. والترمذي في الزهد (٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن. عن عقبه بن عامر.
- (٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٦٩٩)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.
- (٤) رواه الطبراني (٢٦٠/٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٤٨): رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما جيد.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها»، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: «أن يسلم الناس من لسانك»^(١). وهذا الحديث يدل على أن ذكر «المسلمين» في حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٢) لا يفهم منه جواز إيذاء غير المسلمين، لا بد أن يسلم الناس كل الناس من أذاه.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة؟ فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، - أي سألت مسألة عريضة هامة - أعتق النّسمة، وفكّ الرقبة... فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسقِ الظمآن، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلا من الخير»^(٣).

ولما سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار، أوصاه بجملة وصايا من أداء الفرائض وأبواب الخير، ثم قال له: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه؟»... «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم ختم وصيته الجامعة بقوله: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قال معاذ: بلى

(١) رواه الطبراني (١٩/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٦٦): في الصحيح منه: «الصلاة

لميقاتها». رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله النخعي، وهو ثقة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه أحمد (١٨٦٤٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات. وابن حبان في البر

والإحسان (٣٧٤)، والحاكم في المكاتب (٢١٧/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي. عن

البراء بن عازب.

يا رسول الله، فأخذ بلسانه ثم قال: «كف عليك هذا»، وأشار إلى لسانه، فقال معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله، قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم» أو قال: «على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(١).

لم يكتف النبي ﷺ أن يقول لمعاذ احفظ عليك لسانك، فقد ينسى هذه الكلمة، ولكنه استعمل وسيلة إيضاح وتثبيت للوصية، أشار إلى لسان نفسه وقال ﷺ: «كف عليك هذا»، اخزن هذا اللسان واسجنه، فليس هناك شيء في أحوج إلى طول سجن من اللسان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه، إذا ترك الإنسان لسانه كالمنشار يقول ما يشاء، ويتكلم بما يشاء- وينهش الأعراض والحرمان، فإنه يجلب على صاحبه الويلات، ويجر عليه البلايا في الدنيا والآخرة، ولهذا كان أبو بكر رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد^(٢). حتى ورد أنه يضع في فيه حصاة؛ لكي لا يتكلم إلا بخير، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: يا لسان قل خيرا تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم^(٣). آخذاً هذا من الحديث: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم»^(٤).

(١) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحاكم في التفسير (٤١٣/٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٩٦).

(٣) رواه الطبراني (١٩٧/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٥٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٧٢)، عن ابن مسعود.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨٠)، ابن أبي الدنيا في الصمت (٦٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٨٥٥)، عن خالد بن أبي عمران.

إن المسلم ينبغي أن يكون بين أمرين: إما أن يتكلم بحق، بخير، بالدعوة إلى الله بأمر بمعروف، بنهي عن المنكر، بإصلاح بين الناس، بحاجات الدنيا التي لا بد منها. وإما أن يمسك لسانه ويصمت ويكفّ ويضبطه، فمن صمت نجا، ومن تكلم فهو على خطر، وفي القرآن الكريم: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. وفي حديث معاذ: إنك لا تزال بخير ما سكت، فإن تكلمت كتب لك أو عليك^(١).

والمسألة ليست هينة، وفي الحديث الذي بدأنا به هذه الكلمة: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها»، وفي رواية: «لا يلقي لها بالا - أي لا يعيرها التفاتًا - يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٢)، وفي حديث آخر: «يهوي بها في جهنم سبعين خريفًا»^(٣). أي سبعين عامًا، وذلك من أجل كلمة تافهة، لا يهتم بها الإنسان ولا يقدر نتائجها، ولا يدري المسكين أن هذه الكلمة هوت به إلى قعر النار، وبئس القرار.

وفي الحديث الذي رواه أبو الشيخ بإسناد حسن عن أنس مرفوعًا: «عسى رجل منكم أن يتكلم بالكلمة، يضحك بها القوم، فيسقط بها أبعد من السماء»^(٤)، كلمة يريد أن يضحك بها جلساءه وندماءه فيهوي ويسقط بها أبعد من السماء، تنزل بقيمته ودرجته عند الله، وتنزل به إلى النار،

(١) سبق تخريجه ص ٢٨٨، وفيه: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم».

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٧٠)، عن أبي هريرة.

(٤) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٦٢)، وقال: رواه أبو الشيخ أيضًا بإسناد حسن، ورواه عن علي بن زيد عن الحسن مرسلاً.

والعياذ بالله، لهذا كان السلف حريصين أن يتكلمون بالحق أو يصمتوا؛ لأنهم إذا تكلموا بغير الحق فسرعان ما يتكلمون بالباطل، ولهذا سدوا الباب أولاً، ولم يتكلموا إلا بالخير، فإن فضول الكلام، والخوض فيما لا يعني يجزئ على الإنسان ويلات كثيرة، في الدنيا يجلب عليه مشكلات وخصومات مع الناس، فتارة يتناول هذا، وتارة يلمز ذاك، وحيناً يخوض في عرض زيد، وأحياناً في عرض عمرو، ولهذا قالوا قديماً:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان^(١)
وقال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه وعثرته بالرجل تُشفى على مهل^(٢)

فهذا من جناية اللسان على الإنسان في دنياه، فكيف بما يجره عليه في آخره، لقد عدَّ بعض العلماء للسان آفاتٍ بلغت سبعين آفة، ولخصها الإمام الغزالي في أمهات الآفات في كتابه «الإحياء» في عشرين آفة مثل: الخوض فيما لا يعني، والكلام في الباطل، والكذب، وشهادة الزور، والحلف بغير الله، والحلف بالله كاذباً، والغيبة، والنميمة، والسخرية، واللعن، واللمز، والسب، والتنازع بالألقاب، والاستهزاء بالناس، والمراء، والمزاح بالباطل، وغير ذلك كثير^(٣).

(١) ذكره البيهقي في مناقب الشافعي (٨٧/٢)، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ١، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

(٢) البيتان رواهما الخطيب في تاريخ بغداد (٦/٢٠) من شعر المعتز بن المتوكل، عن الزبير بن بكار.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، آفات اللسان (١٠٧/٣ - ١٦٤)، نشر: دار المعرفة - بيروت.

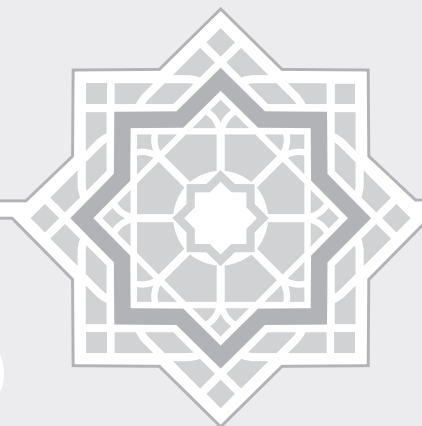
ولهذا حين استغرب معاذ بن جبل من وصية الرسول، حين قال له: «كف عليك هذا». قال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا نبي الله؟! قال: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟!»، وكأن اللسان منجل، يحصد الأعراض، ويحصد الحرمان، وينال من هذا ومن ذاك، هذا اللسان هو الذي يكب الناس في النار على وجوههم.

فالأولى بالمسلم أن يضبط لسانه، وأن يعلم أن كل شيء يكتب إما له وإما عليه، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَّا تَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۖ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٨].

إن قلم الرقيب العتيد يسجل ويحصى، والله تعالى قبل الرقيب العتيد يسمع ويرى، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. قال بعض المشركين لبعض: لا تجهروا بقولكم؛ فإن إله محمد يسمعنا ويبلغه. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

فحافظوا أيها الإخوة على ألسنتكم، واتقوا الله فيما تقولون، فهو إما لكم وإما عليكم.

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الآيات القرآنية الكريمة



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٣٨٠، ١٧٤، ١٦
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	٣٨٠، ١٢٠، ٥٧٨، ٤٩٧
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾	٧	٣٨٠، ١٢٠
سورة البقرة		
﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾	٣، ٢	٥٦٧
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾	٩، ٨	٣٣٤، ٣٢٠
﴿فَنُلَقِّىْ ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾	٣٧	١٢٧
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾	٤٣	٢٩٥
﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾	٧٥	٤٥٣
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	٨٣	١٨٦
﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾	١٠٢	٤٣٩
﴿وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾	١٠٥	٢٠٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَذَكَرْتُ مَنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾	١٠٩	٣٦٦، ٢٨١
﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾	١١٥	٢٦٦
﴿ رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾	١٢٧	٥٤١
﴿ فَاسْتَقِمْوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾	١٤٨	٥٥٠
﴿ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾	١٥٢	٤٧٢، ١٩٥
﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾	١٥٤	٣٢٣
﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾	١٥٦	٤٧٠
﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾	١٧٢	٥٣، ٤٨ ٥٦٢، ٥٤
﴿ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٧٣	١٣٧
﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِيكَةِ ﴾	١٧٧	٤٢٠
﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾	١٧٨	٨٦، ٨٤
﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلِيبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾	١٧٩	٨٥، ٨٤
﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾	١٨٣	٨٤، ٢٤
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾	١٨٥	٤٧٣، ١٦٩، ١٤
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾	١٨٦	٢٣٨، ٥٤ ٥٧٥
﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾	١٨٧	١٤٢
﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾	١٩٧	٥٤٣، ٢٦٠
﴿ رَبَّنَا ءَانِسَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾	٢٠١	١٧٠، ٥٦ ٥٢٩، ٢٠٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾	٢٠٦	٣٩٥
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾	٢٢٢	١٢٨
﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	٢٢٩	١٤٢
﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾	٢٣٩، ٢٣٨	٥٦٧
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً﴾	٢٤٥	٤٩٨، ٣١٧
﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	٢٤٩	٤٧٥
﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾	٢٥١	٦١٠
﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾	٢٥٦	١٣٥
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾	٢٥٨	١١٨
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾	٢٦١	٢٣٦
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٢٦٢	٣١١
﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾	٢٦٣	٣١٢
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُ أَسَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾	٢٦٤	٣١٢
﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾	٢٦٨	٣٠٥
﴿إِنْ بُنِدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ﴾	٢٧١	٣١٥، ٢٧٠
﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾	٢٧٣	٣٠٢
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِلِّ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾	٢٧٤	٣٣
﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾	٢٧٦	٣١٩
﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾	٢٨٠	٥٠٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿ رَبَّنَا لَا تُغِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾	٨	٥٦، ١٣
﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾	١٤، ١٥	٤٨٤
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾	٣١	١٠٧
﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾	٥٧	٣٨١
﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾	٦٤	٢٥٢، ١١٦
﴿ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ ﴾	٧٢	٩١
﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾	٧٦	٢٦٦
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ ﴾	٧٧	٣٥٢، ٣٤١
﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾	٩٢	٣١٨، ٣١٧
﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾	٩٦، ٩٧	٥٤٢، ٥٣٩ ٥٤٦
﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾	١٠٣	٤٠٨، ٣٧٨
﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾	١٠٤	٤٥٤
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ ﴾	١١٠	٤٥٤، ٢٣٣
﴿ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾	١١٤	٤٩٢
﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾	١١٧	٥٧٦
﴿ وَإِنْ تَصِيرُوا أَتَمَّةٌ فَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾	١٢٠	٢٦٥
﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمِ أَذَلُّ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	١٢٣	٤٧٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾	١٣٣ - ١٣٥	٦٢، ٦٨، ٦٩، ٢٦٥، ٢٢٦، ٢٧٦، ٤٧١، ٤٩٢، ٥٥٠، ٥٨٢
﴿مِّنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾	١٥٢	٢٩
﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾	١٥٤	١٧٨
﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾	١٥٦ - ١٥٨	١٧٨
﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾	١٥٩	٤٩٥
﴿إِن يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾	١٦٠	١٥٣، ٥٠٩
﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١٦٨	١٧٨
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾	١٨٠	٢٩٦
﴿وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾	١٨٦	٢٦٥، ٢٨١
﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾	١٩١	١٩٤، ٤٦٧
﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾	١٩٣	٥٦
سورة النساء		
﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾	١	١٨٨، ٣٥٧
﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾	١٩	٣٤٣
﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾	٢٠، ٢١	٣٥١
﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾	٢٨	١٢٢
﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾	٢٩	٤٠٣، ٤٠٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾	٣٢	٥٧٩، ٤٨٦
﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾	٣٤	١٩٧
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	٣٦	٤١٠، ١٨٦
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾	٤٠	٥٧٦، ٢٣٦
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾	٤٣	٥٧١
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾	٤٨	٥٨٢
﴿أَمَّا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾	٥٤	٥٩١، ٣٦٣
﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	٥٩	١٠٧
﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾	٧٤	٦٠٠
﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٧٧	١٩
﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾	٨٠	١٠٧
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾	٨٢	١٠٩
﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْنِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ﴾	٩٠	٣٩٨
﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾	٩٢	٣٩٩، ٣٥١، ٩٠
﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾	٩٣	٣٩٩، ٩٠
﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾	١٠٠	٣٢
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنُحْكِمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾	١٠٥	٤٤٨
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾	١١٠	٥٨٢
﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾	١١٤	٤٢٥، ٣٣٠، ٣٦١، ٦٢٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾	١١٦	٥٨٢
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾	١٢٣، ١٢٤	٥٢٢
﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾	١٢٨	٣٧٦
﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾	١٣١	٢٥٨، ١٥٦
﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾	١٤٢	٣٥، ١٠٦، ١٩٤، ٥٦٨، ٤٦٧
﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾	١٤٥	٣٣٤
سورة المائدة		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾	١	٣٥٢
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾	٢	٥٠٩
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾	٣	٩٥
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾	٨	٣٥٤، ٢٧٩
﴿قَالَ لَا قُنْلُنَا قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾	٢٧	٣٦٥، ٤٣
﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾	٢٨	٣٦٥، ٤٣
﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَءَ بِائِمِي وَإِيَّاكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾	٢٩	٣٦٥، ٤٣
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٣٠	٣٩٩، ٣٦٥، ٤٣
﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾	٣٢	٨٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾	٣٥	٦١١
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾	٣٨	٤٠٤
﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ﴾	٤٨	٥٤٨، ٤٩٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠	٢٤٩
﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾	٥٤	٣٧٤ ، ٣٧٣
﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾	٥٥	٢٩٥
﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾	٥٨	٢٣٢
﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾	٦٧	٥٨٤
﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾	٧٨	٢٢٨ ، ٤٥٤ ، ٢٣٠ ، ٣٨٩
﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾	٧٩	٢٢٨ ، ٤٥٤ ، ٢٣٠ ، ٣٨٩
﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	٨٠	٢٣٠ ، ٣٨٩
﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾	٨١	٢٣٠ ، ٣٨٩
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾	٩١	٣٦٠ ، ٥٩٣
﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾	١٠٠	٤٩
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾	١٠٥	٤٥٢ ، ٤٥٣
سورة الأنعام		
﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	٢١	٣٨١
﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾	٤٤ ، ٤٥	٣٨٤
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾	٥٠	٤٣٩
﴿وَإِنْ تَطِعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	١١٦	٢١٤
﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾	١١٩	١٣٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾	١٤١	٣٠٤
﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾	١٥١	٨٠
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾	١٥٣	١٦٢
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾	١٦٠	٢٣٦، ٢٣٧
﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	١٦٣، ١٦٢	٤١، ٣١
﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾	١٦٤	١١٦
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾	١٦٥	٤٨٥
سورة الأعراف		
﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾	١٠	٥٨٧
﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾	١٢	٣٩٥
﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٢٣	١٦، ١٢٧، ١٣٣، ١٦٧، ٢٦٤، ٢٠٨
﴿وَلِبَاسُ النُّفُوسِ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾	٢٦	٢٦١
﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُودَ زِينَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾	٣١، ٣٢	١٣٦، ٥٩٧
﴿إِنَّ رَحِمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٥٦	١٣٢
﴿يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	٥٩	٢٥١
﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٦٢	١١١
﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾	٦٨	١١١
﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾	٧٩	١١١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرُكْبَتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾	٩٦	١٢٤
﴿يَطَّيِّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾	١٣١	٤٣٥
﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾	١٤٦	٣٩٦
﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾	١٥٦	١٣٢
﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾	١٦٩	٥٢٣ ، ١٣٢
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ﴾	١٧٩	٥٢٠ ، ٤٦٧
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾	١٨٠	١٧٠
﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾	١٨٣	٣٨٢
﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾	١٨٨	٤٣٨
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾	٢٠١	٢٦٤ ، ٢٣٧
﴿وَأَذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾	٢٠٥	٤٧٠
سورة الأنفال		
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	١	٣٦١
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	٢	١٥٥
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾	٩	١٥٠ ، ١٤٩
﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾	١١	١٤٩
﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾	١٢	٤٧٦ ، ١٥٠
﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾	١٧	٤٧٦ ، ١٥١
﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾	٢٥	٤٥٧ ، ٥٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخطفَكُمُ النَّاسُ﴾	٢٦	٤٨٢
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾	٤١	٢٠٤ ، ١٤٦
﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾	٤٢	١٤٨
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾	٤٥	٤٧٠ ، ٤٦٧ ، ١٩٤
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٤٩	٥٨٨
﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾	٥١	٥٧٦
﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾	٥٨	٣٥٣
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾	٦٠	٣٢٧
﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾	٦٣ ، ٦٢	٣٧٩ ، ٣٧٦
﴿وَإِنْ أَسْنَصِرْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾	٧٢	٣٥١
﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	٧٥	٣٧٤
سورة التوبة		
﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾	٤	٣٥٠
﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	٧	٣٥٠
﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾	١٠	٣٤٩
﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخِوُنْكُمْ فِي الدِّينِ﴾	١١	٢٩٦ ، ٢١٩
﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	٣١	١١٧ ، ٩٧
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾	٣٣	٢١٦
﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٣٥ ، ٣٤	٥٧٦ ، ٢٩٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾	٣٩	٣٢٧
﴿انْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾	٤١	٦١٣
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾	٥٨	٥٩٩
﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ﴾	٦٠	٣٠١
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	٧١	٢٣٤
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْفِرُوا وَلَئِنْ أُنْفِرُوا لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا عَاهَدَ اللَّهِ لَنْ لَا يَنْفِرُوا﴾	٧٥ - ٧٧	٣٥٤
﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾	٩١، ٩٢	٥٥٢
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾	١٠٣	٣٠٧، ٥٠
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾	١١١	٦١٥
﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾	١١٨	١٣٠، ١٢٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾	١١٩	٣٤٧
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾	١٢٠، ١٢١	٦١٣
﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً﴾	١٢٢	٥١٢
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾	١٢٨	٤٥٩
سورة يونس		
﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾	٩	١٢٥
﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَهُمْ﴾	٢٢	٥٦١
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾	٥٨	٧٥
﴿أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمْ مِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾	٨٧	٥٦٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة هود		
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ^٤ ﴾	٦	٥٨٧، ٥٨٠
﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٧	٩٣
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾	١٨	٣٣٨
﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ ^٥ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾	١٠٢	٣٨٢
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ^٦ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	١١٢، ١١٣	١٢١
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ ^٧ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ﴾	١١٤	٥٠٣، ٢٥٧، ٢٦٩
﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾	١١٦	٢١٣
سورة يوسف		
﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَلَىٰ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾	٢٣	١٣٧
﴿وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَاسْتَعْصَمَ ^٨ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾	٣٢	١٣٧
﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ^٩ ﴾	٣٣ - ٣٥	١٣٨
﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾	٨٧	٥٦٣
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾	١٠٦	٤٤٧
سورة الرعد		
﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾	١٩، ٢٠	٣٥٠
﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾	٢٤	١٢٦
﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾	٢٥	٣٥٠
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾	٢٨	٤٧١، ١٢٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة إبراهيم		
﴿كَتَبْنَا نَزْلَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾	١	١٠٩، ٤٤٨
﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾	٧	١٢٤، ١٩٦ ٣١٩، ٥٣٥
﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾	١١	٢٥٣
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾	٢٤ - ٢٦	٤٩
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾	٣٢ - ٣٤	١٩٥، ٣٠٤
﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾	٤٠	٥٦٦
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾	٤٢، ٤٣	٣٨٤
سورة الحجر		
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾	٢٩	٥٢٧، ٥٧٣
﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾	٤٧	٣٥٨، ٣٧٣ ٥٩٠
﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿	٤٩، ٥٠	١٣٢
﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾	٩٩	١١٩
سورة النحل		
﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ أَمَلَاتِكَةً طَبِيبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾	٣٢	٤٩، ٥٢٢، ٥٧٦
﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	٤٣	٥١٢
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	٤٤	٤٥٣
﴿وَمَا يَكُفُّكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾	٥٣	١٩٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾	٦١	٥٧٧
﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾	٧١	٤٨٥
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾	٨٩	١٣٥
﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾	٩١	٣٥٠
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾	٩٧	٤٨٨
﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾	١٠٥	٣٩٦ ، ٣٣٦
﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾	١١٢	٤٨٢
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾	١٢٨	٢٦٦ ، ٢٥٩ ، ١٥٦
سورة الإسراء		
﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾	١١	٤٩١
﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾	١٤	٤٢٦
﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾	٢٣ ، ٢٤	٣٧٣ ، ١٨٥ ، ١٨٤
﴿ رَبِّكُمْ أَغْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾	٢٥	٢٦٥
﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾	٣٠	٥٩١ ، ٤٨٥
﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾	٣٢	١٤٣
﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾	٣٤	٣٥٠
﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾	٥٧	١٣٣
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾	٧٠	٥٨٧
﴿ وَمِنَ الْإِيلِ فَتَهَجَدَ بِهِ ءَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾	٧٩	٥٣٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾	٨١	٢٨٤
﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾	١٠٠	٥٨٠
سورة الكهف		
﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾	١٠	٥٦، ١٣
﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴿	٣٤ - ٣٦	٣٩١، ٥٢٦
﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾	٣٩	٣٩٢، ٣٩١
﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾	٤٠	٣٩٢، ٣٩١
﴿ فَأَصْبَحَ يَقُلبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾	٤٢	٣٩٢
﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنِيلُنَا ﴾	٤٩	٤٢٧
﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾	٥٩	٥٧٦، ٣٨٢
﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾	٩٨	٣٠٦
﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾	١٠١	٥٢٠
﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾	١٠٥	٣٩٤
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلُّكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾	١١٠	٢٥٣، ٤٠
سورة مريم		
﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾	١٤	١٨٦
﴿ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾	٣١	٥٦٧
﴿ وَبَرًّا بِوَالِدِيٍّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾	٣٢	١٨٦
﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾	٥٤	٣٤٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾	٥٥	٥٦٦
﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾	٥٩	٥٦٨
﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾	٦٠	١٢٩
﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾	٧٢، ٧١	٢٦٥
﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾	٩٣ - ٩٥	٥٧٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾	٩٦	٥٩٣
سورة طه		
﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾	١٣	٥٦٦
﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾	١٤	٥٧٠، ٥٦٦
﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾	٥٠	٥٧٨، ١٢٢
﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾	٨٤	٤٩٤
﴿وَقَدْ حَابَكَ مِنْ حَمَلِ ظُلْمًا﴾	١١١	٣٨١
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾	١١٢	١٢٥
﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾	١١٥	٢٦٨
﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾	١٢١	٢٦٨
﴿أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾	١٢٣ - ١٢٦	٤٨٢، ١٢٤
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	١٣١	٤٨٤
سورة الأنبياء		
﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾	١٢، ١٣	٥٢٦
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾	٤٧	٥٧٦، ٣٨٥، ٣٨٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحج		
﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾	١١	٥٩٩
﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾	٢٧، ٢٨	٥٤١
﴿وَلِيُوفُوا نُدْوَهُمْ﴾	٢٩	٣٥٣
﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾	٣٠	٣٤١
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾	٣٢	٣٩٧
﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾	٤٠	٢٣٤، ١١٨
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾	٤١	٢٣٤
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾	٧٧، ٧٨	٦١١
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾	١ - ٩	٥٦٧، ٣٥٠، ٢٠٧
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	٣٧	٥٢٥
﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾	٥١	٥٦٢، ٥٣، ٤٨
﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ عَنْهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾	٦٠	٤٣
﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾	٦١	٤٩٢، ٤٤
﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ * لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ﴾	٦٤ - ٦٦	٥٢٦
﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾	٧١	٤٣٣
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾	١٠١	٣٩٢
﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	١٠٢، ١٠٣	٣٩٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النور		
﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾	٢	٨٢
﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾	٥ ، ٤	٤٠٧
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾	١٩	٤٠٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٥
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾	٢٣ - ٢٥	٤٠٧
﴿ وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾	٣١	٤٦١ ، ١٢٨ ، ١٢٧
﴿ وَعَاوَنُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾	٣٣	٣٠٤
﴿ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَجَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾	٣٧	٤٦٨
﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾	٥٤	١٠٧
سورة الفرقان		
﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾	٢٦	٤٩٩
﴿ يَرْبِّ إِن قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾	٣٠	١٦٩
﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾	٦٣	٢٧٦
﴿ وَالَّذِينَ يَسِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيمًا ﴾	٦٤ - ٦٦	٥٣٤
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾	٦٧ - ٧٠	٣٩٨ ، ٩٠
﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾	٧٤	٢٠٠
سورة الشعراء		
﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿	٧٨ - ٨٠	٥٧٩
﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿	٨٨ ، ٨٩	١٤٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النمل		
﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۖ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ ﴾	٤٠	١٩٥، ٥٤٠
﴿ أَطِيعُوا بَيْنَكُمْ وَيَمْنُ مَعَكُمْ ۖ ﴾	٤٧	٤٣٥
﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ﴾	٥١، ٥٠	٣٧٠
﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۖ ﴾	٥٢	٣٨٢، ٥٧٦
﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۖ ﴾	٦٥	٤٣٨
سورة القصص		
﴿ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۖ ﴾	٢٤	٥٦
﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۖ ﴾	٦٨	٢٠٤
﴿ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ ﴾	٧٧	٩٩، ٥٢٨
﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ ﴾	٧٨	٥٢٦
﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ ۖ ﴾	٧٩	٣٦٨، ٣٩١
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ ﴾	٨٠	٣٦٨، ٣٩١
﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ ﴾	٨٢، ٨١	٣٦٨، ٣٩١
﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۖ ﴾	٨٣	٤٦، ٣٦٩
سورة العنكبوت		
﴿ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكُتُبِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ ﴾	٤٥	٥٦٧
سورة الروم		
﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ۖ ﴾	٤١	٥٧٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة لقمان		
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَمَيْنِ﴾	١٤	١٨١
﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعُهُمَا﴾	١٥	١٨٤
﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾	١٧	٥٦٦
﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾	٣٣	٢٦٠
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾	٣٤	٧٨
سورة السجدة		
﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	١٧، ١٦	٥٣٢، ٢٨٨
سورة الأحزاب		
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾	٢١	٢٨٦
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾	٤٢، ٤١	٤٧٠، ٤٦٧، ١٩٣
﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا﴾	٥٨	٤٠٦
سورة سبأ		
﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ﴾	١٤	٤٣٨
﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾	١٥	٥٤
﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾	٣٩	٣١٩، ٣٠٦
سورة فاطر		
﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾	١٠	٤٩
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾	٢٩	٥٢٤
﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾	٤٣	٤٣٣، ٣٧٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة يس		
﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾	١٨	٤٣٥
﴿طَيَّرْنَاكُمْ مَعَكُمْ﴾	١٩	٤٣٥
﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾	٣٣ - ٣٥	٥٧٩
سورة الصافات		
﴿لِيُمَثِّلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾	٦١	٥٥٠
سورة ص		
﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُوا عَابَتَهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾	٢٩	١٠٩
سورة الزمر		
﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتُ عَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾	٩	٥٢٤ ، ١٣٣
﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	١٠	٢٣٦ ، ٢٢
﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾	١٨	٥٦٤ ، ٤٦٥
﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾	٢٣	١٥٥
﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾	٥٣	٥٨٢ ، ٢٧٤ ، ٢٣٧
﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَلِيدِينَ﴾	٧٣	٤٩
سورة خافر		
﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾	٣	١٣٢
﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾	١٧	٥٧٦
﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾	٢٦	١١٧
﴿أَنْفَقْتُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾	٢٨	١١٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَقُومُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ﴾	٣٩	٧٠
﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾	٦٠	٥٧٩، ٥٤
﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾	٦٤	٥٨٧
سورة فصلت		
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾	٦	٢٩٦، ٢١٩، ١٢٢
﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾	٧	٢٩٦، ٢١٩
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾	٣٠	١٢٥، ١١٩، ١١٦
﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	٣٠، ٣١	١٢٦، ١٢٥
﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾	٣٢	١٢٦، ١٢٥
﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٣٤ - ٣٦	٦٦، ٦٣، ٢٥
سورة الشورى		
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾	٢٠	٢٩
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾	٢١	٩٤
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾	٣٠	٥٧٧
﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْأَلَامِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾	٣٧	٦٩
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾	٤٠	٨٦
﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٥٢	٣٤٥
سورة الزخرف		
﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾	١٣، ١٤	٤٧٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿الَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	٥١	٥٢٦
﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾	٨٠	٦٢٤، ٤٣٢، ٤٢٦
سورة الجاثية		
﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾	١٩	٢٦٦
سورة الأحقاف		
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾	١٣، ١٤	١١٦
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾	١٥	١٨١
سورة محمد		
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصَرُّوهُ اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُيَسِّرْ أَعْدَاءَكُمْ﴾	٧	١٥٢
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾	١١	٢١٦
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	٢٤	١٠٩
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَارْتَيْنَكُمْ فَلَعَرَفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾	٣٠	٤٢٨
﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	٣٣	١٠٧
﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾	٣٥	٦١٦
سورة الفتح		
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾	١٠	١٠٧
﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾	٢٩	٣٧٤
سورة الحجرات		
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	١٠	٣٥٧، ٣٥٩، ٣٧١، ٣٨٠، ٣٧٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾	١١	٣٥٩، ٣٦٠ ٣٩٧، ٤٠٥
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾	١٢	٣٦٠
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾	١٣	١٨٧، ٢١٨ ٣٩٠، ٣٩٢ ٣٩٧
﴿قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾	١٤	٦١١
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾	١٥	٦١١
سورة ق		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾	١٦	٣٣٣، ٤٢٧ ٦٢٤
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾	١٧	٣٣٣، ٤٢٧ ٦٢٤
﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾	١٨	٣٣٣، ٣٤٧ ٤٢٧، ٦٢٤
﴿هَلِ أَمْتَلَاتِ وَقُولِ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾	٣٠	٤٨٤
﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾	٣٣	١٤٥
سورة الذاريات		
﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ؕ ؕ ؕ أَخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ﴾	١٥ - ١٩	٢٩٩، ٥٢٢ ٥٣٤
﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ؕ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾	٢٤، ٢٥	٤٢١
﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾	٢٦	٤٢١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾	٢٧	٤٢١
﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمَ عَلِيمٍ﴾	٢٨	٤٢١
﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾	٥٠	٢٣٨ ، ٢١٣
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾	٥٦ - ٥٨	٥٨٠ ، ٣٥٨
سورة الطور		
﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	١٦	٥٧٦
سورة النجم		
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾	١ - ٤	١٠٦ ، ٤
﴿وَأَنَّا إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾	٤٢	٦٠٠
سورة الرحمن		
﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾	١ - ٤	٦١٧
سورة الواقعة		
﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾	٦٣ - ٦٧	٥٧٩ ، ٣٠٤
﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾	٦٨ - ٧٠	٥٨٠
سورة الحديد		
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	٤	٣٤٥ ، ٢٦٦ ، ١٥٦
﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾	٧	٣٠٤
﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾	٢١	٥٥٠ ، ٤٩٢
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾	٢٢ ، ٢٣	١٧٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المجادلة		
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾	١	٤٢٦
﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾	٦	٤٢٧
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	٧	٤٢٦، ٣٣٣
﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	٢٢	١٥٢
سورة الحشر		
﴿وَمَا ءَانَتْكُمْ الرِّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْهُوا وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾	٧	١٠٧، ٤
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾	٩	٤٢٢، ٣١٧
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾	١٠	٥٩٠
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾	١٩	٥٣٠، ٤٦٨
سورة الممتحنة		
﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾	٧	٥٩٣
﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾	٨	٢٨٠، ١٨٤
سورة الصف		
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى تَحَرُّفٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾	١٠	٦١٣
﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾	١١	٦١٣
﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾	١٢	٦١٣
سورة الجمعة		
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾	١٠	٥٨٧، ٥٢٨، ٤٧٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المنافقون		
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأَنَّهُمْ كُفَرُوا أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾	٩	٤٦٨
﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ﴾	١١، ١٠	٧٨
سورة التغابن		
﴿مَا أَصَابَ مِّن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾	١١	١٧٩
سورة الطلاق		
﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِّن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	٤، ٣	١٢٤، ٢٦٥ ٥٨٨
﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِّن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	٤	٢٦٦
سورة التحريم		
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾	٨	١٣٣
سورة الملك		
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾	١٣	٣٣٣، ٤٢٦ ٦٢٤
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٤	٣٣٣، ٤٢٦ ٦٢٤
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾	١٥	٥٢٨، ٥٨٧
سورة القلم		
﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾	١ - ٤	٢٧٧
سورة الحاقة		
﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ حَافِيَةٌ﴾	١٨	٥٢٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾	٢٤	٢٧
﴿يَلَيِّنِي لَمْ أُوتِ كِنْيَةً﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٌ ﴿يَلَيِّنَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾	٢٥ - ٢٩	٢٢٠
﴿خُذُوهُ فَعُلُوهُ﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾	٣٠ - ٣٢	٢٢١
﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿	٣٣ - ٣٤	٢٢١
سورة المعارج		
﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾	٤	٥٠٠
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾	١٩ - ٢٣	٥٨٠
﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾	٢٤، ٢٥	٢٩٩
سورة نوح		
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِزْرَارًا﴾	١٠ - ١٢	٥٨٢، ٤٨٢
سورة الجن		
﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ رَبِّهِ، فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا﴾	١٣	١٢٥
﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقْبِلُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾	١٦	١٢٤
سورة المزمل		
﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نِصْفَهُ، أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾	١ - ٥	٥٣٥
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾	٢٠	٥٣٦
سورة المدثر		
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾	٣٨ - ٤٤	٥٦٨، ٢٢٠
سورة الإنسان		
﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾	٧	٣٥٣

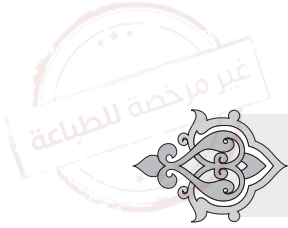
الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المرسلات		
﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾	٢٠	٣٩٣
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُرُوا لَا يَرْكُعُونَ * وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾	٤٨، ٤٩	٥٦٨
سورة النازعات		
﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾	٢٤	١١٧
سورة عبس		
﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾	٢٤ - ٣٢	٥٧٩
﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ﴾	٣٤ - ٣٧	٣٨٦، ٢٦٠، ٤٩٩
سورة الانفطار		
﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنِينٍ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾	١٠ - ١٢	٤٣٢، ٣٤٧
سورة المطففين		
﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٦	٤٩٩
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	١٤	٢٧٥، ١٤٤
﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾	٢٦	٣٦٧، ٥٥٠، ٥٩٢
سورة الأعلى		
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾	١ - ٣	٥٧٨
سورة الفجر		
﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾	١٤	٣٨٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البلد		
﴿الَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾	٩ ، ٨	٦١٧
﴿فَلَا أَقْنَمِ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً﴾	١٦ - ١١	٣١٦ ، ٣١٤
سورة الضحى		
﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾	٨	٤٨٢
سورة القدر		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾	٣ - ١	٢٠١ ، ١٦٩
﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾	٥ ، ٤	٢٠٤ ، ١٦٨
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾	٥	٤١
سورة الزلزلة		
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾	٨ ، ٧	٥٧٦ ، ٥٠٠
سورة الماعون		
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾	٣ - ١	٢٢٠
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	٧ - ٤	٤١٣ ، ٣٥ ٥٦٨
سورة الفلق		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾	٤	٤٤٠

نسخة مجانية

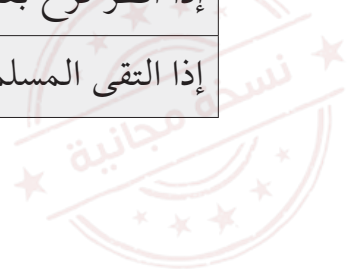




فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



رقم الصفحة	الحديث
أ	
١٥٢	أتدرون ما الذي يُضحك الربَّ من عبده؟ أن يلقي العدوَّ حاسراً
٣٨٦	أتدرون من المفلس؟. قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع
٢٥٧، ٢٦٠، ٢٨٦، ٢٦٦	أتق الله حيثما كنتَ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُّها، وخالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ
٣٨١	اتَّقوا الظلم؛ فَإِنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ
٥٠٨	أُتِيَ اللهَ بعبدٍ من عباده آتاه اللهَ مالاً، فقال له: ماذا عملتَ في الدُّنيا؟
٤٣٩، ٤٠٧	اجتنبوا السبع الموبقات
١٧٤	احرض على ما ينفعك
٣٢٩	احفظ عليك لسانك
٤١٧	إذا أراد الله بعبدٍ خيراً استعمله. قيل: وما استعمله؟
٤١٧	إذا أراد الله بعبدٍ خيراً عَسَله. قيل: وما عَسَله؟ قال: يُحَبِّبه إلى جيرانه
٤٢٨	إذا أصبح ابن آدم فإنَّ أعضاءه تكفَّر اللسان، تقول: اتَّقِ اللهَ فينا
٢٧	إذا أفطر فرح بفطره
٣٣	إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار



رقم الصفحة	الحديث
٥٧٣	إذا توضأ العبد فأحسن الوضوء، ثمَّ قام إلى الصلاة فاتمَّ ركوعها وسجودها
١٥	إذا جاء رمضان، فُتحت أبواب الجنَّة، وغُلِّقت أبواب النَّار، وصُفِّدت الشياطين
٣٥٦	إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر
٥٤٥، ٥٣	إذا خرج الرجل حاجًا بنفقة طيبة، ووضع رجله في العُزْر
٤٥٦	إذا رأيت أُمَّتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم! فقد تُودَّع منهم
٢٤٤	إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله
٣٧٧	إذا عاد المسلم أخاه، أو زاره، قال الله ﷻ: طُبِّتَ وطاب ممشاك
٢٣٠	إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض، كان مَنْ شَهِدَهَا فكَرَّهَا
٦٦	إذا غضب أحدكم فليَسْكُتْ
٦٦	إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلَّا فليضطجع
١٨٣	إذا فعلت أُمَّتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء
١٥	إذا كان أوَّل ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين، ومردة الجنِّ
٤١٩	إذا نزلتم بقوم، فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا، وإن لم يفعلوا
٤٤٣	أذن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة
٤٨٠، ٣٢٢	إذن يعقر جوادك، ويهراق دمك
٤٥٠	أذهب البأس، ربَّ النَّاس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلَّا شفاؤك
٢٧٠	أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات
٥٥٥	أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟
٢٠٤	أرأيتم ليلة القدر، ثمَّ تلاحي فلان وفلان في المسجد فُرفعت
٢٨٩	أربع فرضهنَّ الله في الإسلام، فمن جاء بثلاث، لم يُغنين عنه شيئًا
١٩٣	أربعٌ من أُعطيهنَّ فقد أُوتي خيري الدُّنيا والآخرة: لسانًا ذاكرا



الحديث	رقم الصفحة
أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والجار الصالح، والمسكن الواسع	٤١٧، ١٩٩
أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ	٣٣٤
ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس	٤٨٧، ٤٨١
ارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا	٣٢٧
استعن بالله ولا تعجز	١٧٥
استفت قلبك	١٣٩
استقيموا ولن تحصوا	١٢٢
استكثروا فيه من أربع خصال: خصلتان تُرضون بهما ربكم	١٨
اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنَّ رأسه زبيبة	١٥٨
أصابهم مطر في يوم عيد، فصلى بهم النبي ﷺ صلاة العيد في المسجد	٢٤١
أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه النشور	٤٧١
أعاذك الله يا كعب بن عُجرة من إمارة السفهاء. قال: وما إمارة السفهاء؟	٤٥٧
اعقلها وتوكل	٥٨٤، ٥٨٣
أعني على نفسك بكثرة السجود	٥٦٤
اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك	٧٨
أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم	٢٢٤، ٢٢٣
أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر	٣٢٨
أفضل الصدقة، الصدقة على ذي الرحم الكاشح	٣١٣
أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته، إلا المكتوبة	٥٣٧
أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم	٥٥٦
أفلا أكون عبداً شكوراً؟	٥٣٥



رقم الصفحة	الحديث
٤٤٩	أقر أصحابه الذين رَقُوا مَنْ رَقُوا بفاتحة الكتاب
٥٩٥	اقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف
٥٣٣	أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر
٢٤٤، ٢٤٣	أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها. ثم قال: يا قبيصة
٥٠١	أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم
٥	اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقٌّ
٢٨٤	أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائكم
٢٨٣	ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك
٦٢٠	ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه؟ ... رأس الأمر الإسلام
٣٢٠	ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام
٣٢٩	ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: كفّ عليك هذا
٢١٥	ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله
٥٣٢، ٢٩٠	ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة
٤٣٠	ألا أدلك على ملك ذلك كله؟! قال: بلى يا رسول الله. فأشار إلى لسانه
٣٦١	ألا أدلكم على أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟
٢٦٩	ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟
٣٩٣	ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي
٦١٥	ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة
٣٢٧	ألا إن القوة الرمي
٣٤١	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى، يا رسول الله! قال: الإشراك بالله
١٤٤	ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله



رقم الصفحة	الحديث
١٤٢	أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمِيًّا، أَلَا وَإِنَّ حِمِيَّ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مُحَارِمُهُ
١٦٧	الْتَمَسُوها فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ
٢٧٣	أَلَيْكَ وَالِدَانِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَلَيْكَ خَالَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: اذْهَبْ فَبَرِّهَا
٥٥٦، ٥٢٨، ٥٢٥	اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عَصَمَةٌ لِي بِأَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي
١٩٥	اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ
٤٨٣	اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالِهِ
١٥٠	اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ الْيَوْمِ
١٤٩	اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ، عَالَةٌ فَأَغْنِهِمْ، حَفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ
٢٠٧	اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
٥٥٦، ٤٨٢	اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى
٤١٨	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارٍ سَوْءٍ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ
٢٨٢	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ وَمِنْ سُوءِ الْأَخْلَاقِ
١٧٣	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ
٤٧٢	اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، بِاسْمِ اللَّهِ
٢١٧، ٢٥١، ٣٧٦، ٢٥٤، ٥٩٤	اللَّهُمَّ رَبَّنَا، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ اللَّهُ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
٢٥٤	اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ
٢٨٢	اللَّهُمَّ كَمَا أَحْسَنْتَ خُلُقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي
٥٢٨	اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا
٥٩١	اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمَنْكَ وَحْدَكَ



رقم الصفحة	الحديث
٥٠٣، ٢٦٩	أليس قد صليتَ معنا؟ قال: نعم. قال: فإنَّ الله قد غفر لك ذنبك. أو قال: حدِّك
٣٢٥	أمَّا أنت فقد عذرَكَ الله ولا جهاد عليك. ثمَّ قال لبيته: لا عليكم أن لا تمنعوه
٩٧	أمَّا إنهم لم يعبدوهم، ولكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُّوه
٣٣	أمَّا صدقتك على زانية فلعلَّها أن تستغفَّ عن زناها
٥٩٨	أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟
٥٢٩	أمَّا والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد
٢٩٨	أُمِرْتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حتَّى يقولوا: لا إِلَهَ إِلَّا الله. فمن قال: لا إِلَهَ إِلَّا الله
٦١٩	أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك
٤٥٠	إنَّ أباكما كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة
٦٠٥	إنَّ أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل
٢١٢	إنَّ أحبَّ شيءٍ إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفارُّون بدينهم
٢٧٨	إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربكم مِنِّي في الآخرة محاسنكم أخلاقًا
٤٠	إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر
٢١٠	إنَّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء
٤٣٠	إنَّ أكثرَ خطايا ابن آدم في لسانه
٥٣	إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين
٣٨٢	إنَّ الله تعالى ليُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته
٥٨٦	إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رمحي
٥٩٧	إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبُر: بطر الحق، وغمط الناس
٧٩	إنَّ الله حرَّم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا
٥٨٤، ٤٤٥	إنَّ الله حيث خلق الداء، خلق الدواء، فتداووا



رقم الصفحة	الحديث
٥٥	إِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرَدَّهَمَا صَفْرًا خَائِبَتَيْنِ
٥٤٥، ٣٠٩، ٤٨	إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا
٥٢	إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ
٨٧	إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ
٢٣٥	إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ
٢٦٢، ٢٨	إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ
٤٣	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا
١٠٩	إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ
١٧٥	إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَئِيسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ
١٨٠	إِنَّ اللَّهَ يُوَصِّيكُمْ بَابَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوَصِّيكُمْ بِأُمَهَاتِكُمْ
٤٥٤	إِنَّ أُمَّتِي إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يَوْشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ
٣٩٨	إِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا
٣٨٨، ٢٢٨	إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النِّقْصَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى مِنْهُمْ أَخَاهُ
٤١٣	أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ. قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟
٣١٤	أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمَلُ الْغِنَى
٣٢١	أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ... وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ
١٣٤	إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ
٤٠٦	إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا
٣٨٠	إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ
٦٢٢	إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يَلْقَى لَهَا بِالَا
٣٣٠	إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَنْزِلُ فِيهَا فِي النَّارِ

رقم الصفحة	الحديث
٤٤٢، ٤٤٧، ٤٥٠	إِنَّ الرُّقَى والتَّمَائِمَ والتَّوَلَةَ شَرَكٌ
٤٨٤	إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفْثٌ فِي رُوعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا
٢٧٨	إِنَّ شَرَّكُمْ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمَفْسُدُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ، الْبَاغُونَ الْبِرَّاءَ الْعَنْتَ
٣١٥	إِنَّ صَدَقَةَ السَّرِّ لَتُطْفِئَ غَضَبَ الرَّبِّ
٦١٧	إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ
٤٢٩	إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يَلْقَى لَهَا بَالًا
٤٤٥	إِنَّ فِي عِضْدِهِ تَمِيمَةً
٥٣٣	إِنَّ فِي اللَّيْلِ لِسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
٤٨٩	إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ، وَالْأَنَانَةَ
٤٤٥	إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: شَرْبَةُ عَسَلٍ
٥٢٩	إِنَّ لَبَدَنكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا
٣٢٣	إِنَّ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، كُلُّ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
٥٧٢	إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يَنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ: يَا بَنِي آدَمَ، قُومُوا إِلَىٰ نِيرَانِكُمْ
٢١٦	إِنَّ مَثَلَ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ
٤٠٦	إِنَّ مَنْ أَرَبَى الرَّبَا اسْتَطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ
٣٣٩	إِنَّ مَنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرَى الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرِ
٢٨٣	إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ يَتْرِكُهُ النَّاسُ - أَوْ يَدْعُهُ النَّاسُ - اتَّقَاءَ فُحْشِهِ
٥٥٩، ٤٧٨، ٣٢٥	إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ
٤٥٤	إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغَيِّرُوهُ عَمَّهِمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ
٢٠٢	أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَىٰ أَعْمَارَ الْأُمَمِ
٤٦٣	إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمَّاهُ الزُّورَ



رقم الصفحة	الحديث
٤٠٢	أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وجد في بعض المغازي امرأةً مقتولة
١٦٨ ، ١٦٦	إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قد حضركم، وفيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر
٣٢٢	أَنْ يُسَلِّمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ ﷻ ، وَأَنْ يَسَلِّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدُكَ
١٢٠	إِنَّ الْيَهُودَ مغضوب عليهم، وَإِنَّ النَّصَارَى ضَلَال
٣٧٦	أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ
٢٥٢ ، ٢٥١	أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ اللَّهُ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
٤٧٢	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي
٤٨٩	الْأَنَاءَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ
٢١٢	أَنَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسٍ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَطِيعُهُمْ
٤٥٥ ، ٣٨٩	انصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ
٣٥٣	انصرفا، نَفِي لَهُمْ بَعْدَهُمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ
٣٥٥	إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ
٤٧٦	إِنَّكُمْ يَوْمئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غِثَاءٌ كَغِثَاءِ السَّيْلِ
٩٢ ، ٣٠ ، ٢٩	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ
٢٨	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
١٩١	إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ
٢٨٠	إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ
٣٤	إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَنْفِقُ مَالَهُ فِي الْخَيْرِ
٥٧٠	إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمْسُكُنْ وَتَوَاضِعُ وَتَضَرَعُ وَتَأْوُهُ وَتَنَادِمُ
١٥٧	إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ
٥٧٠	إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ، وَأُمِرَ بِالْحَجِّ وَالطَّوَافِ، وَأُشْعِرَتِ الْمَنَاسِكُ، لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ



رقم الصفحة	الحديث
٣٠٢	إِنَّمَا الْمَسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ، اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ
٣٩٤	إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمَ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ
١٥٩	إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا
٢٠٨	إِنِّي أَبَيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيَنِي
١٤٠	إِنِّي كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي، فَأَكَلْتُهَا
٦٤	إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ
٢٣٩	إِنِّي وَالْجَنِّ وَالْإِنْسَ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ، أَخْلَقَ وَيُعَبِّدُ غَيْرِي
٢٣٧	أَوْ مَحَاها اللَّهُ ﷻ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ
٣٧١	أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ
١٥٥، ١٥٤	أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ
١٠١	أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا
٤١٥	أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ
٤٠٠	أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ
٦١٨	أَوَّلَا تَدْرِي؟ فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخَلَ بِمَا لَا يُنْقِصُهُ
٥٤٩	أَوَّلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بَكلَ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ
٣٦٤	إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ
٩٨	إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ
٣٣٦	إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ
٣٤٠	إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنْفَقُ، ثُمَّ يَمْحَقُ
١٦٥	إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
١٦٣	إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ



الحديث	رقم الصفحة
أَيُّمَا أَهْلَ عَرْصَةِ أَصْبَحَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرَّتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى	٤١٥
أَيُّمَا ضَيْفٍ نَزَلَ بِقَوْمٍ، فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مُحْرُومًا، فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَدْرِ قِرَاهِ	٤٢٠
الْإِيمَانُ بِاللَّهِ. قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَعَ الْإِيمَانِ عَمَلٌ؟ قَالَ: أَنْ تَرْضَخَ مِمَّا خَوَّلَكَ اللَّهُ	٦٠٧
أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ	٥٦٢
أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ	٩٩
أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ، فَحُجُّوا	٥٤٥
ب	
بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا	٤٧١
بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ	٣٩٧، ٢٧٦
بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ	٣١٨
بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ	١٠٧
بَدَّرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ	٨٠
الْبُرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ	٢٧٩
بَعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ	٢٧١
بَلَى، لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذَاكَ	٣٢٤
بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ - أَوْ الشَّرِّ - تَرْكُ الصَّلَاةِ	٥٦٥
بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غَصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ	٦٠٦
ت	
التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ	١٢٨
تَابَعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ	٥٤٤، ٢٧٢
التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ	٤٩٣

رقم الصفحة	الحديث
٤٨٩	التأني من الله تعالى، والعجلة من الشيطان
٦٠٤	تبسّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة
٥٧٢	تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون
٩٥	تركّتم على المَحَجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها إلّا هالك
٥٠٤	تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب
٥٤٧	تعجلوا إلى الحجّ - يعني: الفريضة - فإنّ أحدكم لا يدري ما يعرض له
٥٩٦	تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي
٥٩٣، ٣٧٢	تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً
٢٧٨	تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق
٣٩٦، ٢٦٢، ١٥٦	التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا
٣٢٥	تنافسا على الخروج في غزوة بدر، فأقرع النبي ﷺ بينهما
ث	
٤١٧	ثلاث من الفواقر: إمام إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر
١٠٧	ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحب إليه
٣٨٢	ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتّى يُفْطِر
٣٧٢	ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا: رجل أمّ قومًا وهم له كارهون
٣٣٩	ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يُزكّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زان
٣٤٠	ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يُزكّيهم، ولهم عذابٌ أليم
٤٩٣	ثلاثة يا عليّ لا تؤخرهن: الصلاة إذا أتت، والجنابة إذا حضرت
٤٨٣	الثلاث، والثلاث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة



الحديث	رقم الصفحة
ج	
جاء ضيف إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى بعض نسائه	٤٢١، ٤٢٢
جعل رسول الله ﷺ من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي	٣٢٧
جعل من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي	٣٢٧
الجنة تحت ظلال السيوف	١٨٢
الجيران ثلاثة: جَارٌ له حقٌّ واحد، وهو أدنى الجيران حقًّا، وجار له حقّان	٤١٠
ح	
حبُّ الدُّنيا وكرهية الموت	٤٧٧
الحجُّ عرفة	١٠٤
حق على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره	١٥٨
الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، وبينهما مُشْتَبِهَات	٣٠، ٩٢
الحمد لله الَّذي أحيانا بعدما أماننا وإليه النشور	٤٧١
حين يولد المولود يؤذَن في إذنه أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله	٤٤٣
خ	
خالق النَّاسِ بخلقٍ حَسَنٍ	٢٨١
خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهنَّ	٥٦٥
خيرُ الصدقةِ ما كان عن ظهر غِنًى، وابدأ بمن تعول	٣١٠
د	
دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة	٣٦٤، ٥٨٩
دُعْ ما يريئك إلى ما لا يريئك	١٣٩



رقم الصفحة	الحديث
٢٠٧	الدعاء هو العبادة
١٩٧	الدُّنْيَا متاع، وخَيْرُ متاعها المرأةُ الصالحة
١٠٤، ١٠٥	الدِّينُ النصيحة، الدِّينُ النصيحة، الدِّينُ النصيحة
ذ	
٤٦٩	ذاكر الله في الغافلين كالَّذي يقاتل عن الفارِّين، وذاكر الله في الغافلين
٥٤٥	ذروني ما تركتكم، فإنَّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم
٥٥٠، ٥٥٥	ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
٢١٢	الذين يُحيون سُنتي، ويُعلِّمونها الناس
ر	
٣٢٠	رَأْسُ هذا الأمر شهادة أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله
٤٦٢	رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة
٤٣، ٢١٥، ٦٠٢	رُبَّ أشعث أغبر ذي طُمْرَيْن لا يؤبُّه له، لو أقسم على الله لأبره
٥٥، ٢١٥، ٣٩٧، ٥٥٩	رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره
٣٢٣	رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدُّنْيَا وما عليها
٣١٥	رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه
٤٠٣	رجل قتل رجلاً متعمداً، يجيء يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه، أو بيساره
٦٨	رحم الله أخي موسى، لقد أُوذي أكثر من هذا فصبر
٥٣٦	رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلَّى، وأيقظ امرأته فصلَّت
٣٣٠، ٦٢١	رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم
١٨٥	رغم أنفه، ثمَّ رغم أنفه، ثمَّ رغم أنفه. قيل: من يا رسول الله؟
٤٠	الرياء الشركُ الأصغر



الحديث	رقم الصفحة
ز	
زكاة الفطر صاعٌ من بُرٍّ على كل إنسان، صغير أو كبير، حرٌّ أو مملوك	٢٢٥
س	
سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر	٤٠١
سبق درهمٌ مائة ألف درهم	٣١٤
سدّدوا، أي حاولوا إصابة ما تريدون، وقاربوا	١٢٣
سمّاها النبي ﷺ في حديث آخر الزور	٤٦٣
سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثمّ رجل قام إلى إمامٍ جائر فأمره	٣٢٨
سيهزم الجمع ويولّون الدبر	١٥٠
ش	
شرار عباد الله: المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت	٣٦٠
الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، وأكل الربا	٤٣٩
ص	
صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية	٣٥٢
صبّحكم ومساكم	١٥٤
الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار	٢٧٠
الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي القرابة اثنتان: صلةٌ وصدقة	٣١٣
صلّ صلاة مودّع	١٥٥
الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: أن يسلم الناس من لسانك	٦٢٠
صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح، صلّى ركعةً واحدة	٥٣٧
الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات	٢٧١



رقم الصفحة	الحديث
٤٥٩	صنفان من أهل النَّار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النَّاس
٣٠٧، ٢٩٢	الصوم جُنة
٢٩٢	الصوم جُنة، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار
٢٢٢	صوم شهر رمضان مُعلّق بين السماء والأرض، لا يُرْفَع إلَّا بزكاة الفطر
٢٧	الصوم لي وأنا أجزي به
٢٣	الصيام جُنة أحذكم من النَّار كجُنة أحذكم من القتال
٢٩٤، ٢٣	الصيام جُنة لأحذكم، ما لم يخرقها. قالوا: وبم يخرقها يا رسول الله؟
٢٣	الصيام جُنة وحِصْن حصين من النار
٢٧١	صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يُكفّر السنّة التي قبله
ض	
٤٥٠	ضع يدك على الذي تألّم من جسدك، وقل: باسم الله، ثلاثاً
ط	
٥١١	طلب العلم فريضة على كلّ مسلم
٤٤	طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مُغبرة قدماه
٤٣٧	الطّيرة شرك، الطّيرة شرك، الطّيرة شرك
ظ	
٤٦٠	ظهر المؤمن حمىً إلَّا بحقّه
ع	
٣٤١	عدلت شهادة الزور الإِشراك بالله وَجَبَكَ
٤٠٧	عدّه الرسول من الكبائر السبع الموبقات
٦٠٧	عرضت عليّ أعمال أمتي حسننها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها



الحديث	رقم الصفحة
عسى رجل منكم أن يتكلّم بالكلمة، يُضحك بها القوم	٣٣١، ٦٢٢
علّمنا أن نقول إذا ركبنا دابتنا أو سيارتنا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾	٤٧٢
على الله عهد أن يغفر لصاحبها	٥٧٠
على كل مسلم صدقة قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه	٦٠٤
على كل من الإنسان صلاة كل يوم، فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أتيتنا	٦٠٤
عليكم أننفسكم	٤٥٨
عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنّة	٣٣٧
عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة	٣٩٦
عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ	١٦٠
عليكم بقيام الليل، فإنّه دأب الصالحين قبلكم، وهو قرينة إلى ربّكم	٥٣٢
العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنّة	٥٤٤
العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر	٥٦٥
العيافة والطّيّرة والطّرق من الجبّ	٤٣٤
غ	
الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نارٍ، وإنّما تُطفأ النّار بالماء	٦٥
الغضب من الشيطان، والشيطان من النّار، والماء يُطفئ النّار	٦٥
ف	
فإذا كان يومُ صوم أحدكم، فلا يرفُث، ولا يصخب	٢٥
فاظفر بذات الدّين تربت يداك	٢٠٠
فإن سابه أحدٌ أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم	٢٥
فإنّ الكذب ريبة، والصدق طمأنينة	١٣٩



رقم الصفحة	الحديث
٩٤	فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ، وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ
١٥	فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ
٢١٧	فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ، طَهْرَةً لِلصَّائِمِ
٣٨٨	فَضْرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ
١٦٠	فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ
٨٨	فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: قَاتِلْهُ. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟
٣٧	فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجَرْتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
٦٠٨	فِي الْإِنْسَانِ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ مَفْصَلٍ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصَلٍ مِنْهَا صَدَقَةٌ
٦٠٩	فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ
ق	
٢٣٨	قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي
٢٩٤، ٢٠	قَالَ اللَّهُ ﷻ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ
٥١٢	قَتَلُوهُ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ
٤٨١	قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ
٤٨٧	قَدْ أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ
١٣٥	قَدْ تَرَكْتُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ
١٧٩، ١٧٧	قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ
٤٦٣	قَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ
١١٦، ١١٥	قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ
١١٩، ١١٦، ١١٥	قُلْ: رَبِّي اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ. قَالَ: فَمَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ
٥٥٨	الْقُلُوبِ أَوْعِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ ﷻ



الحديث	رقم الصفحة
قولوا بقولكم، لا يَسْتَهْوِيَنَّكُم الشيطان	٤٣١
قولوا بقولكم ولا يستجريَنَّكُم الشيطان، أنا محمّد عبد الله ورسوله	٤٣١، ٢٥٣
قولي: اللهم إِنَّكَ عَفُوٌّ تَحِبُّ العفو فاعفُ عَنِّي	٢٠٧، ١٧٠
قوموا إلى جَنَّة عرضها السماوات والأرض، فسمع ذلك رجل من الأنصار	٣٢٤، ١٥١
قيِّدها وتوكل	٥٨٣
ك	
كان آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ بعد أن وضعتُ رجلي في الغَرْز	٢٨١
كان خلقه القرآن	٢٧٧، ١٠٨
كان رجل يداين النَّاس، وكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه	٥٠٨
كان رسول الله ﷺ أجود بالخير	٣١٧
كان ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، شدَّ مئزره	١٧٠
كان لرجل درهمان، فأخذ أجودَهما فتصدَّق به	٣١٤
كان النبي ﷺ إذا حضر العشر الأواخر: شدَّ مئزره	٢٠٨
كان النبي ﷺ سيِّد الذاكرين يذكر الله على كلِّ أحيانه	٤٧١
كان النبي ﷺ يذكر الله على كلِّ أحيانه	٤٧١
كان يصوم يومًا ويفطر يومًا	٢٩٣
كان يمضي الهلال ثمَّ الهلال ثمَّ الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين	٤٢٢
كف عليك هذا. قال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا نبي الله؟!	٦٢٤، ٦٢١، ٣٣٢
كلُّ أُمَّتِي معافى إلَّا المجاهرين، وإنَّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً	٥٠٧
كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلَّا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا	٤٠١
كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس	٦٠٨

رقم الصفحة	الحديث
٢٠	كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ
٢٢	كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، الْحَسَنَةُ بَعْشَرٌ أَمْثَالُهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ
٢٣٦	كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ لَهُ، الْحَسَنَةُ بَعْشَرٌ أَمْثَالُهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ
٣٩٧، ٧٩	كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِزُّهُ، وَمَالُهُ
٤٧٣	كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ
١٥٩	كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً
٥٥	كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ اللَّهُ لِأَبْرِهِ
٤١٥	كَمْ مِنْ جَارٍ مَتَعَلَّقٌ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي
٢٩٥، ٢٨٥	كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ
٧٠	كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ
٥٢١، ٥١٨، ٥١٧	الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا
٢٣٢	كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ، وَطَغَتْ نَسَاؤُكُمْ، وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟
ل	
٣٢٣	لَا أَجِدُهُ. قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ
٢٠٧	لَا أَقُولُ: أَلَمْ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلْفٌ حَرْفٌ، وَلَا م حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ
٣٦٥، ٣٦٢، ٣٥٧	لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا
٥٩٠	لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَتُومِنُوا، وَلَا تَتُومِنُوا حَتَّى تَحَابُوا
٤٠١	لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ
٢٣١	لَا تَزَالِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَنْفَعُ مَنْ قَالَهَا، وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ، حَتَّى يَسْتَخَفُّوا بِحَقِّهَا
٢٥٣	لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ
٥٩	لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مَرَارًا. فَقَالَ: لَا تَغْضَبْ



رقم الصفحة	الحديث
٥٠	لا تُقبل صلاةٌ بغير طُهُور، ولا صدقةٌ من غُلُول
٣٩٩	لا تُقتل نفسٌ ظُلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منها؛ لأنَّه أوَّل من سَنَّ القتل
٣٨٩	لا حتَّى تأخذوا على يدي الظالم، فتأطروه على الحق أطراً
٥٩٢، ٥٥١، ٣٦٧	لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل
١٩٠	لا خير في دينٍ لا صلاة فيه
١٥٧	لا طاعة لمن لم يُطع الله عَزَّ وَجَلَّ
٢١٨	لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ
١٨١	لا، ولا بزفرة واحدة
٤٤	لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصَّدِّيق، ولكنَّه الَّذي يُصلي ويصوم ويتصدَّق
٣٧٨	لا يؤمنُ أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه
٣٧٧	لا يبيع بعضكم على بيع بعض
١٣٩	لا يبلغُ العبدُ أن يكون من المتّقين، حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس
٧٩	لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلاَّ بإحدى ثلاث: الثَّيب الزاني، والنَّفْس بالنَّفْس
٤٠١	لا يحلُّ دمُ امرئٍ يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنِّي رسول الله
١١٢	لا يحلُّ لأحدٍ يبيع شيئاً إلاَّ بيّن ما فيه، ولا يحلُّ لمن علم ذلك إلاَّ بيّنه
٤٠٤	لا يحلُّ لمسلمٍ أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه
٣٧٣	لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان، فيعرض هذا
٤٠٤	لا يحلُّ مال امرئٍ مسلمٍ إلاَّ عن طيب نفس منه
٤٤١	لا يدخل الجنةُ مُدمن خمر، ولا مُؤمّنٌ بسحر، ولا قاطع رحم
١٤١	لا يدخل الجنةُ من نَبَتَ لَحْمُهُ من سُحْتٍ، النَّار أولى به
٣٩٥	لا يدخل النَّار من كان في قلبه مثقال حَبَّة من إيمان



رقم الصفحة	الحديث
٤٦٣	لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا
٤٦٦، ١٩٤	لا يزال لسائلك رطباً من ذكر الله
٥٦٣	لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعْ بإثمٍ أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل
١٢٩	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن
٤٢٨، ١٤٤، ١٢٣	لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه، حتى يستقيم لسانه
٤٠٤	لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن
٣٠٩	لا يقبل الله صلاةً بغير طهور، ولا صدقةً من غلول
٤٦٠، ٣٨٧، ٢٣٠	لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجلٌ ظمأ؛ فإن اللعنة تنزل على من حضره
٣٠٩	لا يكسب عبدٌ مالاً من حرام، فينفق منه، فيبارك له فيه، ولا يتصدق به
٢٤٠	لا يهلك على الله إلا هالك
٥٠٩	لأن أمشي مع أخٍ في حاجة، أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد
٥٤٢، ١٩٠	لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك
٥٦٤	لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم
١٢٠	لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع
٤٠٠	لزوال الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجل مسلم
٤٧٨	لعلَّ الله يرزقه الشهادة
٥٠٣	لعلك قبّلت، أو غمزت، أو نظرت
٤٦٣	لعن النبي ﷺ الواصلة والمستوصلة
٣٠٥	لقد أقسم رسول الله ﷺ على أنه ما نقص مال من صدقة
١٦٢	لقد تركتكم على الواضحة، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك



رقم الصفحة	الحديث
٢٨٨	لقد سألتني عن عظيم، وإنَّه ليسير على من يسره الله عليه. تعبد الله
٤٢٢	لقد عجب ربكما من صنيعكما الليلة
٤٤٥	لكلِّ داءٍ دواء، فإذا أصاب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله عَجَلًا
٣٥٢	لكلِّ غادر لواء يوم القيامة
٢٦٩	لمن عمل بها من أمتي
٣٦٨	لَمَْوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
٥٩٤	لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا
٢١٦	لن يُخْزِيَ الله أُمَّةً أَنَا أَوَّلُهَا وَالْمَسِيحُ آخِرُهَا
٤٠١	لن يزال المؤمنُ في فسحةٍ من دينه ما لم يُصِْبْ دمًا حرامًا
٤٠٠، ٨٠	لو أنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكْبَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ
٥٨٦	لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير
١٩١	لو سُرقت لقطع محمدٌ يدها
٤٨٣	لو كان لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان
٥٠٤	لَوْ كُنْتُ سَتَرْتُهُ بِثَوْبِكَ، كَانَ خَيْرًا مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ!
٢٩٥	ليس الصيام من الأكل والشرب، إنَّما الصيام من اللغو والرفث
٤٨٥، ٤٨١	ليس الغنى عن كثرة العرض، إنَّما الغنى غنى النفس
٣٦١	ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيُنمي خيرًا أو يقول خيرًا
٣٠٢	ليس المسكينُ الذي ترُدُّه التمرةُ والتمرَّتَانِ، واللَّقْمَةُ واللَّقْمَتَانِ
٤٣٣	ليس منَّا من تطيَّر أو تُطَيِّرَ له، أو تكهَّن أو تكهَّنَ له، أو سحر أو سحرَ له
٣٧٥	ليس الواصل بالمكافئ
٦٢٠	لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، - أي سألت مسألة عريضة هامة -



الحديث	رقم الصفحة
م	
ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم	٤١٥
ما أطيبك وأطيب ريحك! وما أعظمك وأعظم حرمتك!	٧٩
ما أنا عليه وأصحابي	١٥٩
ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء	٤٤٥
ما تجرّع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظٍ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى	٦٢
ما تضحكون؟ لرجل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد	٣٩٤
ما تعدّون الصّرة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصصره الرجال	٦١
ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه	٢٩٢
ما تقولون في الزنى؟ قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة	٤١٢
ما خالطت الصدقة - أو قال: الزكاة - مالاً إلا أفسدته	٢٩٧
ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس	٣٩٠
ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه	٤١١
ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم	٦١٤
ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها	١٩٨
ما قعد قومٌ مقعداً لم يذكروا الله ﷻ فيه، ويصلُّوا على النبي ﷺ	٤٦٩
ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى	٤٨٧
ما كان رسول الله ﷺ يرخص في شيء ممّا يقول الناس أنه كذب إلا في ثلاث	٣٤٤
ما لي وللدنيا؟! إنّما مثلي ومثل الدنيا، كمثّل راكب قال - من القيلولة -	٧٥
ما من امرئٍ يخذل امرأً مسلماً، عند موطن تنتهك فيه حرمة	٣٨٧
ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلقٍ حسن	٢٧٦



الحديث	رقم الصفحة
ما من قوم يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه، إلَّا قاموا عن مثل جيفة	٤٦٩
ما من مسلم يُصيبه نَصَبٌ ولا وَصَبٌ، ولا غَمٌّ ولا حَزَنٌ	٢٧٤
ما من مسلم يموتُ فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأدينين	٤١٨
ما من يوم يصبح العباد فيه إلَّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما	٣٠٦
ما منع قومُ الزكاة إلَّا ابتلاهم الله بالسنين	٢٩٧
ما منكم من أحدٍ إلَّا سيكلّمه الله ليس بينه وبينه ترجمان	٥٢٢
ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر	٤٨٣
ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء. فقال: أفلا جعلته فوق الطعام	١١١
ما يدريكم، لعلَّ الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم	١٤٧
ماذا أبقيت لأهلك وعيالك يا أبا بكر؟	٦١٥
مأكله حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذّي بالحرام	٥٦
المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير	١٧٣، ١٧٢
المؤمنُ يرى ذنبه كالجبل، يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ	١٣١
المتشبع بما لم يُعطِ كلابس ثوبي زور	٣٤٦
مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ	٤٦٨
مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ	٤٥٧
المجاهد من جاهد نفسه لله، أو قال: في الله	٥١٨
مرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق، فقال: والله، لأنحين هذا عن المسلمين	٦٠٦
المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه	٣٧١، ٢٥٦ ٣٩٦، ٣٨١
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده	٤٢٨

رقم الصفحة	الحديث
٨٦	المسلمون تتكافأ دماؤهم
٢٩٦	من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شُجاعا أقرع له زبيبتان
٤٣٨	مَنْ أَتَى عَرافًا، فسأله عن شيء، فصَدَّقَه بما قال: لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا
٤٣٩	من أتى كاهنًا، فصَدَّقَه بما قال، فقد كفر بما أنزل على محمد
١٤٢	مَنْ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشْكُ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقَعَ مَا اسْتَبَانَ
٣٧١، ١٠٦	مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ
٩٢، ٣٠، ١٦٣، ٩٦	مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ
٢٤٧	مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ إِتْلَافِهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ
٢٤١	من أدرك رمضان ولم يُغفر له، فأبعده الله ثم أبعده
٣٨٧	من أذِلَّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره
٥٤٨	من أراد الحجَّ فليتعجَّلْ، فإنَّه قد يمرض المريض، وتضلُّ الراحلة
٥٣٦	من استيقظ من الليل، وأيقظ أهله فصليا ركعتين
٢٩٨	من أعطاه مؤتجراً فله أجره، ومن منعها فإنَّنا آخذوها وشطرها
٢٧٠	من اغتسل، ثم أتى الجمعة، فصلَّى ما قُدِّرَ له، ثم أنصت حتَّى يَفْرُغَ من خطبته
٤١٤	من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن
٥٠١	من أقال مسلماً أقال الله عشرته يوم القيامة
٤٠٥	من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النَّارَ
٥٠٧	من أنظر معسراً أو وضع عنه - أي حطَّ عنه بعض الدين - أظلَّه الله في ظلِّه
٤٩٩	من أنظر معسراً، فله كلَّ يومٍ مثله صدقة. ثم سمعته يقول: من أنظر معسراً
٩١	من بدَّلَ دِينَهُ فاقتُلوه
٤٦٤	من تشبَّه بقوم فهو منهم



رقم الصفحة	الحديث
٥٢	من تصدَّق بعِدْلِ تَمْرَةٍ - بمثل أو بقيمة تمرّة - من كسب طيّب
٢٦٩	من تطهَّر في بيته، ثمَّ مشى إلى بيتٍ من بيوت الله
٤٤٧	من تعلَّق شيئاً وكل إليه
٤٦٠	من جرَّد ظهر امرئ مسلم بغير حقِّ لقي الله وهو عليه غضبان
٦١٠	من جهَّز غازياً في سبيل الله حتى يستقل فله مثل أجره حتى يموت أو يرجع
٦١٠، ٦١٢	مَنْ جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا
٥٦٩	من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة
٥٤٣، ٥٣٩، ٢٧٢	من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه
١٦٧	مَنْ حُرِّمَها فقد حُرِّمَ الخير كلِّه، ولا يُحَرِّمَ خيرها إلَّا محروم
٣٤١	من حلف على يمينٍ هو فيها فاجر، ليقطع بها مال امرئ مسلم
٣٥٦	من خاصم في باطل هو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتَّى ينزع
٤٠٦	من ذكر امرأً بشيءٍ ليس فيه ليعيبه به، حبسه الله في نار جهنم
٣٨٨	من رأى منكراً فليغيِّره بيده، فمن لم يستطيع فبلسانه
١٩٩	مَنْ رزقه الله امرأةً سالحة، فقد أعانه الله على شطر دينه
٥٥٦	من سبح في دبر كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين
٥٠١	من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة
٥١٤	من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة
٢٧١، ٢٠١، ١٦٧	مَنْ صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه
٢٩٣	من صام رمضان ثمَّ أتبعه بستٍ من شوال كان كصيام الدهر
٥٣٨	من صلَّى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل
٤٢٥	من صمَّت نجا



رقم الصفحة	الحديث
٣٠	مَنْ طَلَب الدُّنْيَا حَلَالًا وَتَعَفُّفًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، وَسَعِيًّا عَلَى عِيَالِهِ
٤٤٥، ٤٤٦	مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا أَوْدَعَ اللَّهُ لَهُ
٣٢٧	مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ الرَّمِيَّ فَتَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَنِعْمَةٌ كَفَرَهَا
٩٢، ٣٠	مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ
٣٧٠	مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا
٥٦٩	مَنْ فَاتَتْهُ الْعَصْرُ، فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ
٣٢٨	مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
١٧، ٢٠١، ٥٣٨، ٢٧١	مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
١٧	مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
٤٠٢، ٣٥١	مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا تَوَجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا
٥٠٩	مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ
١٦٧	مَنْ كَانَ مُتَحَرِّيًا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ
٤١٠، ٤٠٩	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَؤْذِ جَارَهُ
٤٢٣	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمَ وَلِيْلَةٍ
٣٣٥	مَنْ كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ، كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا
٣٨٥	مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ
٥١	مَنْ كَسَبَ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ، وَكَانَ إِضْرُهُ عَلَيْهِ
٦٢	مَنْ كَظَمَ غِيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِنْفَاقِهِ مِلًّا لِلَّهِ جَوْفَهُ رِضًا، وَفِي رِوَايَةٍ: أَمْنًا وَإِيمَانًا
٦١٢، ٣٦٢	مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ
٢٨٥	مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا



الحديث	رقم الصفحة
من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه	٢٤، ٢٨٥
مَنْ لم يهتَمْ بأمر المسلمين فليس منهم، وَمَنْ لم يصبح ناصحاً لله ولرسوله	١١٢
من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق	٣٢٦، ٦١٢
من نفث في عُقْدة فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك	٤٤٠
من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة	٤٩٦، ٤٩٧
من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة	٦١٩
ن	
الناس بنو آدم، وآدم من ترابٍ	١٨٧
ناولني صواحبك. فقلنا: لا نشتهيهِ. فقال: لا تجمعن جوعاً وكذباً	٣٤٧
النَّدَم تَوْبَةٌ	١٠٤
النُّزاع من القبائل	٢١٢
نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة	٤٦١
نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر	٥٤٤
نعم. قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم. قيل: ويكون كذاباً؟ قال: لا	٣٣٦
نعم المال الصالح للرجل الصالح	٥٥٥، ٥٩٧
هـ	
هذا، وأشار إلى اللسان	٦١٩
هل بقي من والديك أحد؟ قال: أمِّي. قال: فأبُلِ الله في برّها	١٨٢
هل تملك لسانك؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك لساني؟!	٤٢٧
هل سمعتم مقالة امرأةٍ قط أحسن في مسألتها عن أمر دينها من هذه؟.	٥٥٢
هل لك من أم؟ قال: نعم. قال: الزمها؛ فإنَّ الجنَّةَ عند رجليها	١٨٢

رقم الصفحة	الحديث
١٨٣	هل لك من والدين؟ قال: لا. قال: فلك خالة؟ قال: نعم
٥٨١	هل من داعٍ فاستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له
٩٨	هلك المُتَنَطِّعون - أي المتزيِّدون - هلك المُتَنَطِّعون، هلك المُتَنَطِّعون
٢٥٤	هوّن عليك، فلستُ بملك، إنّما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد بمكة
و	
٢٦٨	وأَتبع السيئة الحسنة تمحها
١١٤	وإذا استنصحك فانصَحْ له
٥٠٩	وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة
١٧٤	واستعن بالله ولا تعجز
٤٤٩	وأقر أصحابه الَّذِينَ رَقُوا مَنْ رَقُوا بفاتحة الكتاب
٥٧	والَّذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر
٥٠٨	والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه
٤١١	والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟
١٩٨	والله لا يخزيك الله أبداً، إنَّك لتحمل الكلَّ، وتصل الرحم
٦٨	والله لولا القصاص يوم القيامة، لأوجعتك بهذا السَّوَالِكِ
٥٥٤	وإمالة الأذى عن الطريق صدقة
١٥٨	وإن تأمر عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله
٣٣٥	وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم
٥١٠	وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع
٢٧٧	وإنَّ المؤمن ليلبغُ بحُسن خُلُقِهِ درجةً الصائم القائم



الحديث	رقم الصفحة
وإنما لكل امرئ ما نوى	٣٧
واهديني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها	٢٨٢
وايم الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد، لقطعت يدها	١٩١
وتبسمك في وجه أخيك صدقة	٥٥٤
وجعلت قرّة عيني في الصلاة	٢٠٨
وخالق الناس بخلق حسن	٢٧٥
وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون فيها أجر؟	٣١
وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار	٩٦
وكونوا عباد الله إخواناً	٢١٧، ٢٥٦، ٣٥٧، ٣٧٨، ٣٨٠
ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل	١٧٦
ولا تناجشوا	٤٠٨
ولا يحقره	٣٩٠
ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه	٤٢٣
ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يخرج	٤٢٣
ولا يخطب على خطبة أخيه	٣٧٧
ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا	٢٩٧
ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن	٤٧٦
وما ذاك؟. قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم	٥٤٩
ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه	٣٩٣
ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة	٥٠٠



رقم الصفحة	الحديث
٥١٠	ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة
٤٢٤	وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ
٤١٩	ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه
١٤٢	وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى
٥٠٧	ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة
٥٠٤	وَيَحْكُ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتَبَّ إِلَيْهِ
٤٤٦	ويحك، ما هذه؟. فقال: من الواهنة. قال: أما إنها لا تزيدك إلا وهناً
٣٣٧	وَيْلٌ لِلَّذِي يَكْذِبُ لِيَضْحَكَ النَّاسَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ!
٤٣١	ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك. مراراً
ي	
١٨٧	يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ
١٢٧	يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ
٣١	يَا سَعْدُ، إِنَّكَ مَا تُنْفِقُ مِنْ نَفَقَةٍ تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ، إِلَّا كَانَ لَكَ بِهَا صَدَقَةٌ
٢٨١	يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ. قالت: ألم تسمع ما قالوا؟
٤٣٠	يَا عَائِشَةُ! لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمْزَجَتْهُ
٥٨١	يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا
٥٤٠	يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي
٥٧٧	يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا
٥٧٤، ٣٨١ ٥٧٨، ٥٧٧	يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظَّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتَهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا
٥٨١	يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ



الحديث	رقم الصفحة
يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح	٤٨٢
يا غلام، ألا أعلمك كلمات؟. ثم قال له: إذا سألتَ فاسألِ الله	١٧٤
يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج	٢٩٤
يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً	٣٩٣
يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟. قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم	٢٨٤
يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين	٥٠٢
يأتي على الناس زمانٌ لا يُبالي المرءُ ما أخذ، أَمِنَ الحلال أم من الحرام؟	٥٧
يُحسب ما خانوك وعصوك ويكذبونك وعقابك إياهم	٣٨٤
يُحشر الناس يوم القيامة خُفَاءَ عُرَاءَ غُرُلًا. أي بلا ختان	٤٩٩
يد الله ملأى، لا تغيضها نفقةً سحَاءَ الليل والنهار	٥٨٠
اليد العليا خير من اليد السفلى	٥٨٥
يستجاب للعبد ما لم يستعجل. قالوا وكيف يستعجل يا رسول الله؟	٤٩١
اليسيرُ من الرياء شِرْكٌ، وإنَّ مَنْ عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمُحاربة،	٣٦، ٣٩، ٤٠، ٦٠
يُطيل السفرَ أشعثَ أغبر، يقول: يا ربّ، يا ربّ	٥٥
يُغفر للشهيد كلُّ ذنبٍ إلَّا الدَّينَ	٥٤٤، ٢٧٢
يُلَقَّن أن لا إله إلَّا الله	٤٤٤
اليمينُ الغموسُ الكاذبةُ تذرُ الديارَ بِلَاقِعَ	٣٤١
يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها	٤٧٤، ٤٧٥



فهرس الموضوعات

- ٤..... من الدستور الإلهي للبشرية
- ٥..... من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٧..... مقدّمة
- ١٣..... مقدّمة الدروس الرمضانيّة
- الدرس الأول: إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة ١٥
- الدرس الثاني: كلُّ عملٍ ابنِ آدمَ له إلّا الصوم ٢٠
- الدرس الثالث: الأعمال بالنيّات ٢٨
- الدرس الرابع: اليسير من الرياء شرك ٣٩
- الدرس الخامس: إنّ الله طيّبٌ لا يقبل إلّا طيّبًا ٤٨
- الدرس السادس: ذمُّ الغضب ٥٩
- الدرس السابع: كن في الدُّنيا كأنّك غريب ٧٠
- الدرس الثامن: حرمة الدماء ٧٩
- الدرس التاسع: البدعة ٩٢
- الدرس العاشر: الدّين النصيحة ١٠٤
- الدرس الحادي عشر: الاستقامة ١١٥



- الدرس الثاني عشر: التوبة..... ١٢٧
- الدرس الثالث عشر: الحلال والحرام..... ١٣٤
- الدرس الرابع عشر: ذكرى غزوة بدر..... ١٤٦
- الدرس الخامس عشر: الاعتصام بسُّنَّة النبي والراشدين..... ١٥٤
- الدرس السادس عشر: ليلة خير من ألف شهر..... ١٦٦
- الدرس السابع عشر: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله..... ١٧٢
- الدرس الثامن عشر: الوصية بالأم..... ١٨٠
- الدرس التاسع عشر: كلُّكم لآدم وآدم من تراب..... ١٨٧
- الدرس العشرون: خير الدنيا والآخرة..... ١٩٣
- الدرس الحادي والعشرون: قيام ليلة القدر..... ٢٠١
- الدرس الثاني والعشرون: طوبى للغرباء..... ٢١٠
- الدرس الثالث والعشرون: زكاة الفطر..... ٢١٧
- الدرس الرابع والعشرون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٢٢٨
- الدرس الخامس والعشرون: فضل الله في الثواب والعقاب..... ٢٣٥
- الدرس السادس والعشرون: سؤال الناس..... ٢٤٣
- الدرس السابع والعشرون: ثلاث شهادات..... ٢٥١
- الدرس الثامن والعشرون: التقوى منهج حياة..... ٢٥٧
- الدرس التاسع والعشرون: كونوا عباد الله إخواناً..... ٢٨٨
- الدرس الثلاثون: من صفات المنافقين..... ٣٣٤
- الدرس الحادي والثلاثون: من حقوق الأخوة..... ٣٥٧



- الدرس الثاني والثلاثون: ثلاث وصايا للمؤمنين ٤٠٩
- الدرس الثالث والثلاثون: الطيرة والكهانة والسحر ٤٣٣
- الدرس الرابع والثلاثون: من أنواع الشرك ٤٤٢
- الدرس الخامس والثلاثون: تصحيح مفهوم: عليكم أنفسكم ٤٥٢
- الدرس السادس والثلاثون: صنفان من أهل النار ٤٥٩
- الدرس السابع والثلاثون: لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله ٤٦٦
- الدرس الثامن والثلاثون: تداعي الأمم على أُمَّة الإسلام ٤٧٤
- الدرس التاسع والثلاثون: غنى النفس ٤٨١
- الدرس الأربعون: الأناة والعجلة ٤٨٩
- الدرس الحادي والأربعون: الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ٤٩٦
- الدرس الثاني والأربعون: الكيّس من دان نفسه ٥١٧
- الدرس الثالث والأربعون: التوازن بين الدين والدُّنيا ٥٢٥
- الدرس الرابع والأربعون: قيام الليل ٥٣٢
- الدرس الخامس والأربعون: الحجُّ ٥٣٩
- الدرس السادس والأربعون: تنافس الصحابة ٥٤٩
- الدرس السابع والأربعون: القلوب أوعية ٥٥٨
- الدرس الثامن والأربعون: الصلوات المكتوبات ٥٦٥
- الدرس التاسع والأربعون: من صفات الله ٥٧٤
- الدرس الخمسون: مفهوم التوكل ٥٨٣
- الدرس الحادي والخمسون: الحسد ٥٨٩

- الدرس الثاني والخمسون: تعس عبد الدينار وعبد الدرهم.....٥٩٦
- الدرس الثالث والخمسون: على كل مسلم صدقة.....٦٠٤
- الدرس الرابع والخمسون: مَنْ جَهَّز غازيا في سبيل الله فقد غزا.....٦١٠
- الدرس الخامس والخمسون: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين منها،
يزلّ بها في النار.....٦١٧
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.....٦٢٧
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.....٦٥٩
- فهرس الموضوعات.....٦٩٣

* * *



